الدكتور الطاهر أحمد مكي

القصّة القصيرة

دراسة ومختارات



دار المعارف

القصة القصيرة

دراسة ومختارات

دكتور الطاهر احمد مكي
أستاذ الأدب فى كلية دار العلوم
جامعة القاهرة

الطبعة الثامنة
١٩٩٩

دار المعارف

- الطبعة الأولى : ١٩٧٧
- الطبعة الثانية : ١٩٧٨
- الطبعة الثالثة : ١٩٨٣
- الطبعة الرابعة : ١٩٨٥
- الطبعة الخامسة : ١٩٨٨
- الطبعة السادسة : ١٩٩٢
- الطبعة السابعة : ١٩٩٧
- الطبعة الثامنة : ١٩٩٩

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

الإهـــداء

إلى نـانـا . . .

إنهـا تعـرف لمـــاذا !

مقدمة

بإلحاح من القراء، كتابة وهاتفيا، كان لابد أن أعود إلى القصص المختارة بشيء من الإضافة.

كانوا يسألوننى: لماذا توقفت عند جيل الرواد والقمم؟. والحق أننى كما قلت فى بداية هذا الكتاب استهدفت من الدراسة والمجموعة أن أقدم عرضا موجزا، وشافيا فى الوقت نفسه، لتطور القصة نظرية، وأن يقابل هذا التأريخ لها فن وإبداع، عن طريق النصوص المتكاملة، التى تخدم هذه الغاية، فتأتى موضوعاتها وأشكالها الفنية ممثلة للفترة التى نعرض لها من حياتنا خير تمثيل.

وقد وقفت بالتمثيل القصصى فعلا عند فترة معينة، فقد كان فى النية والقصد - ولايزال - أن أواصل المسيرة حتى يومنا، ولكن الأمر اتسع بين يدى، فأنا لا أعرض للقصة فى مصر وحدها، لا فى هذه المجموعة التى بين القارىء الآن، ولا تلك التى أعمل فيها وسوف تصدر فى قابل الأيام، وإنما تمتد إلى العالم العربى كله، وأراه أمة واحدة، رغم توالى المحن، ونكبات الزمن، وتكاثر الأعداء، وضعف الأمين، وخيانة القوى، على ما يقول الأمام على رضى الله عنه، والكثير مما ينشر فى البلاد العربية ليس ميسرا لنا هنا فى مصر بسهولة، ولا أريد أن أسقط قطرا، ولا مذهبا، ولا

اتجاهـا، ولـذلك أواصل جمـع القصص ونخلهـا، واختيـار الأفضل منها، والأكثر تمثيلا لمدرسته، دون تأثـر بصخب إعـلامى أجـوف وزائف فى كثير من الأحيـان.

وإلى أن يصدر هـذا الكتـاب حامـلا هـذه المجموعـة الجديـدة ومقدّما لها، رأيت أن أعود إلى القصص المختارة فى هذه المجموعة التى بين يدى القـارئ بشىء من التنقيـح، فاستبعـدت مـن القصص تلك التى توقف كاتبوها عن الإبداع فعلا، أو مـا كـان غيرهـا يغنى عنها اتجاها، وجئت بما كان أدق تمثيـلا لمبدعيـه، وأضفت عـددا محدودا من القصص الجديدة، تمثـل خطـوة إلى الأمـام فى الزمـن والمكان والإبداع، وأتمنى أن تغنى عن كثيـر، ولـو إلى حيـن.

لا شىء يسعد الكاتب مثل أن يجد لما يخط صدى عنـد قرائـه، تعليقـا ومنـاقشة واعتـراضا، لأن غايـة المبـدع، والناقـد مبـدع على نحو ما، أن يصل بتجربته أو بأفكاره إلى قرائه، فإذا بلغ هذه الغاية، فذلك هو عين التوفيق وغايـة المنى.

الطاهر أحمد مكى

رمضان ١٤١٢ هـ

مـارس ١٩٩٢ م

كلمة فى البدءِ

أردت لهذه الدراسة، وهذه المختارات من القصص، أن تحقق أكثر من غاية، أن تضع بين يدى القارىء تصوراً عاماً، موجزاً وشاملا، للقصة عبر التاريخ، فى الشرق والغرب، وخطوطا عريضة لتقنية القصة الحديثة، واتجاهاتها فى الأدب العربى، وألواناً منها لا تقف عند بلد عربى بعينه، ولقد وددت مخلصاً لو أن حظ البلاد العربية من المختارات كان أشمل مما أوردت، وهى رغبة اصطدمت بأن ما تمنيته من القصص والقصاص قلما كنت ألقاه.

وقد راعيت فى اختيار القصص أن تجىء ممثلة لكل الاتجاهات، فى مختلف المراحل، ووقفت بجهدى عند هذا الحد، لأن التحليل والتفسير فيما أرى عمل ذاتى بحت، وتطفل على الكاتب والقارىء، بحسبى أن أقول ما هى خصائص القصة الجديدة، وأن أقدم له نماذج مميزة منها، ثم أدعه معها، يفهم منها ما يريد، فى ضوء امكاناته الثقافية، وأبعاده المزاجية، وحركة عمره، ولحظة تأمله، ولست أرى للفن تفسيراً واحداً هو الصحيح، إنه متجدد دائماً، ومتطور أبداً.

ويجىء ترتيب القصص فى الأعم الأغلب تاريخيًّا، ما استطعت إلى ذلك سبيلا، ولم أقف بالاختيار عند العمالقة، وإنما اخترت

للجيل الصاعد وللناشئة ممن تـوهمت أن لهـم مستقبـلا مـع القصة في غدها القريب، ولم أقف بالمختار عند الأدب العربى، وإنما قدّمت له نماذج من القصة العالمية، في اللغـات المختلفـة ليـدرك القـارئ معها أين نحن مـن هـذا الجنس الأدبى.

الذين يغرمون بقراءة القصة تذوقاً، والذين يبحثون عنهـا نموذجـاً يحتذونه فيما يكتبون مبتدئين، والذين يعشقون المعرفة ويستهويهـم التاريخ، والذين يأملون أن تقع أيديهـم على مجموعـة مـن القصص يحللونها ناقدين أو مفسرين، هؤلاء جميعاً آمل أن يجـدوا في هـذا الكتاب بغيتهم، فإن أرضاهم فتلك غاية كل كاتب، وإن لم يجـدوا فيه ما يرغبون، أو عنّ لهـم مـن الملاحظـات مـا يمكـن أن يضاف إليـه أو يقـوّم مـن أمـره، فلهـم الشكـر سلفـاً على مـا يقترحـون أو ينقدون.

شيء من التاريخ

• أصول بعيدة :

تعد القصة في شكلها الفني الحديث آخر الأجناس الأدبية ظهوراً، فهي لا تذهب إلى أبعد من القرن التاسع عشر، ولكنها في الوقت نفسه من أعرق ألوان الأدب تاريخاً، فمنذ أن جاء الإنسان إلى الحياة كان الطفل يقفز ويضرب، يعمل ويغني، ويتحدث ويخترع، ويحكي في الوقت نفسه، وتجذب الجدّة حفيدها بالحكاية، أو ترعبه بالأسطورة، ويلقى الإنسان آخر، بعيداً عن شواغل الحياة والعيش، فيملآن فراغهما بسمر تلعب فيه الحكاية دوراً ملحوظاً، خرافة تمثل خوارق الطبيعة، أو مجوناً يدغدغ عواطف السمع، أو سخرية تثير الضحك، أو مركباً للوعظ والتربية.

والقصّ على لسان الحيوان أقدم ما عرف الأدب، والصلة بين الإنسان والحيوان قديمة، تعارفا منذ التقيا على وجه الأرض، ونشأت بينهما صلة روحية، أعان الحيوان الإنسان في كفاحه من أجل البقاء، وأثاره بما عليه من غرائز لا تتخلف، ومن صمت يحيطه بالغموض والأسرار، وقوة ليست لدى البشر، ومنفعة استحق من أجلها أن يقدس أو يعبد، ووجد الإنسان نفسه في حاجة إلى الحيوان، وغير قادر على تعليل الظواهر التي تعرض له علميًّا، فحاول تفسيرها عن طريق الخرافة، اعتقد أن له روحاً، وأنها تبقى بعد

موته، وتكون قادرة فى الحالتين على الخير والشر، فكان من الطبيعى ان يتقرب إلى قوى الخير فيه، وأن يسترضى قوة الشر، ووسيلته إليه القرابين والعبادة، واعتقد بعض الناس فى التناسخ، وانتقال الأرواح بعد الموت من جسم إلى آخر، سواء أكان جسم إنسان أم حيوان، وأخذ المصريون بهذه الفكرة زمناً، ونقلها عنهم الفيلسوف اليونانى فيثاغورس، وبها قال البوذيون فى الهند، وربطوا بين هذا الانتقال وفكرة الثواب والعقاب، وظهرت الفكرة فى بلاد اليونان فى القرن السادس قبل الميلاد، وحولها كتب أدب كثير.

كانت الصلة المادية بين الإنسان والحيوان مصدر أدب قوى يصف الحيوان وصفاً خارجيًّا، في الغالب، أو يتحدث عن منافعه، ويذكر بعض خصال الخير فيه، أو يصف جمال منظره، أو يقص بعض المغامرات فى صيده، وعندنا فى الأدب العربى الشىء الكثير من هذا. تناول امرؤ القيس حصانه تفصيلا، ووصف النابغة كلب الصيد، ووقف طرفة طويلا أمام ناقته، وكتب الجاحظ مؤلفاً كاملا عن الحيوان وما ارتبط به من معارف وقصص وأشعار. وألهمته الصلة الروحية ألواناً أدبية أخرى جاءت فى شكل قصص وأشعار. وألهمته الصلة الروحية ألواناً أدبية أخرى جاءت في شكل قصص وأساطير، وارتبطت بالحيوان على نحو ما، وهى أقدم ما نعرف من مظالاهر الأدب.

• **الأساطير :**

ونعنى بها الحكايات الخيالية، التى توجد عند الأمم فى حالتها الأولى، ومادتها أشخاص أو حوداث أو أعمال فوق طاقة البشر،

وتدور فكرتها العامة حول ظواهر تاريخية أو طبيعية، فقد شغل الإنسان قديماً، إلى جانب الحيوان، بمظاهر الطبيعة التى يواجهها صباح مساء، ولم يستطع لها تفسيراً، وأبى أن يتركها كذلك، فشغل بها نفسه، وأخذ يتساءل عن الكون ونشأته ومصدره، والشمس والقمر والنجوم وحركتها، ولِمَ كانت هذه الشجرة خضراء، وتلك ذات لون أشهب، وهذا الطائر أسود الذيل، وغيرها من الأسئلة. وأجاب عن كل ذلك متأثراً بإحساسه بالمساواة بينه وبين بقية المخلوقات، فهو يعتقد عندئذ أن لكل حيوان روحا كروحه، وأن لكل شىء شخصية كشخصيته، وحاول، التوصل إلى أسرار الطبيعة فى ضوء معتقداته هذه، وأجاب عن تلك الأسئلة فى قصص حمل اسم الأساطير، تدور حول الحيوان، وترتفع به إلى مرتبة الألوهية أحياناً، ويجب ألا ننسى أن الحيوان يتردد كثيراً فى الكتب الدينية، وارتبط به عدد من المعجزات، فهناك بقرة موسى، وناقة صالح، ونملة سليمان وغيرها.

وتتشابه أساطير الأمم فيما بينها إلى حد كبير، ويرد بعض الباحثين هذا التشابه إلى الصدفة البحتة، ويعلله آخرون على نحو علمى فيردون التشابه القائم بين أساطير الهنود والفرس واليونان والجرمان والروس وشمال أوروبا إلى وحدة أصلهم، وأنهم ورثوها عن آبائهم الأولين، حين كانوا يعيشون معاً فى مرتفعات آسيا الوسطى، وهاجرت معهم أينما حلوا، وهو تعليل يضعفه أننا نجد هذه الأساطير عند شعوب أخرى غير آرية، كالصينيين وهنود أمريكا. والذى أراه أن الأساطير، مهما يقل فيها، لون من الإبداع الإنسانى، وتشابه

المناخ والظروف المحيطة بالإنسان يؤدى إلى نوع من التقارب فى الإبداع، دون لقاء أو تأثير أو نقل، وبخاصة فى طفولة الإنسانية، قبل أن تطغى عليها المؤثرات الخاصة، من البيئة والحضارة والثقافة وعوامل الزمن، فتباعد بين أفرادها، وتميز بينهم فى الفهم والإحساس وردود الفعل.

فقصة ديانا وإنديميون اليونانية عرف مثلها الأستراليون، والسنغاليون، وبعض قبائل أفريقية أخرى، وخلاصتها فى اليونانية: «كانت ديانا إلهة القمر، تسوق جيادها الناصعة البياض عبر السماء، فلمحت إنديميون الراعى الجميل الفاتن نائماً على سفح الجبل، فانحنت عليه وقبلته، وكانت تقف بعربتها كل ليلة فى المكان نفسه لتستمتع بهذه اللحظة السعيدة، لكنها بعد قليل من الزمن لم تحتمل التفكير فى أن يفلت منها جمال إنديميون، فأغرقته فى نعاس دائم، وأخفته فى كهف لا يدنسه إنسان». وإنديميون هنا، فيما يرى الباحثون، رمز الشمس الغاربة التى يتطلع إليها القمر كلما بدأ رحلته ليلا. ولا تختلف هذه القصة عند الشعوب الأخرى إلا قليلا فى التفاصيل.

وتتباين وجهات الباحثين فى تفسير الأساطير. جعلها فلاسفة مدرسة الإسكندرية رمزاً للقوى النفسية والأخلاقية أو مظاهر الطبيعة، كأسطورة إيزيس وأوزيريس، وهو تفسير لا يمكن قبوله على إطلاقه، لأن بعض الأساطير لا يمكن تعليلها على هذا النحو، ومرحلة الرمز جاءت متأخرة نسبيًّا من تاريخ الإنسانية، ويمكن القول بها إذا كان صانع الأسطورة فيلسوفاً أو رجل دين، يهدف من ورائها إلى مغزى

دينى، أو فكرة فلسفية، وهو مالا يتأتى مع الأساطير البدائية، ويرى آخرون أنها نشأت من التاريخ الحقيقى للإنسان، وأن الآلهة وكبار الأشخاص فيها كانوا ملوكاً وأبطالاً، وأصبحوا آلهة بعد موتهم، وهو رأى يمكن أن نفسر فى ضوئه بعض الأساطير فحسب، ولا يشمل نشأتها كلها، فبعضها لا يرتبط بالأحداث التاريخية للبلد الذى قيل فيه. وثمة اتجاه ثالث يرى أن الأساطير وضعت لتفسير الشعائر الدينية التى يتوارثها البدائيون، ولا يفهمون لقيامها معنى.

ويلحق بالأساطير قصص المسخ، وتحول بعض الناس إلى حيوانات بقوة سحرية، فباخوس إله الخمر فى الأساطير الإغريقية أجر سفينة من قرصان «تيرينيا»، لتنقله من مكان إلى آخر، ولكنهم بدل أن يحملوه إلى غايته اتجهوا به إلى آسيا ليبيعوه رقيقاً، فصار باخوس أسداً، وحول الشراع والمجاديف ثعابين، وأنبت اللبلاب حول السفينة، وانطلقت الأصوات من كل جانب، وجن الملاحون جميعاً، ووثبوا إلى البحر، وفيه مسخوا دلافين. والأسطورة تبين على نحو واضح عقيدة الناس فيما تستطيع الآلهة أن تفعله، إذا أراد أحد بها سوءاً.

وخلال عصور الرواية الشفوية خضعت الأساطير، كغيرها من فنون القول، للزيادة والنقص أو التحوير والتبديل، فلما عرف الناس الكتابة، وشاع التدوين، أصبحت أقدر على الاحتفاظ بشكلها. وتنشأ الأسطورة، على نحو ما ألمحنا، بين الذين فى أدنى السلم الاجتماعى، طبقة أو شعبا، ثم تأخذ طريقها صعوداً إلى أعلى، وخلال رحلتها هذه تخضع للتشذيب والتهذيب، ويتناولها انكتاب

والشعراء صقلا وتلوينا، ومعالجة، وتبدأ رحلتها من جديد إلى الذين تحت، إلى عامة النـاس.

• **الخرافة :**

وهى قصة أبطالها شخصيات غير عاقلـة مـن الحيـوان والجمـاد، ولكنها تفكر وتتكلم وتتصف بالعقل والمنطق، ولها عواطف ومشاعر كالبشر، وتقوم بدور إنسانى واقعى، تجىء للتسلية دون أن تستهدف غـرضاً معينـاً، فتصبـح مـن قصص الحيـوان، وقـد تتجـاوز الواقـع، وتسرف فى الخيال، وتخرج بأبطالها عن حد الممكـن فتدخـل فى نطاق الأسطورة، وقد تجىء للتربيـة، وتقصد تحقيـق غايـة تعليميـة محددة فتصبح من قصص المواعظ. وتعود إلى أصول بعيدة جـدًّا، وتجىء شعراً أو نثراً، ولا نعـرف أيهمـا أقـدم على التأكيـد، ولكـن جمهرة الباحثين ترجح قدم الشعـر.

والفرق بيـن الخرافـة والأسطـورة، أن هـذه نبت شيطـانى، ينشأ شعبيًّا، ويُولد عفويًّا، يخترعه الخيال الفطرى لتفسير بعض الحقائـق الكونية، وتتميز قصة الموعظة عن الخرافة، بأنها أكبر حجماً، وأشد تعقيداً، وذات مغزى خلقى دائماً، ولا تقتصر كلهـا على الحيـوان، وإن كان موضعه فيها أبين من غيره، والقصص التى وردت عنه أكثر عدداً. وما نتبين فيها من رموز جاء متأخراً، فهماً أو خلقاً، عندما قطع الإنسان شوطاً بعيداً فى طريـق الحضارة، أمـا الإنسان الأول فكـان يراها حقائق، لأنه ينسب للحيوان طبيعة وروحاً ومنطقـاً كـالإنسان، ويؤمن بالتناسخ والتحول بينهما، فقصص المواعظ على الرغـم مـن

قدمها لم تنشأ إلا فى أمم تركت أطوار البداوة، وفكرت تفكيراً مركباً، لما تحتاج إليه مثل هذه القصص من خيال يستطيع أن يعبر بالإنسان من ظاهرها إلى مغزاها.

• الموطن الأول :

ليس من السهل تحديد الموطن الأول للأسطورة، أو الخرافة التى تجىء للتسلية، لأنها أقدم آداب الإنسانية، أما قصص المواعظ، أو الخرافة الهادفة إن شئت فهى التى يبحث العلماء عن أول وطن لها، وهو أمر من الصعوبة بمكان، وتتباين فيه الآراء بشدة، وبخاصة عندما تحركها دوافع قومية أو عنصرية. ومن البدء يمكن أن نستبعد اليونان، برغم شهرة إيسوب وخرافاته وقدمها، فقد وجدت طريقها إلى الوجود فى زمن هيرودوت، أو حتى قبله. لأن الحضارة ظهرت متأخرة فى بلاد اليونان بالنسبة إلى الحضارات الشرقية، ويرجح أن الشرق كان موطنا لهذا القصص، وأن هجرة الخرافات كانت منه إلى الغرب، ويستدل على ذلك بأن الحيوانات والطيور التى تقوم بالأدوات المهمة فيها، كالأسد والفيل والطاووس والهدهد والثعلب، حيوانات إما أسيوية أو إفريقية.

ودون إحساس زائد بالذات يمكن القول إن القصص المصرى القديم أقدم قصص فى التاريخ، ووصلنا منه مجموعة لا بأس بها، جمعها العالم الفرنسى الشهير جاستون ماسبيرو (١٨٤٦ - ١٩١٦م)، بعنوان: «القصص الشعبى فى مصر القديمة»، وترجمها إلى الفرنسية، وعلق عليها، ونشرها فى باريس عام ١٨٨٩م، وتمثل المجلد الرابع

فى سلسلة «الآداب الشعبية لكل الأمـم». وأول قصة فيهـا اكتشفت عام ١٨٥٢م، وهى مـن العصر الفرعـونى الأول، وفيهـا شبـه كبيـر بقصص ألـف ليلـة وليلـة. والحيـوان يلعب دوراً محـدوداً فى هـذه القصص، لأنها تعود إلى فترة التوهـج الحضارى فى مصر القديمـة، أى تعود إلى مرحلة تجاوزت عصر الاعتماد على القصص الحيوانى أو الدوران حوله. فمصر المهد الأول لهذا القصص، فيما يرجح،وفيها ظهر لأول مرة، وكان المصرى القديم يكن للحيوان احتراماً عميقاً، ويقـدر فيـه غريزتـه التى لا تخطىء، وسار هـذا الاحتـرام جنباً إلى جنب مـع عبادتـه للحيـوان، وطبـع إحساسه هـذا الأديان المصريـة القديمة بطابع واضح، وقصة الأسد والفأر الشائعـة وصلتنـا كاملـة، على ورقة بردى يرجع تاريخها إلى أيام رمسيس الثالث (١٣٠٠ — ١١٦٦ ق.م)، وندرك معها أن هذا القصص تجاوز المراحل الأولى والأولية فى تلك الفتـرة.

ويرى المكتشف والمستشرق البريطانى رتشارد برتون (١٨٢١–١٨٩٠م)، ومترجم كتاب ألف ليلة وليلة إلى اللغـة الإنجليزيـة: «أن القصص الوعظى أيضاً موطنـه بـلاد النيـل، أو الأرض السوداء كمـا يسميها، ومنها هاجر إلى فنيقيا، وجوديا، وآسيا الصغرى، ثم اجتـار البحر فى سفينـة إلى بـلاد اليونـان»، وهنـا التقطهـا إيسوب، وكـان عبداً قبيحاً، مشوّه الخلقة قميئاً، ليس له من معالم الإنسان إلا وجـه ولسان، لولاهما لكان قريب الشبه بالحيـوان. واستطـاع هـذا العبـد الذى أضاعته الطبيعة، وأضاعه النظام الاجتمـاعى فسلبـه حريتـه، أن يدخل إلى المجتمع اليونانى من باب العبقرية، ويجلس فى صفـوف

البارزين من شعراء اليونان، ودفع بقصصه الهادف إلى كل النـاس، ويرجحون أن اسمه يرتبط بخرافة إثيوبية، لأن صورته غير إغريقيـة، وربما كان مشتقاً من كلمة Ethiopia ، ومات كما عاش بائساً، فقد اتهمه قومه بالإلحاد، وبالتطاول على الإله «أبولـون»، فقذفـوا بـه مـن شاهق صخرة فدق عنقـه.

لقـد سبقت مصر اليونـان فى مجـال الحضارة بـألاف السنيـن، فليس بدعاً أن تسبق فى مجـال القصص أيضاً، أليس الأدب إحـدى دعامات الحضارة إن لم يكن أهمها وأقواها؟. وكـان الاتصال بيـن مصر وبلاد اليونان قائماً ومستمرا، ولقد قدم المشرّع الأثينى سولون (٦٤٠ – ٥٥٨ ق.م) إلى مصر فى عهـد أحمس الثـانى، واقتبس شيئاً من قوانينها. وكـان إيسوب معـاصراً لـه، وكـانت شهـرة مصر عامة فما الذى يمنع من انتقال هذا الأدب المـدوّن على الأقـل، إن لم نقل الأساطير والخرافات أيضاً، إلى بـلاد اليونـان؟.

بقى أن نشير إلى أن الدراسات الأدبية الأوربية التى وقفت جهدها على تتبع نشأة القصة فى ألوانها المختلفة، ظلت حتى أواخر القـرن التاسع عشر، فى معظمها، تجعل من الهند وحدها مصدر هذا القصص، متجاوزة مصر تماماً، وكانت فى هذا متأثرة بعوامل كثيرة، ربما كان أوضحها أن الأدب المصرى القديم، وتاريخ مصر القديمة إجمـالا، لم يكن عُرف منه شىء محقـق إذ ذاك على نحـو علمى، إلاّ النـذر اليسير، ثم اكتشفت صفحاته الرائعة مع بداية هذا القرن، ومنهـا أن اللغات الهندية،فى التقسيم اللغوى، ترتبط باللغـات الأوربيـة قديمـاً،

على نحو ما، فهم لا يشعرون معها أنهم فى حضارتهم يدينون لأجنبى عنهم بشىء ولو قليل. يقول ماسبيرو فى مقدمة كتابه الذى أشرنا إليه: «إن القصص المصرى الذى وجدناه على أوراق البردى يعود إلى القرن الثالث عشر أو الرابع عشر قبل الميلاد، وربما أقدم من هذا بمئات الأعوام، وليس للهند من القصص ما يقرب من ذلك التاريخ، إن القصص المصرى هو حتى الآن أول ما نعرف من الأدب العالمى، من هذا الجنس الأدبى».

• خرافات هادفة :

تنشأ الأساطير، كما قلنا، تفسيراً لخلقة بعض الحيوان، أو بعض أخلاقه، أو تفسيرا للظواهر الكونية مثلا، أما الخرافة والموعظة فتجىء والغاية الخلقية تمثل جانباً منها، أو دافعاً إلى خلقها، ولهذا يرى بعض الباحثين أن القصة الخرافية ذات المغزى وقصة المواعظ، وكلاهما واحد، تنشأ فى عهود الظلم والاستبداد، عند ما تصبح قولة الحق قاتلة، والتصريح بالحقيقة خطراً، ويستدلون على هذا بأن أشهر من كتب فى الخرافات كانوا من الرقيق، أو من الطبقة المستضعفة في المجتمع، لم يستطيعوا أن ينصحوا سادتهم خوفاً من البطش، فآثروا الرمز لما فيه من بعد عن جفاف الحقيقة، وإثارة الظَّلَمة. فإيسوب اليونان كان عبداً، وفيدر الرومانى كان أيضاً من العبيد، و «لقمان» كان عبداً من النوبة، وابن المقفع مولى فارسيًّا، وهؤلاء أشهر من نسبت إليهم قصص الخرافات في القديم. هل يمكن تفسير نشأتها فى مصر على هذا النحو أيضاً؟.

يضربون المثل لهذا النوع من القصص، بأن وزيراً عاقلا، أراد أن يقدم النصح لمولاه مستتراً، فقص عليه قال: «إن بومة فى البصرة أرادت أن تزوج ابنها من بومة فى الموصل، فوافقت هذه، ولكنها اشترطت على البومة الأولى أن يكون المهر مائة قرية خراب، فأجابتها بومة البصرة: لا أستطيع أن أفعل ذلك الآن، ولكن إذا أبقى الله السلطان عاماً آخر قدمت لك هذا المهر وزيادة!». وسمع السلطان القصة، وتأثر بها، وأمر بأن تعمر المدن والقرى الخربة، ودرس واقع بلاده، ليجعل حياة مواطنيه أقل عذاباً.

ومثل هذا التفسير لا يقبل على إطلاقه، وإن أمكن القول بأن مثل هذا القصص يروج أيام الطغيان، على نحو ما تروج النكتة والإشاعة فى مصر فى لحظات القهر السياسى، بوصفهما سلاحاً سياسيًّا، أو السلاح السياسى الوحيد الذى يملكه الشعب فى مواجهة السلطة، وليس مقبولا أن نرد القصص كله إلى هذا السبب، لأن الطغاة الذين يراد أخفاء الحقيقة عنهم قد يكونون على قدر من الذكاء يدركون معه مرماها، على نحو ما حدث من أبى جعفر المنصور مع ابن المقفع، وقد يكون على قدر من السذاجة فلا يدرك الهدف منها، وقد يضعه الذين حوله فى عزلة فلا تبلغ مسامعه، إلا إذا كان هدف القصة أن تثير العامة عليه. وأخيراً فثمة قصص حيوانى لا صلة له بالملوك أو بسياسة الحكم أو بنقد ذوى السلطان، وهذه لا تحتاج إلى عصور ظلم تنشأ فيها.

وإذا تتبعنا القصص الأولى وألوانها وأنواعها فسنجد أن بعضها جاء للتسلية، أو أساطير لا مغزى لها، أو شكلا أدبيًّا جميلا يراد

به تحبيب الناس فى فضيلة معينة، بطريقة غير مباشرة، تنأى عن جفاف الموعظة الصريحة، والمواجهة المباشرة، وحصرها فى مقاومة الظلم وحده حصر للخيال الإنسانى فى دائرة ضيقة، وفى مقدمة «كتاب كليلة ودمنة»، إذا صحت، نجد دبشليم ملك الهند هو الذى طلب من بيدبا تأليف الكتاب،«يكون ظاهره سياسية العامة وتأديبها، وباطنه أخلاق الملوك وسياستها للرعية على طاعة الملك وخدمته». وقال عن الكتاب نفسه: «وليكن مشتملا على الجد والهزل، واللهو والحكمة والفلسفة».

وأبان ابن المقفع الغاية من الكتاب فى آخر مقدمته، وهى غاية تصدق على أى كتاب آخر يجىء فى هذا الشكل، فأشار إلى أن الناظر فيه ينبغي أن يعلم أنه ينقسم إلى أغراض أربعة: «أحدها ما قصد فيه إلى وضعه على ألسنة البهائم غير الناطقة، ليسارع إلى قراءته أهل الهزل من الشبان، فتستمال به قلوبهم: لأنه الغرض بالنوادر من حيل الحيوان. والثانى إظهار خيالات الحيوان بصنوف الأصباغ والألوان: ليكون أنساً لقلوب الملوك، ويكون حرصهم عليه أشد للنزهة، فى تلك الصورة. والثالث أن يكون على هذه الصفة: فيتخذه الملوك والسوقة، فيكثر بذلك انتساخه، ولا يبطل فيخلق على مرور الأيام، ولينتفع بذلك المصور والناسخ أبداً. والغرض الرابع وهو الأقصى، وذلك مخصوص بالفيلسوف خاصة».

• أساطير العرب وخرافاتهم :

كان للعرب فى القديم، كغيرهم، أساطير وخرافات، ولكن الحيوان بعامة، لم تكن له تلك القداسة التى تمتع بها عند شعوب أخرى،

فلا نعرف أنهم عبدوا الحيوان، ولو أن ذوات الفائدة منه، أو الصفات النادرة، أو المخيفة المرعبة، حظيت بقدر واضح من التقدير والاحترام، وحولها قام عدد من الأساطير والخرافات. روى الضبى فى «أمثال العرب» أن أخوين كانت لهما فيما مضى إبل، فأجدبت بلادهما، وقريب منهما واد فيه حية، حمته من كل أحد، فقال أحدهما للآخر: لو أنى أتيت هذا الوادى الْكَلِئ، فرعيت فيه إبلى وأصلحتها، فقال أخوه: إنى أخاف عليك الحية، ألا ترى أن أحداً لم يهبط هذا الوادى، إلا أهلكته. قال: فوالله لأهبطن. فهبط ذلك الوادى فرعى به إبله زمانا، ثم إن الحية لدغته فقتلته. فقال أخوه: ما فى الحياة بعد أخى خير، ولأطلبن الحية فأقتلها أو لأتبعن أخى. فهبط ذلك الوادى، وطلب الحية ليقتلها، فقالت: ألست ترى أنى قتلت أخاك، فهل لك فى الصلح، فأدعك بهذا الوادى، فتكون به، وأعطيك ما بقيت ديناراً كل يوم، قال: أفاعلة أنت؟. قالت: نعم، فإنى أفعل. فحلف لها وأعطاها المواثيق لا يضيرها، وجعلت تعطيه كل يوم ديناراً، فكثر ماله، ونمت أبله، حتى كان من أحسن الناس حالا. ثم إنه ذكر أخاه، فقال: كيف ينفعنى العيش، وأنا أنظر إلى قاتل أخى؟. فعمد إلى فأس فأحدّها، ثم قعد لها فمرت به، فتبعها وضربها فأخطأها، ودخلت الجحر، ورمى الفأس بالجبل فوقع فوق جحرها فأثر فيه. فلما رأت ما فعل قطعت عنه الدينار، ولما رأى ذلك تخوف منها وندم، فقال لها: هل لك فى أن نتواثق ونعود إلى ما كنا عليه، فقالت: كيف أعاهدك وهذا أثر فأسك!»، فذهبت جملتها الأخيرة مثلا.

وأورد الميدانى، فى مجمع الأمثال، قصة «فى بيته يؤتى الحكم»،

يقول: هذا مما زعمت العرب على لسان البهائم قالوا: إن الأرنب التقطت ثمرة فاختلسها الثعلب فأكلها، فانطلقا يختصمان إلى الضب. فقال الأرنب: يا أبا الحسل (ولد الضب)، فقال: سميعا دعوت. قالت: أتيناك لنختصم إليك. قال: عادلا حكمتما. قالت: فاخرج إلينا. قال: في بيته يؤتى الحكم. قالت: إني وجدت ثمرة. قال: حلوة فكليها. قالت: فاختلسها الثعلب. قال: لنفسه بغى الخير. قالت: فلطمته. قال: بحقّك أخذت. قالت: فلطمني. قال: حر انتصر. قالت: فاقض بيننا. قال: قد قضيت!. فذهبت أقواله كلها مثلا.

وكلتا القصتين، كما نلحظ، وضعت لغاية خلقية، وليس من الضرورى أن تكون هذه الغاية مسلماً بها فى عصرنا، أو مما ترتضيه أخلاقنا، فصاحب الإبل خان الحية فى القصة الأولى، وكان الثعلب معتديًّا فى القصة الثانية، والأمران يلمحان إلى لون من خلق الجاهلية، من استخدام القوة والإيمان بها، وأوجز فلسفتها زهير ابن أبى سلمى فى شطر بيت من معلقته: «ومن لا يَظلم الناس يُظلم».

وأما أساطيرهم فقليلة، أو ما وصلنا منها، وموجزة، كالقول بأن شق أنمار الكاهن كان شق إنسان، له يد واحدة، وعين واحدة، وأن سطيح بن ربيعة الكاهن كان لحماً يطوى كما يطوى الثوب، ليس فيه من عظم سوى الجمجمة، وأن وجهه فى صدره، ولم يكن له عنق. وان الغول تجىء فى صورة امرأة ولها رجلا حمار، وعلى هذا النحو حكايات الجان والعفاريت.

• قصص العرب القديم :

تجاوز عرب الجاهلية مرحلة الطفولة في أدبهم، في زمن يعسر علينا تحديده، فكان لهم قصص عربي آخر واقعي، يتمثل في أيام العرب، ويدور حول وقائعهم الحربية، وبعضه قديم جداً، وبعد عن الحقيقي كثيراً، وأصبح من عمل السمّار، كقصة زنوبيا، أو زينب، ملكة تدمر، فأصبح اسمها الزباء، تطوير لاسم زبدى، أمير جيوش الملكة، وذكرت تدمر موطن القصة الحقيقي عرضاً، وجعلت موطن الأحداث مدينتين على الفرات لم تسمهما، يصل بين حصنيهما نفق، والذى قُتِل فى التاريخ أذينة زوج زنوبيا، أثناء الضيافة، فأصبح فى القصة عدو الزباء.

وكان لهم قصص عاطفى، كالذى ذكروا بين المنخل اليشكرى والمتجردة زوج النعمان بن المنذر، أو كالذى كان بين المرقش الأكبر وصاحبته أسماء بنت عوف. زعموا أن المرقش عشق أسماء بنت عوف، وهو غلام، فخطبها من أبيها، فاعتذر له بحداثة سنه، وأنه لم يُعرف بعد بشجاعة، فانطلق المرقش إلى بعض الملوك وبقى عنده زمناً، ثم أصاب عوفاً زمانٌ شديد، فأتاه رجل من قبيلة مراد فأرغبه فى المال، فزوجه ابنته على مائة من الإبل، ورحل بها إلى أهله، وقال إخوة المرقش لا تخبروه بما حدث إذا عاد، قولوا إنها ماتت، وذبحوا لذلك كبشا، أكلوا لحمه، ودفنوا عظامه، ولمّا قدم المرقش قالوا له إنها ماتت، ولم يلبث أن عرف الحقيقة بعد أن ظل مدة يعود قبر الكبش ويزوره. وخرج المرقش يطلب أسماء،

وبعد لأى تعرف على راعى زوجها، وتوسل إليه أن يحدثها عنه، فقال له: إنى لا أستطيع أن أدنومنها، ولكن تأتينى جاريتها كل ليلة، فأحلب لها عنزاً، فتأتيها بلبنها. فقال له مرقش: خذ خاتمى هذا، فإذا حلبت فألقه فى اللبن، فإنها ستعرفه، وإنك مصيب بذلك خيراً لم يصبه راع قط. فأخذ الراعى الخاتم، ولما حلب العنز طرحه فى اللبن، ثم انطلقت به الجارية وتركته بين يدى أسماء. فلما سكنت الرغوة أخذته فشربته، وكذلك كانت تصنع، فقرع الخاتم ثنيتها، فأخذته واستضاءت بالنار فعرفته، فقالت للجارية: ما هذا الخاتم؟ قالت: مالى به علم. فأرسلتها إلى مولاها وهو بنجران فأقبل فزعًا، وقال لها: لم دعوتنى؟ قالت له: ادع عبدك راعى غنمك، فدعاه، فقالت: سله أين وجد هذا الخاتم، قال: وجدته مع رجل فى كهف خبان، فقال اطرحه فى اللبن الذى تشربه أسماء، فإنك مصيب به خيراً، وما أخبرنى من هو، ولقد تركته بآخر رمق. فقال لها زوجها: وما هذا الخاتم؟ قالت:خاتم مرقّش، فأعجل الساعة فى طلبه، فركب فرسه، وحملها على فرس آخر، وسارا حتى طرقاه، من ليلتهما، فاحتملاه إلى أهلهما، فمات عند أسماء، وقال قبل أن يموت:

سرى ليلا خيالٌ من سُلَيْمَى ... فأرّقنى وأصحابى هجود
فبتُّ أدير أمرى كلَّ حالٍ ... وأذكر أهلها وهم بعيد
سكنّ ببلدة وسكنت أخرى ... وقطّعت المواثق والعهود
فما بالى أفى وُيخان عهدى ... وما بالى أُصادُ ولا أصيد

ثم مات، فدفن فى أرض مراد.

وهناك قصص آخر أخذه العرب عن غيرهم من جيرانهم، وصاغوه فى أسلوب يتفق مع أذواقهم، وكان النضر بن الحارث فى مكة، وهو طبيب ومثقف ورحالة وكثير الذهاب إلى فارس والحيرة، يعارض النبى عليه السلام وينصب له العداوة، إذا جلس الرسول مجلسا فذكّر بالله، وحذرّ قومه ما أصاب غيرهم من الأمم، خلفه بمجلسه وقال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه، فهلموا إلىّ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس، وقصة رستم وإسفنديار، وكان على النضر أن يدفع ثمن ذلك يوم موقعة بدر بعد انتصار المسلمين، فكان أحد اثنين أمر النبى عليه السلام بقتلهما، لم يعف عنهما، ولم يقبل فيهما فداء. وأوضح مثل لهذا القصص المنقول حكاية شريك مع المنذر، وأنه أتاه فى يوم بؤسه رجل يقال له حنظلة فأراد قتله، فطلب منه أن يؤجله سنة، فقال: ومن يكفلك؟ فكفله شريك بن عمرو، فلما كان من العام القابل جلس المنذر فى مجلسه ينتظر حنظلة فلم يأت، فأمر بشريك فقرب ليقتل، فلم يشعر إلا براكب قد طلع عليه، فتأملوه فإذا هو حنظلة، فلما رآه المنذر عجب من وفائهما وكرمهما فأطلقهما، وأبطل تلك السنّة. فهذه القصة لها أصل يونانى معروف.

والمشكلة التى تواجهنا ونحن نعرض للقصة بألوانها، خرافة وأسطورة وموعظة، عند عرب الجاهلية، أنها دونت بعد زمن طويل، وفى العصر الإسلامى، حين أصبحت الجزيرة العربية على صلات أقوى، مع انتشار الإسلام، بالثقافات الأخرى التى حولها، فلاندرى هل القصص الذى ينسب إليهم جاهلى فعلا، أو صنعه الرواة لحظة التدوين. يقول الجاحظ: «ومما زادهم فى هذا الباب وأغراهم به، أنهم ليس يلقون

بهذه الأشعار وبهذه الأخبار إلا أعرابيًّا مثلهم، وإلا غبيًّا لم يأخذ نفسه قط بتمييز ما يوجب التكذيب أو التصديق أو الشك، ولم يسلك سبيل التوقف والتثبت فى هذه الأجناس قط، وإما أن يلقوا راوية شعر أو صاحب خبر، فالرواة عندهم كلما كان الأعرابى أكذب فى شعره كان أظرف عندهم، وصارت روايته أغلب، ومضاحيك حديثه أكثر، ولذلك صار بعضهم يدعى رؤية الغول أو قتلها أو مرافقتها أو تزويجها».

• **القصة فى القرآن :**

أدرك القرآن دور القصة فى إثارة الوجدان، وتحريك العواطف، وجذب انتباه القارئ والسامع، فجعلها إحدى وسائله فى تحقيق غاياته، من إثبات الوحى، وتأكيد الرسالة، وتأصيل الدعوة الإسلامية، ولكنها لا تجىء عملا فنيًّا مستقلا، وإنما تخضع للغايات التى يهدف إليها. وتجىء فيه ألواناً:

القصة التاريخية : وتدور حول شخصيات من الماضى، أنبياء ومرسلين، وهى تستخدم التاريخ، لكنها ليست عرضاً له، وتقصد غير ما يقصد، وتعرض غير ما يعرض، وقد تغفل «قصداً تحديد الزمان، وذكر المكان، وتسمية الشخصيات، والتعريف المعتاد بمن تذكر أسماءهم من هؤلاء الأشخاص»، أو تعيد ترتيب الأحداث على نحو يحقق الغاية من إيراد القصة، فهى تطلب التأثير وتستهدف الإقناع. ويعلق الإمام محمد عبده عند تفسير هذا اللون من القصص فيقول: «إن كثيرين من أعداء القرآن يأخذون عليه عدم الترتيب فى القصص... والجواب عن هذه الشبهة يفهم مما قلناه مرارًا فى قصص

الأنبياء والأمم الواردة فى القرآن. وهو أنه لم يقصد بها التاريخ وسرد الوقائع مرتبة بحسب أزمنة وقوعها، وإنما المراد بها الاعتبار والعظة، ببيان النعم متصلة بأسبابها لتطلب بها، وبيان النقم بعللها لتتقى من وجهتها. ومتى كان هذا هو الغرض من السياق فالواجب أن يكون ترتيب الوقائع فى الذكر على الوجه الذى يكون أبلغ فى التذكير وأدعى إلى التأثير»[١].

القصة التمثيلية : ويقصد بها البيان والإيضاح، أو الشرح والتفسير، فليس يلزم فى الأحداث أن تكون وقعت، أو فى الأشخاص أن يكونوا وجدوا، أو فى الحوار أن يكون صدر، وإنما يكتفى فى كل ذلك بالفرض والخيال و «القرآن كثيراً ما يصور المعانى بالتعبير عنها بصيغة السؤال والجواب، أو بأسلوب الحكاية، لما فى ذلك من البيان والتأثير، فهو يدعو بها الأذهان إلى ما وراءها من المعانى، كقوله تعالى: «يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول، هل من مزيد». فليس المراد أن الله تعالى يستفهم منها وهى تجاوبه، وإنما تمثيل لسعتها، وكونها لا تضيق بالمجرمين مهما كثروا. ونحو قوله عز وجل بعد ذكر الاستواء إلى خلق السماء: «وقال لها وللأرض إئتيا طوعا قالتا أتينا طائعين» «والمعنى فى التمثيل ظاهر»[٢].

القصة الأسطورية : وهى تخالف كلا اللونين السابقين، ليست أحداثاً تاريخية واقعية تناولها القرآن ورتبها ترتيباً يحقق الغاية من

---

(١) تفسير المنار، جـ١ ص ٣٢٧ .

(٢) المرجع السابق، جـ ١ ص ٢٨٠ .

إيرادها، وليست قصصاً تمثيليًّا أحداثه مفروضة أو متخيلة، وإنما هى قصة بأكملها، وهو اسم ينفر منه بعض العلماء، وأجازه آخرون، ويقول الإمام محمد عبده، كما جاء فى تفسير المنار، عند تفسير قصة «هاروت وماروت»: «بيّنا غير مرة أن القصص جاءت فى القرآن لأجل الموعظة والاعتبار، لا لبيان التاريخ، ولا للحمل على الاعتقاد بجزئيات الأخبار عند الغابرين، وإنه ليحكى من عقائدهم الحق والباطل، ومن تقاليدهم الصادق والكاذب، ومن عاداتهم النافع والضار، لأجل الموعظة والاعتبار. فحكاية القرآن لا تعدو موضع العبرة، ولا تتجاوز مواطن الهداية، ولابد أن يأتى فى العبارة أو السياق وأسلوب النظم ما يدل على استحسان الحسن واستهجان القبيح. وقد يأتى فى الحكاية بالتعبيرات المستعملة عند المخاطبين، أو المحكى عنهم، وإن لم تكن صحيحة فى نفسها، كقوله: «كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس» وكقوله: «بلغ مطلع الشمس». وهذا الأسلوب مألوف، فإننا نرى كثيراً من كتاب العربية وكتاب الإفرنج يذكرون آلهة الخير والشر فى خطبهم ومقالاتهم، لاسيما فى سياق كلامهم عن اليونان والمصريين القدماء، ولا يعتقد أحد منهم شيئاً من تلك الخرافات الوثنية»[1].

وتنطوى القصة القرآنية على عناصر ثلاثة: الأحداث والأشخاص والحوار، قد توجد مجتمعة، وقد تكتفى القصة منها بعنصر واحد دون بقية العناصر الأخرى، تبعاً للغاية التى تهدف إليها.

---

(١) المرجع السابق جـ ١ ص ٣٩٩ .

والحدث أبرز عناصر القصة القرآنية، وطبيعته مختلفة، تقع قضاء وقدراً، وتكون خوارق ومعجزات، أو عادية مألوفة، أبطالها من الرسل أو عامة الناس، والحادثة الواحدة تتكرر، تجىء فى مواضع عدة، ولكنها تأخذ فى كل مكان شكلا مختلفاً، إيجازاً وبسطاً، كاملة أو مجتزأة، ويعتمد القرآن فى عرضها على الألفاظ الضخمة، ذات الإيقاع القوى والتأثير المباشر، مبنى وموسيقا. وقد تقوم على جمل قصيرة مسجوعة، أو تعتمد على تتابع الأحداث السريع، ليبلغ تأثيرها فى النفس مداه، وأحياناً تجىء ليّنة التعبير، سهلة الألفاظ، حين تعرض لأمر عادى. مطابقة لمقتضى الحال.

وتجىء الشخصية فى القصة القرآنية مبهمة، أو عامة، أو غامضة، وتكون من الأناسى رجالا ونساء، ومن الطيور والحشرات، أو أرواحا خفية من الملائكة والشياطين والجان. وترد شخصيات الرجال بعامة عارية من أية صفات مميزة، حسيّة من لون وطول وقصر، أو معنوية من خلق ومزاج وطبع.

وشخصيات الرسل تسيّرها المبادئ الدينية والمثل العليا عادة، وقد تومئ إلى سلوك معين يضرب به المثل : فموسى عصبى مندفع، وإبراهيم حليم متسامح، ويوسف حصيف واع. وهم فى كل الأحوال بشر يغضبون ويفرحون، يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ، يتناولون الأعداء بالذم، ويتوجهون إلى الله بالدعاء، ونعرف أن آدم عصى ربه ونسى ولم نجد له عزما، وأن يوسف

احتال حتى جعل السقاية فى رحل أخيه، وأن سليمان تداهى لتكشف له ملكة سبأ عن ساقيها.

ودور المرأة فى القصة القرآنية ثانوى، وتجىء فيه واضحة الصورة، بيّنة المعالم، تسيرها الغرائز والعواطف الأولية، ولكل واحدة طابعها المميز: فامرأة فرعون واضحة الأمومة برّحنون، وامرأة العزيز مكتملة الأنوثة، تغريها الرجولة، ويستهويها الجمال، «وابنتا الشيخ» تحبان الفتوة، ويدفعهما الحياء إلى الحيلة، ومريم تحرص على الشرف والعفاف، وتخشى الفضيحة والعار، وتخاف من رسول ربها حين تمثل لها بشراً سويًّا، فتستعيذه بالله إن كان تقيًّا، وهى لا تفهم أن يكون لها ولد ولم يمسسها بشر، وملكة سبأ ضعيفة مستحبة، واسعة الدهاء، حسنة السياسة، تلين حتى الضعف، وتستسلم حتى الخضوع، وامرأة عمران ديّنة، نذرت ما فى بطنها محررا، وامرأة إبراهيم تعجب أن يكون لها ولد، وبعلها شيخ، وهى عجوز عقيم.

ولا تذكر المرأة باسمها فى القرآن أبداً، ولم ترد حواء باسمها ولا مرة واحدة، ويعبر عنها دائماً «بامرأة» مضافة إلى زوجها، إن كانت متزوجة، كامرأة نوح، وامرأة لوط، وامرأة إبراهيم، وامرأة عمران، وامرأة العزيز، وامرأة فرعون، وتجىء مرسلة إن كانت غير متزوجة، فملكة سبأ «امرأة تحكمهم»، «ووجد من دونهم امرأتين تذودان»، «وابنتا الشيخ». وكانت مريم الاستثناء الوحيد من القاعدة، فهى تذكر باسمها دائماً، مرسلا أو مضافاً، صنع ذلك القرآن لمواجهة عقيدة قومها فى أن عيسى ابن الله، على حين يراه القرآن

ابنا لمريم، وُلِدَ لغير أب، على نحو ما وُلِدَ آدم، ولأن إصرارهم كان عنيدا، جاءت مواجهة القرآن قوية، وذكر اسم مريم صريحاً ومؤكداً في كل المرات التي عرض فيها لهذه القصة.

ويجيء القصص القرآني خالياً من الحوار غالباً، والقليل الذي نلقاه يأتي في مقام التخويف، وليس من الضروري أن يجري بين اثنين، فقد يجيء بين واحد وكثرة، أو جماعة وجماعة، ويرد في مجال تقرير الدعوة، وبث الأفكار، وهدم العقائد التي يناهضها، وفي مثل هذه القصص يهمل الشخصيات إهمالاً يكاد يكون تاماً، ويكتفي منها ببعض الصفات المبهمة أو العامة، والقليل الذي ترد فيه الأسماء تجيء فيما يشبه الرموز، ليتمكن القارئ أو السامع من متابعة الأفكار، والوقوف على تطوّرها.

ومجمل القول أن القرآن «يحوّر القصة تحويراً ملموساً ليجعل لها معنى جديداً مختلفا عن معناها السابق فيه كل الطرافة. وطريقة القرآن في تحوير القصص تحويراً جزئيًّا أو كليًّا ليبعث فيها معاني جديدة يلائم بينها وبين روح التقدم في الزمن أمر له خطره، ولكن دارسي الإسلام من المسلمين وغير المسلمين على سواء كادوا يهملونه على الدوام. وهدف القرآن من هذه القصص قلَّ ما يكون العرض التاريخي، بل يكاد دائماً يهدف إلى أن يجعل لها مغزى عاماً أو مضموناً فلسفيًّا. ويحقق قصده هذا بحذف أسماء الأشخاص والأمكنة التي من شأنها أن تحدّد معنى القصة، بصبغها بصبغة حادثة تاريخية معيَّنة، وكذلك بحذف التفصيلات التي تبدو خاصة

بنوع آخر من الشعور. وهذه الطريقة ليست غير مألوفة فى عرض القصص، فهى شائعة فى الأدب الذى لا يعالج الموضوعات الدينية. فمن ذلك قصة فاوست، فقد أضفت عليها عبقرية جوته جديداً تمام الجدة»[١].

يتسع المقام لأن نأتى فى هذه العجالة على ألوان من القصة فى مختلف مسارها، بحسبنا أن نقف عند واحدة منها، تلتقى فيها الألوان الثلاثى التى عرضنا لها من قبل، وهى:

● **قصة الهبوط :**

وهو الاسم الذى اختاره لها فيلسوف الإسلام المعاصر، الشاعر الباكستانى محمد إقبال (١٨٧٣ - ١٩٣٨)، ويراها قصة رمزية أو قصة أسطورية، نأتى على نصها القرآنى، ونلحقه بتفسير إقبال له، وتعليقه عليه.

يقول الله تعالى: «وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا: أتجعل فيها من يُفسد فيها، ويسفك الدماء، ونحن نسبّح بحمدك ونقدس لك، قال: إنى أعلم ما لا تعلمون. وعلّم آدم الأسماء كلَّها، ثم عرضهم على الملائكة فقال: أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا: سبحانك لا علم لنا إلاّ ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. قال: يا آدم أنبئهم بأسمائهم، فلما أنبأهم بأسمائهم، قال:

---

(١) محمد إقبال: تجديد التفكير الدينى فى الإسلام، ترجمة عباس محمود.

ألم أقل لكم أنى أعلم غيب السموات والأرض، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون، وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا، إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين، وقلنا: يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة، وكلا منها رغداً حيث شئتما، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين. فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه، وقلنا: اهبطوا، بعضكم لبعض عدو، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين، فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم، قلنا: اهبطوا منها جميعاً، فإما يأتينكم منى هدى، فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون»(١).

قصة هبوط آدم من الجنة نجدها فى آداب العالم القديم على صور مختلفة. ومن المستحيل حقًّا أن نحدّد مراحل نموها، وأن نرسم فى وضوح البواعث الإنسانية المختلفة التى لابد أن تكون قد أثرت فى تحديدها البطىء. ولكننا إذا قصرنا بحثنا على صورة القصة كما جاءت عند الساميين، فمن المرجح جدًّا أنها نشأت عن رغبة الإنسان البدائى فى أن يفسّر لنفسه تعاسته البالغة، وسوء حاله فى بيئة غير مواتية له، تفيض بالمرض والموت، وتعوقه من كل ناحية فى سعيه لاستبقاء حياته. ولمّا لم يكن للإنسان أى سلطان على قوى الطبيعة، فإن نظره إلى الحياة نظرة متشائمة كان طبيعيًّا، وعلى ذلك نجد فى نقش بابلى قديم ثعبانا (رمز عضو التذكير) وشجرة، وامرأة تقدم إلى رجل تفاحة (رمز البكارة).

---

(١) سورة البقرة، الآيات ٣٠ - ٣٨

ومعنى هذه الأسطورة واضح، هو أن سقوط الرجل من حال مفترضة من حالات السعادة كان سببه الاتصال الجنسى بين الرجل والمرأة لأول مرة. ويتضح لنا أسلوب القرآن في عرض هذه القصة عندما نقرنه بما ورد فى سفر التكوين، ونقط الخلاف الظاهرة بين رواية التوراة تشير إلى غرض القرآن أشارة لا تقبل الخطأ.

فالقرآن يسقط تماماً من روايته ذكر الحيّة، وحكاية خلق حواء من ضلع من ضلوع آدم، وحَذْف حكاية الحية تجريد للقصة من طابعها الجنسى، ومما توحى به أصلا من النظر إلى الحياة نظرة متشائمة، وحذف حكاية الضلع يقصد به الإشارة إلى أن غرض القرآن من رواية القصص ليس السرد التاريخى، كما هو الحال في كتاب العهد القديم الذى يعطينا وصفا لأصل الرجل والمرأة تمهيداً لبيان تاريخ إسرائيل. نعم ورد فى آيات القرآن التى تتحدث عن أصل الإنسان بوصفه كائناً حيًّا لفظ «بشر» أو «إنسان» لا لفظ آدم، الذى احتفظ به للإنسان من حيث هو خليفة الله فى الأرض. ويزداد غرض القرآن تحققاً بحذفه أسماء الأعلام مثل آدم وحواء اللذين ورد ذكرهما فى رواية التوراة، واستبقاء القرآن للفظ «آدم» واستعماله له، إنما هو للدلالة على اسم فرع معين من البشر. واستعمال اللفظ على هذا الوجه لا يعوزه الدليل من القرآن نفسه. فالآية : « ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم »[1] واضحة تمامًا فى هذا المعنى.

---

(١) سورة الأعراف، الآية ١١.

ويقسم القرآن القصة إلى حادثتين متمايزتين: إحداهما تتعلق بما يصفه بالشجرة فقط ، والآخرى خاصة بشجرة الخلد وملك لا يبلى، ووردت الأولى فى سورة الأعراف[١] والثانية فى سورة طه[٢]. ورواية القرآن تقوم على أن آدم وزوجه أذلهما الشيطان الذى يوسوس فى صدور الناس ، فذاقا من ثمار الشجرتين كلتيهما، على حين تقوم رواية العهد القديم على أن الإنسان طُرِدَ من جنة عدن فور عصيانه الأول ، وأن الله أقام فى الجانب الشرقى ملائكة وسيفاً من لهب يتحرك فى جميع الجهات لحراسة طريق شجرة الحياة .

«يلعن العهد القديم الأرض لعصيان لآدم، أما القرآن فيجعل الأرض مستقرًا ومتاعاً للإنسان ينبغى أن يشكر الله عليه. «ولقد مكنّاكم فى الأرض، وجعلنا لكم فيها معايش، قليلا ما تشكرون»[٣]. كما أنه ليس هنا من سبب لافتراض أن كلمة «جنة»، أى حديقة، اسْتُعملت فى هذا السياق للدلالة على جنة وراء الحس، يُفترض أن الإنسان هبط منها إلى هذه الأرض. وطبقا للقرآن ليس الإنسان غريباً عن هذه الأرض، إذ يقول: «والله أنبتكم من الأرض نباتا»[٤] فالجنة التى ورد ذكرها فى القصة لا يمكن أن يقصد بها الجنة التى جعلها الله مقاماً خالداً للمتقين.

(١) الآيات ١٩ — ٢٢ .
(٢) الآية ١٢٠ .
(٣) سورة الأعراف ، الآية ١٠ .
(٤) سورة نوح ، الآية ١٧ .

«فالجنة التي وُعدِ المتقون وصفها القرآن بقولـه: «يتنازعـون فيهـا كـأسا لا لغـو فيهـا ولا تأثيـم»[١]، وفى مقام آخر يصفها بقوله: «لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين»[٢]، على أن الجنة التى ورد ذكرها فى القصة كان أول مـا وقـع فيهـا معصيـة الإنسان لربه ثـم خروجـه مـن الجنـة. والواقـع أن القـرآن نفسه يفسّـر معنى «الجنـة» كمـا استعملهـا فى روايتـه، ففى بيـان الحادثـة الثانيـة التى وقعت فى هـذه القصة يصف القـرآن الجنـة فيقـول: «إن لك ألاّ تجوع فيها ولا تعرى، وإنك لا تظمأ فيها ولا تضحى»[٣]. وعلى هذا فأنا لا أميل إلى اعتبار الجنة التى جاء ذكرها فى القرآن تصويراً لحالة بدائيـة يكـاد يكـون الإنسان فيهـا مقطـوع الصلـة بـالبيئة التى يعيش فيهـا، ومـن ثـم فإنـه لا يحس بلدغـة المطـالـب البشريـة التى تحدد نشأتها، دون سواها من العوامل، بدايـة الثقافـة الإنسانيـة.

فقصة هبوط آدم إذن، كما جاءت فى القرآن، لا صلة لها بظهور الإنسان الأول على هذا الكوكب، وإنمـا أريـد بهـا بالأحـرى بيـان ارتقاء الإنسانية من بدائية الشهوة الغريزية إلى الشعـور بـأن لـه نفسا حـرّة قـادرة على الشك والعصيـان. وليس يعنى الهبـوط أى فساد أخلاقى، بل هو انتقال الإنسان من الشعور البسيـط إلى ظهـور أول بارقة من بوارق الشعور بالنفس، هو نوع اليقظة من حلـم الطبيعـة، أحدثتها خفقة من الشعور بأن للإنسان صلة علية شخصية بوجوده.

(١) سورة الطور ، الآية ١٣ .

(٢) سورة الحجر ، الآية ٤٨ .

(٣) سورة طه ، الآيتان ١١٨ و ١١٩ .

هذا إلى أن القرآن لا يعتبر الأرض ساحة عذاب سُجنت فيه إنسانية شريرة العنصر، بسبب ارتكابها خطيئة أصلية. فالمصيبة الأولى للإنسان كانت أول فعل له تتمثل فيه حرية الاختيار، ولهذا تاب اللهعلى آدم، كما جاء في القرآن وغفر له»[1].

• القصص فى الإسلام :

وعرف الإسلام القصص أيضاً، ونسب إلى تميم الدارى أنه أول من قص في مسجد الرسول، وأنه استأذن عمر أن يذكّر الناس فأبى عليه، ثم أذن له فى آخر ولايته أن يفعل ذلك فى يوم الجمعة، واستأذن عثمان فأذن له أن يذكر الناس يومين فى الأسبوع، وقيل إن القصص حدث فى زمن عثمان، وأن تميما الدارى أول من قصّ، وأن هذه النزعه نصرانية، بقيت عنده بعد إسلامه. وصورة هذا القصص أن يجلس القاص فى المسجد، وحوله الناس، فيذكرهم بالله، ويقص عليهم حكايات وأحاديث وقصصاً عن الأمم الأخرى، وأساطير ونحو ذلك. لا يعتمد فيها على الصدق بقدر ما يعتمد على الترغيب والترهيب، وقد نما القصص بسرعة لأنه يتفق وميول العامة، وأكثر القصاص من الكذب، حتى روى أن الإمام على طردهم من المساجد، ولم يستثن منهم غير الحسن البصرى لتحريه الصدق فى قوله، وارتفع شأن القصص حتى أصبح عملا رسميًّا، يعهد به إلى رجال رسميين يتناولون عليه أجراً، ولعب قصاصان دوراً كبيراً، أحدهما: وهب بن منبه وهو فارسي، والثانى كعب

(١) محمد إقبال، تجديد التفكير الديني، ص ٩٧ وما بعدها.

الأحبار، وهو يهودى من اليمن. وكان الحسن البصرى قاصًّا من لون آخر، يعتمد على التذكير بالآخرة ونحوها، ويستخرج القصة مما يقع حوله من حوادث.

وفى العصر الأموى استردت القصة الجاهلية مكانتها، إلى جانب التيار الإسلامى الخالص، ونشأ ما أسميه بالقصص السياسى، لخدمة الصراع الذى كان قائماً بين الأمويين والمطالبين بالخلافة من الشيعة والعباسيين، وازدهر إلي جانب هذين التيارين عنصر قصصى ثالث، يتمثل فى القصص العاطفى، ويدور حول صرعى الحب، ينطلق من الواقع، ويتخذ منه محوراً، ويكسوه ألواناً من الخيال والمبالغات تبتعد به عن الحقيقة، فيصبح وكأنه إبداع أدبى لا صلة له بالحقيقة، رغم الأسماء الواقعية التى تتخلل الأحداث.

لقد استولت أخبار حب جميل وبثينة على خيال الشعب العربى حتى صنع منها قصة غرام، ومازالت تتكاثر وتتزايد ويعجب بها الناس حتى أصبحت مجموعة من القصص تعتمد على أبيات الغزل الشهيرة من ناحية، وتستعير بعض ما عند الأمم الأخرى، ورواها القصاص دون أن يهتموا بمصادرها، وتنوعت هذه القصص لتشمل آخرين، من صنع الخيال تماماً، وإن حملوا أسماء واقعية، مثل قيس ابن الملوّح مجنون بنى عامر، وكان العالم اللغوى عوانة بن الحكم الكلبى (ت ١٤٧ = ٧٦٤ م) يقول: «ثلاثة لم يكونوا قط، ولا عرفوا: ابن أبى العقب صاحب قصيدة الملاحم، وابن القرية، ومجنون بنى عامر».

وهناك من يرد هذه القصة إلى فتى من بنى مزوان، كان يهوى امرأة منهم، يقول فيها الشعر وينسبه إلى المجنون، وأنه عمل له أخباراً وأضاف إليها ذلك الشعر، فحمله الناس وزادوا فيه، وروى الأغاني جانباً كبيراً من هذه الأخبار. وفيما بعد أصبحت مادة محببة من أساطير الغرام عند شعراء الفرس والترك فنموها وزادوا عليها. وما ذكره الرواة من أخبار قيس بن ذريح ولبنى يومىء إلى أنها حدثت فعلا، ومن ثم فهى موضع ثقة أشد من أخبار المجنون، ولكن المستشرق الألمانى سنجر Singer يرى أن هذه القصة تعكس أهم عناصر القسم الثانى من قصة تريستان المشهورة عند الأمم الأوروبية. وثالثهم عروة بن حزام، وهو كجميل بثينة من بنى عذرة, واختلف في قصته اختلافاً شديداً، فالمستشرق الفرنسى باسيه R. Basset يرى أن أساسها ماوراه الشعراء الفرنسيون القدامى فى قصة «فلوار وبلانشفلور Floire Blanchefleur على حين يرى المستشرق الألمانى هيه Huet العكس تماماً، ويرجح أنها انتقلت من بلاد العرب إلى أوربا، وهو رأى يدعمه أن القصة الفرنسية، رغم الأصول الإغريقية والبيزنطية التى تُرد إليها، كتبت بين عامى ١١٦٠ و ١١٧٠ م، واتخذت من القاهرة مسرحاً لأحداثها، ويدور الحب فيها بين طفلين يختلفان ديناً وطبقة.

ومن هذا اللون أيضاً قصة وضاح اليمن، عبد الرحمن بن إسماعيل، وينسب فى دهاقين الفرس الذين نزحوا قديماً إلى اليمن، وقيل إنه شبّب أولا بروضة اليمانية، ثم تعرف فى موسم الحج إلى زوج الخليفة الوليد بن عبد الملك، وابنة عبد العزيز بن مروان،

فأحبها وجاء دمشق وراءها، ثم لقيها، وعندما فجأهما الوليد أخفته في صندوق، وأدرك الزوج ما بداخله، فأمر بدفن الصندوق، فاحتوته الأرض بمن فيه، وقد صاغ الأستاذ أحمد حسن الزيات الحكاية في قصة جميلة، ذات أسلوب رشيق، وأسماها: «وضاح اليمن».

- **القصة الشعرية :**

وتميز هذا العصر بنضج القصة الشعرية، وبلغت أوجها مع عمر ابن أبي ربيعة (ت ٧٢٠ م)، نعم إننا نلتقي بملامح لها عند الشاعر الجاهلي امرىء القيس، ولكنها تأتي عنده موجزة وبسيطة وساذجة[١]، أما هنا فرقت واستطالت واستكملت أركانها، وأصبحت «الفستق المقشر» فيما يقول حماد الرواية. وكان عمر بن أبي ربيعة في مجتمع الحجاز صِنو إحسان عبد القدوس في مجتمع القاهرة، أو المجتمع العربي بعامة إذا شئت، كلاهما وقع على خفايا المجتمع البرجوازي الذي ينتسب إليه وعاش فيه، واتخذ من أسراره مادة لقصصه، شعراً رقيقاً عند الأول، ونثراً أنيقاً عند الثاني، وأعطيانا صورة لبعض ما يحدث حقًا، ويتخفى منزويا، خشية أو نفاقا أو تستراً، وأوضح مثل لشعر عمر القصصي رائيته الشهيرة، ومطلعها:

أمن آل نُعْمٍ أنتَ غادٍ فمبكر   غداةَ غدٍ أم رائحٌ فمهجِّرُ

---

(١) الدكتور الطاهر أحمد مكي، امرؤ القيس: حياته وشعره، الفصل: «عاشق المرأة»، الطبعة الخامسة، دار المعارف ١٩٨٥.

وهى تجمع الكثير من عناصر القصة الحديثة: قصيرة، وذات حدث، وبسيطة، وتعرض لجانب من الحياة، في لحظة محددة، وذات دلالة، ولكن دون أن يعنى ذلك بالطبيعة أن لها نفس الأحكام والبناء والدقة.

يبدأ عمر القصة بأبيات يصف فيها حبه لنعم، ورسولها إليه، ووقوفها متلهفة تنتظر طلعته، وتتحدث إلى صاحبة لها :

قفى، فانظرىأَسماء! هل تعرفينهُ؟   أهذا المغيرىُّ الذى كان يُذكر
أهذا الذى أطريْتِ نعتاً فلم أكن   وعَيَشْكِ! أنساه إلى يوم أُقْبر
فقالت: نعم، لا شك غيّر لونه   سُرى الليل، يُحيى نصَّه والتهجر
لئن كان إياه، لقد حال بعدنا   عن العهد، والإنسانُ قد يتغيّر

ويرسم ملامح شخصية البطل، لا يبالى لفح الشمس، ولا لسعة البرد، جوّاب آفاق، عليه وعثاء السفر، نحل بدنه، حتى لم يعد له ظل على الأرض:

رأت رجلا أمّا إذا الشمسُ عارضت   فيضحىَ، وأما بالعشىِّ فيخصر
أخا سفرٍ، جوّاب أرض، تقاذفتْ   به فلواتٌ، فهو أشعث أغبرُ
قليلٌ على ظهرِ المطيّة ظلّه   سوى ما نفى عنه الرداء المحبّر

وأوضحَ ملامح صاحبته، الشخصية الثانية فى القصة، بأنها مدللة، تسكن بيتاً تطوقه الحدائق المخضرة، خلية البال، لا تستعبدها مطالب العيش فهناك من يقوم على شأنها:

وأعجبَها من عيشها ظِلُّ غُرْفة   وريَّانُ ملتفُّ الحـــدائق أخضر
ووالٍ كفاها كلَّ شيء يهمُّها   فليست لشيء آخر الليل تسهر

وخارج الحي يقف البطل خائفاً يترقب، يدبر أمره كيف يصل، ويجهل بيتها أين يقع، فيستفتي قلبه، ويستهدى رائحته، حتى إذا هدأ الحى، ونام القوم، وغاب قمير انتظر غروبه طويلا وقلقاً، تقدم إلى صاحبته، وحديثهما معاً لا يحتاج إلى تفسير:

فلمـا فقدتُ الصـوت منهم وأطفئت
مصـــابيح شُبَّت بالعشـــاء وأنؤر
وغـــاب قمير كنت أهـــوى غيوبه
وروّح رُعيـــانٌ ، ونَوَّم سُمَّـــــرُ
وخُفِّض عنى الصـوتُ أقبلت مشية الـ
ـحُباب وشخصى خشية الحـى أزور
فحييتُ إذ فاجأتهـــــــا فتولَّهت
وكـــادت بمخفوض التحية تجهـــر
وقـــالت وعضّت بالبنان فضحتنى !
وأنت امـــرؤ ميسور أمـــرك أعسر
أريتك إذ هنًّا عليك ألـــــم تخف
رقيباً وحـــولى من عـــدوك حُضَّر
فـوالله مـــا أدرى أتعجيلُ حـاجةٍ
سرتْ بك أما قد نام من كنتَ تحذر

فقلت لهـــا بل قادنى الشوق والهوى
إليـك ، ومـا نفـسٌ من الناس تشعر
فقـالت ، وقد لانت وأفرخ روْعُهـــا
كـــــلاك بحفـظٍ ربُّـك المتكبِّرُ
فـأنت أبا الخطـــابِ غير مـــدافع
علىَّ أميرٌ مـــا مكثتَ مُؤَمَّـــــر

ويمضيان لحظات جميلة، يصفها فى بساطة متوهجة:

وبت قريرَ العينِ أعطيتُ حـاجتى — أقبِّل فاهـا فى الخـــلاء فأكْثر
فيـالك مـن ليـلٍ تقـاصر طـولُه — ومـا كان ليـلى قبـل ذلك يقصر
ويالك مـن ملهىً هنـاك ومجلسٍ — لنـــا الـــم يكـدره علينـا مكدِّر

ويعود إليها يصفها بعين العاشق الواصل، ويومىء إلى رد الفعل عندها كيف رآها، وكيف وجدتـه:

يمجُّ ذكىَّ المسك منهـا مفلَّجٌ — نقى الثنايا ذو غروب مُؤَشَّـــر
تـراه إذا امـا افتر عنـه كـأنه — حصى بَرَدٍ ، أو أقحـوان منوّر
وترنو بعينيهـــا إلىّ كما رنـا — إلى ظبيـة وسْط الخميلة جُؤْذر

ويطويان الليل، يمر بهما الزمـان عجـلا، وتلـوح خيـوط الفجـر، ويستيقظ قومها، ويتأزم الموقـف:

فلما تقضىَّ الليـــل إلاّ أقلَّـــــه وكـــادت تـوالى نجمـــه تتغوّر
أشارت بأن الحى قد حان منهمُ هبوبٌ، ولكن موعـدٌ منك عزور
فمــا راعنى إلا منادٍ: ترحَّلـــوا وقد لاح لمعروف من الصبح أشقر
فلما رأت من قـــد تنبه منهـم وأيقاظهم قالت أشـر كيف تأمر؟
فقلت : أباديهـــم فإما أفوتهـــم وإمـــا ينـــال السيف ثـــأراً فيثأر
فقالت : أتحقيقاً لما قـــال كاشحٌ علينـــا، وتصديقاً لمـــا كان يُؤثر
فـــإن كان ما لابد منه فغيره من الامـــــر أدنى للخفـاء وأستر
أقــص على أختيّ بـدء حـــديثنا ومـــــالى من أن تعلمـــا متأخّر
لعلهمـــا أن تطلبـا لك مخرجا وأن ترْحبا سرباً بمـــا كنت أحصر

ويُلقى الشاعر، أو القصاص إن شئت، نظرة على موقفها، وفى أى حال لقيت أختيها ولقيتاها، وماذا قصت عليهما من أمرها تطلب النصح عندهما :

فقامت كئيباً ليس فى وجهها دمٌ من الحـزن، تُذرى عبرةً تتحدّر
وقامت إليهـــــا حرتان عليهما كساءان من خَزٍ، دمقسٌ وأخضر
فقـــالت لأختيها: أعينا على فتى أتى زائراً، والأمـر للأمـر يقدرُ
فأقبلتـــا فارتاعتـــا ثـم قالتـــا: أقلىّ عليك الهمَّ، فالخطب أيسر

واقترحت الصغرى أن تعيره بعض ملابسهـا، وأن يخـرج معهـن متخفيا فى زى فتاة :

فقالت لها الصغرى: سأعطيه مُطرفى
ودرعى، وهـذا البرد إن كان يحذر

يقـــــــــوم فيمشى بيننـا متنكرًّا
فـــلا سرنا يفشـــو ، ولا هو يظهر

وتحل العقدة، ويخرج البطل على هذا النحو، بين فتيات ثلاث: ثنتين مراهقتين، حول الخامسة عشرة من عمرهما، وثالثة ناضجة تطرق باب العشرين:

فكان مِجنّى دون من كنت أتّقى   ثلاث شخوص: كاعبان ومعصر

فلما تجاوزوا الحى، وأمنوا الفضيحة، وبلغوا شاطىء الأمان، أخذن يعاتبنه على استهتاره وغوايته:

فلما أجزن ساحة الحى قلن لى: أمـــا تتقى الأعـــداء والليل مُقْمرُ
وقلن: أهذا دأبك الدهر ســـادرا؟   أما تستحى، أو ترعوى، أو تفكرّ

ثم تكون المفاجأة، فأنت تتوقع مع هذا العتاب الأخير، أنهن لا يردن منه أن يعود، ولا أن يرينه مرة أخرى، على الأقل فى الصورة التى جاء عليها، ولكن الأمر على العكس تماماً، إنهن يشجعنه على العودة، فقط يلمحن إليه أن يضلل الناس حين يجئ:

إذا جئت فامنح طرف عينيك غيرنا
لكى يحسبوا أن الهوى حيث تنظر

تلك هى قصة عمر، وحواره فيها سريع المناقلة، سديد المساجلة، محبوك الأطراف، ينقل إليك الوقائع موجزة، فى لغة سهلة بسيطة،تخلو

من الإغراب، أقرب ما تكون إلى لغة الحياة اليومية، وتتميز بواقعية واضحة، وفيها النساء كما فى الحياة، حديثاً وطباعاً وأخلاقاً وإشارة.

وقد اتخذت من قصيدة عمر مثلا، ولم يكن وحده صاحب هذا الاتجاه، ولم تكن القصة وقفاً على الشعر العاطفى، فهناك قصائد أخرى، كالذى عند الحطيئة، تعرض لجوانب الحياة اليومية، من معاناة وجوع وقهر، ولكن عمر وحده هو الذى بلغ بها الغاية.

• أوج القصة العربية الوسيطة :

مع ارتقاء الحياة، وشيوع الثقافة، وازدهار الترجمة، خلال العصر العباسى، وتدفق الثروات، وتناقض الواقع، من ثراء فاحش وفقر مدقع، ومن زهد خاشع وفجور غير محتشم، بدأت أحاديث السمر فى مجالس الخاصة، وبين حلقات العامة، تزدهر وتتنوع، ولم تعد مشدودة إلى الأمس وحده، ولا مرتبطة بالحروب والأمجاد فحسب، ولا تقال متعة أو إزجاء للفراغ، وإنما أصبحت سلماً للنقد الاجتماعى، أو التصوير الأدبى، لقد دخل فن القصص دائرة الإبداع. وفى مجال التزاحم الفكرى أخذت القصة دورها فى الصراع، فكان للفلاسفة قصصهم الذى يحملونه أفكارهم دون أن يدرك العامة فى سهولة مرمى ما يهدفون إليه، وأصبح للوعاظ ورجال الدين قصصاً يدفعون به الناس إلى التقى، بطريق غير مباشر، يبتدعونه حيناً، ويأخذونه مما حولهم من تراث أحياناً، ويزوقونه بالخرافة والمبالغة على الدوام. وقصص العشاق التى كانت فيما سبق محدودة وبسيطة وساذجة، أصبحت الآن كثيرة وشائعة ومتنوعة، وأكثر جاذبية

وإغراء، واقتحمت مؤلفات الصوفية والمحدثين والمجتهدين واحتلت منها مكاناً بارزاً. وعرضنا لهم تفصيلا، في دراسة موازنة في كتابنا: «دراسات عن ابن حزم وكتابه: طوق الحمامة».

أول ما نلتقي به من قصص هذه المرحلة كتاب «كليلة ودمنة» وترجمه ابن المقفع من اللغة البهلوية إلى العربية، وهي مجموعة قصص على لسان الحيوان، ذات أصل هندي، وضاعت أصولها الهندية والفارسية، وبقيت لنا في ترجمتها العربية، وجاءت في عدد من المخطوطات تتفاوت فيما بينها عدداً، وإن اتفقت أسلوباً، وباشرت تأثيراً غير محدود على نشأة القصة الأوربية في العصر الوسيط.

وفي مجال التأليف القصصي نلتقي بالجاحظ — وفي أي شيء لم يكتب الجاحظ! — وقدم لنا من خلال كتابه «البخلاء» مجموعة من الحكايات، تدور حول هذا اللون من الأخلاق، التقطها من الجو الذي حوله في البصرة وخراسان، في واقعية دقيقة، يذكر الأسماء والأمكنة والظروف، وأراد أن يكون في كتابه هذا ناقلا أكثر منه مبدعاً، ولو خلص للقصة لربما كان لنا معه موليير أو بلزاك آخر، ومع هذا فقد دفع بالقصة العربية خطوة إلى الأمام، حين هبط بها إلى واقع الحياة، وجعل السخرية جزءاً منها، ومزج فيها بين المتعة والجمال والنقد.

وفي هذا العصر فاضت القصص، وعني المؤلفون بجمعها بكل ألوانها، وأصبحت زينة الكتب في شتى أنواعها، تاريخية أو أدبية

خالصة، أوفقهاً أو تفسيراً أو موسوعات، وحتى الكتب العلمية الخالصة من نحو وبلاغة. نلتقي بها في كتاب «التبر المسبوك» للإمام الغزالى (ت ١١١١م)، وفى «سراج الملوك» للطرطوشى المؤرخ (ت ١١٢٦م)، وفى «سلوان المطاع» لابن ظفر الصقلى (ت ١١٦٩م)، ولكن هذه الأقاصيص تأتى فى منطقة وسط بين القصة والنثر الفنى.

وجاء الصولى، أبو بكر محمد بن يحيى (ت ٩٤٥م)، وكان تركيًا مزدكيًا ثم اعتنق الإسلام، ومهر فى لعب الشطرنج، وبه كان يضرب المثل، فتقدم بالأمر خطوة، حين نثر بين مؤلفاته عدداً لا بأس به القصص. ومن بعده جاء تلميذه التنوخى، أبو على محسن (ت ٩٩٤م)، وأمضى حياته كلها فى العراق، وشغل منصب القاضى فى عدد من المدن، ونُسى ذلك كله، فلم يعد التاريخ يذكره إلا قصاصاً، ولا يذكر له من الكتب إلا «نشوار المحاضرة» و «الفرج بعد الشدة»، وكسف كتابه الأخير كل كتب القصص على أيامه، فقد طواه على قدر كبير منها، لم يؤلفها نعم، وجاء بها مسندة، ولكنه أحسن تبويبها، ومهما كان مصدرها الذى التقطها منه، فقد عرف باختياره لها كيف يجعل منها وحدة، ولا أستبعد أن يكون جرى عليه قلمه، تعديلا وتصويباً وصياغة. وعلى كل حال، كانت أفضل من كتابه الأول، وجاءنا غير مرتب، تشوبه الفوضى والاضطراب، وكلا الكتابين من أفضل ما كتب فى قصص العصر العباسى، برغم أنهما لا يتمتعان باهتمام كبير فى الدراسات العربية المعاصرة.

ولا توجد فى قصص «الفرج بعد الشدة»، رغم الأسماء والوقائع والأمكنة، حدود فاصلة بين الخيال والواقع، بين ما حدث فعلاً وما هو من إبداع القصاص، فرداً أو جماعة، وتعرض لنا الوقائع دائماً صوراً تفيض بالمعاناة، ويعيش أبطالها فى توتر دائم، ويجمع الكتاب بين القصة الحقيقية، والمغامرة المأسوية وحتى القصة البوليسية، وكلها محكمة النسيج، وذات عقدة، ونهايات قصصه سعيدة دائماً، وهى إلى جانب قيمتها الجمالية، تقدم لنا إطاراً جذاباً لواقع المجتمع البغدادى وعاداته، وإدراته، والحياة العامة والخاصة على أيامه.

وتمضى القصة فى تطورها، ويشهد هذا العصر، قريباً من نهاية القرن العاشر أو بداية الذى يليه، الخطوات الأولى لألف ليلة وليلة، ولكنها سوف تكمل، وتأخذ صورتها النهائية فى عصر تال، وفى القاهرة لا فى بغداد، وسوف نخصها بحديث مستقل. وحول هذا الوقت أيضاً كُتبت المقامة، وسنعرض لها فى فقرة تالية.

• القصة فى مصر الوسيطة :

عرفت مصر الإسلامية القصص العربى فى زمن مبكر للغاية، فقد أفرد لها معاوية من يقص على الناس، ويتلقى راتبه من الدولة، وصحب حملة الفتح الإسلامى قصص كثير، ارتبط بالحروب والأحداث السياسية وتسرب إلى كتب التاريخ، وأورد ابن عبد الحكم الكثير منه فى كتابه «فتوح مصر» ما يتصل منه بمصر

الفرعونية أو القبطية أو بها فى عهد الإسلام. وبعضه يحتمل الوقوع، والآخر لا يتفق مع الواقع، وقد يرفضه العقل جملة. من هذا القصص ما هو معروف وشائع، كقصة «عمرو بن العاص والكرة»[1]، أو قصة «اليمامة والفسطاط»[2]، أو قصة التوأمين السجينين[3]». ثم قدّمت بعد ذلك كتاب قصص منظم، خالصا لهذا الغرض، يعد من أقدم كتب القصص فى الأدب العربى، وأعنى به كتاب «المكافأة»، لأحمد بن يوسف بن إبراهيم، الشهير بابن الداية..

كان ابن الداية أحد كتاب الدولة الطولونية فى مصر، وأصله من العراق رحل أبوه إلي مصر، واشتغل فيها بالعلم والأدب والمال، ونشأ الابن على نمط أبيه، فهو شاعر وأديب، وعالم بالحساب والهندسة والفلك، وأخذ بحظ من الفلسفة، عارف بالدنيا، خبير بشئونها، عاش وسط المظالم الفتاكة، والمفاسد المنتشرة، يمسى معها الرجل غنيًا ويصبح صفر اليدين، من المصادرة والنهب والجور. لكن العصر لم يخل من أناس يتشوفون إلى العدل، ويتطلعون إلى الفجر، ويحاولون أن يخففوا على الناس ويلاتهم ومصائبهم. ورأى أحمد بن يوسف، أن الإشادة بأعمال الخيّرين وما صنعوا من بر، ونالوا من جزاء، والتشنيع على الظلمة وما ارتكبوا من جرائم، وأصابهم من عقاب، كفيل بأن يرقق القلوب الصفيقة، ويدعم

---

(١) خطط المقريزى ، جـ ١ ص ١٥٨ .

(٢) الكندى : الولاة والقضاة، ص ٩ .

(٣) المصدر السابق ص ٥٢٨ .

النفوس الخيرة، ويشيع الطمأنينة بين الرعية الفزعة، فكان كتابه: «المكافأة»، وجاء فى إحدى وسبعين قصة موزّعة على ثلاثة أقسام.

جاء القسم الأول منه فى إحدى وثلاثين قصة، وقع بعضها فى أيام المؤلف، وبعضها فى غير عهده، وبعضها فى الشام أو العراق، وجعلها تدور حول محور واحد هو: حسن الصنيع بالمكافأة على الجميل بالجميل.

ثم أتبع ذلك بقسم آخر عنوانه «المكافأة على القبيح»، وهو يتضمن إحدى وعشرين قصة، تدور حول مكافأة القبيح بالقبيح، وهو مكمل للقسم الأول فإذا كان ذاك يستحث الإنسان على فعل الخير توقعاً للمجازاة عليه خيراً. فإن هذا يحذر من فعل الشر خوفاً من سوء العاقبة، والمجازاة بالشر.

أما القسم الثالث فاسمه «حسن العقبى»، ويشتمل على تسع عشرة قصة، وهى كالمكملة للقسمين الأولين، وتدور حول من وقع فى شدة ثم خلُص منها، وكان عرضة لضياع ماله، أو فقدان نفسه، فرُدَّ إليه ماله ووُهِبت له نفسه كما كان أو خيراً مما كان.

وابن الداية فصيح فى عبارته. دقيق فى أسلوبه، قد يضطره تصوير الواقع أحياناً أن يأتى باللفظة العامية، ومنها ما لا يزال باقيًّا حتى يومنا هذا، كقوله: «فوجدناه قد ركب فحصّلنى على الباب»، ويستخدم كلمة «حاصل» بمعنى خزانة، و «التليس» بمعنى الزكيبة، والمثل العامى: «من عمود لعمود يأتى الله بالفرج».وتضم قصصه

بيئات وعصوراً مختلفة، فمنها المصرى والعربى والفارسى والرومى والجاهلى والإسلامى والطولونى والعباسى، وتمتاز بالإيجاز، وقلة الحوادث والشخصيات، والوصول إلى الغاية عن أقرب طريق ، وقوة الربط بين القصة وغايتها.

والمؤلف الثانى الشابُشتى أبو الحسن على بن محمد (ت ٣٨٨هـ: ٩٩٨م)، وكان معاصراً للتنوخى فى بغداد، وعمل فى مصر قائماً على خزانة كتب العزيز الفاطمى خليفة مصر، وألف كتابه «الديارات»، وعرض فيه للأديرة التى فى مصر والعراق والشام، لم يعرض لها أمكنة للتقى والعبادة، وإنما مهابط للذة والمتعة والفن، من موسيقى وشراب ورقص، وقيان وغلمان، وتغشاها الطبقة العليا فى المجتمع، وأعطانا من خلال القصص الذى أورده صورة لحياة علية القوم فى أيامه، وما يتصل بهم من أمور الطعام واللباس، وأساليب العيش، وإذا كان بين قصصه ما نقله من مؤلفات أخرى، أو شاركه غيره فى روايته ففيه أيضاً ما تفرّد به. وهو جرىء فيما يروى، لا يحتشم ولا يدارى، يجىء بالفكرة المكشوفة، والتعبير الفاضح، مما يجرى حول الجوارى والغلمان، والتغزل بالرهبان والراهبات.

وحول هذه الأعوام كانت القاهرة تستقبل مجموعة جديدة من القصص يتداولها الناس فى بغداد، وتلقفتها القاهرة لا لترويها وتستمر بها فحسب، وإنما لتنميها وتزيد فيها، وتعيد ترتيبها، وكانت هذه المجموعة هى:

• ألف ليلة وليلة :

وآثرت أن أخصها بفقرة خاصة للدور البالغ الأهمية الذى لعبته فى الحياة الأدبية العربية بعامة، والآداب الأجنبية على نحو خاص. وكان في أصله ترجمة عن أصل فارسي قديم يدعى «هزار أفسانه»، أى ألف حكاية، وترجع فى نشأتها إلى أصول هندية، وقام الجهشيارى صاحب كتاب الوزراء والكتاب (ت ٩٤٢م)، بكتابة أول مسودة له فى العراق، وأضاف إليها حكايات أخرى نقلها عن بعض القصاص من مواطنيه، أما كتاب «هزار أفسانة» فقد أمده بالفكرة العامة، وهيكل الكتاب، وأسماء الشخصيات الرئيسية، رجالا ونساء، بما في ذلك شهر زاد. وفى البدء كان يُسمى «ألف حكاية»، ثم تحول ليصبح «ألف ليلة»، ثم «ألف ليلة وليلة» فيما بعد.

ومع الزمن أُضيف إليه قصص من مصادر مختلفة، ما بين هندية ويونانية وعبرية ومصرية وغيرها، وفى آخر القرن العاشر أُضيفت إليه قصة كانت تتحرك مستقلة وسط أندية بغداد الثقافية، وهى «رحلة السندباد البحرى»، وجاءت صدى لاتساع الإمبراطورية الإسلامية، وفتوحاتها فى المحيط الهندى، وهى ذات أهمية كبرى لما تقدمه من معلومات عنصرية، ومأثورات شعبية، وألوان ثقافية، تفتح الباب واسعاً أمام الأدب المقارن، ولكنها من وجهة الأدب الخالص ليست شيئاً عظيما، فالمغامرات فيها تقوم على نسيج متشابه، فالبطل طاغية، يتلهف على الثروة، ويواجه الخطر ويحتمل

الصدمــة، وصامــد إزاء الفشل أو الانتصار على السواء. وقصص «عجائب الهند» وأضيفت إلى ألف ليلة وليلة» فى هذه الفترة، أروع فنًا وجمالا وأسلوباً.

ونُقل إلى هذا الكتاب، قبل أن يأخذ صورتـه الأخيـرة فى مصر، مختلف القصص الشرقية التى مرت عليه خلال القرون، وكان بلاط هارون الرشيد معيناً لا ينضب للقصص الفكاهية والحكايات الغرامية. وأخذ الكتـاب شكلـه الأخيـر فى مصر، فى القـرن الخـامس عشر، ورُتِّب ليلة ليلة، والنسخة التى بين أيدينا منه قـام بتحريرهـا يهـودى مصرى اعتنق الإسلام فى القرن نفسه، واختار فيمـا يبـدو، مجـاراة للـذوق السائـد واستثـارة للقـارىء، أقـل حكاياتـه حشمـة. وصيغة الكتاب غير المتجانسة حملت أحد النقاد المحدثين إلى أن يصفـه، فى ألفاظ ملؤها الدعابة، بأنه مجموعـة قصص فارسيـة، روتهـا على الطريقة البوذية، الملكة أستير اليهودية، لهارون الرشيد فى القاهـرة، خلال القـرن الرابـع عشر المسيحى. ولكـن ذلك لـم يقـف حائـلا دون أن يغزو الكتاب أوربـا كلهـا، مجمـلا أو قصصاً منفـردة، على امتداد العصر الوسيط، وبخاصة بعد أن بـدأت ترجمتـه إلى اللغـات الأوربية فى القرن الثامن عشر، وهو أشهر كتاب عربى تعرفه أوربـا دون استثناء.

وأسلوب الكتاب مختلـف باختـلاف الزمـان والمكـان والعـرف والشخص. فالأسلوب الهندى سلس فى قصصه، متماسك الحلقات، والأسلوب العربى يأتى بالقصة مستقلة عن الأخرى، ويتميز أبطالـه،

لسبب لم أهتد إليه بعد، بالزوجية. فهناك دنيا زاد وشاه الزمان، وقمر الزمان وابن الملك شهرمان، والأمير خلف وأميرة الصين، وغيرها. ويقدم لنا المرأة حلوة عذبة، ذات ثقافة واسعة، وقادرة على إثارة روح الحماسة عند الخليفة، بحيلها الدقيقة الماهرة، ومناقشاتها البيزنطية، ولاتطلب منه مقابل ذلك إلا أن يرضى رغائبها كديك، وأن يكون معها فحلا، وستعرف كيف تسعده فى عطائها فنًا واستسلاما، أكثر من كل أولئك اللائى سبقنها. ويتظاهر الخليفة، على نحو ما يصنع كل الحكام، بأن يكون عادلا، بارعاً فى الحكم، يخرج متخفيًّا بين الشعب، ليتسلى بمتابعة حركة الحياة عن قرب، أو ليرى كيف يؤدى المسئولون مهامهم.

وأسلوب الكتاب على أى حال سهل المأخذ، مبسوط العبارة، سوقى اللفظ، كثير الاستطراد والتضمين، جرىء الإشارة، لا يعرف الكناية، ولا يقنى الحياء، ولا يصطنع التحفظ، ومن الصعب أن يقرأه الإنسان كله دفعة واحدة، بحالته الراهنة، أما إذا تسقّط قصصه واحدة وراء أخرى، فسيجد فيه متعة بالغة الجمال.

وإلى جانب هذا الكتاب المترجم فى أصوله الأولى، واستهدف عواطف العامة فى رحلته،يدغدغ أحاسيسها بالفكرة المكشوفة، والتعبير غير المحتشم، سلكت القصة العربية طريقاً آخر، يرضى العلماء والمثقفين، ومن يستعذبون اللفظ الغريب، والكلمة المهجورة، ودخلت تاريخ الأدب العربى تحت اسم:

• **المقامات :**

المقامة شبه قصة قصيرة، تدور حول بطل وهمى، يروى أخباره راوية، وهمى أيضاً، وبطلها رجل أحكم التحيّل، وقصر همه على تحصيل الطفيف من الرزق، فأخباره تدور حول الكدية والخداع، والاحتيال والتمويه، لا تربطها وحدة موضوعية، ولا تحييها شخصية حقيقية، وإنما هى ميدان لعرض النكتة، وإظهار البراعة فى التخلص من مآزق الحياة، وإظهار المقدرة اللغوية. تجمع شوارد اللغة، ونوادر التركيب، فى أسلوب مسجوع أنيق، يعجب أكثر مما يؤثر، ويلذ أكثر مما يفيد.

وتدور المقامة على حادث عادى يسند إلى شخص معين، هو ما يسمى فى اصطلاح الفن القصصى بالبطل، كأبى زيد السروجى فى مقامات الحريرى، وأبى الفتح الإسكندرى فى مقامات البديع. وبين هذا البطل ورجل آخر صلة وثيقة، ومعرفة قديمة، فهو يراه فى كل حادث، ويسمعه فى كل مجلس، ثم يروى للناس ما عليه من خير أو شر. ذلك الراوى هو عيسى بن هشام فى مقامات البديع، والحارث بن همام فى مقامات الحريرى. لكن المقامة خلت من العقدة، وهى أهم مميزات القصة، وتجاوزت الشخصية الروائية تحلل نفسيتها، وتدرس أخلاقها، فهى إجمالا حِيَلٌ تفسّر حياة متكد، ألفت على صورة واحدة، وانصرف كاتبها عن الموضوع إلى الأسلوب، يعرض للموعظة ويهتم بالنكتة المستملحة، وينثر بين سطورها الألغاز اللغوية والنحوية، وكل ذلك فى لغة جزلة كثيرة الغريب، وأسلوب مسجع محكم الوزن.

جاءت مقامات البديع الهمذانى (ت ١٠٠٨م) فى إحدى وخمسين مقامة، وبطلها أبو الفتح الإسكندرى عاقل ذو ثقافة واسعة، يقول الشعر الرائع، ويسلك أوعر المسالك في اللغة والنقد والأدب، ويخرج منها مطمئنا إلى علمه، معتمدا على سداد رأيه، لا تصرعه صعوبة، ولا تفوته حيلة. وقد خبر الحياة، وذاق حلوها ومرها، وسعى فى الاحتيال على الدهر القاسى بشتى طرق الكُدْية، وعرض نفسه لشتى المواقف، فهو خطيب يتحدث إلى الجماهير تارة، وهو مشعوذ يضحكهم بألاعيبه ومكره وكذبه تاره أخرى، تراه فى المقامة الساسانية زعيما لجماعة من بنى ساسان، وفى الخمرية إماماً يصلى بالناس، وفى القزوينية فى زى الغزاة المجاهدين، وفى القردية قرّاداً يرقّص قرده، وفى الموصلية دجالا يدعى إحياء الموتى، عملا بمبدأ «الغاية تبرر الوسيلة»، لقد قسا عليه الدهر كما قسا على غيره من أهل العلم والأدب، فتصعلك وتسوّل، وامتهن الكدْية، ولم يترك مدينة فى ما حوله من بلاد إلا رحل إليها يطلب الرزق، وعاد فى كل الأحوال خاوى الوفاض.

وبعض مقامات البديع جاءت فى أسلوب قصصى شائق، يكسف بهجته أحياناً الإطناب المتكلف، والزخرفة المصنوعة، والرغبة الملحة فى التعليم، وينطوى بعضها الآخر على قصص طريف نابض بالحياة، لا يخلو من روعة ومتعة، ويعكس ظَرْف المؤلف وخفة روحه.

ووضع الحريرى (ت ١١٢٢م) خمسين مقامة، وبطل مقاماته أبو زيد السروجى من أهل الكدية الذين احترفوا التسوّل، ووسيلته

فيها فصاحة لسانه وسحر بيانه، وتشبه مقامات الهمذاني من حيث النزعة التعليمية، وتفوقها في ذلك، ولكن مقامات الهمذاني أسهل مأخذا، وأقل تكلفاً، وأكثر ابتكاراً للحوادث، على حين يغلو الحريرى فى السجع والتعقيد، وتحفل مقاماته بالكنايات التى تشبه الألغاز، وبالأحاجى النحوية، والمسائل الفقهية، والفتاوى اللغوية، والغريب من الألفاظ، واستحدث فيها من فنون العبث اللغوى الجمل التى تقرأ طرداً وعكساً من غير أن يتغير معناها مثل قوله: «كبّر رجاء أجر ربك»، واستخدم أحياناً جملا كاملة خلت حروفها من الإعجام، أو جاءت معجمة كلها، وخلب بهذه الأساليب عقول معاصريه، ومن أتوا بعده من هواة الألغاز والأحاجى فى عصر الاحتضار.

كانت المقامة تجديداً فى القرن العاشر الميلادى، وليس هنا مكان أن نناقش نشأتها، وهل ابتدعها الهمذانى، أو سبقه بها ابن دريد اللغوى، المتوفى عام ٩٣٤م، لأنها تعنينا جنساً أدبيًا فحسب على يد أى كاتب ابتدعت وبأى قلم خطت، ومعها بلغ النثر الفنى فى اللغة العربية قمة الإحكام والصنعة، فى ذوق العصر الذى شهد مولدها، وكان انتشارها عبر بقية العالم العربى سريعاً، فبلغت الأندلس أقصى حدوده فى الغرب شمالا عام ١١٠٨م، أى فى نفس العام الذى توفى فيه الهمذانى، حملها إليه يوسف بن على القضاعى. وفى الأندلس كتب أحمد بن عبد المنعم القيسى الشريشى أوفى شرح لمقامات الحريرى، حتى يومنا هذا، وحاول كثيرون تقليدها، ولأغراض شتى، ولكن أحداً لم يبلغ فى هذا المجال ما بلغه

الهمذانى وصاحبه الحريرى. وأخذت طريقها إلى لغات أخرى، فاحتذى نهجها الأدب العبرى والأدب السريانى، وتركت تأثيراً واضحاً فى الآداب الإسبانية.

• هجرة القصة إلى أروبا :

أول لون من القصة، بمفهومها العام، عرفته أوربا فى العصر الوسيط وشاع فى أرجائها، مأخوذ من أصول عربية واضحة، وهو كتاب « التربية الدينية Disciplina clericalis » ليهودى أندلسى من وشقة، يدعى موسى سفردى، اعتنق الكاثوليكية عام ١١٠٦م ودخل التاريخ تحت اسم بدرو ألفونسو، وتضمن كتابه ثلاثا وثلاثين قصة شرقية، يغلب على الظن أنه كتبها بالعربية أولا ثم ترجمها فيما بعد إلى اللغة اللاتينية، ونقلها عن كليلة ودمنة، ورحلة السندباد، ومصادر عربية أخرى، وأورد فيه الكثير من الأشعار، والأمثال والخرافات، وقصص أخرى مرحة ولاذعة وجارحة للحشمة، مثل قصة خدعة غطاء السرير، والشاب الغيران الذى يحبس امرأته ويغلق عليها الباب، فتتركه فى الطريق وتأبى أن تفتح له. ولقى الكتاب ذيوعاً واسعاً فترجم كله أو بعضه إلى اللغات: الفرنسية والإيطالية والألمانية والإسبانية والعبرية، ولغات أخرى، وانتفع به كل الذين جاءوا بعده من القصّاص.

وأخذ كتاب «كليلة ودمنة» طريقة إلى أوربا فى زمن مبكر، فقد أمر ألفونسو العالم بترجمته إلى اللغة الإسبانية عندما كان أميراً عام ١٢٥١ ، ومن قبل ذلك تُرجم إلى اللغة العبرية، وعنها ترجمه إلى

اللاتينية بعد الترجمة الإسبانية بِسنوات قليلة، يهودى اعتنق الكاثوليكية أيضاً، يدعى يوحنا دى كابْوا، وعن هذه الترجمات الثلاث اجتاح أوربا فنقل إلى أكثر من أربعين لغة.

وأول ما ترجم من ألف ليلة وليلة «قصة السندباد»، قبل أن تصبح جزءاًمنه فى المشرق، ووصلت أوربا عن طريق ترجمة يونانية نقلت عن السريانية، وهذه عن العربية، فى أواخر القرن الحادى عشر. وعن طريق ترجمة أخرى أمر بها ألفونسو العالم أيضاً عام ١٢٣٥م، والصورة العربية الإسبانية لهذا الكتاب تضم ستا وعشرين حكاية، تربطها بعضها إلى بعض حكاية أساسية واحدة، على نحو ما نرى فى «ألف ليلة وليلة» وموجزها: أن أميراً اتهمته زوج أبيه بأنه أراد أن يغصبها، فقضى أبوه بموته، ولزم الأمير الصمت، وتأجل تنفيذ الحكم سبعة أيام، دار النقاش فيها بين زوج الأب وسبعة من العلماء، ودارت أحاديث هؤلاء حول مكايد المرأة وحيلها وشذوذ طبعها. وفى اليوم الثامن ينتهى الأجل المحدّد، ويخرج الأمير عن صمته، ويظهر لأبيه الملك براءته، فيعفو عنه، ويلقى بزوجه فى النار.

لم يُترجم كتاب « ألف ليلة وليلة » كاملا على النحو الذى نعرفه عليه الآن إلى اللغات الأوربية قبل القرن الثامن عشر، وما كان ذلك ممكناً، لاتساع حجمه، والجهد الكبير الذى يتطلبه، ولأنه لم يأخذ صورته النهائية فى مصر إلا فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى، ولكنه تسرب رواية شفوية، أو ترجمات كتابيه،

قصة وراء أخرى عن طريق الأندلس، أو مع التجار والرحالة، وبدون هذا الاحتمال لا يمكن تفسير تأثيره الواضح فى الأدب الإسبانى الوسيط، فجمهرة كبيرة من أقاصيصه ذات صلة واضحة بحكايات ألف ليلة ليلة، وبعضها لا يعدو أن يكون صياغة جديدة، فى لغة أجنبية، لمناخ مختلف عليها أن تأخذه فى الاعتبار.

وجاء خوان منويل الإسبانى (١٢٨٤م - ١٣٤٨م) بمجموعته « الكوند لوكارنو EL Conde Lucarno »، فدفع بالقصة خطوة إلى الأمام، أضاف إلي غاياتها المتعة، بعد أن كانت وقفا على التربية والتهذيب ورغم أنها مقتبسة من أصول عربية عرف المؤلف كيف يصوغها فى قالب مبتكر، ويضفى عليها طابعاً شخصيًّا خالصاً، فى روح فكه معتدل لا يجرح الشعور ولا يتبذّل، وقدّر لأقاصيصه أن تحتل مكاناً جديراً بها فى تاريخ الأدب العالمى، وأن يصبح معها أول أديب صاحب أسلوب نثرى، من كتاب العصور الوسطى، نهل من ينابيع عربية. ولم تتوقف القصة عنده، واصلت سيرها نحو الأفضل، احتفظت بخصائصها الجوهرية، من حدث متوتر يوقظ الاهتمام دائماً، وأسقطت ما كان حواشى، واكتسبت خصائص جديدة، تستهدف الإبقاء على اهتمام السامع والقارئ دافئاً حتى النهاية، وفى مكان آخر من أوربا، فى إيطاليا بالذات، سوف تتغرب فى الجانب الأكبر منها.

• بداية القصص الأوروبى :

كان الإيطاليون أصحاب السبق فى تخليص القصص الأوروبى الوسيط من تقشف وقناعة القصص الإسبانى، ولقد قامت أولى

هـذه المحـاولات فى القـرن الرابـع عشر فى رومـا، داخـل حجـرة فسيحـة مـن حجـرات قصر الفاتيكـان، كانـوا يطلقـون عليهـا اسم «مصنع الأكاذيب»،اعتاد أن يتردد عليها فى المساء نفر من سكرتيرى البابـا وأصدقائهـم للهـو والتسليـة وتبـادل الأخبـار... وفى مصنـع الأكاذيب هذا كانت تخترع أو تُقص كثير من النوادر الطريفة عـن رجال ونساء إيطاليا، بل وعـن البابـا نفسه، ممـا دعـا الكثيريـن مـن الأهالى إلى التردد على هذه الندوات حتى لا يهزأ بهم فى غيبتهم. وكان من أكبر روّاد، «مصنع الأكاذيب» مثابرة، وأخصبهـم خيـالاً، رجل غريب الأطـوار، اسمـه بوتشيـو Poggio اشتغل نصف حياتـه سكرتيراً للبابا، وتزوج وهو فى السبعين من عمره فتاة فى الخـامسة عشرة، وبدأ بهذا الزواج حياتـه الأدبيـة، فـدوّن النـوادر التى قصهـا وسمعها فى «مصنع الأكاذيب»، فأعطاها بذلك شكـلا أدبيـا أسمـاه « الفاشيتيا Facetia »، تداولته بعده أجيال عديدة من الكتاب[1].

وكانت المحاولـة الثانيـة، وفى القـرن نفسه، على يـد بوكاشيـو Boccaccio (١٣١٣-١٣٧٥م)، من أب إيطالى وأم فرنسية، فياض بالمتعـة والإثـارة، وكتب عـام ١٣٤٩م حكاياتـه التى أسماهـا «الديكاميرون»، أو الليالى العشر، ضمنها مائـة حكايـة، أسندهـا إلى سبع سيدات وثلاثة رجال، اعتزلوا مدينة فلورنس بعـد أن اجتاحهـا الطاعون، وفروا إلى الريـف، وأقامـوا فى قصر أحدهـم ولكى ينسوا ما خلفوا وراءهـم مـن مناظـر المـوت وآثـار الدمـار، ورغبـة فى أن

---

(١) رشاد رشدى : فن القصة القصيرة، ص ١ و ٢ ، القاهرة ١٩٥٩ .

ينسوا آلامهم، وتزجية للفراغ بينهم، فرضوا على كل واحد منهم أن يقص على أصحابه كل ليلة حكاية، وأنهوها فى عشرة أيام.

لم يخترع بوكاشيو قصصه، واستخدم في كتابته مصادر لاتينية وعربية ، وأساطير وحكايات شفوية، وكان أول كاتب أوربى يستخدم الفن الشرقى فى تسلسل القصص والربط بينها، وبذلك مهد الطريق لمن جاءوا بعده.

وحكايات بوكاشيو طويلة، وتربط بينها المناقشة والمناسبة، تتنوع موضوعاتها، وتغلب عليها السخرية، طافحة بالشهوة، مليئة بحب الحياة، تعرّى غوايات الرجال ومباذلهم، وأسلوبه رائع وفخيم، يشدك إليه عنف التناقض بين مواقفه، كالذى بين السذاجة والفجور فى قصة على بك، والفتاة التى أصبحت ناسكة، ومنظر الحب بين راهب وفتاة طائشة، وفى لحظات الراحة يتحدثون عن المجد الخالد، وقصصه معقد، وأشد كثافة، ويستخدم خيوطاً أكثر مما يستخدم سواه من معاصريه أو السابقين عليه، وثمة حكاية رئيسية عنده، تتغذى بعناصر موازية تثريها، كأحداث جديدة مثلا، وفيما يتصل بفن القص والحوار وبناء الشخصيات لا مثيل له، ويرى النقاد أن القصة الحديثة تبدأ معه، من بين قلمه تدفقت أشكالها الأولى، وقلّده الكثيرون فى إيطاليا وبقية البلاد الأوربية، ودفع بإيطاليا إلى مكان الصدارة فى الحياة الثقافية بين بقية دول القارة، وترجمت قصصه سريعاً إلى كل لغاتها.

وإذا تجاوزنا عصر بوكاشيو إلى القرن الذى يليه، أعنى القرن الخامس عشر، وجدنا إيطاليا تموج بألوان من قصص «الفاشيتيا»،

كتبها أدباء إيطاليون ينتمون إلى حركة الإنسية Humanismes، بعضها ماجن للغاية، والبعض الآخر كتب لغايات خلقية، وأشهر قصص هذا القرن «السمين Grasso» للقصاص الإيطالى أنتونيو مانيتى Manetti (١٤٢٣ – ١٤٩٧)، ويراها النقاد أروع قصص القرن الخامس عشر، ومع ذلك يرجح أن مصدرها «قصة النائم اليقظ» فى ألف ليلة وليلة، غير أنها حافلة بخطوب الدهر، وذات تأمل مختلف.

وعلى امتداد القرن الخامس عشر غزا هذا الجنس الأدبى إسبانيا وفرنسا، ففى الأولى كتب أنتوينو دى لاسل (١٣٩٨ – ١٤٦٢)، وربطته صلة صداقة وطيدة فى روما مع بوتشيو والقصاص الإيطاليين الآخرين، مجموعة من الحكايات بعنوان: «خمس عشرة متعة للزواج»، وفيها يسخر على نحو تقليدى من رذائل الزوجات وتضحيات الأزواج، ونوادره لذعة، استمدها من الخرافات، ثم انتقلت إلى المسرح فيما بعد. وربما كان من المحتمل أنه مؤلف «مائة رواية جديدة»، ونشرت عام ١٤٣٨م، وأُلفت فى بلاط برجونيا، لتسلية الأمير فيليب الصالح، وهى حكايات برجوازية، ذات واقعية خليعة العذار إلى حد بعيد، ولغتها بسيطة، وصريحة بلا مواربة، ولكن دون أن تكون لها قيمة نفسية.

ومن المفيد أن نشير إلى مجموعة كتبها ألفونسو مرتينيث، كاهن مدينة طلبيرة (ت ١٤٧٠ م)، بعنوان: « كرباج Corbacho »، وقصصها ينضح واقعية، وربما كانت متأثرة بالقصة العربية، كما يومىء إليه

اسمها، وأيًّا ما كان الأمر فهي تلتقى فى جوانب منهـا، مـع كتـاب «طوق الحمامة» لابن حزم الأندلسى، وألمحنا إلى هذا الجـانب فى كتابنا: «دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة»[1].

● بداية النهاية :

واصلت قصص بوكاشيو تأثيرها على امتداد القرن السادس عشر، فى عدد من البـلاد الأوروبيـة، دون تجديـد واضح أو تطـور يذكـر، وأكثر المؤلفين قربا منه مواطنه بنيدللو لومبرادو Bandello Lombrado (١٤٥٨ - ١٥٥٣)، رجل دين رحالة، وكان موضع عناية مرجريت ملكة نبرّة، وعيّنه إنريك الثانى ملك فرنسا أسقفا لمدينة أجن Agen فى فرنسا، وترك لنا ٢١٤ قصة، ظهرت فيما بيـن عـامى ١٥٥٤ و ١٥٧٣م، وتعكس إلى حد بعيد عادات وتقاليـد العصر، ولا يمكـن القـول بـأن المؤلـف فى مستـوى بوكاشيـو، ولكـن ليس مبالغـة أن نقول أنه يقرب كثيراً منه، وقد عاشت قصصه، وكان مقـروءاً على نحو واسع، وتـرك تأثيـراً واضحـاً فى عـدد مـن الكتّـاب الآخريـن، وبخاصة شكسبير.

وتميزت القصة فى إسبانيا خلال هذا القرن، بأنهـا تجيء قصيـرة ومستقلة، ولكنها تمثل جزءاً من مؤلف كبير، من جنس أدبى آخـر، رسائل تربوية، أو روايات رعوية، وتديـن لهـذا اللـون الأخيـر بقصة عربية جميلة: «ابن سراج وشريفـة الجميلـة»، لـم تلتقطهـا المصادر

(١) أنظر الفصل الخاص بتأثير طوق الحمامة فى الأدب الإسبانى، الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٢ .

العربية، لأنها ألفت جماعيًا، وفى شكل شفوى، لحظة إنتهاء الإسلام دولةً فى الأندلس، وخلاء الساحة من المؤرخين والمدونين.

وكانت فرنسا البلد الوحيد الذى طاول إيطاليا فى القصة خلال هذا القرن، فكتبت مرجريت (١٥٥٣-١٦١٥) الزوجة الأولى لهنرى الرابع ملك فرنسا مجموعة قصص سارت فيها على نهج «الديكامرون» أخذت منه الشكل العام وسارت على نهجه، فقسّمت مؤلفها إلى ليال عشر، وخمسة رجال وخمس نساء، وفى مياه كوتريه المعدنية، أعلى جبال البرانس، كل واحد منهم يحكى قصة فى كل يوم، لتبلغ القصص مائة، ولكن الحلقات توقفت عند القصة الثانية والسبعين لموت مرجريت، ونشرت هذه القصص عام ١٥٨٨ ، وجاءت على نحو ما عند بوكاشيو، كل قصة يتلوها حوار ونقاش، والمغامرات فيها واقعية غالبا. وتميزت عن كل الذين قلّدوا الأديب الإيطالى، بأنها زادت عليه شيئاً، دفعت بالمزيد من التميز والحياة فى شخصيات الأبطال، وتجرى أحداثها فى جو من التقوى الجادة، والمشاعر الدينية الخالصة، ولو أنها جافة أحياناً، وتلقى بملاحظاتها على مشاعر الشخصيات، وتحاول تحليل الدوافع الداخلية للأحداث.

ونلتقى بعد مرجريت بكاتبها دى بريه DesPeriers (١٥٠٠-١٥٤٤م)، وكتب مجموعة من القصص أعطاها عنواناً: «تسليات جديدة، وعظات بهجة»، وجاءت فى معظمها قصيرة، وفى جانب منها خرافات، ولكنها أشد حيوية ولمعاناً من أقاصيص صاحبة

الجلالة، وقد استغلها لافونتين فيما بعد، وقصاص آخرون. وكتب رسالة أخرى عنوانها Cymbalum Mumdi ، ونشرها عام ١٥٣٧ م، وجاءت فى شكل لوحات وحوار بالغ الجرأة، وفتحت أمامه باب الاضطهاد والملاحقة واسعاً، متهماً بالإلحاد والزندقة.

وإذا توغلنا فى القرن السابع عشر وجدنا القصة تميزت بطابع ملحوظ، بعدت عن الأصول الأولى، أدبية أم شعبية أم مجهولة القائل، وعندما كتب الروائى الإسبانى العظيم ثرفانتيس (ت ١٦١٦) مجموعة قصصه: «روايات نموذجية»، دافع فى المقدمة عن أصالتها: «إنها ذاتية تماماً، ليست تقليداً ولا مسروقة، أبدعها ذكائى، وأنجبها قلمى» وينسب إلى هذا القرن القصاص الفرنسى شارل بيرو Perrault Charlies (١٦٢٨-١٧٠٣م)، وأسهم بمجموعة من القصص الجميل، جمعه من أفواه الرواة ، ويصور التقاليد الشعبية على أيامه ، وتميزت من بينها مجموعة « حكايات أمى لوا »، وأسعدت أجيالاً من الأطفال الأوربيين.

ومع نهاية القرن خبا وهج القصة، وانزوت بين مختارات الأمثلة والحكم والنوادر والقصائد، تجىء كجملة اعتراضية فى المؤلفات الذائعة الانتشار، ولم يتميز بين الذين عرضوا لها كاتب يمكن أن يفرض نفسه على ذاكرة التاريخ، ولكنها لم تمت كجنس أدبى، وقد نجدها عند كتاب بعيدين عن هذا اللون من الأدب، مثل مكيافلى، وليونارد دافنشى، والكاتب المسرحى الإسبانى لوبى دى فيجا، أوترسو دى مولينا، وتميز الأخير بأنه لم يترك الاهتمام بها

أبداً، ولكن ما حرره فيها متواضع للغاية، إذا قيس حتى بما كانت عليه فى القرن الرابع عشر.

وسقطت القصة كجنس أدبى فى القرن الثامن عشر الميلادى، إنه عصرالاهتمام بما هو عملى، ومادى وملموس ومفيد، وربما كان الكاتب الفرنسى الذائع الصيت لافونتين، أشهر من نمىَّ هذا الجنس فيه، ولكنه كان كاتب خرافات أكثر منه قصاصاً. وهناك من عالج هذا اللون من كبار الأدباء، مثل فولتير ومدام دى ستال، دون أن يكونوا قصاصا أو موهوبين فى كتابتها، إنما فعلوا ذلك ليدللوا على قدراتهم الأدبية، على نحو ما فعل الدكتور محمد حسين هيكل، فى مطلع هذا القرن، حين كتب رواية زينب، فلم يكن مدفوعاً بانفعال حقيقى، أو مستجيباً لفيض داخلى، وإنما كتبها لأن مثل هذا اللون من الأدب، فيما يرى، يجب أن يكتب فى العربية، دون أن يعنى ذلك أنه روائى أو قصاص.

ولكن هذا العصر بدأ يشهد مولد شكل أدبى محدد، فى نطاق القصة، وقريب جدًّا منها، وهو: تصوير العادات، ومع نهايته ازدهرت الرومانسية، وبلغت الذروة، وأفسحت الطريق أمام قصص جديد، قيم وأصيل، وأمام نظريات هامة لم تعرف من قبل حول القصة والقصاص، ومع ذلك كله، فيما يلى من صفحات.

القصة الجديدة

كُتبت القصة قبل القرن التاسع عشر فى أحجام مختلفة، ولأهداف متعددة، دون إحساس واضح بأهميتها كجنس أدبى مستقل، له شخصيته وإيقاعه الذاتى، واختلط الكم بالكيف، وانعكس ذلك على تقدير القصة، فاعتبرت نوعاً أدبيًّا مفضولا، دون أن يدرك أحد أن الحكايات الصغيرة، والصفحات القليلة، يمكن أن تتسع لألوان من الجمال والمشاعر الإنسانية، أكثر وأعمق مما يمكن أن يوجد فى أية رواية عامرة بالصفحات. كان من الضرورى أن نبلغ هذا القرن لكى تستقل القصة جماليًّا، وأصبح عاديًّا أن تقرأ قصة قصيرة كاملة، دون أن تكون فى حاجة لأن تضمها إلى قصة أخرى، أو تدمجها فى جنس أدبى مختلف، لانتشار الصحافة، وتعدد المجلات، وتنوع صدورها، أسبوعية وشهرية وفصلية، وحرصها على أن تضم صفحاتها قصة أو أكثر، وفيما بعد يضمها الكاتب إلى وصيفاتها وينشرها ويتخذ من عنوان إحداها عنواناً للكتاب.

ارتباط القصة بالصحافة فى هذا القرن أدى إلى ظهور وتشجيع ما يمكن أن ندعوه بقصة الظرف المناسب، حين يراعى الكاتب مقتضى الحالة الذى تتحرك الصحيفة فى نطاقه، وإدراك الظروف المتغيرة سياسيًّا وثقافيًّا واجتماعيًّا، أو حتى كأعياد الميلاد، وفصول العام، ومواسم الامتحانات، والاكتشافات العلمية، حتى لا تجئ

قصته نشازاً، ومع نجاح القصة فنًّا أخذت من الصحيفة أو المجلة مكاناً ممتازاً، كافتتاحية رئيس التحرير، أو التعليق السياسى، أو الخبر الهام، وأصبحت تدور حول الأحداث السياسية، والوقائع المثيرة للجماهير، وموضوعات اللحظة، وبدأ كبار الكتاب فى إسبانيا - مثلا - يكتبون وينشرون قصصاً حول حرب كوبا والفلبين، أو حول الصراع الاجتماعى والدينى، وكان إذ ذاك حادًّا وعنيفا. وفى فرنسا بدأوا يصورون عفن البرجوازية وتحللها، واتساع المستعمرات وشقاء أهلها ، وهكذا حددت الصحافة إيقاع القصة، وجعلت منها مناضلة دون قصد، تتنفس بالشكوى والاحتجاج والتمرد، والتزام جانب الضعفاء والذين تطحنهم قسوة الحياة.

لقد تميَّز القرن التاسع عشر فى الأدبين الأوربى والأمريكى بأنه عصر القصة، ومجرد ذكر أسماء ذات اعتبار مثل: موباسان، ودوديه، وتشيخوف، وأوسكار وايلد، وإدجار ألان بو، وهوفمان، وغيرهم، يعطينا صورة واضحة عن القدر الذى بلغته عالمية هذا الجنس الأدبى. وإلى جانب ذلك طبعها بسمات خصبة ومتنوعة، وعرفت المذاهب الأدبية المختلفة، من الرومانسية، والبارناسية الرمزية، والطبيعية والمودرنزم. ويستحيل علينا فى هذه النظرية العابرة والعامة أن نحلل ألوان القصص التى زخر بها هذا القرن، أو نقف عندها، أو نتحدث ولو فى سطور عن أعلامها، ولكنى أود أن أقف عند أربعة كانوا الرواد، اثنان منهما دفعا بها إلى الوجود، وهما: إدجار ألن بو الأمريكى، وجوجول الروسى، واثنان أُعطياها شكلها الفنى

الدقيق وتركا تأثيراً واضحاً في القصة العربية، وهما: موباسان الفرنسي، وتشيخوف الروسي.

• نيقولاى جوجول :

عندما جاء جوجول إلى الحياة، في نفس العام الذى ولد فيه ألن بو، عام ١٨٠٩ ، كانت القصة العاطفية، فى صورتها البدائية، تسيطر على الأدب الروسى المنثور، وما أغزر الدموع التى سكبها آلاف القراء، وبخاصة النساء، على القلوب الكسيرة، حلّق بها الحب، وحملها فى نهاية المطاف إلى الفشل والإخفاق.

وُلد جوجول لأحد صغار الملاك، وقضى طفولته فى مزرعة عائلته، وجزءاً من شبابه فى معهد النبلاء، وفى جو أوكرانيا الهادىء وحركة المدينة الناعسة، تنسم على مهل التقاليد والعادات والذكريات، يمارسها فى حياته اليومية، أو يسمعها قصصاً وحكايات فى بيتهم، وبين لداته، واستقرت في أعماقه، وامتلأ ذهنه بالأفكار الغريبة، والآمال الحالمة، وطمح أن يكون ممثلا. وفى عام ١٨٢٨ رحل إلى مدينة بطرسبرج، مدينة لينتجراد الآن، لكى يحقق رغبته، وكان فشله على خشبة المسرح ذريعاً، فاضطر أن يعمل كاتباً صغيراً فى الحكومة، ليكسب ما يساعده على العيش، ثم بدأ يتجه إلى الأدب، قرض الشعر أولا، وفشلت قصائده الرومانسية فشلا ذريعاً فاتجه إلى القصة، ونشر بعد ثلاث سنوات من وصوله إلى المدينة مجموعة قصصه الأولى، نصفها عن الجنيات والنصف الآخر أساطير تأثّر فيها بالرومانسيين الألمان، وفيها يحاول الشياطين السفلة أن يخدعوا

الفلاحين، أشداء وقلوبهم خالية من الهم، وربما نجحوا فى إفساد علاقة غرامية، ولكنهم يلقون الهزيمة فى النهاية على يد حدّاد أديب، أو فتاة ماكرة.

لقيت هذه المجموعة نجاحاً أدبيًا هائلا، وتأثرت بالرومانسية، وترك فيها الأدب الشعبى بصماته واضحة، وفيها يتلاقى المرح والرعب، وتتعدد الألوان وتتدافع، ولكن بعضها انحرف نحو طريقة جديدة، بعدت به عن الرومانسية، واقتربت به أكثر إلى واقع الحياة، إلى الأشياء الحقيرة التى تحدث كل يوم، في المدن والقرى وبين بسطاء الناس، وتضحك وتبكى فى الوقت نفسه: شاب خجول يلغى ذاته، وتسيطر عليه عجوز نشطة من أقربائه. اثنان من الجيران، مزارعهم صغيرة، وعقولهم فارغة، يفقدان صداقتهما لسبب تافه، ويصبحان خصمين، ويقضيان بقية حياتهما فى المحاكم والتقاضى، وهكذا، وأبدى جوجول فى كل هذه القصص قدرة غير عادية على الملاحظة، ومحاكاة الأصوات والروائح والصور، فى أسلوب بارع، وموسيقى متميزة، وتلألأ نثره، فى تدفقه السريع، كما يتلألأ التيار الجارف، تحت أشعة الشمس اللامعة، متألقًا، فياضاً بالحياة، قويًا لا يقهر. ولكن جوجول، بدا منتشياً بتأثير أسلوبه، وقدرته البالغة على التصوير، وتمكنه من مادته يعبث بها، كالمشعوذ، وقد روّعه الملل والحطة اللتان قام بتصويرهما، واستشعر فى أعماقه رعباً مدويًا، من تفاهة حياة معظم البشر وخشونتها.

وقد حاول فى البدء أن يهرب إلى بطولات الماضى، وأن يندس بين مُثل الرجال الأقوياء، فكتب روايته القصيرة «تراس بولبا»، وبعد

محاولات غير موفقة فى الأبحاث التاريخية والتدريس عاد إلى كتابة القصة من جديد، واتخذ مادتها مما يدور حوله فى مدينة بطرسبرج، واتسمت بالغموض والمفارقات، وفيها بدأ يستخدم الضحك سلاحاً، بعد أن كان يضحك لغير هدف، ويكشف عن الواقع التعس الذى يعيشه عامة الناس، وتعكس أعماله فى هذه الفترة قلقاً عقليًا غامضاً ومحيراً، وإلى هذه الفترة تعود قصة «المعطف» ولو أنه نشرها بعد ذلك بسنوات، وبلغت شهرة واسعة، وبطلها كاتب بسيط، تركزت أحلامه كلها فى معطف جديد، وكان لهذه القصة الوهمية تأثير هائل، وكُتبت بطريقة هزلية ساخرة، ولم يعرها معاصروه اهتماماً لأن نهايتها غير طبيعية، ولكنها تضمنت كل الموضوعات الأساسية التى كان يدور حولها الأدب الروسى فى تلك الفترة: إحساس الرجل العادى البسيط بالظلم الاجتماعى القاهر، وأحلام الفقراء ونهايتهم، وكان دستويفسكى يرى أن كل تقاليد النثر الروسى تعود إلى «المعطف»، وتأثر بها وعشرات غيره، وكان ترجنيف يقول موريًا، ومعترفاً بسبق جوجول فى مجال القصة الحديثة: «لقد أتينا جميعاً من تحت معطف جوجول»!.

ولكن جوجول نفسه لم يكن يدرك تأثير مؤلفاته، وكان يكتب عادة وهو فى غيبوبة تامة، ملهماً ومدفوعاً ومطيعاً كمن يسير أثناء نومه، ممزق الداخل، تتنازعه كافة أنواع القلق الخلقى والدينى، ولم يكن قد مارس الحب مع أية امرأة، فسيطرت عليه العقد والأمراض الوهمية، والآلام النفسية، وكان فى الوقت نفسه مرحاً، حاضر البديهة، قادراً على سرد ما هو تافه، وكتابته والضحك منه،

وإضحاك الآخرين عليه. وإلى جانب طموحه كان مولعاً بالشهرة، معتزاً بمهنته، يحسن اختيار اللفظ المناسب، وشخصياته من الواقع، وتجلى ذلك فى مسرحيته «المفتش العام»، وفيها استخدم اللغة الدارجة، تخالطها التعبيرات الخشنة أحياناً، والتى يتكلمها أنصاف المتعلمين، وأثارت عاصفة مترية عند عرضها، وتلاطمت الآراء حولها، بين مؤيّد محبّذ، ومعارض مهاجم، فترك روسيا، ورحل إلى أوربا، واستقر به المقام أخيراً فى روما.

كان إلمام جوجول بمشكلات عصره السياسية والاجتماعية متواضعاً، ولم يكن ينتمى إلى أية جماعة فكرية، ومع ذلك كان شديد الرغبة فى مناقشة مستقبل وطنه، ويحاول رفع مستوى التقاليد الثقافية، ويحلم بانتشار التعليم، ويؤمن بالنتائج الهائلة التى تتحقق من وراء تعميمه، ولم يدرك جيداً ما أحدثه أدبه، وارتاع عند ما وقعت جمهرة الناس على ما فيها من معان لم يفكر فيها ولا أرادها، وكان عليه أن يتخذ موقفا إيجابيًّا، فركن إلى التأمل والدين بحثاً عن النصح، وعندما عاد إلى روما للمرة الثانية سقط فى قبضة رجال الدين، وكتب عدة مقالات فلسفية دافع فيها عن الحكم المطلق، والرق والإعدام والكنيسة الأرثوذكسية وفضيلة الطاعة، وكل ما فضحه فى مسرحيته «المفتش العام»، وكانت نهاية محزنة لفنان عظيم. وموزع المشاعر والأحاسيس، ممزق الداخل والولاء، اجتاحه إرهاق عصبى أودى بحياته، فى فبراير من عام ١٨٥٢، وشهد جنازته الآلاف من الناس، تقديراً مؤثراً لأول قصاص روسى عظيم.

أسهم جوجول فى خلق القصة القصيرة، وكانت إضافته فى الموضوع أكثر منها فى الشكل الفنى، ولكنها إضافة لم يكن من الممكن أن تتطور القصة وتكمل بدونها، لقد تجاوز الاتجاه الرومانسى الذى كان سائداً فى عصره، فى اللغة والموضوع، واتجه إلى الأرض والفلاح، والإنسان العادى، وحدّد الموضوع شكل القصة واللغة التى تكتب فيها، واتسعت الفجوة بين القصة القصيرة والحكاية، فهذه تحكى فى لغة منمقة حكاية الأمير وست الحسن والجمال تسوّى الهوائل، وترسم البطولات الخرافية، وتلك تحكى فى لغة بسيطة لحظة واقعية دافئة من حياة إنسان عادى يكدح طوال النهار.

لقد دفع جوجول بالقصة القصيرة خطوة واسعة حين بعد بها عن الرومانسية، وعن اللغة المنمقة المزوقة، وعن الغريب، وحين نزل بها إلى الحياة اليومية بلحظاتها العابرة، وشخصياتها المتفردة، وصراعها الدائب، وحين ربطها برباط لا ينفصم مع واقع الحياة، وكان له من الحس الفنى ومن الإدراك ما جعله يخرج بالطفل الوليد إلى الوجود متخففا من كل الأثقال التى تحول دون نموه وتعوق تقدمه، وكأنما أدرك أن القصة بناء رهيف ينوء بالفصاحة وبالدروس الفلسفية والأخلاقية، فالتزم الموضوعية البحتة فى كل ما كتب من قصص قصيرة، وصور الحياة كما هى عليه، بلا تزويق ولا وعظ ولا إشاد»[1].

---

(١) الدكتورة لطيفة الزيات: مقومات القصة القصيرة، مجلة الرسالة، العدد ١٠٩١، ص ١٩ ، ١٠ ديسمبر ١٩٦٤م.

• إدجار ألن بو :

كان علماً متميزاً فى الأدب الأمريكى، ولد صدفة فى بوستون، ولكنه لا ينتمى إلى مجموعة المؤلفين فيها، وأمضى جانباً كبيراً من حياته فى نيويورك، ولم يتأثر بأى من الطرز الأدبية التى سادتها، ظل فريداً، شاعراً وناقداً وقصاصاً، وخارج دائرة الأدب الأمريكى، علم وافد من العالم القديم، وزهرة دخيلة وعبقة، بين زهور امريكا البرية الشائكة. وليس ثمة أمريكى ممتاز يصعب الوصول إلى ترجمة حقيقية له مثل ألو بو، واعترافاته لا يوثق فيها كثيراً، يكفى أن نشير إلى أنه أعطى فى ثلاث مناسبات مختلفة،ثلاثة تواريخ متباينة لمولده، وتتباعد بينها كثيراً، وكان مزهواً بفوضى شبابه فيما يبدو، وأطراها دائماً ما استطاع، واختلف فيه الدارسون بين إطراء يبلغ قمة المجد، ونقد يتجاوز حد العداء.

ولد فى بوستون ١٩ يناير ١٨٠٩ ، لأب ضابط ثائر وممتاز، تخلى عن حقوقه ليصبح ممثلا من الدرجة الثانية، ولأم ممثلة ممتازة، وفى العام الثالث من مولده توفيا بداء السل، وتركا وراءهما ثلاثة أبناء على باب الله، أكبرهم فى الخامسة من عمره، وأثار موقفهم المحزن عاطفة الشفقة عند جار لهم، وكان من تجار الطباق الأغنياء، فاختار إدجار، وهو أوسطهم، وكان طفلا جميلا فتبناه، وبعدها جرى كل شىء فى صالحه، حمله أبواه بالتبنى إلى إنجلترا وهو في السادسة من عمره، وأدخلاه مدرسة خاصة فى ضواحى لندن أمضى فيها خمسة أعوام، وعندما عادوا إلى الولايات المتحدة واصل تعليمه على يد عدد من المدرسين الخصوصيين،

حتى إذا بلغ الثامنة عشرة من عمره دخل جامعة فرجينيا عام ١٨٢٦ وفى هذه السنة نفسها اندفع يقترض بلا حساب، ورفض متبنيه أن يسدد ديونه، وغاضباً عليه أخرجه من الجامعة، وألحقه موظفا بمكتب جار سابق لهم، ولم يعجبه العمل فتركه، وعاد إلى بوستون، وفيها نشر ديوانه الأول بعد قليل، ديوان شعر صغير، محدود القصائد، ثم انتظم فى سلك الجيش عام ١٨٢٧ لمدة سنتين، بلغ فيهما درجة «رقيب»، وسمع أن والدته بالتبنى توفيت فذهب لتعزية زوجها، وعفا هذا عنه، وتوسط له فى أن يدخل الكلية الحربية، ولكنه طرد منها بعد عشرة شهور لسوء سلوكه، فتنكر له أبوه بالتبنى من جديد، وعندما توفى بعد قليل وفتحت وصيته، تبين أنه تجاهل إدجار تماماً ولم يوص له بشىء.

وما لبث أن رحل إلى مدينة بلتيمور، شدته إليه شابًا وطموحاً، وكانت عاصمة الجنوب الأدبية إذ ذاك، ولكن أعماله الأدبية الأولى لم تصادف نجاحا، إلى أن نال جائزة القصة القصيرة عام ١٨٣٣م، وفيما بعد قال جون كيندى وكان أحد أعضاء اللجنة التى فحصت قصص المتقدمين، إن بو كتب قصصه فى خط جميل للغاية، كما لو كان طباعة، وجلّدها فى أناقة، وأن اللجنة منحته الجائزة متأثرة بهذا الجانب الشكلى إلى حد كبير، وقد قدم ست قصص، اختار منها واحدة للنشر بعنوان «المخطوطة وجدت فى زجاجة»، وعاش على امتداد عامين مع خالة له، ثم توسط له جون كيندى لكى يعمل فى المجلة الأدبية التى تصدر فى المدينة، وما لبث أن اختص بتحريرها وحده. وفى عام ١٨٣٣ تزوج من ابنة خالته، فتاة جميلة

وغضة، في الرابعة عشر من عمرها، وفي حبه لها وجد شعاعاً مضيئاً، أشرق في أعماقه، وأنار حياته الحزينة. جاءت لتفتح له أبواب السعادة والنجاح والمستقبل، وأدركت معه المجلة الأدبية ذيوعاً واسعاً، وحملت معها شهرته ناقداً وقصاصاً، ولكن بعد ثمانية عشر شهراً تركها وعاد ضايعاً من جديد.

وأمضى في فيلادلفيا خمسة أعوام، عمل محرراً في بعض صحفها، وانتقل إلى نيويورك ليعمل في المهنة نفسها، وقرّ رأيه على أن يستقر فيها. ولكن عاداته السيئة حالت بينه وبين الاحتفاظ بأية وظيفة لمدة طويلة، وبين ألوان الشقاء والشهرة التي تحاصره من كل جانب ماتت زوجه عام ١٨٤٧ ، وعلى الرغم من أدبه والإقبال عليه، وعمله القاسي، رأى نفسه مضطرًّا لقبول المساعدات المالية. ومع وفاة زوجه بدا نصف مجنون، وسقط نهائيًّا في عالم اللامبالاة. وبعد عامين بدأ يداعب إحدى صديقات طفولته، يتحسس الطريق إليها زوجا، فلما استجابت له رحل إلى الجنوب لينهي إجراءات الزواج، ولكن ما إن إلتقى برفاقه القدامى في بلتيمور حتى أغرق نفسه في الشراب من جديد، كان يسكر حتى البلادة، وبعد أيام وجدوه فاقد الوعي تماماً، وما لبث أن توفي في ٧ أكتوبر ١٨٤٩م، وله من العمر واحد وأربعون عاماً.

كان بو شاعراً وناقداً وقصاصاً، ويهمنا من إبداعه الجانب الأخير فحسب، وهو الذي أجاد فيه وتميز، وامتد به الخيال عبر أرجائه، وجاءت قصصه كلها قصيرة، بعضها تحليلي والآخر

خيالى، وأغرم فيها بالمناظر العابسة، والقلاع الشهباء، والمبانى القديمة، انهارت تماماً أو قامت لها بقايا، ويستخدم تقنية رياضية تنطلق من وصف المناخ الهادئ، وتندفع بالقارئ فى نعومة إلى عالم مجنون، وانفعالات متوترة، وبؤس قاتم، وكلها تترك فى أعماقه شيئاً غامضاً ومرعباً، والموت وحده هو الذى يريح منها، وحتى عناوين قصصه قاتمة، ولا تخدم القصة عنده أى هدف غير أن تجمد الدم فى العروق، ومع ذلك فهو ينمى فكرته فى مهارة عالية، ويحمل القارئ إلى النقطة الحاسمة، يثير أعصابه تماماً، ولا يفكر فى غير التأثير الذى يحدثه فى أعماق قرائه، وكانت وجهة نظره التى دافع عنها دائماً: «إن التهذيب ودروس الأخلاق لا مكان لها على الإطلاق في الإبداع الفنى». ورغم أن عالمه ينوء بالرعب والمآسى جميل وأخاذ، وهذا المزج المحكم بين الرعب والجريمة والمعاناة يدفع بالحزن فى أعماقنا على غير إرادة، ويجعل منا رومانسيين حتى لو كان كل ما حولنا من شقاء يشدنا إلى الواقع الأليم شدًا.

لم يحدث أن عرّى النقاد الأمريكيون مؤلفاً أمام الجمهور ليرى كل نقائصه كما فعلوا مع بو، لقد ضغط عليها كثيراً الناقد جريزولد Griswold ، وهو أول من كتب سيرته، ولكن الكتاب المتأخرين كانوا أكثر موضوعية، ويقول عنه ولز Willis وعرفه عن قريب : « كان منضبطا ومجتهداً، هادئاً وصابراً، فارساً ومحترماً، ولطيفاً ».

* * *

في عام ١٨٨٥ رُفعت في متحف الفن الحديث في نيويورك لوحة تذكارية لبو، كُتب عليها: «كان عظيما في عبقريته، تعساً في حياته، بائساً في موته، ولكن شهرته ستبقى إلى الأبد».

• جي دي موباسان :

ظلت القصة القصرة على نحو ما وصفنا في الفصل السابق، إلى أن جاء موباسان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر (١٨٥٠-١٨٩٣)، وكان شاعراً وقصاصاً وروائيًا ومؤلفاً مسرحيًّا، وتتلمذ على الكاتب الفرنسي فلوبير، وربطته بأسرة موباسان علاقة وثيقة، وتبناه وبسط عليه رعايته، فكان يصحح له أخطاءه، ويرشده إلى مصادر ثقافته، ونصحه ألا ينشر شيئاً قبل أن يتمكن من أصول القصة وتقنيتها. وبدأ حياته مناضلا في صفوف الطبيعيين تحت راية إميل زولا، وبتأثير منه ومن أستاذه فلوبير انتهى إلى الواقعية، مطلقة وجافة وساخرة لا ترحم. وجاءته الشهرة مع قصصه الأولى، وفيما بعد نشر كثيراً منها، وفيها تتعايش ألوان من البرجوازية الباريسية، وفلاحين من نورماندیا، ماهرين وحقراء وخشنين، ورسم أُولئك وهؤلاء في دقة رائعة، وبفن لا يعلى عليه.

كان يرى أن الحياة واقعا تختلف عما يقرأه في القصص والروايات، فليس الحب والزواج أهم ما فيها، ومن الأمور العادية التي تحدث كل يوم ما يصلح موضوعا لقصة، ومن الأفراد العاديين الذين يتحركون بين غمار الناس ما يصلح أن يكون بطلا، ومنابع إلهامه جنسية، والجنس منبع خطر للإلهام، لأنه يصبح متناقضاً بسهولة،

والقصص والروايات التى كانت فى أصلها احتجاجاً عاطفيًّا على استغلال الجنس وامتهانه تصبح بسهولة مجرد طريقة أخرى لاستغلاله وامتهانه. والرجل الذى يختار الجنس كمنبع للإلهام كمن يرث بيتاً للدعارة، فقد يستعمله بالطبع ليجعل حياة موظفيه أسعد وأحسن، ولكن من الممكن دائماً أن يستعملهم لمنفعته ومتعته الخاصة»[١] ومن ثم كان مجاله الخاص «الجماعات المغمورة جنسيًّا فى القرن التاسع عشر الأوربى، ولقد عالج الموضوع آخرون من قبل دون شك، ولكن موباسان كان الرجل الذى وسمه بطابعه، الرجل الذى ربط نفسه علانية بالبغايا، وبالفتيات ذوات الأطفال غير الشرعيين. لقد عومل هؤلاء كنكتة قبيحة حقًّا، حتى أرساهم هو كموضوع حقيقى، نكتة من نكات قاعات الموسيقى، والصحف الهزلية التى عرفت الحقيقة الكامنة وراء نفاق العصر البراق»[٢].

لقد انتهت به التجربة إلى أن الملامح العابرة والأحداث البسيطة، والأفراد المغمورين، لا تصلح الرواية للتعبير عنهم فى الواقعية الجديدة، وأن القصة القصيرة تجىء منفصلة، وتعبيراً عن لحظة محددة، أفضل قالب يصب فيه انطباعه عنهم. وكان هذا اكتشافاً خطيراً، ومن أهم الاكتشافات الأدبية فى العصر الحديث، لأن القصة التى ارتضاها موباسان، ولاءمت مزاجه، وافقت روح العصر، وكانت وسيلة طبيعية للتعبير عن الواقعية الجديدة، وغايتها اكتشاف

(١) فرانك أوكونور: الصوت المنفرد، مقالات فى القصة القصيرة، ترجمة الدكتور محمود الربيعى، ص ٦٣ ، القاهرة ١٣٨٩-١٩٦٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٦ .

الحقائق من الأمور الصغيرة العادية المألوفة، ولعل هذا هو السبب فى انتشار القصة القصيرة منذ موباسان حتى يومنا هذا[١]. وكأى عمل جديد ورائع وأصيل، رفض الناس قصص موباسان فى بادىء الأمر، لأنها جاءت على خلاف ما سبقها من قصص، ولكنهم ما لبثوا أن أدركوا روعة الفن فيها، فأقبلوا عليه، وارتبطت باسمه فى وطنه فرنسا، وفى خارجها.

كان يتصور الحياة قبيحة، ويركز إلتفاته فى نقطة صغيرة منها، وهى عادة نقطة كئيبة رثة غير شائقة، ويأخذ هذا الجزء الصغير فيضغطه إلى أن يعبس أو يدمى، ولكن أتعس قصصه يومض فى رواياتها بريق الشهوة، إنه يحب ذلك الاتصال الكهربى للحم البشرى، فهو «رينوار»[٢] القلم. ولم يكن يرى فى قصص الحياة التى كان عليه أن يرويها، سواء قصص الفلاحين أو الأمراء، غير فكاهة دقيقة مستخفية، وبلغ أدق الحيل الفنية فى وصفه لمسلاة الألم والغباء والبذاءة، وقصصه الإباحية تستثير دائماً الشرارة السريعة للعقل اللاتيني. ولقد كتب كثيراً من القصص، وأشخاصه لا ينعمون براحة دينية أو روحية، وهو شاعر فى زى ساخر، متشائم وقاسى القلب، وأصبح الرسام الأكبر للعبوس البشرى، يرسم وليس به حب أو كراهية، ولا غضب ولا عطف، فهو يعرض علينا كل الأرواح الغريبة، وكل منكودى الطالع، عرضاً واضحاً بحيث نراهم بأعيننا

---

(١) الدكتور رشاد رشدى: فن القصة القصيرة، ص ٩ .

(٢) رسام فرنسى شهير، من بين أعلام المذهب التأثيرى فى الرسم، وعاش من ١٨٤١ إلى ١٩١٩ .

نحن، فنجدهم أروع من الحقيقة نفسها، لقد استطاع بضربات قليلة من قلمه اللدن، أن يعيد الحياة إلى كل جهاد الفلاحين النورمنديين، اتصل بهم، وأدرك طرائق عيشهم، وغرائزهم وأفكارهم، فجاء تصويره لهم صادقاً وأميناً، وعابساً كئيباً فى الوقت نفسه. كان دائماً يلتقط قصصه من بينهم، ومن شفاه صائدى الأسماك، والممثلات والعاهرات والكتبة، ويردد: علينا أن نقفز إلى النجوم من سلم الملاحظة الدقيقة.

• **تشيخوف :**

بعد تسع سنوات من رحيل جوجول، أو فى عام ١٨٦٠ م على التحديد، طرق تشيخوف باب الحياة، والحالة فى وطنه أشد سوءاً، والإرهاب أعلى كلمة، وبعد إغتيال الإمبراطور إسكندر الثانى عام ١٨٨١ م، إزداد الحكم المطلق قساوة وعنفاً، فجمد الحياة الثقافية، وحافظ على امتيازات النبلاء، وعمق الفروق الطبقية، وقيد التعليم، وشدد الرقابة، ووأد المبادرة، واضطهد الأقليات، واستحالت الحياة عند الطبقة المتوسطة والمثقفة إلى جمود مميت، وعكس الأدب كآبة ذلك العصر.

ولد أنطون تشيخوف فى «تاجا نروج» على بحر أزوف، ابناً لصاحب حانوت صغير، وحفيداً لعبد من رقيق الأرض، ليس أمامه ليزيح تلال الشقاء من طريقه غير العمل المضنى، والكفاح الشاق الدءوب. وبعد سنوات دراسية بائسة فى مسقط رأسه لحق بأسرته الكبيرة فى موسكو، تناضل هناك ضد الفقر، من أجل حياة أقل

بؤساً، وحقق شيئاً مما أراد، فدخل كلية الطب، وبدأ أثناء الدراسة ينشر صوراً قلمية ساخرة، بأسماء مفتعلة ومتعددة، يهدف من ورائها أن يريح شيئاً، وسرعان ما أصبحت الكتابة شاغله الرئيسي. وحين حصل على شهادة الطب هجره إلى الأدب، وقبل أن يبلغ الثلاثين من عمره توطد مركزه كقصاص من الصف الأول، وبعدها لم تتوقف شهرته أبداً، وعندما توفى بالسل عام ١٩٠٤ م، اعتبر مواطنوه ذهابه خسارة قومية كبرى، ولم تستطع أية اتجاهات سياسية أن تؤثر فى شعبيته، وظل عدد قرائه فى العهد القيصرى وبعد الثورة الشيوعية واحداً لم يتغير، ولقى فى الأعوام الأخيرة تقديراً خاصاً خارج بلاده، وبخاصة فى البلاد التى تتكلم اللغة الإنجليزية، ويعد اليوم واحداً من أعظم كتاب القصة فى العالم، وأهم كتاب روسيا وأوضحهم تأثيراً فيمن جاءوا بعده.

عندما كان فى التاسعة والعشرين من عمره أوجز حالته التى كان عليها حين اقترح فى لهجة تجمع بين السخرية والمرارة والصدق والإحساس بالرضا، أن يكتب قصة عن شاب أبوه من رقيق الأرض، وعمل مساعداً فى حانوت، وصبيًّا فى جوقة، وتلميذاً فى مدرسة، وطالباً فى الجامعة، تربى على نفاق الأكابر، وتقبيل أيدى القسس، وتقبل أفكار الآخرين دون سؤال، وعبر عن امتنانه لكل لقمة خبز تناولها. جُلد مراراً، وذهب حاف القدمين ليعطى دروساً، وتشاجر فى الشارع، وعذب الحيوانات، وتلمس الذهاب إلى بيوت الأغنياء من ذوى قرابته ليأكل، ونافق الله والإنسان دون سبب، سوى أنه وعى عدم أهليته. هل تستطيع أن تكتب قصة عن الطريقة التى

اعتصر بها هذا الشاب شخصية العبد من نفسه قطرة قطرة؟. وكيف شعر وهو يستيقظ ذات صباح أن الدم الذى يجرى فى عروقه دم حقيقى وليس دم عبد ؟ [١].

تميز تشيخوف بأنه عرف وطنه جيداً، وملأ قصصه بممثلين لكافة دروب المجتمع، من الفلاحين والنبلاء، والموظفين التافهين، وكتبة الأقاليم، والتجار الغشاشين، والمدرسين المملين، والقساوسة المتواضعين، وضباط الشرطة الجهلة. وباختصار كان الإنسان العادى البسيط يمثل الشخصية الرئيسية عنده، شخصية خالية من أية سمات بارزة، وتعيش حياة تافهة، اهتماماتها حقيرة، وأفكارها وضيعة، يخسر الواحد منهم على مائدة القمار فيعاقب ابنه بالسياط فى الصباح التالى، ويرقص طربا عندما تنشر الجريدة المحلية اسمه فى حادث مرور، أو ينال وساماً يضعه على صدره، ويسير به فى الشوارع مزهوًّا، وقد ترك معطفه مفتوحاً فى يوم شديد البرودة.

سخر تشيخوف من كل هؤلاء، واتخذ منهم مادة قصصه، وتمتع بقدرة باهرة على تصوير غباء العاطلين، وسكر الحوذية، وخيانة الزوجات، وانخداع الأزواج، وارتشاء رجال الشرطة، وبخل التجار، وفضح فى غير مواربة رياء الناس وحماقاتهم وتفاهة ما يفكرون فيه، ولكنه فى أواخر حياته قلل من الفكاهة والسخرية، وركز على الجوانب السلبية المدمرة فى حياة البشر.

---

(١) فرانك أوكونور: الصوت المنفرد، ص ٦٩ .

كانت قصص تشيخوف متنوعة الموضوعات، واتسمت بالسلبية تجاه الحياة الاجتماعية والسياسية التى كانت تحكم أقدار روسيا فى أواخر القرن التاسع عشر، وما كان يهمه من الأحداث العادية تصوير الانحطاط الروحى فى أعماق النفس الإنسانية، ومن ثم تميزت شخصياته باللامبالاة، وخور العزيمة، لا يعرفون ماذا يفعلون بحياتهم، ويسيرون فى طريق مألوف ارتاده قبلهم آلاف وآلاف، يعيشون فى مدينة صغيرة موحشة، يحتسون الفودكا، ويلعبون الورق، ويثرثرون بأحاديث مكررة، وغير ذات معنى، ثم يعتريهم السأم والملل من تشابه الأيام والليالى، ويفقدون القدرة على الانفعال العنيف، أو العمل المثمر، ضحايا التفاهة والرتابة، وعاجزون عن الإفلات من طوفان الأحزان. وكان ذلك نتيجة طبيعية للأحوال الاجتماعية والسياسية التى كانت تسود المجتمع الروسى إذ ذاك.

كان تشيخوف على النقيض من شخصياته وأبطاله دؤوبًا نشطًا، ودافع عن العمل والإرادة، وآمن بالصحة والذكاء والموهبة، والإلهام والحب والحرية، واستهوته فى فترة من حياته أفكار تولستوى الأخلاقية التى تؤمن بعدم مقاومة الشر بالعنف، ولكنه عندما زار مستعمرة العقاب فى «سخالين» تخلى عن هذا العقيد، وأكد من جديد قيمة النضال والإيمان بالتحرر، وكتب بين الجد والهزل: «إن العقل والعدل يخبرانى بأن هناك قدراً من الإنسانية فى البخار والكهرباء أكبر مما فى العفة والنبات»، وابتعد عن السياسة لأنه رأى الأفكار الديمقراطية ذات المحتوى القديم لم تستطع أن تقود الإنسان نحو التحرر، ولم تكن الديمقراطيات الجديدة قد ولدت

بعد، فآثر الابتعاد عنها، ولكنه لم يعادها، وكان واحداً من ذلك التآخي الواسع الذي ضم الطبقة المستنيرة المتحررة على أيامه، يشاركهم سلوكهم ومطامحهم، وعندما حرم صديقه جوركي، الأديب الروسي الخالد، من عضوية الأكاديمية، بقرار من القيصر لأسباب سياسية، وكان عضواً فيها، استقال محتجًا وكان يكرر دائماً: «من لا يريد شيئاً، وليست له آمال ولا مخاوف، لا يستطيع أن يصبح كاتباً عظيماً».

ثمة سمة تجعل من قصص تشيخوف دائماً وحياً، وهي فهمه للواقع النفسي، ويقوم موقفه من شخصياته على نبذ التصنع والمباهاة، وكرهه لرومانسية التمويه والزخرفة، والتنطع في الحديث، كما كان يكره النغم الخطابي. والصوت المرتفع، وهو يعرض شخصياته مجردة من التلفيق والأكاذيب، ويعرض جوهرها فاضحاً الأوهام والعادات، فجاء إبداعه صادقًا ومخلصًا، وامتزج بشفقة نقية، وسخرية شفافة، ولم يلبس رداء الواعظ أبداً، ولم يكن داعية أخلاق، واكتفى كما لاحظ جوركي بأن يقول: «أيها السيدات والسادة، إنكم تعيشون بطريقة سيئة». على حين تنم ابتسامته عن سماحة إنسان بالغ الحكمة، ويتسم قصصه بالدفء الحنون، تجاوز الواقعية الكلاسية، وكتب قصصه بأسلوب تأثري، يعتمد على التفاصيل الرمزية، المنتقاة بعناية، ولها إيقاع لفظي، وجاءت في شكل وحدات شعرية، أكثر منها وحدات قصصية خالصة.

لقد أدار ظهره للاستهلالات المطولة، والتحليلات النفسية والمنطقية، والصور الفاقعة، وترك شخصياته تعبق بأريجها الخاص،

وتجئ فى لحظاتها المزاجية الخاطفة، دون تعمق أو تكامل، تثرثر فيما لا يناسب الموضوع، تحاور فى أحداث غير معروضة، ويحركهم رجالا ونساء فى أردية النوم، ويفسرهم لنا عن طريق التوافه، وقال عن نفسه يوماً: «أنا أكتب من الذاكرة، لا أستطيع أن أنقل عن الطبيعة مباشرة، وموضوع قصتي يجب أن يمر بمصفاة عقلى، حتى لا يبقى إلا ما هو ممثل وهام» وما يعده تشيخوف هاما يبدو ليس كذلك عند الوهلة الأولى، فالتفاصيل الجانبية، والتى لا صلة بينها، والايحاءات المستترة، تجعل من القصة إيقاعاً منسجماً، وتكتسب لوناً رماديًا موحداً، ومناظره الطبيعية لقطات سريعة، كالرسم بالألوان المائية على الطريقة اليابانية. وتفتقر قصصه إلى الحبكة المثيرة، وإيماءاته حاذقة وخفية، وتترك الكثير لخيال القارىء وذكائه، وتنقصها الحيوية عادة، ويخامرنا الإحساس بأنها لم تأت بشىء محدد ولا يتضح المعنى فى معظمها إلا بعد أن تقرأ آخر جملة، وبعدها تبدأ التفكير، وكثيراً ما يكون للتأخر قوة الاكتشاف أو الإلهام[1].

هذه الطريقة عند تشيخوف، إلى جانب أسلوبه المصقول بعناية، والذى يتسم بالبساطة والرشاقة، تجعل منه واحداً من أساتذة القصة القصيرة الحديثة فى العالم، وتحس بتأثيره فى مؤلفات كتاب آخرين كثيرين، من كاترين مانسفيلد إلى أرنست همنجواى، أو كاترين آن بورتر، أو محمود تيمور. ولم يضع

---

(١) مارك ساونيم: مجمل تاريخ الأدب الروسى: ترجمة صفوت عزيز جرجس، ص ١٥٦ وما بعدها، القاهرة بلا تاريخ.

أسس القصة فى وطنه وفى العالم فحسب، ولكنه أيضاً عبد الطريق أمام الرواية الحديثة، وإنه لمن المستحيل أن نتصور روايات جوركى فى الشكل الذى جاءت عليه، لو لم تسبقها قصص تشيخوف.

• عصر القصة :

وبعد هؤلاء، أو حتى معهم، بهرت القصة كجنس أدبى جديد القارئ الأوربى، وأعان على ازدهارها ذيوع الصحافة، وانحسار الأمية، وارتقاء الثقافة بعامة، فشهدت روسيا غير من ذكرنا تيرجنيف وتولستوى وديستوفسكى، ولمع فى فرنسا فلوبير وإميل زولا، وأناتول فرانس، وآخرون، واحتل أرفنج وشنجتون وهورثون، وبرت هارت، مكاناً ملحوظاً، وعبروا من خلال قصصهم، فى صيغ مكثفة، عن الأزمات التى مرت بها أمتهم. على حين كانت القصة القصيرة «تختنق فى إنجلترا تحت وطأة الأسلوب المزوق المنمق أولا، وتحت وطأة الوعظ الأخلاقى ثانياً، وتحت وطأة الاعتماد على الغريب، والابتعاد عن واقع الحياة ثالثاً، وفى العشر سنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر حين ظهر فى إنجلترا أخيراً كاتب قصة قصيرة، شابت قصصه نفس الشوائب التى خنقت مجرى القصة فى إنجلترا طوال القرن، فقد جاءت قصص «رايدر كبلنج» مشوبة بشوائب البطولات الجوفاء البعيدة عن واقع الحياة، وبالدروس والحكم، لا الدروس الأخلاقية فى هذه المرة، بل الدروس الاستعمارية، بالدعاية جنباً إلى جنب مع نغمة التمييز العنصرى. ولم يتأت للقصة الإنجليزية القصيرة أن تستكمل مقوماتها إلا بعد أن انحدر الاتجاه

الرومانسى فى الوقت الحالى فى اللغة والموضوع، واندحرت معه كل محاولة للوعظ والإرشاد والدعاية، وتحميل القصة القصيرة مالا تحتمل. وانضمت القصة الإنجليزية إلى تيار القصة العالمية بظهور كتاب مثل «كاترين مانسفيلد»، و «كوبارد» كتاب يلتزمون الموضوعية التامة، ويصورون الحياة على ما هى عليه. دون محاولة لتزييف هذه الحياة، ودون محاولة لإثقال شكل فنى رهيف بالوعظ والإرشاد»[١].

ولا نكاد نتجاوز القرن التاسع عشر إلى القرن الذى نعيش، حتى يعم هذا الفن العالم بأسره، ويتخذ منه كثيرون قالباً يصبون فيه خطراتهم وآرائهم وملاحظاتهم، ونلتقى فيه بكل طبقات الكتاب، وبكل ألوان المذاهب والاتجاهات، وهو ثراء يجعل مهمة الناقد فى تتبع هؤلاء عسيرة، وملاحقته للجديد فى مجال القصة أشد عسراً.

(١) الدكتورة لطيفة الزيات، مجلة الرسالة العدد ١٠٩١ ، ١٠ ديسمبر ١٩٦٤ ، ص ١٩ .

نحو تحديد الخصائص

• ما القصة القصيرة :

يبدو للوهلة الأولى أن القصة لا تختلف عن الرواية إلا فى الحجم، وأن الوسائل التقنية الأخرى واحدة عند القصاص والروائى، كلاهما - مثلا - يستطيع أن يأتى بقصته أو روايته فى ضمير الغائب، أو المتكلم، وأن يجىء بها في شكل يوميات أو مذكرات، وأن يستخدم الوصف أو الحوار، وأن يغرق معها فى الرومانسية أو يلتصق بعالم الواقع، وأن الرواية يمكن أن تضغط فتصبح قصة، وأن القصة يمكن أن تمط فتصبح رواية. وهو تبسيط للأمور بأكثر مما تحتمل، لأن الفارق بين الاثنتين كبير للغاية. وأول ما نلحظ منه أن الرواية أخذت، وتأخذ، فى كل بيئة لوناً، وفى كل عصر شكلا، على حين أن القصة، وهى أكثر شباباً، وفى الوقت نفسه أقدم الأجناس الأدبية تاريخاً، ظلت وفية لماضيها، ولم تتنكر لأصولها الأولى، إنها حتى اليوم تقال فى كل مكان، بين الشعوب البدائية، وعند أشد الأمم رقيًا، ولو أنها فى الحالة الأولى تفتقد نية القيام بعمل فنى، وهو ما يميزها عن الثانية.

ما القصة ؟.. إن أى محاولة لتعريفها أو تحديد خصائصها تضطرنا إلى الاقتراب من ألوان أدبية أخرى، إن لم تكن قصصاً خالصاً فهى به أشبه، كالأسطورة والمثل والخرافة ومجرد الحكى،

ثم الرواية أخيراً. وسنحاول أن نجد للقصة الحديثة تعريفاً عند أولئك الذين عايشوها إبداعاً، وعالجوا قضاياها نقاداً، وشهد لهم عالم الأدب بالسبق فى مجالها.

من بين التعريفات الكثيرة للقصة اخترت واحداً، ربما كان أكثرها وضوحاً أو هكذا بدا لى، وهو للقصاص والناقد الأمريكى إدجار ألن بو، وأورده عرضاً وهو يتحدث عن مواطنه القصاص الأمريكى هوثورن Howthorne (١٨٠٤ –١٨٦٤) يقول: «تقدم القصة الحقة، فى رأينا، مجالا أكثر ملائمة، دون شك، لتدريب القرائح الأرقى سموًّا، مما يمكن أن تقدمه مجالات النثر العادية الأخرى.

«يبنى الكاتب القدير قصة، لن يشكل فكره ليوائم أحداثه إذا كان فطناً، إلا بعد أن يدرك جيداً أثراً ما، وحيداً ومتميزاً، عندئذ يخترع الأحداث ويركبها بطريقة تساعده فى إحداث الأثر الذى أدركه. وإذا عجزت جملته الافتتاحية عن إبراز ذلك الأثر، فمعنى ذلك أنه فشل فى أولى خطواته. وفى عملية الإنشاء كلها يجب ألا تكتب كلمة واحدة لا تخدم بطريقة مباشرة التصميم الذى خطط من قبل».

ويتحدث الناقد الأرجنتينى المعاصر أندرسون إمبرت عن «حكاية قصيرة ما أمكن» حتى ليمكن أن تقرأ فى جلسة واحدة، ثم يضيف: «يضغط القصاص مادته، لكى يعطيها وحدة نغم قوية: أمامنا عدد قليل من الشخصيات، وشخصية واحدة تكفى. ملتزمين بموقف نترقب

حل عقدته بفارغ الصبر.. ويضع القصاص النهاية فجأة، فى لحظة حاسمة». إنه يدافع عن النظرية التى تقول إن القصة لها تأثير كلى. ويتحدث عن وحدة الاندفاع، من الدفع والاهتمام، وتنفجر فى نهاية يمكن أن يتوقعها القارىء بدءاً، ومع ذلك ينتظرها. وإلى جانب ذلك يجب أن تكون موجزة، وفى الوقت نفسه مؤثرة، لكى تعوض القوة ما تفقده حجماً. ومن ثم فإن كل كلمة، وكل جملة، يجب أن تكون ثملة بالمعنى، وبأكبر قدر من الايحاء، وأن تكون طاقتها قادرة على التحمل، لكى تحقق القصة إنجاز الإبداعات الكبرى.

عندما تقول غادة السمان فى قصتها «ليلى والذئب»: «أمى مشغولة، مشغولة دائماً، لا أدرى كيف وجدت الوقت ذات يوم لولادتى، ربما أبقتنى فى جوفها شهراً إضافيًّا ريثما وجدت لى فى زحمة مشاريعها ومواعيدها وقتاً» فإنما تعطى فى كلمات قليلة معنى مكثفاً، يضع أمامنا الصورة مجسمة، ذات بعد ثالث، تغنى عن صفحات طوال من الوصف.

وإليك صورة من قصة يوسف إدريس «أبو سيد»: «وتركت رمضان وراءها يتحسس تجاعيد وجهه، ويملس على رأسه التى كادت تخلو من الشعر، ويمر بيده على بطنه المتكور، ويشد شعر رجله الكث الذى أبيض أكثره، وينظر إلى ابنه سيد. وتأمل الصبى وكأنه يراه لأول مرة منذ سنوات!». إنها لوحة كاملة، هادئة الإيقاع، شهباء اللون، خفيضة الصوت، بارزة الوصف، ذات بعد ثالث، وتغنى عن صفحات.

تُولد القصة الجيدة كلا، ومنذ اللحظة الأولى تسقط بين يدى المؤلف كياناً كاملاً، تصوراً يتوقعه، وبخاصة نهايتها، وبعد ذلك تجيء العناصر الأخرى: تقدير جرعة الاهتمام، تخيّر الألفاظ، البحث عن الألوان الموحية، وفى كلمة واحدة: العمل. ولقد يكون مفيداً للنقاد والدارسين أن يقارنوا بين مسودات المؤلف الأولى وما نشر، وبين الطبعات المختلفة لقصة ما، وهو شيء لما ننتبه إليه فى مصر، وملاحظة ما أدخله المؤلف من تغيير في كلماته، بإحلال لفظ مكان آخر، أرق أو أدق، أو أسهل انسياباً في النغم، أو حذفه تماماً لسبب أو لآخر، ومن إلغاء جملة ارتآها حشواً، أو زيادة أخرى تعطى الصورة وضوحاً أدق، أو إعادة نظمها لتكون أكثر اتساقاً فيما بينها، أو مع غيرها. وأن يكون على وعى بما يعنيه الاتقان لتحقيق العناصر الحيوية فى القصة: الإيجاز والاهتمام والتوتر. ويجب أن تختم القصة بإحكام، دون أن تترك مجالا لثغرات جديدة، أو أية شروح تالية لها، مثل هذا العمل قد يأتى عليها، ويذهب بحقيقتها. فى قصة نجيب محفوظ «عنبر لولو»، اتفق البطل مع فتاته، والتقى فكراهما: «قام فقامت، أعطاها ذراعه فتأبطتها، مضيا نحو باب الكشك وهو يقول: سأطلق الرصاص في جميع الجهات. سنرقص ونغنى ونمرح»، ومعها انتهت القصة، وبدأ عمل القارىء، إن البقية يجب أن تترك لخياله وهو خلاق أيضاً، ونجيب محفوظ وهو قصاص متمكن من فنه يعرف أن القصة يجب أن تنتهى هنا.

نحن بإزاء جنس أدبى محكم، لا يسمح بالفضول أو التزيد بما ليس فى خدمة النهاية التى حددها منذ البدء على نحو دقيق،

فى خدمة التوتر أو القـوة التى ينهض عليها البنـاء، فى حـل العقـدة التى ينتظرها القارئ مشتاقاً. ولا يمكن للقصاص أن يجنح أو يسهو أو يبطىء، دون غايـة، فى رسم الجـو أو تصويـر الشخصيـات، أو المناظر الطبيعيـة، أو الحـوار. ومـن الممكـن طبعـاً أن توجـد هـذه العناصر كلها فى قصة، ولكن فى خدمة البناء القصصى، على نحـو ما سنرى.

الحوار: يمكن أن يستخدم، ومن الضرورى جدًّا أن يكون قصيرا، موجزاً محكمًا، بلا فضول، بل وقد يلعب الحوار دوراً رئيسيًّا كعنصر قصصى. وهناك قصص تقوم فى مجملها على الحوار، كما فى قصة «عنبـر لولـو» لنجيب محفـوظ، أو قصة «شقـاء» للقصاص الـروسى تشيخوف، وقد تجئ على العكس فتخلو منه تماماً، كمـا فى قصة «ذراعان» لمحمد أبو المعاطى أبـو النجـا، دون أن يمس هـذا فى شىء حقيقة الجنس الأدبى، أو روعة القصة وتماسك بنائها.

الخلق النفسى: يستطيع القصاص الجيد، فى نطاق الحدود الدقيقة التى تحكمه من الزمن والحدث والعاطفة والاهتمام والحيز المحدود، أن يجعل الإبداع النفسى عابراً على الدوام، بسيطاً وواضحـاً، ومـن خلال خطوط قليلة عادية، ولكنها صلبة دائمـاً، وفى خدمـة القص، دون أن يعنى ذلك بأية حال أن القصة الجيدة تتطلب شخصيات ذات بساطة فكرية، أو نفسيات غير معقدة، من الذى يستطيع أن يؤكـد، دون أن يخشى الوقوع فى الخطأ، أن شخصية رمضان فى قصة «أبو سيد» ليوسف إدريس، بسيطة الفكر مسطحة النفس؟.

الوصف والمناخ: كل وصف للطبيعة أو الأشياء أو الأشخاص، يجيء حشوا ولا يخدم العمل الفنى يمزق الانسجام، لأنه ينحرف باهتمام القارىء، ويزعجه، ويبعده عن محور القصة، والاهتمام به، ولا يؤدى أية وظيفة خاصة، ولكن القصة قد تتطلب وصفاً، وبدونه تصبح مقطوعة الرأى، ولنتذكر الأوصاف القصيرة الملتهبة فى قصة غادة السمان، أو الدقيقة الهادئة المتشابكة فى قصة يحيى حقى، لندرك أننا أمام وصف ممتاز، يتنفسه قصاص عظيم. والوصف الذى فى أول قصة «طريق شجر الكافور»، لمحمد عبد الحليم عبد الله، يسهم فى خلق جو ضرورى، لكى تمسك القصة بالقارىء حتى النهاية، فلا يفلت منها إلا مع آخر فقرة. وكان ألن بو أستاذاً فى استخدام هذا المورد، ويكون فحوى الجانب الأكبر من قصصه، وبدون هذا الجو تفقد جاذبيتها، ومعناها أيضاً. فوصف المناظر الطبيعية، كما فى قصة «ملك برجوازى» لروبين داريو، ليست شيئاً زائداً فى القصة، ولا بعيداً عنها، ويجب أن يكون كبقية العناصر التى تكونها، فى نطاق العقدة وخدمتها، لكى يتحملها الجنس الأدبى دون أن تسىء إليه.

ولا تتطلب القصة الجيدة إعداداً مسبقاً، إنها تتجه إلى الحدث مباشرة، تأسر القارىء وتغرقه فى مادتها منذ اللحظة الأولى، يبدأ يوسف جوهر قصته «الأفيون»: «أحقًا يا سيدى الطبيب تستطيع أن تشفينى؟ إنى لا أرى فى يدك سماعة، وحجرتك خالية من أسلحة الجراحة وأجهزة الأشعة.. فكيف أنت مستطيع أن تستأصل الداء الوبيل... أبهذه الصورة على الحائط؟!.. ما اسمها؟... الأمل.. أين

هو؟... إن الفتاة تبدو حائرة وفى يدها قيثارة ممزقة الأوتار.. آه.. بقي وتر واحد.. خيط رفيع.. دقيق كأنه وهم.. أممكن حقًّا أن ينبعث منه نغم.. وأن يوحى بالأمل.. حسناً.. إنى أصدقك.. وسأستلقي على أريكتك المريحة، وسأتكلم فى الضوء الخافت. وأطلق لأفكارى العنان.. بلا خجل.. لن أحبس خاطراً واحداً فى رأسي.. سأعطيك الفرصة كاملة لتحللنى.. من يدرى.. لعلك تنجح حيث أخفقت العقاقير..». وعلى امتداد القصة يقدم الكاتب ملامح البطل، حسية وفكرية، بارزة ومجسمة، فى شكل اعترافات منسابة، دون أن تأخذ الشكل الخارجى للاعترافات، ويقدم معها العقدة وحلها ويقدمها إلى القارىء شيئاً فشيئاً فى أسلوب مصقول، من العنوان حتى آخر كلمة، وكلها تخدم أغراض الكاتب فى نسق يكاد يكون رياضيًّا.

والقصة الجميلة يجب أن تبدو واقعاً، حياة حقيقية تتحرك حولنا، دون إغفاء ينحرف بنا، أو تطويل يدفع الملل فى نفوسنا، وأن تجىء متميزة فيما تلبس من أزياء، صنعت لها وحدها، ولا يشركها فيها غيرها، وأن تكون إلى جانب ذلك موحية، تجعلنا نفكر، مهما كانت واقعية وموجزة، وأن تبقى فى مجال الخيال، متلألئة، تفتح الباب واسعاً وعريضاً أمام ذكاء القارىء، أو السامع، وخياله، ليحلق معها ما شاء، يلتقط الفحوى والفكرة، وربما معان أخرى أعمق، وذات قيمة بالغة. ومع الخيال العالى والراقى تبلغ القصة مرتبة الرمز، وترتدى ما هو رمزى، والرمز يتطلب مشاعر مكثفة، وبناء راقيا للتجارب الإنسانية، وتخطيطا تتجدد معه التجربة بكل عمقها،

وبأوسع مداها، فى كل مرة يعرض فيها الرمز. وعندما تصبح القصة رمزية فى وضوح، تتجاوز أن تكون مجرد متعة أو تسلية أو غطاء للواقع، وإنما تصبح فى هذه الحالة تجسيما للواقع نفسه.

وكل قصة جيدة تعبر فى وحدتها عن وحدة فلسفتها ومفهومها للعالم، وهذا المفهوم ليس انعكاساً لمعرفة محصلة تهدف إلى توضيحه، وإنما هو قبل أى شىء شكل من الإحساس بالعالم وبالحياة، وترجمة لموقف منه، ومحاولة الانسجام معه، ومن هنا فإن تلاحم أية قصة يجب أن يكون طبيعيًّا، والحديث عن الطبيعة يفترض المثل الذى يحتذيه الفرد، لكى يدرك العالم طبقاً لتركيبه المزاجى.

يمكن أن نقول إذن أن القصة :

- حكاية أدبية.
- تدرك لتقص.
- قصيرة نسبياً.
- ذات خطة بسيطة.
- وحدث محدد.
- حول جانب من الحياة.
- لا فى واقعها العادى والمنطقى.
- وإنما طبقاً لنظرة مثالية ورمزية.
- لا تنمى أحداثاً وبيئات وشخوصاً.
- وإنما توجز فى لحظة واحدة، حدثاً ذا معنى كبير.

● بناء القصة :

تروى القصة خبراً، وليس كل خبر قصة، ولكى يصبح الخبر كذلك لا بد أن تتهيأ له الخصائص التى أشرنا إليها من قبل، وفى مقدمتها أن يكون أثره كليًّا، وأن تكون وسيلتنا إلى ذلك ترابط تفاصيله، وأن يصور ما نسميه بالحدث، وهو يتكون من بداية ووسط ونهاية.

فالبداية، أو الموقف عند بعض النقاد، ينشأ منها موقف معين، وتنمو لتبلغ الوسط، أو المرحلة التالية، وتتجمع كلها لتنتهى إلى النقطة الفاصلة، وهو سبب وجود الحدث فى الأصل، ولذلك يسمى النقاد المرحلة الأخيرة، وتمثل نهاية الحدث، لحظة التنوير، ولكن وجود حكاية تنطوى على هذه الأقسام من بداية ووسط ونهاية لا يعنى دائما، بالضرورة، إنها تصور حدثاً، فقد تجىء أخباراً متعددة تتجاور، وليس حدثاً ينمو طبيعيًّا، وتترابط أجزاؤه كل جزء يرتبط بسابقه، ويؤدى إلى ما يليه، حتى يبلغ غايته.

ينشأ الحدث غالباً من موقف معين، يتطور إلى نهاية معينة، ومع ذلك يظل ناقصاً، لأن تطوره من مرحلة إلى أخرى يفسر لنا كيف وقع، ولكنه لا يفسر لم وقع، ولكى يستكمل الحدث وحدته، ويصبح كاملا، يجب أن يجيب على سؤال لِمَ، إلى جانب الأمثلة الثلاثة الأخرى كيف ومتى وأين وقع، والإجابة على هذا السؤال تتطلب بحثاً عن الدافع، أو الدوافع، التى أدت إلى وقوع الحدث بالكيفية التى وقع بها. وهذا يتطلب بدوره التعرف على الأشخاص

الذين قاموا بالحدث أو تأثروا به، فما من حدث إلا كان وراءه مُحدث، شخص أو أشخاص، يترتب عليه وقوع الحدث على نحو معين، والحدث هو الشخصية وهى تعمل، وتصوير الفعل دون الفاعل يجعل القصة أقرب إلى الخبر المجرد، لأن القصة تصور حدثاً متكاملاً له وحدة، ووحدة الحدث لا تتحقق إلا بتصوير الشخصية وهى تعمل.

ويجىء تصوير الشخصية وهى تعمل عملا له معنى، وهذا المعنى ليس مستقلا عن الحدث، يمكن أن تضيفه إليه أو تفصله عنه، وإنما ينشأ من الحدث نفسه، وجزء لا يتجزأ منه، وبدون المعنى يصبح الحدث ناقصاً، لأنه يقوم على الفعل والفاعل والمعنى، وهى وحدة لا يمكن تجزئتها. وقد يبرع القصاص فى رسم شخصيات قصته، ويبدع فى تصوير ما تقوم به من أفعال، ومع ذلك تظل قصته ناقصة، لأن الحدث لم يكتمل، جاء دون معنى. وتكون القصة فى هذا أقرب إلى التاريخ، ويسمى هذا اللون منها القصص التسجيلى. والقصة وحدة متكاملة، لا يتضح معنى الحدث أو يقوم فى جزء منها دون الأجزاء الأخرى، فالحدث والشخصية والمعنى وحدة، ويساند كل منها الآخر ويقوم على خدمته.

وكاتب القصة يحاكى حدثاً لا يشارك فيه، ومن الخطأ أن يقرر رأياً أو فكرة فى سياق القصة إلا إذا جاءت على لسان أحد من شخصياتها، وكان لها علاقة بتطور الحدث، والتقرير من الأشياء التى تعيب النسيج القصصى عيباً شديداً، والقصاص الماهر يترجم

ما يريد إلى معادل موضوعى، وبقدر ما يسرع فى إيجاد المعادل، تكون فنية القصة وتميزها. فالكاتب يصور الحدث ولا يشارك فيه، ويدعنا نرى الأشياء من خلال شخصياته، ومن ثم وجب أن تجىء اللغة أقرب ما يكون إلى لغة الشخصية التى تتحدث إلينا، أو يتحدث الكاتب إلينا من خلالها.

• اللغة :

وقضية اللغة فى القصة والمسرح تثير كثيراً من النقاش المتجدد، وما أريد أن أعرض لها تفصيلاً، فليس هنا مكانها، والذين يرون أن تتفاوت لغة القصة يقولون: «من غير المعقول فى القصة على الإطلاق أن يجعل الكاتب شخوصه تتكلم بمستوى لغوى واحد، وخاصة إذا كانت اللغة المستعملة غير اللغة التى تتكلم وتفكر بها فى الحياة، كما يجعل كثير من كتاب القصة عندنا أشخاص قصصهم تفكر وتتكلم باللغة العربية الفصحى. وليست المسألة عامية أو فصحى كما يفهمها الناس أو كما يتناظرون حولها فى النوادى والندوات، ولكن المسألة عندما تتعلق بكتابة القصة مسألة خطيرة للغاية. وقد آن لكتابنا ممن يفعلون ذلك أن يدركوا هذه الحقيقة، وهى أنهم ليسوا أحراراً فى أن يجعلوا شخوص قصصهم تتكلم أو تفكر بالعربية الفصحى كما يتراءى لهؤلاء الكتاب، فإن من البديهى أن أية قصة تحاكى حدثاً، وأن أى حدث يحكى الواقع، واقع الحياة التى يمثلها الحدث، ولا أعتقد أن أحداً من كتاب القصة عندنا أو فى العالم أجمع ينكر أنه واقعى، فإن كيان الكاتب القصاص إنما يقوم على هذه الواقعية، أى على محاكاته

للواقع وقدرته على إقناع القارئ بأن قصته تمثل هذا الواقع، ولذلك فالكاتب الذى يجعل شخوص قصته تتكلم وتفكر بلغة غير اللغة التى تفكر وتتكلم بها فى الحياة، يهدم من أساسها الواقعية التى هى السبب فى كيانه، لأن الحدث إنما يقوم على الأشخاص وتفاعلهم بعضهم مع البعض، فإن جاءت محاكاة الأشخاص ناقصة جاء الحدث ناقصاً، وبالتالى انعدمت الواقعية. والعجيب أن هذه الظاهرة ينفرد بها كتاب القصة عندنا، دون كتاب القصة فى أى مكان آخر فى العالم، ولعل السر فى هذه الظاهرة الغريبة هى أن كتابنا لم يتخلصوا بعد من المفهوم القديم للأدب الذى يقوم على الصياغة اللفظية ، وهو يختلف تماماً عن المفهوم الذى قامت عليه القصة فى الآداب الغربية ، وهى القصة التى يحاول كتابنا تقليدها»[1].

تلك هى وجهة نظر الداعين إلى تفاوت اللغة فى القصة، كما عرضها الدكتور رشاد رشدى، وفيها بعض الحق والكثير من الباطل. أما الحق الذى فيها فهو أن اللغة المستخدمة فى القصة يجب أن تعكس إلى أقصى حد ممكن الجو النفسى لشخوصها، وما عداه فقابل للمناقشة أو باطل كله. والجو النفسى لا يرتبط باللغة عامية أو فصحى، حتى لو كانت هذه جزءاً منه، لأن جانباً كبيراً منه وبخاصة ما كان حواراً، يتوقف على نغم الكلمة الموسيقى حين تلقى، وهو ما لا يمكن تصويره واقعاً إلا على المسرح، وجملة «السلام عليكم»،

---

(١) رشاد رشدى، فن القصة القصيرة، ص ١٧٧ .

وهى فصيحة وعامية، تعكس ألواناً من الأجواء النفسية والأمزجة تبعاً لطريقة إلقائها، يقولها شيخ عالم أهلّ على جماعة، أو أستاذ قدم على طلابه، أو رجل من الأعيان أشرف على رفقته،أو معلم مر بالقهوة التى يجلس عليها عادة، وهى تختلف فى كل الحالات، نغماً وإيحاء، وليس لنا من طريقة لتصويرها كتابة، ويجئ التمييز بينها إذا كان الكاتب مقتدراً، ولا دخل للغة هنا.

والقول بأن العامية متخذة فى اللغات الأجنبية فيه إسراف شديد، لأن التفاوت فى اللغات الأجنبية بين لغة الأدب ولغة المشافهة محدود للغاية، وقد يجئ الكاتب الأمين ببعض الألفاظ أو الجمل التى تستعمل فى اللغة الدارجة قليلا، واستثناء لاعتبارات فنية لا يمكن تجاوزها، ولكن عمله، فى مجمله، يجىء فى لغة الكتابة والتدوين، وليس فى لغة المشافهة والحديث. على حين أن العاميات العربية، وليست عاميتنا واحدة، تتفاوت بشدة، وتكثر حتى فى المدينة الواحدة، وبعدت مسافة الخلف بينها وبين الفصحى، لأسباب تاريخية واجتماعية ليس هنا مجال بسطها، وكتابة القصة فيها، أو جانب منها، يقصر الإحساس بها على المجال الذى يستخدمها وحده، والجملة يقولها بطل ينتمى إلى بيئه اجتماعية معينة، من أدنى السلم فى حى السيدة زينب، ذات نكهة معينة، لا تجد الصدى نفسه، عند واحد من الطبقة بعينها، فى حى الجمالية أو بولاق مثلا، ولا أريد أن أبعد بالأمر خارج هذه الأحياء ذات المستوى الاجتماعى المتقارب، والمناخ النفسى المختلف، إلى أحياء أخرى تتفاوت اجتماعيًا وفكريًا إلى حد بعيد، فى مناطق

أخرى من القاهرة، ولا إلى الموازنة بين عامية المدينة والقرية، أو بين عامية الصعيد والوجه البحرى ، أو بين العامية فى مصر وغيرها من الأقطار العربية.

والفصحى لا تقف عائقاً، وهى على التأكيد أكثر فائدة، أو أقل ضرراً إن شئت، إذا أريد للقصة أن تكون أدباً يتجاوز المحلية واللحظة، ويدخل مجال العالمية والخلود، ويأخذ مكانه بين أجناس الأدب الأخرى. والقول بأن الفصحى لا تساعد على توضيح ملامح الشخصية يرده أننا نترجم روائع القصص العالمى، فى مختلف اللغات الأجنبية، باللغة الفصحى، نقلا عن لغاتها الأصلية، وفيها تتوالى شخصيات من فئات شتى، تعبر عن حقائقها وأحوالها، وتكشف عن أعماقها وبواطنها، وتصور مشاعرها وعقلياتها، فى عربية فصيحة لا نحس معها بأن الاتساق الفكرى للقصة قد مسه خلل، أو قصر فى التعبير عنها فكرة، وتصويراً.

إن كاتب القصة، فيما يرى محمود تيمور، إذا تنقل بين العامى والفصيح فى عمل واحد، سواء فى السرد أو فى الحوار، فسح المجال لثغرات وفجوات فنية، يشعر بها هو والقارئ، كأنها مساقط الهواء التى يتعرض لها ركاب الطائرات فى نواحى الجو، أو ركاب السيارات فى الطرق غير المعبدة، إذ يفقد العمل مظهر التناسق والتوافق والألفة فى التعبير، كما تفقد القطعة الموسيقية ما يطلق عليه اسم «الهارمونى»(١).

---

(١) محمود تيمور : أدب وأدباء ، ص ٦٥ ، القاهرة ١٩٦٨ .

والحق أن محمود تيمور حاول في البدء أن يكتب الحوار في قصصه باللغة العامية، ثم استبان فشله، فعاد إلى الفصحى، واعترف في مقدمة مجموعته «الشيخ جمعة»: «كنت مقتنعا أولا أن لغة الحوار في القصص يجب أن تكتب باللغة العامية لأن ذلك أقرب للواقع في الحقيقة. وقد كتبت فعلا حوار كثير من أقاصيصي وقصصي بهذه اللغة. ولكنني عدت فعدلت عن هذا الرأي، بعد تجارب عديدة دلتني على خطأ فكرتي، فالهاوية موجودة بين اللغتين. فإذا استعملناهما معاً جنباً إلى جنب، واحدة للأوصاف وأخرى للحوار وجدنا تنافراً في الكتابة، يكاد يكون ملموساً، يصدم القارئ عند انفصاله من لغة إلى لغة.. ولا يوجد هنا إلا واحد من أمرين: وهو إما أن نكتب كل القصة باللغة العربية، أو كلها باللغة العامية، لنقضي على هذا التباين الشاذ، وتحل محله الألفة والتناسب، وبما أن اللغة العربية هي لغة الكتابة وجب علينا إذن أن نكتب القصة جميعها، أوصافها وحوارها باللغة العربية. ويجب على الكاتب أن يتوخى في كتابة حواره السهولة ما أمكن، ولا حرج عليه إذا استعان ببعض ألفاظ أو ببعض جمل صغيرة عامية إذا اضطرته الحاجة لذلك، وهذا ما أتبعه الآن في كتاباتي القصصية الجديدة، وعلى هذا النمط أخرج طبعاتي الثانية لمؤلفاتي.

• القصة والرواية :

لم يتحدد بعد بدقة لا في أذهان القراء، ولا حتى النقاد، الفصل بين المصطلحين. ولا نزال حتى اليوم نطلق لفظ القصة على الرواية، فإذا أردنا القصة نفسها، في صورتها الحديثة. استخدمنا اللفظ

نفسه، أو أضفنا إليه صفة «القصيرة» أو استخدمنا كلمة «الأقصوصة»، وأظن أن الوقت حان لنتخلص من هذا الخلط، فتصبح القصة علماً على هذا الفن الذى تحدده تقنية معينة، وعرضنا لها من قبل، ومقابله فى الفرنسية لفظ Conte وأن نطلق الرواية على الفن الآخر، وهو ما يقابل في الفرنسية لفظ Roman وأن نطلق على ما يجئ وسطا بينهما الرواية القصيرة، وهي تقابل كلمة Nouvelle ذلك «أن مصطلح قصة قصيرة تسميه خاطئة فى ذاته، فالقصة العظيمة ليس من الضرورى أن تكون قصيرة على الإطلاق، والفكرة الشائعة عن القصة القصيرة من أنها فن صغير فكرة خاطئة بالضرورة. إن الفرق بين الرواية والقصة أساساً ليس فرقاً فى الطول، إنه فرق بين القصص الخالص والقصص التطبيقى، ودفعاً للبس أقول إننى لا أحاول أن أغض من شأن القصص التطبيقى، وكل ما هناك أن القصص الخالص أكثر فنية، ولست على يقين إلى أى حد يفضل الفن على الطبيعة، كما أننى لست على يقين من الطريقة التي ينضبط بها هذا الفرق، إذا أمكن ضبطه على الإطلاق»[1].

والواقع أن الروائى والقصاص يستخدمان المادة نفسها، يلتقطانها من قضايا الإنسان ومشاكله وواقع الحياة، وإنما يجىء الاختلاف من الشكل الذى تأخذه عند كل واحد منهما. ويمكن القول إن طول الرواية هو الذى يحدد قالبها، وإن قالب القصة القصيرة يحدد طولها، ولا يوجد أى مقياس للطول فى القصة القصيرة إلا ذلك المقياس

(١) فرانك أوكونور ، الصوت المنفرد ص ١٢ .

الذى تحددّه المادة نفسها. فالروائى قادر على تحويل الثوانى إلى دقائق فى القراءة، واللحظة إلى تحليلات متأنية، ووصف «القبلة» مثلا، وقد لا تستغرق أكثر من دقيقة عادة فى واقع الحياة، تشغل عنده حيزاً أكبر فى مجال الوصف، كما لو كان قد التقطها بطريقة التصوير البطىء Raleti وهو يتمتع بالصفحات وبالزمن، وقادر على أن يمتد بالبناء، ولا يخشى ملل القارئ، لأنه يمكن أن يتجه داخل الرواية إلى اللقطة التى تستهويه، فيقف عندها ويتأملها، وإن عجلا، بما يمكن أن يدفع الملل فى نفسه، وهناك المناظر والوصف واللوحات المنعزلة، والتحليل والرسوم الجانبية، يأتى بها الروائى لإظهار قدرته على الوصف، وقد تشغل صفحات، وهو يقف عند التفاصيل الدقيقة، والأحداث الموازية، ويحلل نفسيات أبطاله، ويبرز الملامح الذاتية لكل شخصية، وكل ذلك ليس ممكناً فى القصة القصيرة.

أما فى القصة فعلينا أن نتجه إلى الحدث، وأن نعبر عنه فى لغة مركزة، وعبارة محكمة، لا تحتمل الاستطراد أو التزيد، ويحقق القصاص هدفه الفنى عن طريق المزاوجة بين التكثيف والبساطة، والوضوح والرمز، ومن خلالها يعبر عن الكثير من المشاعر والأفكار. وتجىء القصة متوترة بالنسبة للمشاهد، سامعاً أو قارئاً، وتتطلب تعبيراً قادراً أن يعكس ذبذبات اهتمام لا يتوقف، على حين تعكس الرواية توتراً أخف، واهتماماً متفاوتاً. والقصة بناء محكم لا يسمح بالهوامش، والحدث فيها مكثف وهو كل شىء، ويجىء الوصف موجزاً، ومرور الشخصية به سريعاً، بينما يذوب الحدث فى الرواية بين العناصر الثانوية الأخرى. وإذا أخذنا لهما مقابلا من عالم

الماديات، قلنا إن الرواية أشبه بالفلم السينمائى، والقصة أشبه بالتصوير الفتوغرافى. الأولى تتسع لمزيد من الاحداث والتطور، وقد يتطلب الموقف تغييرها أو ضغطها أو حتى حذفها أثناء العمل. بينما فى الثانية يحدد المصور بدءاً الجانب الذى يصوره، والزاوية التى يلتقط منها الصورة، وما يتطلبه إتقان العمل من مسافة وضوء.

والكاتب المقتدر يعرف كيف يميز بين الموضوعات، ويدرك فى حدس واضح أى الأشكال يناسب كل منها، فلا يختار موضوع الرواية لقصة، والعكس صحيح أيضاً، لأن كتابة الرواية أو القصة لا تقوم على مجرد الاستطراد فى البناء أو ضغطه كيفما اتفق، ويقول ألبرتو مورافيا فى مقدمة مجموعته قصص إيطالية Roconti italiani «إن شخصيات القصص وليدة الحدس الذاتى، أما شخصيات الرواية فهى وليدة الرموز».

وإذا كان من السهل التمييز بين القصة والرواية، فإن تحديد الرواية القصيرة أو القصة الطويلة كما كان يقال أحياناً، أسهل شيئاً، لأنها تجىء فى منتصف الطريق بين الاثنتين، وقد اختفى تعبير القصة الطويلة فى الأدب الأوربى، دون أن يأسف أحد عليه، لأن هذه ليست قصة قصيرة نفخ فى صورها، أو زيد فى صفحاتها، وإنما اتسعت لأن موضوعها ونموها تطلب عدداً من الصفحات أكثر مما تتطلبه القصة القصيرة عادة، وإذا استكملت عناصرها الفنية تحدث فى مشاعر القارئ، رغم طولها، إثارة تجىء دفعة واحدة، على نحو ما تحدث القصة، غير أن وحدة الذبذبة الشعورية وهى إحدى خصائص القصة تجىء فيها أكثر امتداداً.

القصة فى الأدب العربى

لـم تنشأ القصة القصيـرة من أصل عـربى كالمقامـات والقصص الحماسية، والحكايات والأمثال والخرافات والأساطير والنـوادر، وإنما ترعرعت بتأثير من الأدب الأوربى مباشرة. نعم حاول الجيل القديم أن يستعمل أسلـوب المقامـات فى النقـد الاجتمـاعى فكتب محمد المويلحى، المتوفى عام ١٩٣٠م، «حديث عيسى بـن هشام أو فترة من الزمن» على نمط مقامات البديـع الهمـدانى والحريـرى، ينقد فيها مـا رأى فى زمنـه وحولـه مـن ضعـف أو خلـل أو فساد، فكانت صوره عن الشرطة والنيابـة، والمحـامى الأهلى، والمحـامى الشرعى، والوقف، والطب والأطباء، والمحاكم، والأعيان والتجـار، وأرباب الوظائف والعمدة، والمدنية الغربية وغيرها. ومن بعده كتب حافظ إبراهيم، المتوفى عـام ١٩٣٢م، «ليـالى سطيـح»، وتأثـر فيهـا بالمويلحى، وأجمل محمود تيمور رأيه فيهما: «بينما نرى المويلحى يحاول الارتفاع بكتابه عن المقامة، والدنو من القصة الفنية، بما يرسمه من شخصيات ناضجة، ويصوره من وقائع شائقة، نرى حافظاً متمسكـاً بالمقامـة لا يخـرج عـن إطارهـا، فهـو لا يعنى فى قصته بالناحية الفنية، عنايته بالناحيـة الخطابيـة والوعظيـة»[1]. وكان لعائشة التيمورية محاولات أقل توفيقـاً منهمـا.

---

(١) محمود تيمور : ملاع وغصون ، ص ٢٧ .

أما أول اتصال لنا بالقصة الأوربية القصيرة فجاء عن طريق الترجمة، وازدهرت فى مطلع هذا القرن، دون أن يعنى ذلك أنها كانت دقيقة، وتمت ترجمة أعداد هائلة منها إلى اللغة العربية، وتمصير جانب كبير منها، ولم تتوقف الترجمة عند أدب أمة بعينها، وإن تمت فى معظم الحالات عن اللغتين الفرنسية والإنجليزية، وكانت هذه القصص لكبار الغربيين من الروس والإنجليز والفرنسيين والأمريكيين والإيطاليين وغيرهم، وكان من بين المترجمين من يتصرف فى القصة وينحرف بها إلى ما يهوى القارئ، يخلق مواقف جديدة أو يسقط مواقف كانت قائمة، أو يستولى عليها وينسبها إلى نفسه.

وهناك من لا يعرف اللغة الأجنبية، وأوتى حظاً كبيراً فى اللغة العربية، فتترجم له القصة، ويتولى هو صياغتها، يضعها فى قالب عربى، ويكتبها فى أسلوب عربى فصيح، وكان مصطفى لطفى المنفلوطى (١٨٧٦-١٩٢٤) أبرز هؤلاء جميعاً، وكتابه «العبرات» مجموعة من القصص الفرنسية، المغرقة فى الرومانسية، ترجمت له، وصاغها فى أسلوبه الرشيق، فجاءت مغرقة فى الحزن، تفجر الدموع فى العين والقلب، بين قراء يعانون من هموم قاصمة فى حياتهم الخاصة والعامة على السواء، ولكنها بعدت عن أصولها، بسبب المترجم أو المنفلوطى نفسه، فجاءت حديثاً مباشراً، فى أسلوب تقريرى لا يهتم بالسياق أو ترابط الأحداث، وفقدت فى صورتها الجديدة خصائص القصة القصيرة، ولكنها أسهمت فى تهيئة المناخ، ولفت الأذهان، وترغيب القراء فى مثل هذا اللون من الأدب.

● **المدرسة الحديثة :**

كونها جماعة من الكتاب المصريين، خلال الحرب العامية الأولى، وغايتها أن تبعث خير ما فى الثقافة الوطنية من تراث، وأن تستوعب منجزات الحضارة الحديثة على أيامهم، ورفعت راية التمصير والقومية فى مجال الأدب، كما رفعه غيرها فى مجال السياسة والاقتصاد. واتخذت من جريدة الفجر لساناً لها، وتميزت بالعناية بالعلوم الحديثة، والفنون الجميلة، إلى جانب اهتمامها بالأدب وبتأثير منها بدأ يبرز إلى الوجود أدب مصرى أصيل، يعكس حياة المجتمع المصرى فى صدق وإخلاص، ويواجه واعيا حركات الجمود والتخلف والنظر إلى الوراء، ويقاوم الغزو الأجنبى، وذوبان الشخصية المصرية فى أنماط السلوك الوافدة فى الوقت نفسه، وينقل اهتمام الكاتب أو الأديب من الدوران حول نفسه، أو حول الحاكم، إلى الأهتمام بالطبقات الأكثر معاناة فى المجتمع والمرأة منها على وجه خاص.

ويذكر الأستاذ يحيى حقى، وكان ضمن أعضاء المدرسة، فى كتابه، «فجر القصة المصرية» عدداً من أسماء أعضائها الكثيرين فمنهم: الدكتور حسين فوزى، ومحمود طاهر لاشين، وإبراهيم المصرى، وحسن محمود، ومحمود عزمى، وحبيب زحلاوى. ونشأت هذه الجماعة بين يدى محمد تيمور وكانت تجتمع فى قصر صغير يطل على شريط سكة حديد حلوان بالمنيرة، هو قصر آل رشيد أصهار بيت تيمور، و «وجدت هذه الجماعة الصغيرة غذاءها فى صحيفة أدبية أسبوعية، أصدرها سنة ١٩١٧ المرحوم

عبد الحميد حمدى باسم «السفور»[١] وكانت تدعو إلى اعتناق المذاهب الأوربية فى الأدب والتاريخ، وإلى التحرر من التقليد ومحاولة البحث عن أدب مصرى صميم، وتطوير الأسلوب إلى مايوافق مقتضيات العصر، وتوجيه الأنظار إلى دراسة أدباء مصر وشعرائها، مثل البهاء زهير».

وكانت محاولاتهم تهدف إلى تشكيل الأدب العربى فى صورة جديدة، تستجيب لمتطلبات العصر، وتنأى عن التقليد والصناعة والنزوع إلى أخيلة الغير، وقامت هذه المدرسة إلى جانب مدرستين أخريين تميزتا فى الثقافة والاتجاه، فكانت هناك مدرسة أحمد لطفى السيد، ومن أبرز أعضائها منصور فهمى، ومحمد حسين هيكل، وطه حسين، ومحمود عزمى، وأحمد ضيف، ومصطفى عبد الرازق، وكانت الأخرى تضم إبراهيم المازنى، وعباس محمود العقاد، وعبد الرحمن شكرى، وعباس حافظ، ومحمد السباعى، وعلى أدهم، وعبد الرحمن صدقى وآخرين. ولكن المدرسة الحديثة هى التى اضطلعت بالعبء الأكبر فى نشأة القصة القصيرة كتابة لها ودعوة إليها، ومن بين أعضائها أول قصاص مصرى، كتب أول قصة عربية فى صورتها الحديثة.

ويميل الأستاذ يحيى حقى إلى الاعتقاد بأن أعضاء المدرسة الحديثة مروا فى مرحلتين:

---

(١) ذكر الأستاذ عباس خضر فى كتابه « القصة القصيرة فى مصر منذ نشأتها حتى عام ١٩٣٠ » ص ٩٠ معلقاً على هذا الخبر بأن مجلة السفور صدرت عام ١٩١٩.

«الأولى مرحلة اتصال ذهنى بالأدب الفرنسي والإنجليزى. فقد تعلموا فى مدارسهم هاتين اللغتين، وقرأوا فى المدرسة أيضاً مؤلفات كبار أدبائهما... ثم قادهم جوعهم الثقافى إلى ارتياد آفاق أخرى، فقرأوا لكتاب يجذبونهم، لما فى حياتهم من مآس أو لقدرتهم على البهلوانية، فكانت على مائدتهم تتردد أيضاً أسماء جوته وأوسكار وايلد وإدجار آلان بو، وهنرى فيرلين ورامبو وبودلير، بل فى الأدب الأيطالى مؤلفات بيراندللو وترجموا له، والصابرون منهم يطوفون أيضاً بجحيم دانتى، فإذا ضاقوا وطلبوا الفكاهة قرأوا مارك توين، وبوكاشيو، وكان من النادر أن نسمع باسم الجاحظ أو المتنبى، ولم تكن أسماء أعلام النقد تشغل مكاناً كبيراً فى حديثهم، وكان التعصب لكاتب لا لمذهب هذه هى مرحلة الغناء الذهنى».

«الثانية: انتقلوا إلى مرجلة أخرى أسميها مرحلة الغذاء الروحى التى حركت نفوسهم وألهبت عواطفهم ودفعتهم للكتابة بحرارة الشباب، انتقلوا إلى هذه المرحلة الثانية حينما قرأوا الأدب الروسى وبهرهم جوجول وبوشكين وتولستوى ودستوفسكى وترجنيف وأرتز باتشيف وأخيراً جوركي، فهذا أدب يتحدث بحرارة وانفعال شديد عن الاعتراف والنزعة إلى التطهر والفداء والبكاء على مآسى الحياة، والإيمان بالقدر والثورة عليه فى وقت واحد، يحدثهم عن الصلاة والتراتيل، وعن الخمر والبغاء، والجريمة والعقاب، والقديسين والشياطين... ودهشوا حين رأوا هذا الأدب، إلى جانب حفاوته بدراسة النفس البشرية، والمشكلات الاجتماعية، ليس بأقل حفاوة فى وصف الطبيعة ومشاهدها والتغنى بجمالها، وكل هذه أجواء

توافق مزاج الشباب الشرقى الملتهب العاطفة، المحروم من الحب. لذلك لا أكون بعيداً عن الحق إذا أرجعت إلى الأدب الروسى الفضل الأكبر فى إنتاج أعضاء المدرسة الحديثة، وتكون القصة بذلك قد مرت من التأثر بالأدب الفرنسي على يد هيكل إلى التأثر بالأدب الروسى على يد هذه المدرسة الحديثة، ولما كان أغلب أعضاء هذه المدرسة يتقنون الإنجليزية خيراً من الفرنسية،فقد كان من حسن الحظ أن الإنجليز عنوا أكثر من الفرنسيين بترجمة الأدب الروسي ترجمة دقيقة غير مقتضبة، هذا على الرغم من أن دستوفسكى وتورجنيف عاشا في باريس زمنا لا فى لندن»[1].

• الرواد الأوائل :

على يد محمد تيمور (١٨٩٢-١٩٢١) وُلدت القصة العربية الحديثة، مع قصته الأولى «فى القطار»، وجاءت ثمرة ناضجة لاتصاله القوى والمباشر والمبكر بالثقافة الأوربية، فقد أرسلته أسرته ليتعلم الطب فى برلين، فعدل عنها ليدرس القانون فى باريس، ومكث هناك ثلاثة أعوام شغل فيها بالأدب والمسرح أكثر مما شغل بالجامعة. ثم عاد إلى مصر مع بداية الحرب العالمية الأولى، واشتغل بالصحافة حيناً وبالتمثيل قليلا، واهتم بالأدب والفن، وكان رائداً فى مجال القصة والمسرح، وبشر بأدب مصرى قومى، محلى الصبغة والطابع، يهتم بما حوله، ويلتقط منه مادته، وطبق ما دعا إليه فى أدبه، فالتقط مادة قصصه من الفلاحين ومظالمهم، والموظفين

(١) يحيى حقى : فجر القصة المصرية ، ص ٨٠ وما بعدها .

وانحرافاتهم، والمرأة ومشاكلها، وجاءت فى لغة سليمة، خالية من الركاكة ومن الصناعة اللفظية على السواء. وحرص على أن تجمع السمات الفنية لهذا الجنس الأدبى الجديد على اللغة العربية، من الشخوص والأحداث، وأن يزاوج فيها بين القص والحوار. وتأثر فى واقعيته وأنماط قصصه بالأدب الفرنسى بعامة، وموباسان على نحو خاص، ومصّر بعض قصصه أحياناً، لم يكتم ذلك ولا أخفاه، جاء فى مقدمة قصته «ربى لمن خلقت هذا النعيم»: «هذه القصة لموباسان الكاتب الفرنسى الشهير، بدّل المعرب أشخاصها وزمانها ومكانها وموضوعها، ممصراً كل شىء بها، فلم يبق من الأصل إلا روح الكاتب»، ويراه المستشرق الروسى كراتشكوفسكى فى دراسته عن الأدب العربى الحديث: «منشىء الأقصوصة المصرية، ومبتكر التصوير الواقعى للحياة الاجتماعية الحديثة، كان ملمًّا كل الإلمام بالآداب الأوربية، قوى الملاحظة دقيقاً، فوضع أقاصيص صغيرة مأخوذة من صميم الحياة المصرية، بأسلوب يحاكى موباسان أو تشيخوف». وقد جمعت قصصه بعد موته، وضمت إليها خواطره، ونشرت بعنوان: «ما تراه العيون».

ومع **محمود تيمور (١٨٩٤-١٩٧٣)**، تقدمت القصة خطوات أوسع إلى الأمام، وإذا لم يطاول أخاه فى المسرح، فقد فاقه فى القصة، بحكم التطور، وامتداد حياته، وكان مثله أصيلا رغم أنه، فيما يقول عن نفسه، قرأ طويلا فى موباسان وتشيخوف، وتأثر بهما كثيراً، وتحدث عن هذا التأثير فى أكثر من مكان فى كتاباته، واعتبر موباسان «زعيم الأقصوصة الأكبر» ونشر أول مجموعة له

عام ١٩٢٥ ، بعنوان: «الشيخ جمعة وقصص أخرى»، ومثل أخيه كانت صلته بالأدب الأوربى مباشرة، فقد أقام فى سويسرا أكثر من ثلاث سنوات.

تعاونت ظروف كثيرة على أن تجعل من محمود تيمور قصاصاً متميزاً فى فترة مبكرة من شبابه، وأعانه مزاجه الهادئ على أن يجود فنه، وأن يعمق معرفته بأصوله، وأتاحت له الحياة الميسرة أن يقرأ ويرحل، وأن ينشر العديد من قصصه فى زمن مبكر، فى المجلات المختلفة دون أن يتقاضى عليها أجراً، فى فنون مختلفة، عالج الشعر المنثور، وكتب خواطره عن الحياة والمجتمع، وتحدث عن رحلاته وأسفاره، ومارس النقد عجلا وقليلا، وحرّر عدداً من المسرحيات، وكانت القصة القصيرة المجال الذى تفوق فيه، وأسهم فى مجالاتها بإضافات قيمة. وجاءت قصصه فى عشرين مجموعة كاملة.

جاءت كتابات تيمور الأولى ذات نزعة رومانسية ساذجة، وهو شىء طبيعى، فكلنا فى سن الشباب يتأثر بما هو ذاتى وحزين ودامع فى الحياة والفن، ولكنه ما لبث أن هجر نفسه إلى ما حوله، وأدرك أن القصة كلما اقتربت من الحياة «كان نفعها أعظم، وتأثيرها أشد، إذ أن المرء لا يستفيد ولا يتأثر من الخيالات والأوهام بقدر ما يتأثر من الحقائق التى تحيطه والتى يعيش فى جوها». ومع هذا الاتجاه كانت بداية رحلته نحو الواقعية.

وكما صنع أخوه من قبل، وكرد فعل لمواجهة السحق النفسى الذى تعرض له المصريون على يد الاستعمار البريطانى، جاءت

دعوته إلى أدب مصرى «يتكلم بلساننا، ويعبر عن أخلاقنا وعواطفنا، ويصف عوائدنا وبيئتنا أصدق وصف. هذا الأسلوب فى نظرى أهم شىء يجب أن نلتفت إليه، ونعيره مجهودنا الكبير فى نهضتنا الجديدة، لأنه المرآة التى تنعكس عليها صورتنا الحقيقية»[١]. ومن ثم بدأ يلتقط مادته وشخوصه من الحياة المصرية الخالصة، فى الريف والمدينة، بين الفلاحين والموظفين والحرفيين والتجار، وممن عاشرهم وخالطهم أحياناً، أو من الطبقة الاستقراطية التى ينتسب فيها، بكل فضائلها ونقائصها على السواء، ويرى الحياة بجانبيها، ما كان خيراً دافقاً أو شراً خالصاً، ونلمح تعاطفه مع الطبقات الشعبية، وجاء قصصه عنها جيداً ودافئاً، وحين يخرج عن نطاقها ليكتب عن الطبقة الأرستقراطية، تفقد قصصه الكثير من توهجها، فتجئ باردة لا روح فيها، ويصبح خياله فيها تقليديًّا، ومعها تضيع روح الفنان، وتبقى له مهارة القصاص.

ويكثر محمود تيمور من الرحلة، وتتسع آرؤاه وآفاقه، وينضج مع الزمن وتأخذ الواقعية عنده شكلا تحليليًّا، وتخف حدة الألوان المحلية، ومع التطور السياسى تأخذ شكلا قوميًّا عربيًّا، وتتجاوز القومية إلى العالمية فتعني بمشكلات الإنسان: «فلا خلود لأدب إلا إذا كان تعبيراً صادقاً عن الإنسان».

ولغة تيمور فى قصصه بسيطة وصافية، هادئة ودقيقة، فأتاح لها ذلك مجالا أوسع للترجمة إلى اللغات الأجنبية، وكان هو نفسه

---

(١) محمود تيمور، مقدمة «الشيخ جمعة»، ص ١٠ ، الطبعة الثانية.

داعية عظيما لروعة اللغة العربية وسلامتها، وفى ضوء فلسفته التى انتهى إليها ردّ إلى الفصحى بعض أعماله، التى كتبها بالعامية فى مطلع حياته الأدبية.

* * *

وجاء بعده الأخوان شحاتة وعيسى عبيد، فتقدما على طريق القصة خطوات، وكان حظهما من الذيوع ومن التقدير أقل من حظ رفاقهما، لقد توفى عيسى عام ١٩٢٣، وترك مجموعتين من القصص، حملت أولاهما عنوان «إحسان هانم»، ونشرت عام ١٩٢١، والأخرى «ثريا» ونشرت بعدها بعام. وصدر لأخيه شحاتة مجموعة بعنوان «درس مؤلم» نشرت عام ١٩٢٢، وامتدت به الحياة طويلا بعد أخيه، وتوفى عام ١٩٦١، بعد أن هجر الأدب، وتوقف عن الكتابة، وابتلعه النسيان فلم يلتفت إليه أحد، رغم أنه عاصر النهضة الأدبية فى مصر منذ نشأتها حتى بلغت القمة، وما نعرف من حياته قليل للغاية، ويستنتج الأستاذ يحيى حقى من قصصه أنه «من أبناء كنيسة شرقية لا أظن أنها الأرثوذكسية، إذ نجد معظم أبطاله هم هرمين ومارى وأليس وميشيل، وميشيل هذا إما موظف فى محل تجارى أو فى بنك االكريدى ليونيه». وحاول عباس خضر أن يرسم له صورة تقريبية، من خلال قصصه واستجلاء ما وراء أبطاله، وبلقاء معاصريه وأقرانه[١]. وقصص الأخواين شحاتة وعيسى يدور حول أسر متوسطة، تكافح لتحتفظ بمستواها، وبنات يتعلمن فى مدارس الراهبات، ولأن

(١) عباس خضر: القصة القصيرة، ص ١٢٩ وما بعدها.

بيئتهما المسيحية أتاحت لهما قدراً من الاختلاط لم يتح لغيرهما، كانا أقدر على إدراك المشكلات كل التى تحيط بالمرأة. وقف عيسى إبداعه على وصف حياتها، وإمكاناتها القليلة التى لا تتيح لها أن تعمل فى ميادين النشاط الاجتماعى، ولا تعطيها الحق فى أن تخرج من البيت بغير إذن زوجها، ويؤكد على ضرر الحجاب، وما يترتب عليه من مضار، وما يداخل النفوس من خوف عند مواجهة الجديد. وكتب شحاتة عن المرأة أيضاً، وبطلاقة أكثر، فبطلاته شابات محدودات الأفق، مخلوقات تعسة، لا تخرج اهتماماتهن عن الزواج والإنجاب، ونهايات قصصه مضحكة، توحى إلى القارئ بأفكار محزنة، تذكر معها تشيخوف فى الحال إذا كنت قد قرأت له من قبل. وكلاهما كان داعية أدب مصرى، وهى الدعوة التى استأثرت بأذهان عدد كبير من المثقفين على أيامه، فى مواجهة الاستعمار وألوان التبعيات الأخرى.

وبعد الأخوين شحاتة وعيسى يجئ **طاهر لاشين** (١٨٩٥–١٩٥٤)، واتخذ من الأدب هواية، فهو أصلا مهندس دراسةً ومهنة، وأفاده تمكنه من اللغات الأجنبية فى تذوق ما كُتب من القصة وعنها فى الأدبين الفرنسى والإنجليزى، أصيلا أو مترجماً إليهما من لغات أخرى، وانتسب إلى المدرسة الحديثة، ووقف جهده على القصة وحدها، ينشرها فى المجلات على أيامه، وقد ينشر القصة الواحدة أكثر من مرة، لأنه أضاف إليها جديداً، أو أجرى فى بنائها تعديلا، أو طلبا للذيوع والشهرة. والمتأمل فى قصصه الصغيرة الجميلة «لا يفوته أن يدرك مبلغ تأثره الكبير بأمثال ديكنز وترجنيف ودستوفسكى من أعلام القصصيين فى الغرب، أولئك

الذين مزجوا الفن القصصى برسالة الإصلاح الاجتماعى، تلك رسالته يحن دائماً إلى بثها متمذهباً بالمذهب الواقعى، ويلوح أنه يشعر بعبء مسئوليته الأدبية الإصلاحية، فهو يتريث فى استجماع ملاحظاته من صور الحياة، حياة الطبقتين الوسطى والسفلى على الأخص، بحسناتها وعيوبها، ثم يبذل مجهوده الفنى فى حبك قصته مازجا المزاح بالجد، متوخيًا الدقة فى التعبير الفكهى، وهى طريقة كاد ينفرد بها بين كتّابنا القصصيين ولا يحاكيه فيها غير القصصى المجيد يحيى حقى، الذى ابتدأ يؤلف بعده بقليل»[1]. وطاهر لاشين مصرى أصيل من حى السيدة زينب، ينتسب فى الطبقة الوسطى، برغم أصوله التركية البعيدة، وعرف بين أصدقائه بالدعابة والمرح، وذهب بأكبر قسط من الفكاهة وخفة الظل، ولذلك لا تجد فى فنه «تلك الألوان المظلمة التى تجدها فى فن بعض الكتاب الأوربيين، ولا يجب أن نلومه على ذلك، فليس ذلك مجاله، وليس من طبيعته. والواقع أن هذه الألوان المظلمة لم تكن ظهرت بعد فى الفن القصصى».

فى البدء كان طاهر لاشين يكثر من الشخوص فى قصصه كثرة مسرفة، ونلتقى فى القصة الواحدة بعدد غير قليل من الشخصيات، فتفقد القصة قوة التأثير من ناحية، والتركيز من ناحية أخرى، فهو لا يركز على شخصية واحدة أو جانب من جوانبها، أو يسلط الضوء قويًا وكاشفاً على فكرة واحدة يعزلها عما عداها، ولهذا

---

(١) أحمد زكى أبو شادى فى مقدمته لمجموعة قصص طاهر لاشين: «يحكى أن...».

تفقد قصصه الأولى التناسب بين عناصرها، ولكنه فيما بعد زاد وعيه بتقنية القصة وعناصرها، فعنى بالإنسان من حيث هو إنسان، دون نظر إلى بيئته أو جنسه أو طبقته الاجتماعية، وعرف كيف يختار شخصية واحدة، يبرزها فى صورة واضحة، مركزة ومؤثرة، ومع ذلك لم يبعد عن الواقع المصرى، فقصصه تدور حول بيت الطاعة وتعدد الزوجات والزواج بالأجنبيات، والسكارى والمواخير[1]. وظهرت قصصه فى ثلاث مجموعات: سخرية النـاى ١٩٢٦ . ويحكى أن ١٩٢٨ ، والنقاب الطائر ١٩٤٠ .

• القصة المعاصرة :

وحول هذه الأعوام كان آخرون كثيرون يكتبون القصة، هواية وتفضلا، دون أن يلتزموا بقواعد القصة وأصولها، ينشرونها فى الصحف والمجلات، دون أن يجمعها كتاب، كما فعل أحمد خيرى سعيد وآخرون. وبعضهم جرب كتابة القصة، وكتب فيها قليلا، ثم انصرف عنها إلى غيرها حين وجد نفسه يتفوق فى مجالات أخرى، ومن هؤلاء مى زيادة، وسلامة موسى، وأحمد أمين، وإبراهيم المصرى، وإسماعيل مظهر، وحسين فوزى، ومحمد شوكت التونى، وآخرون أقل أهمية. ومنهم من كتب عدداً من القصص، ودخل التاريخ من باب آخر كتوفيق الحكيم، أو كتب فيها كثيراً ولكنه كان أقرب إلى المقالة القصصية منه إلى القصة القصيرة، كفن له أصول محددة، مثل إبراهيم المازنى.

---

(١) دكتور سيد النساج : تطور فن القصة القصيرة فى مصر ص ٢١٠ وما بعدها.

وحين نتجاوز هذا الجيل من الرواد يتدافع الكتاب على القصة القصيرة، وتخصها كل مجلة أسبوعيـة، أو صحيفـة يوميـة، بمكـان حتى ولو كانت تتحرك فى مجال آخر غير الأدب، ويبلـغ الاهتمـام قمته حين يخصها أحمد حسن الزيات صاحب مجلة الرسالة بمجلة مستقلة حملت اسم «الرواية»، تعنى بشئون القصة والرواية فحسب، إبداعاً وترجمة ونقـداً، وصدرت عـام ١٩٣٧ ، وظلت تصدر على امتداد أعوام ثلاثة، ثم توقفت مع قيام الحـرب العالميـة الثانيـة عـام ١٩٣٩ ، وعادت قضايا القصة إلى مكانها من مجلة الرسالـة وبيـن هؤلاء الكثيرين من بدأوا عطاءهم فى تلك الأيام، وداوموا عليـه فى سخـاء، وأصبحـوا مـن أعـلام القصة المصريـة مثـل: يحيى حقى، وسعيد عبده، ومحمود كامـل.

ومع الحرب العالميـة الثانيـة خفت صوت الأدب بعامـة، عـزلت مصر عن العالم، وشُغل الناس بالحـرب، واستفحلت أزمـة الـورق، وصعُب النشر، وقلّ حجم الصحف، وتمضى سنوات الحرب بطيئة وثقيلة، وفى الظلام المادى والفكري، ومع قسوة الحيـاة، وارتفـاع الأسعار، وندرة الكثير من الطعام واللباس، وصرامة الرقابـة، وانتشار ألوان الثراء الفاحش، والسلوك الفاجر، والسوق السوداء، بدأ النـاس يتململون فى أعماقهم، ويتشوفون إلى فجر قريب، ومـا إن وضعت الحرب أوزارهـا حتى تفجـر كـل شيء، فى مجـال السيـاسة، وفى دنيا الأدب أيضاً، وكان الجديد الذى شهدته الساحـة الثقافيـة ربـط الأدب بالحياة، وربط الاستقلال السياسى بالعدل الاجتماعى، ووضع المواهب فى تصوير الواقع السيىء، والدعوة إلى إصلاحه، والدفـاع

عن الطبقات الكادحة فى الريف وفى المصانع، ودخل اليساريون المعمعة علناً لأول مرة، مبدعين وناقدين، يمثلون اتجاهاً مستقلا، ودفعوا بغيرهم لأن يلقى نظرة على قاع الحياة فى مصر تقليداً لهم، أو قطعاً للطريق عليهم، وفى هذه الأيام سوف تلمع أقلام جديدة، كنجيب محفوظ، وإحسان عبد القدوس، ومحمود البدوى، ويوسف جوهر، وأمين يوسف غراب، ومحمد عبد الحليم عبد الله وآخرون كثيرون. وكان تدافع الأقلام عنيفاً وصاخباً، أثرى حياتنا بكل ألوان القصص، رمزية وواقعية ورومانسية، وأطل القصاص على كل جوانب الحياة فى مصر، وصوروا مختلف طبقاتها، الريف والمدينة، الفلاحون والعمال. الطبقات الدنيا والوسطى والعالية، ولا نكاد نتجاوز هذا العقد، حتى نجد أولئكم الذى تنسموا أجواء سابقة، وتكونوا ثقافيًّا على وهج الصراع فيه فكان لنا يوسف إدريس، ونعمان عاشور، ولطفى الخولى، ويوسف الشارونى، ولو أن بعضهم ترك القصة إلى المسرح، أو إلى السياسة، أو توقف عن الإبداع لسبب أجهله.

وتدافع حول القصة كثيرون، بعضهم يبشر بمستقبل، وآخرون وجدوا فى سهولة النشر، وغيبة النقد دافعا، فمضوا يكتبون أى كلام، وكان ازدهار المسرح المصرى فى الستينيات على حساب القصة القصيرة، لأن أعلامها، ربما باستثناء نجيب محفوظ، تركوها ليكتبوا للمسرح، فقد كان يجد من الدولة تشجيعاً مباشراً، ويدر على كتابه خيراً وفيراً، ويتيح لهم فى الوقت نفسه أنماطاً من الرمز يختبئون وراءها، وفى تلك الأيام كان الكثير مما يود الكاتب

الشريف أن يقوله، والكثير مما عليه أن ينقده، ويقف فى طريقه، وتحول دون ذلك صعاب لا يمكن تخطيها. ولعبت الصحافة دوراً هامًا فى إطفاء وهج القصة، لقد قلت صفحاتها، وشغلت فى مجملها بالإعلان إن كانت رائجة، أو بكل تافه إن كانت راكدة لا قراء لها، ولم تعد الصحف الأسبوعية غير الأدبية تنشر قصصاً، ولم تعد لنا مجلات أدبية أسبوعية دائمة، نصدر الكثير منها فى فورة عاطفية، حين نحس بالنقص، أو نغار مما يصدر فى بلاد أخرى، أو لدوافع سياسية وفنية، أو لغرض شخصى، كأن نتيح لشبه أديب عاطل مكاناً يتعيش منه، أو نسلط الضوء على كاتب فاشل، أو حتى غير أديب وغير كاتب، ونضعه رئيساً للتحرير، فلا يحسنون تحريرها، ولا اختيار القائمين عليها، وتكون النتيجة سقوطها كأداة توصيل، ومسرح تربية وإعداد، ويجىء بعد عام أو أعوام وزير آخر، يستثقل دم القائمين عليها، فيثأر من المجلات نفسها بإلغائها، وهكذا اختفت مجلات كثيرة لعبت فى حياتنا الأدبية بعامة دوراً كان ملحوظاً وباهراً، كالثقافة والرسالة والمجلة والفكر المعاصر والقصة والشعر، ومجلات أخرى.

فى مثل هذا المناخ واصل السير أولئك الذين يستطيعون أن ينشروا قصصهم فى الصحف اليومية، معتمدين على جاههم الأدبى، وهم قلة نادرة، وهاجر كثيرون بفكرهم إلى المجلات التى تصدر فى البلاد العربية، أو كانوا ينتسبون فى شلة تمسك بمقدرات القليل الذى ظل يصدر شهريا، أو قادرون على أن ينشروا إبداعهم فى كتب، وهكذا وصلنا بالقصة إلى منعطف خطير، ولم يبق فى

الساحة إلا قلة من العمالقة، نتاج أجيال سبقت، يمكن أن تشدك إلى ما تكتب، وأن ترغمك ذهنيًّا على أن تقرأ لها، وتترقب إبداعها، أما الكثرة الكاتبة، فهم غثاء صنعت منه أجهزة الإعلام أدباء ومفكرين، على حد تعبير الأستاذ الدكتور زكى نجيب محمود. وبدأت القصة تعانى كغيرها من فنون القول، من مزاحمة السينما والمسرح والتليفزيون، وزهد الناس فى القراءة. وبعض القصص الذى ينشر تحس أن كاتبه كسول، يكرر نفسه، ولا يمثل تقدماً أو جديداً على طريق الفن، لأنه لا يعكس معاناة داخلية، ولا يجد طريقه إلى النشر لجودته، وفى أغلب الأحيان يكون لموظف كبير، اكتشف مواهبه أخيراً، وهو على أبواب المعاش، أو لأناس ارتبطوا به، يعملون معه فى مكتبه، أو يعاونونه فى حياته اليومية، وهو يفرض هذره على ما يوجّه من مجلات تصدر عن وزارته، أو وزارة يعمل فيها أصحابه.

• القصة فى العالم العربى :

فإذا تجاوزنا مصر إلى بقية العالم العربى، وجدنا سوريا ولبنان تأتيان فى المقدمة، وفيهما ولدت القصة القصيرة فى زمن مبكر، مع مولدها فى مصر، أو بعده بقليل، وكانت الظروف متشابهة، فعرف لبنان من القصاص ميخائيل نعيمة، وخليل تقى الدين، ومارون عبود وآخرين، وشهر من كتاب سورية الدكتور عبد السلام العجيلى، وزكريا تامر، وكلاهما يكتب قصصاً من المستوى الرفيع. وفى هذا الجانب من العالم العربى تميز الفلسطينيون بقصص جيد قبل كارثة الاستعمار الصهيونى، فلما أتى على وطنهم، وتوزعهم العالم

العربى، حملوا مأساتهم فوق رءوسهم، وفى قلوبهم، وكانوا أمناء مع واقعهم، وحوله دار قصصهم، من أولئك الذين عايشوا المأساة منذ البدء، ومن أولئك الذين تفتحت عيونهم يوما فوجدوا أنفسهم لاجئين أو منفيين أو مهاجرين، ويستطيع المؤرخ أن يقف عند عشرات منهم، مثل غسانى كنفانى، وإبراهيم أبو ناب، ووليد رباح، وعلى زين العابدين، وآخرين.

وفى العراق كانت القصة اليسارية من أهم أشكال الأدب، وأعمقها فعلا في نفوس الشبان لسنين طويلة، وحسبنا أن نذكر قصص ذو النون أيوب، وغائب طعمة من المخضرمين، وأعطيا مثلاً قويًا لجيل من الشبان جاء بعدهما، رغم أن تقنية القصة الحديثة لا تتحقق كاملة فى كل أعمالهما، ولا يزال الطابع اليسارى هو الغالب على قصص شاكر السكرى فى مجموعته «التجربة والحقد»، وعلى لطفية الدليمى فى مجموعتها «البشارة» وعلى عبد الجبار الحكيم فى مجموعته «المواجهة وأحلام الصغار»، وعلى بثينة الناصرى فى مجموعتها «حدوة حصان».

وقدم السودان نماذج قليلة فى مجال القصة، واقعية الاتجاه، وخير من يمثله الطيب صالح، وقد اكتشفه الناقد رجاء النقاش، وقدمه إلى العالم العربى فى روايته الشهيرة «موسم الهجرة إلى الشمال»، وأثبت فيما بعد، أنه لا يقل تفوقاً فى مجال القصة عنه فى مجال الرواية، فهو متمكن من تقنيتها، ويستمد شخوصه من البيئات التى عايشها فى السودان أو فى الخارج.

وربما كان المغرب العربى آخر من لحق بالقصة فى اللغة العربية، وهو شىء طبيعى، فقد كان آخر من تحرر، وطبيعة الاستعمار الذى خضع له تختلف عن طبيعى الاستعمار فى المشرق، كأن الاستعمار هنا، يدعم اللغة العربية، ويحرص عليها، وفى الشام بالذات، ولعبت مدارس المبشرين وإرسالياتهم دوراً كبيراً فى هذا، فقد كان القصد إيقاظ القومية العربية ودعمها لتواجه الخلافة الإسلامية فى تركيا، وتمزيق وحدة الدولة الإسلامية، ولكن الاستعمار، والتبشير معه، حرص فى شمال إفريقية على اضطهاد اللغة العربية، إلى حد العمل على استئصالها. وتخريب داخل الإنسان العربى، وشغل أهله بقضية التحرير السياسى أولا. وخلال أعوام المعاناة جاء بعضهم إلى القاهرة، وتعلم فى جامعاتها، وعلى يدهم ولدت القصة الحديثة فى المغرب، وأبرزهم عبد الكريم غلاب، وعبد السلام بن جلون، وعلى طريقهم سار جيل من الشبان أوضحهم محمد الصباغ، والأولان يمثلان إتجاهاً واقعيًّا، والأخير أميل إلى الرومانسية، وبعدهم جاء جيل آخر، متمكن من فنه، ويكتب قصصاً جيداً، أمثال: عبد الجبار السحيمى، ومحمد زفزاف، ومبارك الربيع وغيرهم.

وفى ليبيا بدأت القصة متأخرة، لقد كانت تحت الاستعمار الإيطالى الفاشى المباشر، فلم يترك للثقافة العربية متنفسا، ومع الاستقلال بدأت المحاولات القصصية الأولى، بتأثير من القصة المصرية، أو من الشبان الليبيين الذين تعلموا فى مصر، تظهر على استحياء فى الصحف والمجلات، وكانت البداية مع مجموعتين

لعلى المصراتى وهما. «الشراع الممزق» و «حفنة رماد»، ولا تتوفر على عناصر القصة الحديثة كاملة، ولكنها تعكس الواقع الليبى بخيره وشره، وكانت صيحة احتجاج ضد سواءاته، ومهدت الطريق لجيل من القصاص الشبان جاءوا بعده، تقدموا على طريق القصة الصحيحة خطوات، ولكنهم لم يخرجوا فى محتواها عما سبقوا إليه.

وكانت الجزائر آخر من لحق بالركب، وتقدم لنا فى هذا المجال ثلاثة من القصاص، أبو العيد دودو، ويكتب على قلة قصصاً تسجيليًّا يلتقط مادته من القطاعات الشعبية، والطاهر وطار، ويرجى له مستقبل باهر إذا واصل الرحلة بنفس القوة، فقد طوى المسافة التى سبقت فيها الجزائر، ليكون على مستوى القصة فى بقية أنحاء الوطن العربى، تقنية ومادة، وهو تقدمى فى نزعته، وينزع إلى الرمز حين يعز عليه الوضوح، وأحمد منور، وهو شاب فى أول الطريق، يبشر بغد طيب، إذا واصل الرحلة ولم يتوقف، وأخذ نفسه بتعميق التجربة، معاناة. وتململا، وأحكم قبضته على تقنية القصة قراءة وتعلماً.

• المرأة قصاصة :

وفى ميدان القصة لمعت أديبات عربيات، يمارسن هذا الفن فى أصالة واقتدار، وعبّرن عن مشاعر الأنثى وهمومها وأشواقها فى صدق وأمانة، وكن أقدر من غيرهن على رصد موقفها من حركة الحياة حولها. بعض هؤلاء الأديبات آثرن السلامة وقصرن فنهن

على تصوير واقع المرأة، فى مجال البيت أو العمل أو العاطفة، وفى تحركها البطىء على طريق التقدم، على نحو ما نجد عند سميرة عزام فى «الظل الكبير» أو بنت الشاطىء فى «صور من حياتهن»، أو وداد سكاكينى فى «مرايا الناس»، أو نوال السعداوى فى «تعلمت الحب»، أو سلمى الحفار فى «يوميات هالة». وآخريات اتجهن إلى تصوير التحرر العاطفى للمرأة العربية، بعد كبت طويل، أذل روحها، فجاء أدبهن صرخة احتجاج عنيفة ضد كل ما عاناه جنسهن طوال عصور الانحطاط.

وثمة أسماء تمثل هذا الاتجاه، مثل صوفى عبد الله، وجاذبية صدقى من مصر، وهند سلامة من لبنان، وتجئ غادة السمان السورية قمة وحدها فى هذا الاتجاه، فهى ذات أسلوب رشيق، وصور آسرة، وجملها مشحونة بالتوتر دائماً، تعالج قضاياها على مساحة واسعة، وقد تعطى مجموعة من قصصها رؤيا متكاملة، كما فى «ليل الغرباء»، ولأنها تمارس الصحافة إلى جانب القصة أكسبها ذلك آفاقاً واسعة، وهى كثيرة الرحلة قراءة وواقعاً، فأسهم ذلك فى تلوين مصادرها وتعددها، وأبطالها غرباء دائماً، عربية فى أوربا، أوربية فى اليمن، سورية فى الجامعة الأمريكية، فتاة تترك قريتها لتعمل فى المدينة، وتذهب بالغربة إلى ما هو أبعد من هذا، ترى الفرد يحس بأن الوطن سافر عنه واغترب، والتاريخ رحل، واستأثرت السلطة بذلك كله. وهناك غربة على صعيد العلاقات الإنسانية بين الرجل والمرأة، وبين الرجل والرجل فى العمل، وترصد الواقع البشرى بمنظار لا علاقة له بمفاهيم الخير

والشر التقليدية، إنها قصاصة من الطراز الأول، وتشعر وأنت تلهث بعينك وفكرك ومشاعرك بين سطور قصصها أنك تسير معها على جمر ملتهب.

• القصة وهموم الإنسان العربى :

بذلت محاولات كثيرة لتصنيف موضوعات القصة، وهى محاولات كلها عابثة، لأن تنوع الموضوعات يمكن أن يمضى بلا نهاية، كاهتمام الإنسان نفسه، وإذن فمن الأفضل أن نلحظ كيف تعكس القصة فى كل عصر اهتماماته المختلفة، ومشاغل الإنسان المتنوعة على أيامها، على نحو ما أشرنا إليه فى عرضنا التاريخى، ولنلق الآن نظرة مجملة على واقعنا المعاصر: نحن نعيش عصراً يشهد سلسلة من الأحداث الكبرى عدلت الكثير من مفاهيم الفن والأخلاق والعلاقات الاجتماعية والدولية، وتطلبت أشكالاً جديدة للتعبير عنها، ودفعت أمام القارىء بألوان من الاهتمامات والمشكلات والمعاناة لا حد لها، ويكفى أن نفكر لدقائق فى أزمة الإسكان والمواصلات، وتفجر السكان وقلة الغذاء. واتساع المعرفة الإنسانية، والتقدم المريع فى عالم التقنية، وفى التخصص يصبح مع كل يوم أكثر وضوحاً وضيقاً، وفى تفتيت الذرة، وقانون النسبية، وفى إضافات علم النفس العميقة، وفى حربين عالميتين، وخمسة حروب مصرية، وفى إنسان يزداد كل يوم صغراً فى مواجهة عالم يزداد كل يوم ضخامة، فى إنسان يجيد أروع التقنية، تصعد به إلى القمر، ويدور معها حول الأرض، ولكنه لم يستطع أن يقهر الموت، ولم ينتصر على الشيخوخة، إنسان دمرته التعاسة، وحيرته الميتافيزيقا. وكل

ذلك ترك بصماته واضحة على الساحة الجمالية، وأدى إلى طريقة جديدة للإحساس بالحياة والتاريخ. وأخذ الأدب شكلا ومحتوى يعكس هذه الحقائق، ومن ثم يجب ألا تدهشنا جملة سارتر حين يقول: «إني أكتب لزمني، لا يهمني من سيجيئون بعد»، ولا يدهشنا أيضاً أن الأدب يعبر عن الإنفعالات الأكثر بدائية ووقاحة وعرياً، ويبحث عن التعبير الأشد قساوة ووقعاً.

لقد عشق العربى القصيدة بطولها المحدود وموضوعها الواحد منذ القدم، والقصة أقرب ألوان النثر إلى الشعر، وفيها الكثير من خصائصه، برغم ما يبدو بينهما من بعد للوهلة الأولى، يجمع بينهما أن عماد كل منهما التكثيف والتوتر والتلاحم العاطفى والجمالى، وأن إبداع القصة كإبداع الشعر، يومض فجأة، وينبثق كشرارة، ويجئ عفويًا، وقد يمضى القصاص أياماً لا تعرض له أية فكرة لأية قصة، حتى ولو كانت رديئة، وقد تتساقط فى خياله عشرات الأفكار الممكنة، ويعجز عن حملها إلى الورق. وقد تقفز فى أعماقه أفكار القصة مع كلماتها وألوانها، وهو يتنزه، أو يتسكع فى الشوارع، أو يقرأ، أو فى القطار، أو فى السينما، أو يجلس على مقهى، أو على مرأى الأمواج البيضاء من حافة البحر، على نحو ما تقع الأبيات وأشطارها فى فكر الشاعر وعلى لسانه، فيمسك بها وبقالبها العروضى معها. والمشاعر والأحاسيس التى تثيرها فينا قصة جميلة لا تبعد كثيراً عما توقظه فى قرارة نفوسنا قراءة قصيدة رائعة من الشعر، وكل ذلك يجعل منها فناً محبباً إلى الكاتب والقارئ على السواء، ومن هنا كان الذين يكتبون القصة فى العالم العربى كثيرون،

بالنسبة إلى المسرح أو الرواية مثلا، ولو أن هذا لا يعنى بالضرورة أن كل من كتب فيها أجاد أو أتى بشيء جديد وجميل.

إن كتاب القصة مدعوون إلى أن يكونوا فى مستوى همومنا، وما كان جديداً فى الخمسينيات من المطالبة بجلاء المستعمر، ودعوة الفكر اليسارى إلى ربط الفن بالحياة، والالتفات إلى الطبقات المطحونة، أصبح فى الستينيات أمراً مقرراً، لقد حرر الإصلاح الزراعى قطاعاً عريضاً من الفلاحين، ونقلت القوانين الاشتراكية ملكية المؤسسات الكبيرة إلى الدولة، وتمتعت الطبقة العاملة بالحماية من الفصل التعسفى وبالتأمين الصحى والاجتماعى. ولكن إلى جانب ذلك، جدت فى غيبة الدستور والقانون، وقسوة الرقابة، وبطش الأحكام العرفية، وهى معلنة منذ عام ١٩٣٩ ، باستثناء عامى ١٩٥٠ و١٩٥١، أيام حكم الوفد المجيدة، هموم من لون جديد، ربما كانت أقسى وأشد خفاء، صمت عنها كبار الأدباء قهراً، أو مداراة، أو تقية، أو لأنهم قبضوا الثمن، ترفا قاتلا، وجاهاً مزيفاً، ولم يلتفت إليها القصاص الشبان، لأن حظهم من المعاناة والتجارب محدود، ومعرفتهم بما يجرى قاصرة. حتى إذا جاءت هزيمة ١٩٦٧ بكل ما فيها من عار ومرارة، عرت أنماط حياتنا السياسية الزائفة، وأحدثت شرخاً رقيقاً فى جدار الخوف، تنفس الفكر معه، وقال الناس شيئاً، وبدأت قلة من القصاص تسلط الضوء على بطائن النسوء، وتجار السوق السوداء، والصفقات المريبة، واللصوص الكبار، والمنافقين وحملة القماقم، وسرعان ما تلاشى الأمل، وعادوا من جديد يكتبون القصة فى صورتها القديمة، يعكسون قضايا تجاوزها الزمن.

إن القصة فى صورتها الجديدة التى نتوقها، وطـال شوقنـا إليهـا فى مصر، هى التى ترد إلى الناس إيمانهم بالوطن، وولائهم للعمـل، وتشيع فيهم التفاؤل والأمـل، وتقـوى بينهـم روح المقاومـة، وتبشر بوطن جديد، تزدهر فيه الحرية والديمقراطيـة والعـدل الاجتمـاعى، وبغـد جميـل لا قهـر فيـه ولا إرهـاب، تفعـل ذلك فنًّـا يتسرب إلى النفس فى خفـاء، ويعمـل فى داخلهـا دون ضجيـج، وليس خطابـة رديئة، ولا وعظاً ساقطـاً.

مختارات من القصة العربيـة

فى القطار

أول قصة قصيرة فى الأدب العربى

صباح ناصع الجبين يجلى عن القلب الحزين ظلماته، ويرد للشيخ شبابه، ونسيم عليل ينعش الأفئدة، ويسرى عن النفس همومها، وفى الحديقة تتمايل الأشجار يمنة ويسرة كأنها ترقص لقدوم الصباح، والناس تسير فى الطريق وقد دبت فى نفوسهم حرارة العمل، وأنا مكتئب النفس أنظر من النافذة لجمال الطبيعة، وأسائل نفسى عن سر اكتئابها فلا أهتدى لشيء.

تناولت ديوان «موسيه» وحاولت القراءة، فلم أنجح. فألقيت به على الخوان وجلست على مقعد، واستسلمت للتفكير كأنى فريسة بين مخالب الدهر.

مكثت حيناً أفكر ثم نهضت واقفاً، وتناولت عصاى وغادرت منزلى وسرت وأنا لا أعلم إلى أى مكان تقودنى قدماى إلى أن وصلت إلى محطة باب الحديد وهناك وقفت مفكراً ثم اهتديت للسفر ترويحاً للنفس، وابتعت تذكرة، وركبت القطار للضيعة لأقضى فيها نهارى بأكمله.

وجلست فى إحدى غرف القطار بجوار النافذة، ولم يكن بها أحد سواى وما لبثت فى مكانى حتى سمعت صوت بائع الجرائد يطن فى أذنى (وادى النيل، الأهرام، المقطم) فابتعت إحداها

وهممت بالقراءة وإذا بباب الغرفة قد انفتح ودخل شيخ من المعممين، أسمر اللون طويل القامة، نحيف القوام كث اللحية، له عينان أقفل أجفانهما الكسل، فكأنه لم يستيقظ من نومه بعد. وجلس الأستاذ غير بعيد عنى، وخلع مركوبه الأحمر قبل أن يتربع على المقعد، ثم بصق على الأرض ثلاثا ماسحا شفتيه بمنديل أحمر يصلح أن يكون غطاء لطفل صغير. ثم أخرج من جيبه مسبحة ذات مائة حبة وحبة وجعل يردد اسم الله والنبى والصحابة والأولياء الصالحين، فحولت نظرى عنه فإذا بى أرى فى الغرفة شاباً لا أدرى من أين دخل علينا ولعل انشغالى برؤية الأستاذ منعنى أن أرى الشاب ساعة دخوله.

نظرت إلى الفتى وتبادر إلى ذهنى أنه طالب ريفى انتهى من تأدية امتحانه، وهو يعود إلى ضيعته ليقضى إجازته بين أهله وقومه. ونظرت إلى الشاب كما نظر ثم أخرج من حافظته رواية من روايات مسامرات الشعب وهمّ بالقراءة بعد أن حوّل نظره عنى وعن الأستاذ. ونظرت إلى الساعة راجياً أن يتحرك القطار قبل أن يوافينا مسافر رابع، فإذا بأفندى وضاح الطلعة، حسن الهندام، دخل غرفتنا وهو يتبختر فى مشيته ويردد أنشودة طالما سمعتها من باعة الفجل والترمس. جلس الأفندى وهو يتبسم واضعاً رجلا على رجل بعد أن قرأنا السلام، فرددناه رد الغريب على الغريب.

وساد السكون فى الغرفة والتلميذ يقرأ روايته، والأستاذ يسبح وهو غائب عن الوجود، والأفندى ينظر لملابسه طوراً وللمسافرين

تارة أخرى، وأنا أقرأ وادى النيل منتظراً أن يتحرك القطار قبل أن يوافينا مسافر خامس.

مكثنا هنيهة لا نتكلم كأنا ننتظر قدوم أحد، فانفتح باب الغرفة ودخل شيخ يبلغ الستين، أحمر الوجه براق العينين، يدل لون بشرته على أنه شركسى الأصل، كان ممسكاً مظلة أكل عليها الدهر وشرب. أما حافة طربوشه فكانت تصل إلى أطراف أذنيه. وجلس أمامي وهو يتفرس في وجوه رفقائه المسافرين كأنه يسألهم من أين هم قادمون وإلى أين ذاهبون. ثم سمعنا صفير القطار ينبىء الناس بالمسير، وتحرك القطار بعد قليل يقل من فيه إلى حيث هم قاصدون.

سافر القطار ونحن جلوس لا ننبس ببنت شفة، كأنما على رءوسنا الطير، حتى اقترب من محطة شبرا، فإذا بالشركسى يحملق فى ثم قال موجها كلامه إلىّ :

– هل من أخبار جديدة يا أفندى ؟

فقلت وأنا ممسك الجريدة بيدى: ليس فى أخبار اليوم ما يستلفت النظر اللهم إلا خبر وزارة المعارف بتعميم التعليم ومحاربة الأمية.

ولم يمهلنى الرجل أن أتم كلامى لأنه اختطف الجريدة من يدى دون أن يستأذننى وابتدأ بقراءة ما يقع تحت عينيه، ولم يدهشنى ما فعل لأنى أعلم الناس بحدة الشراكسة. وبعد قليل وصل القطار محطة شبرا فصعد منها أحد عمد القليوبية، وهو رجل ضخم الجثة، كبير الشارب، أفطس الأنف، له وجه به آثار الجدرى،

تظهر عليه مظاهر القوة والجهل. جلس العمدة بجوارى بعد أن قرأ سورة الفاتحة وصلى على النبى ثم سار القطار قاصداً قليوب.

مكث الشركسى قليلا يقرأ الجريدة، ثم طواها وألقى بها على الأرض وهو يحترق من الألم وقال:

– يريدون تعميم التعليم ومحاربة الأمية حتى يرتقى الفلاح إلى مصاف أسياده وقد جهلوا أنهم يجنون جناية كبرى.

فالتقطت الجريدة من الأرض وقلت:

– أية جناية؟

– إنك ما زلت شابًا لا تعرف العلاج الناجع لتربية الفلاح.

– وأى علاج تقصد ؟ وهل من علاج أنجع من التعليم؟

فقطب الشركسى حاجبيه وقال بلهجة الغاضب:

– هناك علاج آخر ..

– وما هو؟

فصاح بملء فيه صيحة أفاق لها الأستاذ من نومه وقال:

– السوط. إن السوط لا يكلف الحكومة شيئاً، أما التعليم فيتطلب أموالا طائلة، ولا تنس أن الفلاح لا يذعن إلا للضرب لأنه اعتاده من المهد إلى اللحد .

وأردت أن أجيب الشركسى، ولكن العمدة حفظه الله كفانى مئونة الرد فقال للشركسى وهو يبتسم ابتسامه صفراء:

– صدقت يابيه صدقت. ولو كنت تسكن الضياع قلت أكثر من ذلك، إننا نعاني من الفلاح ما نعاني لنكبح جماحه، ونمنعه من ارتكاب الجرائم.

فنظر إليه الشركسي نظرة ارتياب وقال:

– حضرتكم تسكنون الأرياف؟

– أنا مولود بها يابيه.

– ما شاء الله.

جرى هذا الحديث والأستاذ يغط في نومه، والأفندي ذو الهندام الحسن ينظر لملابسه ثم ينظر لنا ويضحك، أما التلميذ فكانت على وجهه سيماء الاشمئزاز، ولقد هم بالكلام مراراً فلم يمنعه إلا حياؤه وصغر سنه، ولم أطق سكوتاً على ما فاه به الشركسي، فقلت له:

– الفلاح يابيه إنسان مثلنا وحرام ألا يحسن الإنسان معاملة أخيه الإنسان، فالتفت إلى العمدة كأني وجهت الكلام إليه وقال:

– أنا أعلم الناس بالفلاح، ولي الشرف أن أكون عمدة في بلد به ألف رجل وإن شئت أن تقف على شئون الفلاح أجيبك. إن الفلاح يا حضرة الأفندي لا يفلح معه إلا الضرب، ولقد صدق البك فيما قال. وأشار بيده إلى الشركسي:

– ولا ينبئك مثل خبير.

فاستشاط التلميذ غضباً، ولم يطق السكوت، فقال وهو يرتجف:

– الفلاح يا حضرة العمدة.

فقاطعه العمدة قائلا:

– قل يا سعادة البك لأنى حزت الرتبة الثانية منذ عشرين سنة.

قال التلميذ:

– الفلاح يا حضرة العمدة لا يذعن لأوامركم إلا بالضرب لأنكم لم تعودوه غير ذلك، فلو كنتم أحسنتم صنيعكم معه لكنتم وجدتم فيه أخا يتكاتف معكم ويعاونكم، ولكنكم مع الأسف أسأتم إليه فعمد إلى الإضرار بكم تخلصاً من إساءتكم. وإنه ليدهشنى أن تكون فلاحاً وتنحى باللائمة على إخوانك الفلاحين.

فهز العمدة رأسه ونظر إلى الشركسى وقال:

– هذه هى نتائج التعليم.

فقال الشركسى:

– نام وقام فوجد نفسه قائم مقام.

أما الأفندى ذو الهندام الحسن فإنه قهقه ضاحكاً وصفق بيده وقال للتلميذ:

– برافوا يا أفندى، برافوا، برافو..

ونظر إليه الشركسى وقد انتفخت أوداجه وتعسر عليه التنفس وقال:

– ومن تكون أنت ؟

– ابن الحظ والأنس يا أنس.

وقهقه عدة ضحكات متوالية.

ولـم يبـق فى قـوس الشركسى منــزع فصاح وهــو يبصق على الأرض طورا وعلى الأستاذ وعلى حذاء العمـدة تـارة:

– أدبسيس فلاح.

ثم سكت وسكت الحاضرون، وأوشكت أن تهدأ العاصفة لـولا أن التفت العمدة إلى الأستاذ وقـال:

– أنت خير الحاكمين يـا سيدنـا فاحكـم لنـا فى هـذه القضيـة. فهز الأستاذ رأسه وتنحنـح وبصق على الأرض وقـال:

– وما هى القضية لأحكم فيها بإذن الله جل وعلا ؟

– هل التعليم أفيـد أم الضرب؟

فقال الأستاذ:

– بسم الله الرحمن الرحيم إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً. قال النبى عليه الصلاة والسلام لا تعلموا أولاد السفلـة العلـم.

وعـاد الأستـاذ إلى خمولـه وإطبـاق أجفانـه مستسلمـاً للذهــول، فضحك التلميذ وهو يقـول:

– حرام عليك يا أستاذ. إن بين الغنى والفقير من هـو على خلـق عظيم كما أن بينهـم من هو فى الـدرك الأسفـل.

فأفاق الأستاذ من غشيته وقـال:

– واحسرتاه، إنكـم مـن يـوم مـا تعلمتـم الرطـان فسدت عليكـم أخلاقكـم ونسيتم أوامـر دينكـم ومنكـم مـن تبجـح وبغى واستكبـر وأنكر وجود الخالق.

فصاح الشركسى والعمدة (لك الله يـا أستـاذ) وقـال الشركسى:

– كان الولد يخاف أن يأكل مع أبيه، واليوم يشتمه ويهم بصفعه.

وقال العمدة:

– كان الولد لا يرى وجه عمته، والآن يجالس امرأة أخيه.

ووقف القطار في قليوب، فقرأت الجميع السلام، وغادرتهم وسرت في طريقى إلى الضيعة وأنا أكاد لا أسمع دوى القطار وصفيره وهو يعدو بين المروج الخضراء لكثرة ما يصيح في أذنى من صدى الحديث.

[١٩١٧م]

مولانا أبو البركات

عاش الشيخ «أبو البركات» حتى الخمسين من عمره، رقيق الحال، ليس له إلا دخل قليل، إذ كان إماماً فى مسجد صغير تداعت أركانه، وسط حى فقير. كان بحاله راضياً كل الرضا، قنوعاً أشد القناعة، لا يضيق بما فيه من عسرة وإملاق. وهو إلى ذلك سخى الكف، أريحى النفس، يرفق بمن يلقى من الفقراء وأبناء السبيل، فيقتسم معهم اللقمة، تحدوه الحكمة الطيبة: الحسنة فى الدنيا بعشرة أمثالها فى الآخرة. وما كان للرجل أن يطلب نعيم الدنيا أو يتهافت على ما تحفل به من أطايب، وهو إنما يعمل لآخرته ما وسعه أن يعمل، إذ الدنيا فى عينه دار فناء والآخرة هى دار البقاء.

وكان الشيخ يؤذيه ما يشهده من شقاء الإنسانية وبأسائها، فهو فى ختام كل صلاة يعاهد ربه عهداً لاحنث فيه أنه لو وصله بعطية سخية من المال لعجَّل بها إلى اخوانه من عُفاة الحّي ينثرها، ليخفف من بلواهم، ويفرِّج عنهم كربتهم. ويبعث فى نفوسهم طمأنينة وراحة.

ويبدو أن الله قد استجاب له، فهبطت عليه يوماً من السماء، دون ترقب، ثروة طيبة، جاءته من ورقة نصيب، اشتراها على كره

منه، لا رغبة فى كسب، أو غنم، ولكن عوناً لبائعها بما أعطاه من ثمن.

تلقى «أبو البركات» هذه الثروة المفاجئة فى دهشة وتحير، ولم يلبث أن احتوته غاشية من ذهول ووجوم، وما هى إلا أن هجس فى خاطره صوت يردّد: أن هذا المال ليس لك، فإياك أن تمتد إليه يدك لتنفق منه على نفسك، إنما هو مال الفقراء، أولاهم الله إياه، واختارك قيِّماً عليه، لتتولى إنفاقه فى وجوه البر والاحسان.

وانتفض الرجل انتفاضة هزت كيانه، وقد أفاق من غشيته، فسما ببصره إلى السماء يحمد الله على عطيته، وأقسم والدموع تترقرق على وجنتيه أن يكون أميناً على عهده، وفيًّا بوعده.

ونهض من ساعته ينفذ خطته، وانطلق يصل طلاب الحاجات بالمنح والعطايا، فما أسرع أن تسامع به القريب والبعيد، فسعوا إليه، وسايروه فى تطوافه، يتلقفون منه نفحات المال كأنما هى الغيث المنهمر، وهم يجأرون له بالدعاء الحار، فكان يجيبهم، وابتسامته الوضيئة تشيع على محيّاه، بأن ما يجود عليهم به من مال، ليس هو بماله، إن هو إلا عطية المولى خصهم بها، ووكل أمر توزيعها إليه، كل امرىء وحاجته.

وعاد إلى بيته قرير العين بما قال وما فعل. فتناول مع زوجته وعياله عشاء غثا تافها لا يسمن ولا يغنى من جوع. ولم يلبث أن فر إلى سجادة الصلاة يلوذ بها، ويتهجد ويتعبد، ضارعاً إلى الله أن يسبغ عليه عفوه ورضاه، ويغفر له خطاياه.

وتواردت الأيام، والشيخ يواصل العطايا يمنحها جزافاً كلَّ من يمدُّ إليه يده بالسؤال. وكانت الساحة أمام الدار، منذ الضحوة العالية، تحتشد بجموع الناس من كل صوب. فإذا ما هل عليهم هرعوا إليه، متدافعين بالمناكب، يتصايحون ويتصاخبون، هذا يطالب بثمن كساء، وذاك فى حاجة إلى الحصول على دواء، والثالث يطمع فى أداء قسط المدرسة لبنيه. والشيخ يهش لهم جميعاً، يلاطفهم ويواسيهم ويطلب لهم من الله العون والتوفيق.

وتواترت أيام أخر، وأحس «أبو البركات» وطأة الزحمة وتكالب الجماهير، وتشتد بهم اللجاجة، ويعلو لهم ضجيج، فكانوا تارة يضرعون فى مذلة وصغار، وطورا يتوعدون فى توقح واجتراء، فازداد الرجل من حيرة وحرج وأحاطت به الهواجس، فلم يدر ما يفعل.

وأقبل عليه صديق يمحضه النصح، فقال له: «دع عنك هذه الوسيلة غير المجدية فى بذل المعونات. فقد ينال منك من ليس أهلا للاحسان، على حين يظل صاحب الحاجة بمنأى عنك، لا ينال من خيرك شيئاً.. يلزم أن ترسم لك خطة فى العمل، وأن تضع برنامجاً محكماً للتوزيع، فيصيب صاحب الحاجة حاجته عن حق وعدل، دون ما غبن ولا جور».

ووقعت هذه الكلمات الحكيمة من نفس الشيخ موقع رضا وقبول، فأولاها على الفور كبير عنايته، وأمسك عن بذل العون إلا لنفر قليلين، هو بحقيقة حالهم أعرف، وانسرح يقلبُ الفكر، لعل الرأى يُسفر له عن تدبير قويم.

وازدحمت الخطط فى رأسه، فعكف عليها يوازن بينها ويتدارسها، وتشعبت المسائل وتداخلت، فاختلط عليه الأمر، لا يدرى من أين يبدأ، وأية سبيل يسلك، وإلى أى وجهة يهدف، فما أسرع أن تسرب إلى نفسه الملل، واشتد به الضيق. أليس من الحكمة إذن أن يهب «المال» مؤسسة خيرية، أو مصلحة حكومية، تتولى إنفاقه على ذوى الحاجات، فيريح ويستريح؟.. ولكن أليس هذا برهان عجز يصمه بالنكوص عن أداء الواجب، والتخلى عما كلفه الله من رعاية البائسين؟ وهل يأتمن على مال الله – وديعته إليه – نفراً من الغرباء لا يقيمون للأمر وزناً، ولا يولونه أى اهتمام؟ ومن يدرى فقد تمتد أيديهم إليه بالعبث فلا يبقون عليه من شىء. إن الجشع والطمع خلّتان أصيلتان فى طبع البشر.. لا.. لن يدع غيره يتولى شئون الفقراء، ولن يتخلى عما أمره به الله. سينهض بالأمر ناشطا غير وان.

وبارح الدار يستروح، ولما عاد جاءته زوجته على استحياء، وأطفالها من حولها يحومون، وقالت له:

«ألم يحن الوقت لتعطينا مما أفاء الله عليك، حتى نشترى كسوة للصغار؟.. أنت تعطى الغريب، وتنسى أطفالك، وهم أحوج إلى العون وأولى به»!

فرماها بنظرة حادة، وقال: ليس المال مالى وليس لى حق التصرف فيه لنفسى أو لأهلى، إنه مال المعوزين البائسين

– ألسنا من المعوزين البائسين؟!

– إن ما لدينا يكفينا.. وغيرنا أحق منا.

– أليس فى قلبك ذرة من الرحمة بأولادك؟

لقد قلت كلمتى، فاغربى عن وجهى يا امرأة.

وزايلت المرأة الحجرة، وهى تجهش بالبكاء، وأطفالها ينوحون، ونظر الشيخ إليهم يرقبهم فى منصرفهم عنه، فراعه ما يحملون على أجسادهم النحيلة من أسمال، ولاذ على الفور بسجادة الصلاة يضرع إلى الله أن يعصمه من المزالق والعثرات.

وفى بكرة غده، أقبل عليه شخص من معارفه يشكو سوء حاله، ويرغب إليه أن يمنحه مبلغا من المال، يستعين به على شراء كسوة لأطفاله، فطفق الشيخ يقلب فيه النظر لحظات، وقد استشعر بوادر سخط تعتلج فى نفسه، على أنه مد يده إلى السائل بمبلغ ضئيل. فقال الرجل فى دهشة وامتعاض:

إنه مبلغ لا يفى بكسوة رضيع، فكيف وأطفالى قد شبوا عن الطوق، وعددهم ليس بالقليل؟

فأجابه الشيخ فى نبرة عليها مسحة من غضب:

– هذا ما أستطيع أن أقدمه لك.

– يا سيدى إن الأمر جد، أرجو أن ترحم.

فقاطعه الشيخ فى لهجة صارمة :

– على عاتقى إنفاذ خطة خيرية هامة، تقتضينى الحكمة فى الإنفاق، وحسبك منى ما أعطيتك!

وقدم عليه سائل ممن ألفوا نيل عطائه من قبل، وكان الرجل بادى السقم والهزال، فشكا إليه الجوع، وأقسم أمامه أنه لم يذق

طعاما منذ أيام، وما لبث أن تهاوى على الأرض ضعفاً وإعياء، فخف إليه الشيخ يعينه على النهوض، وتأثر لحاله أبلغ التأثر، وعجل يدس فى يده منحة سخية، أشرق لها وجه السائل، وأطلق لسانه بالدعاء الموصول.

وبعد حين شهد «أبو البركات» صديقه السائل الجائع فى مطعم من مطاعم الحى، جالسا إلى مائدة عليها صحن حافل بالثريد يُتوّجه كومة من لحم، وقد فاح قتاره شهيا. وتابع خطاه، وهو يغالب هيجة ضارية فى معدته.

وعند أوبته إلى داره، جلس يصيب طعامه مع زوجته وأولاده. فإذا هو صحن هزيل من خثارة الجبن، وكسر من خبز يابس، ولم يكد الصحن يستقر أمامهم حتى امتدت إليه الأيدى فى غدو ورواح، حتى أتت عليه فى لحظات. وكان «أبو البركات» يرقب عياله فى مأكلهم متجهم الوجه، وانصرف عن الطعام ولم يذق منه إلا النزر، وسرعان ما لاذ بسجادة الصلاة.

وتلاحقت أيام، وعاد السائل الجائع يطرق باب الشيخ، ويطالب بمنحته، فألقى عليه الشيخ بمبلغ تافه أخذه السائل على مضض، وانصرف.

وفيما كان الشيخ يجوز بالسوق، إذ وقعت عينه على صديقه السائل الجائع، منتبذاً ركناً فى الطريق، وقد بسط فى حجره بعض كسر من خبز يابس، وقطعة من جبن قريش، وانهمك يأكل، فحث الشيخ خطاه، وقد تخايل على فمه طيف ابتسامة!.

ويوماً هبط دار «أبى البركات» تاجر من السوق، ورغب فى رجاء أن يؤدى له ثمن ما أخذته زوجه من متجره، وقدم له على الأثر رقعة الحساب، وكانت مشحونة بالأرقام، فنظر الشيخ فى الرقعة، وقد أخذ منه الدهش كل مأخذ، واستمهله إلى الغد، وقصد زوجته على الأثر، وقد استبد به الغضب، وسألها قائلا:

– ما شأن هذه الثياب التى يطالبنى التاجر بدفع ثمنها؟.

فأجابت : إنها لى ولأطفالى.. نحن فى حاجة ماسة إلى الثياب.

– ولكنك تعلمين أنى فقير لا أملك أداء هذا المبلغ.

– دعك من هذه الدعاية، لديك ما يكفى لدفع ثمن الثياب وغير الثياب، أضعافاً مضاعفة.. انتظرنى قليلا.

وانصرفت مهرولة، وما هى إلا أن عادت حاملة صرة كبيرة، وبادرت تبسطها أمامه مرددة:

– ما أبهاها من ثياب تكسو أطفالك وتكسونى، سوف تدخل البهجة على قلبك حين نبدو بها أمامك!.

وامتدت أصابع الشيخ إلى النسيج تتحسسه، فأدرك على الفور أنه من الصنف الجيد الفاخر، وهبطت يده دون وعى منه، على جبته الرثة البالية، فأحس خشونتها، وكثرة الرقاع فيها، وألفى نفسه يزمجر زمجرة حبيسة، وهو منساق يقول:

– كيف تسمحين لنفسك بشراء شىء دون إذن منى ؟ من أكون فى نظرك ؟!

– سألتك مرة، فرفضت..

– لذلك تريدين أن تضعيني أمام الأمر الواقع. ترغبين في فرض إرادتك علي.. لن أدفع ثمن ما جئت به. وعليك برد ما أخذت.

– لن أرد شيئاً..

– إنك لمتوقحة يا امرأة.

– كف عن إهانتي. لم أعد أحتمل ما تفعل، حسبي من سوء تصرفك!.

– اخرسي يا امرأة..

– لن أخرس، بل سأقول ما يحلو لي.

– إلزمي أدبك يا امرأة، وعليك رد الثياب إلى التاجر في الحال.

– لن أرد شيئاً.

وعجلت إلى الصرة تحملها، وقصدت إلى الباب، فسارع خلفها، واجتذبها منها، فأمسكت بالصرة متشبثة تحاول إبقاءها معها ولبثا يتجاذبان. وما أن أدرك الشيخ أن الأمر سيفلت منه، حتى ترامى على صرة الثياب وأخذ يمزقها بيديه وهو يردد:

لن تكون لك. لن تأخذيها.

وطفق في هيجة يواصل تمزيق الثياب.

وتصايحت المرأة صاخبة تولول، وعلا على الأثر نحيبها. وتأهبت للانقضاض على زوجها واقتحم الحجرة نفر من الجيران يعالجون الفصل بينهما.

وما هي إلا أن ترك الرجل وحيداً أمام صرة الثياب وهو يهدر بقوله:

ليس لى أن أستبيح مال الله، فأنفقه على أسرتى.. لسنا فى حاجة إلى متاع الدنيا. لنا فى الآخرة عوض خير عوض.

ولم يلذ بسجادة الصلاة هذه المرة، بل غادر البيت على عجل، ينشد الهواء لرئتيه المختنقتين.

واحتواه الطريق، وهو مشغول بأفكاره تتناوح فى رأسه: ماذا كان عليه أن يفعل؟ أتراه يخضع لسلطان زوجته تؤثر فيه بمختلف المؤثرات العاطفية، تحاول أن ترده عن طريقه؟.. أتراه أسرف على نفسه وعلى زوجته وعلى أولاده حين أقام حجابا بينه وبين متع العيش؟ هل حرم الله الطيبات من الرزق؟ أليس المال من زينة الحياة التى بسطها الله لعباده؟.

وتابع الشيخ خطاه، وهو فى دوامة من هذه الأفكار، لا يكاد ينفذ من حيرة إلا إلى حيرة، كسفينة تتقاذف بها نكباء الرياح.

ولما جُن الليل، وأوى الشيخ إلى فراشه، راودته الأحلام تريه زوجته وأولاده فى مثل تلك الثياب التى أشبعها تمزيقاً، وما كان أجملهم وهم يرتدونها، وعلى وجوههم فرحة الحياة.

وفى بكرة غده بارح الدار إلى السوق. ورجع بعد قليل يحمل تحت أبطه صرة، حرص على أن يحجبها عن العيون.

ووضع الصرة أمام زوجته فى صمت، ثم انثنى يحل رباطها ويخرج محتوياتها فإذا بها ثياب فاخرة لها وللأطفال!.

ولحظت أن الشيخ قد اجتذب لفيفة من بين قطع الثياب، وما أسرع أن دسها تحت وسادته!.

ولم تمض أيام حتى بدا «أبو البركات» منتفشا فى جبة قشيبة يخب فيها خبا.

وأقبل عليه صديقه «السائل الجائع» يطالب بمنحته فصرفه الشيخ دون عطاء!.

وفى اليوم نفسه عندما حل موعد الغداء، جلس الشيخ ومعه زوجته وأولاده حول مائدة حفلت بأطايب الطعام، وكانوا يرتدون حللهم الجيدة، تعلو وجوههم بهجة الحياة.

منذ ذلك اليوم عاش الشيخ «أبو البركات» مع أسرته فى بحبوحة ورخاء، وأوصد باب بيته فى وجه كل سائل. وكان فى أحاديثه عن هؤلاء السائلين ينعتهم بالمتعطلين الكسالى، ومن فقدوا الرغبة فى السعى إلى الرزق الحلال، وارتضوا عيش الهوان والمذلة، يأكلون من جهد العالمين.

وإذا سئل الشيخ «أبو البركات» عما فعل بـ «عطية الله» التى أرصدها لذوي الحاجات، تململ فى جلسته، وزاغ ببصره يهمهم:

إنى فى سبيل إعداد مشروع عظيم، يهدف إلى خير المجتمع، وأن هذا الأمر يقتضينى دراسة مستفيضة ووقتا ممدوداً.. إن فى التأنى السلامة، وإن العجلة من الشيطان !!

[مجلة العربى، أكتوبر ١٩٥٩م]

أحسَنُ حِمَار

كان سائحاً فى بلدتـه.

لأنه منـذ فارقهـا وهـو فى الخـامسة عشرة لـم يكـن يعـود إليهـا إلا مرة فى كل خمس سنين، أو مرة كل عشر سنين، فيعيش فيها أياما كما يعيش السائح القادم من القارة الأوربية أو القارة الأمريكية: يوما فى النيل، ويوما فى الصحـراء، ويومـا عنـد أودية الجبـال التى تهبط من السيـول، ويومـا عنـد المتحفـات والآثـار، إلى آخـر هـذه المنازِه والرحلات التى يعرفها كل من عرف البلدة الخالدة: أسوان!

وكان يجد فى هذه الرحـلات مـن المتعـة النفسيـة مـا لا يجـده السائح الغريب، لأنه يجمع فى نزهته بين ذكرياته الشخصية وذكريات التاريخ. وإنه لفى طريقه إلى الخزان يومـا إذا بـه يلتفت إلى جـانب المسلة الناقصة أو المسلة المهجـورة فيراهـا...!

هى هى الفتاة الروسية الـراقصة التى طالمـا نظـر إليهـا فى فنـدق «الكتاراكت» وتمنى ان يراها فى جلسة هادئـة ليتعارفـا.

رآها هناك وليس معها أحد غير الترجمان ورسول الفندق الصغير وسائق الحمار الذى تركبه، ولا يدرى من تركيـه لأنـه حمـار.

وكـانت آيـة فى الجمـال الفخـم المتيـن، طويلة باسقـة الطـول، صحيحة الجسم، ينضح خداها بوهـج الصحـة، رشيقـة لا تذكـرك

رشاقتها بالحلية الدقيقة التي يخشى عليها الكسر السريع، أو بالتمثال الأنيق الذى تميل به نسمة، ولكنها الرشاقة التي تحترم وتهاب.

رآها هى بعينها فى أوسع مكان لفرص التعارف: فى الصحراء!

وإنه ليخدع نفسه إذا هو أوهمها أنه رأى الفتاة على سبيل المصادفة والاتفاق العجيب. كلا لم تكن مصادفة ولا اتفاقا عجيبا تلك المقابلة فى جانب المسلة المهجورة.

لأنه كان فى فندق «الكتاراكت» ليلة أمس على خلاف عادته فى السهر خارج المنزل ليزور بعض الأصحاب.

وكانت الفتاة الروسية تحيى ليلتها التى دعيت لأجلها من القاهرة، فرقصت وأبدعت، وراحت وهى قبلة الأنظار، بل قبلة الأنظار وأصحابها جميعا، لأنهم أحاطوا بها يهنئونها ويتقربون منها، وهى تبتسم وتتخلص إلى طريق الشرفة الصخرية المطلة على النيل.

ثم جاءها مدير الفندق ومعه ترجمان وقال لها: «هو ذا يا آنسة أبرع ترجمان فى البلدة يصحبك غدا فى زيارة الآثار الشرقية وهو بانتظار أمرك فى الصباح.» قالت ضاحكة: «والحمار؟؟»

قال ضاحكا أيضا: «نعم يا آنستى، ثقى بهذه المسألة أيضا. سيكون معك أحسن ترجمان فى البلدة، وأحسن حمارا!»

فلما رآها فى اليوم التالى، لم تكن المقابلة محض مصادفة لا يعلم بها قبل لحظتها، ولكنها كانت كذلك لا تخلو من عنصر المصادفة السارة، لأن الصحراء واسعة، ومواقع الفرجة فيها متعددة، والوقت من الصباح إلى الضحى ليس بالوقت القصير، فمن الممكن أن

يخرج إلى هذا الجانب فى الصحراء عشرون ولا يلتقون، ومن الممكن أن يخرج اثنان ويلتقيان.

فهى إذن مقابلة عجيبة قد اجتمع فيها سرور المصادفة وسرور الانتصار وبقى شيء. شيء واحد. بقى كل شيء فى الحقيقة..

بقى التعارف المنشود الذى بغيره تصبح هذه المقابلة حسرة، ويزول كل ما فيها من السرور فكيف السبيل إليه؟.

هو متحفظ جداً فى هذه المواقف، وإن شئت فقل إنه خجول فى مقابلة الغرباء من الرجال أو النساء. وهى بطبيعة الحال فتاة مدللة تشعر بعزة الجمال، وتجرى على الآداب الأوربية فى هذه المناسبة، فرصة التعارف واسعة جداً على التحقيق.

ولكن المسافة بين المتعارفين أوسع من فرصة التعارف، أوسع من الصحراء، وإن الفرصة لتوشك أن تفلت آخر الأمر بغير أمل فى التجديد. إذا بأحسن حمار فى البلدة يمهد سبيل التعارف أحسم تمهيد.

لأنه جمح على غير العادة، بل جمح على حسب العادة التى اعتادها كل حمار أصيل، فإن هذه الحمير الأصيلة لا تحتمل النخس اليسير، وقد تستحثها إلى الجرى بأقصى سرعتها بهزة صغيرة فى الركاب، فتأتى بالسرعة التى يعجز عنها الحمار البليد، ولو انهالت على رأسه ألف عصا، واندس فى خاضرته ألف مهماز.

وفى تلك اللحظة كان السائق الغبى يقرب الحمار إلى الفتاة الروسية لتركبه، فنخسه على سبيل الاستعجال، فكانت هى النخسة

المباركة التى لم ينتظرها أحد من الواقفين، لأنه جمح وانطلق فى الصحراء، وانطلق وراءه الصبى ليعيده إلى الطاعة، فوقفت الفتاة مدهوشة، وهى تقول للترجمان كأنها تؤنب الفندق ومديره فى شخصه: هذا أحسن حمار فى البلدة؟

فارتبك الترجمان ولم يدر ما يقول، أو لعله قد ألهم أن يقول أفضل ما يقال فى تلك المناسبة، فأقسم لها أنه لأحسن حمار حقا «وإن لم تصدقى يا مدام فاسألى الأستاذ!».

قالت وقد أغرقتِ فى الضحك: وما شأن الأستاذ بهذا؟

فمضى الترجمان فى اعتذاره وهو يقول:

«نعم ياسيدتى. إنه من أهل البلدة، وإنه يعرف حميرها جميعا وطالما ركب هذا الحمار بعينه، وخرج به إلى هذا المكان، وإلى كل مكان فى أسوان. وعلى فكرة ياسيدتى! إن الأستاذ ليعرف كل قطع الآثار كما يعرف بيته، فاسأليه فيما كنت ياسيدتى تشكين فيه من كلامى عن هذه الآثار اسأليه... أليس كذلك يا أستاذ؟»

بارك الله فيك يا هذا الترجمان !

إنك حقا لأحسن ترجمان فى البلدة، وفى العالم !!.

* * *

اتصل التعارف بهذه المناسبة الصحراوية المضحكة، وعاد الحمار إلى الطاعة، مشكورا على عصيانه، وتبادلا الحمارين، ليقيم لها الدليل على اطمئنانه إلى الحمار المتهم بالجموح، وقضيا بقية الرحلة معا، وسمع منها الكثير وأسمعها الكثير.

علم منها من هى فى بضع كلمات: هى روسية أحبت رومانيا وتزوجت به، وعاشت معه سنتين فى بلده، ثم افترقا. وعرفت طريقها إلى الفن على أثر هذا الفراق، وعلمت منه من هو فى بضع كلمات: هو من أهل هذه البلدة ومن محبى القراءة، وهى وطنه الذى لا ينقطع عنه، إذا انقطع زمنا عن وطن من الأوطان.

وأدهشته وأدهشها.

أدهشته لأنها وهى الفتاة الراقصة اللاهية تعرف الأدب الروسى الحديث كأنها طالبة فى جامعة من الجامعات الكبرى تخصصت فيه.

وأدهشها لأنها لم تكن تتوقع وهى قادمة إلى أسوان أن تعرف إنسانا من أهلها تتحدث إليه عمن تحب من كبار الكتاب الروسيين، ولا سيما «دستوفسكى».. وأن يتم ذلك كله بفضل حمار وعلى غير انتظار!

لك الله يا أيها العزيز دستوفسكى!.. كم وددت لو قبلت لحيتك الكثة من عارضيك إلى ذقنك فى ذلك الصبح البهيج.

* * *

وعلم منها أنها ستسافر غداً لتقضى يومين فى الأقصر، ثم تعود إلى القاهرة. وعلمت منه أنه عائد إلى القاهرة بعد أسبوع.

وأخذت منه رقم التلفون وعنوان البيت، وقالت وهى تودعه عند باب الفندق: «انتظر منى تلفونا بعد بضعة أيام».

— إلى اللقاء فى القاهرة.

– فى القاهرة. فى القاهـرة.. إلى اللقـاء

* * *

ومضت أيام وهو لا يصدق أنها سوف تتكلم كما وعـدت، وإن كانت لهجتها الجادة ومحياها الحزين يوحيان إليه أنها ليست ممـن يلغو ويهزل بالمواعيد..

ثم دق جرس التلفون ذات صباح: «مـن المتكلـم؟» هى بعينهـا، هى الفتاة الروسية التى كان ينتظرها ولا يصدق أنـه يسمـع صوتهـا مرة أخرى. ولـم يعرفهـا بصوتهـا كمـا عرفهـا بلهجتهـا الإنجليزيـة الضعيفة التى كانت تخلطهـا بكلمـات فرنسيـة تبـدو عليهـا مسحـة اللغة الروسية من بعيـد.

– مَاذا فلانة ؟

– نعم فلانة.. كيـف أنت؟ متى عـدت إلى القاهـرة؟

– منذ يومين.. عود سعيـد يـاصديقتى!

قالت: شكرا. إذن لم أتأخر كثيـراً فى الكـلام.

قال: «بل كثيرا جداً.. يومـان يـا آنستي ليسا بـالشيء اليسيـر فى الانتظار».

قالت: « هاها.. بهذه السرعة ؟ إذن متى أراك ؟ »

قال: « غداً الساعة الخامسة. أتوافقك هذه الساعة ؟ ».

قالت: « كل الموافقة. إذن غداً الساعة الخامسة.. إلى اللقاء »

* * *

وفى وسع القارئ أن يتخيل لهفة الانتظـار فى الصبـاح.

فمن الصباح كان «الأستاذ» فى حدود الموعد المنظور عند الغروب، وكان من عادته أن ينام قليلا بعد الظهر، فلم ينم فى ذلك اليوم.

وحانت الساعة الثالثة وهو فى موقف الانتظار.

ومضى نصف ساعة، ومضت ساعة، ومضت عشر دقائق، ثم ربع ساعة بعد الرابعة وإذا بجرس الباب يدق!

ماذا؟ قبل الموعد بخمس وأربعين دقيقة؟ ما الذى أعجلها؟ ولماذا لم تبلغ بالتليفون؟؟ أهى رغبة منها فى المفاجأة؟ أهو تعديل فى مواعيدها وسهراتها الراقصة قد اضطرها إلى هذا التبكير؟

فى خطواته بين المكتب والباب دارت فى رأسه كل هذه الخواطر كأنها صورة واحدة يلمحها مرة واحدة فى كتاب، وكان مع ذلك سعيداً جداً بهذا الاختلاف فى المواعيد، على فرط كراهته لكل اختلاف فى المواعيد.

وفتح الباب وهو يرسم فى عينيه صورة الوجه الذى ستراه عيناه بعد لمحة خاطفة فأى وجه رأى؟

نعوذ بالله.. آخر وجه كان يفكر فيه أقل تفكير فى تلك اللحظة المباركة.

وجه رجل ثرثار سريع اللسان فى الكلام، بطىء الحركة فى الجلوس، يحسن أن يبدأ الكلام فى كل مكان، ولا يحسن أبدا أن ينتهى منه، ولو نبهته بكل وسيلة تنبيه فى قدرة الآدميين.

تسكت ولا ترد عليه وهو يتكلم فلا يبالي، وتقاطعه وتخرج من الحجرة وهو يتكلم فلا يبالى.

وتعرض عنه وتتشاغل بنقل هذا الكرسى أو رفع هذه المنضدة فلا يبالي، وتفعل ما تشاء فلا يبالى ما دمت لا تقبض بيدك على لسانه، ولا تمنعه أن يحركه بين شدقيه.

والمهم عنده أن ينفض ما فى صدره بغير توقف ولا مناسبة كيفما كان موضوع الكلام.

وليس مهما أن ترد عليه أو تعقب على ملاحظاته وأسئلته التى يوجهها ولا ينتظر جوابها، فهو على التحقيق لا يصغى إليها ولا يسمعها ولا يفكر فى معناها.

إنما يقول ويقول ويقول.

حتى يفرغ مما يقول وأنت لا تدرى متى يحين موعد الفراغ.

جزاك الله يا هذا.. وفى هذه اللحظة دون غيرها!

فكيف الخلاص، وكيف الاعتذار؟ ومتى ينتهى هذا الثرثار إذا سمح له بالابتداء.

وبدأ القصة الأبدية بعد دقيقة واحدة من تاريخ دخوله الميمون، وعند الله وحده علم الدقيقة التى ينتهى فيها الكلام.

وكان الأستاذ فى زياراته السابقة يطيل صبره عشر دقائق أو ربع ساعة إذا كان لديه متسع من وقت الفراغ، ثم يبدأ بعملية التشاغل فلا تنجح العملية قبل نصف ساعة على أهون تقدير.

ولكنه فى هذه الزيارة بدأ العملية فى الدقيقة الأولى.

خروج من الحجرة ورجوع، ومحادثات فى الهاتف ولا حديث، وقراءة فى هذه الصحيفة ثم إلقاء الصحيفة وسائر الصحف بضجر وتأفف لا تحفظ فيه، وإعراض ومقاطعة واقتضاب وسكوت. ولا فائدة.

ما العمل؟ ما الحيلة؟ كيف الخلاص من هذه البلوى؟

بعد ربع ساعة كأنها آناء الجحيم خطرت له خاطرة أخيرة، وهى الخروج من المنزل كله لإكراه هذا الثرثار على الخروج معه، ثم يعود فى الوقت المناسب.

فلبس على عجل، وعاد مهرولا يقول له وهو لا يملك أن ينتظر جوابه: «معذرة يا صاحبى إذا اضطررت إلى النزول.. إنى على موعد فى المدينة، ولا بد من الذهاب إليه الآن.. الآن بغير إبطاء».

فهم أن ينهض من مكانه وهو أقرب إلى الجلوس منه إلى النهوض، وقال متراخيا: «أضرورى جدا هذه المواعيد فى هذه الساعة؟».

– نعم ضرورى جدا.. ضرورى جدا. لا مؤاخذة! وسبقه إلى الباب فلم ير الثرثار بدا من اللحاق به، وهبط السلالم متباطئا كأن له أملا فى إقناع الأستاذ بالعودة.. ولا ضرورة لهذه المواعيد فى هذه الساعة!

ولم يتقدما فى الطريق خطوات حتى لمح الفتاة مقبلة من بعيد، ورأته فاستغربت، ووقفت فى مكانها مبهورة..

يا للطامة الكبرى!

لـم يفتـه أن يحـزر مـا جـال بخاطرهـا فى تلك اللحظـة. جـال بخاطرها ولا شك أنه استخف بها ولم يحفل بميعادها، ولم يكلف نفسه عناء الانتظار للقائها، وهى التى يتهـافت على لقائهـا عشرات، وينتظرون الأيام.

فمن حقها أن تدبـر راجعـة ولا تسأل.

ولحظة واحدة وقد كانت تهم أن ترجع، ويالهـا مـن لحظـة قـد تنتهى بها حياة ذلك الثرثار البغيض فلم يتردد الأستاذ أن تـرك ذلك الثرثار فجأة بغير استئذان وبغير تمهيـد.

وصاح به وهو يعدو راجعـا إلى البيت: «نسيت المفتـاح! نسيت المفتاح! نهارك سعيد».

قال: «هل انتظر؟».

فلا يذكر الأستـاذ أجابـه أم لـم يجبه، وقفـز على السلالـم حتى فتح الباب ووقـف ونبضه يكـاد أن يقـف.. بالانتظـار خمس دقائـق مضت وكانت ضحكات الفتاة الروسية الرنانة المجلجلة تسمع فى الطريق.

لأنها عرفت الحكاية بتفصيلها وتصورت الموقف بجميع محرجاته ومفاجآته، واسترسلت فى الضحك بغيـر انقطـاع.

قال لهـا، وهى أول مـرة يجترىء فيهـا عليهـا: «على رسلك يـا بلهاء، إن الشارع كله يسمع هـذه الضحكـات».

وتحرك فعلا إلى النافذة يقـول لهـا مازحـا: «انظـرى، إن الشارع يمتلئ بالسامعين والمتفرجين!».

فماذا رأى؟

من السهل على القارئ أن يحزر الآن ماذا رأى الأستاذ، وماذا رأت الفتاة، وهما ينظران إلى الشارع الذى ليس فيه أحد إلا صاحبنا الثرثار يخطو أدراجه إلى المنزل ليستعجل الأستاذ فى النزول.

فما هو إلا أن وقع نظر الأستاذ على وجهه حتى أخذ هو يضحك كما كانت تضحك الفتاة، ولكنه ضحك فيه كثير من الحنق والدهشة والمجازفة. المجازفة بكل ما يقوله ذلك الثرثار وكل ما يلفظ به، وكل ما يرويه للعارفين وغير العارفين.

قال لها: «يا فلانة! لا أرى خيرا فى الانتقام من هذا الثرثار ولا فى تبكيته والسخرية منه إلا فى أن تفتحى أنت له الباب فى هذه المرة».

فتلقفت الاقتراح مسرورة بدورها «الفنى» فيه، وكانت أسرع من صاحبنا إلى جرس الباب، ففتحته، ولبثت هنيهة تصغى إلى ما يقول، وتعجب إذا ابتدأ كيف يكون الانتهاء!

وقد كان فى وسع صاحبنا أن يفهم مرة واحدة فينقلب إلى الطريق قبل أن يسأل، ولكنه كان أمينا لطبعه غاية الأمانة، فسأل هذه الخادمة المسكينة الشاخصة بين يديه: «هل الأستاذ موجود؟».

قالت: «الأستاذ نقل من هذا المنزل!»

قال متعجبا : «يا عجبا.. منذ متى؟ إننى كنت هنا من خمس دقائق».

قالت : « وهو قد نقل من خمس دقائق ليس إلا ».

وأغلقت الباب، وعادت تستأنف ضحكها وهى تقول : «إنه لا يخجل. وهو يغيظ ».

قال الأستاذ : « بل خجل هذه المرة والله أعلم ».

فنظرت إليه مقهقهة بعينيها الواسعتين، وصاحت به: «أهذا هو الخجل ؟ فماذا كان صانعا لو لم يتفضل بالخجل ؟».

قال : «يسألك أن تصحبيه إلى منزل الأستاذ الجديد !!».

• يحيى حقى

كُنّا ثلاثة أيتام ...

ها هو قد تزوج، وها هو يقبّل زوجته، فى كل قبلة يدعو الله أن يرزقة ولداً صالحاً تتجدد من بذرته شجرة أسرة، ليست - وهنا العجب - بذات جاه أو ثراء. وجاء يومه المرجوّ وسلمته القابلة لفة لها لين العجين ورائحته. وقالت:

- بنت. بنت. هذه نعمة من الله...

فسماها نعمات.

لم يفهم أن أغلب الرجاء طمع، وأن بعض الدعاء جحود وتدخل فى الملكوت.. وعاد إلى سؤال ربه فى صلاته، وأطال تضرعه فى ركوعه وسجوده.

وجاء يومه المرتقب، بين الخشية والأمل، وسلمته القابلة لفة تتلوى كالحشرة وقالت:

- بنت. بنت. هذه عطية من الله..

فسمى بنته الثانية عطيات.

«نعمات» و «عطيات»، لم تكن أسماء بمثل ما هى تلميح إلى الرضا عن اضطرار، وأن انصياع اليوم مرتبط بالرجاء فى تحقيق الوعد غداً. حرّك الأب الأبتر كل ما فى قلبه من شُعل الإيمان، وتوجه إلى الله بكل ما قدر عليه من خشوع، وكرّر ابتهاله وتذلله.

فاستجيب في يوم دعاؤه. واستقر فى بطن الأم سرّ الصبى الموعود. حينئذ مات أبى، وهو لا يعلم أنه فاز بأمنيته. قد أوفى جهده على الغاية، وتحقيق الغرض من وجوده، وكان ثمن انطلاق السهم تمزق الوتر المشدود، وإن سعادة الأفراد لا وزن لها فى تسلسل الأجيال.

وهكذا ولدتُ يتيماً. ومع ذلك لست بغريب عن أبى. كل مرة أدخل فيها غرفة الاستقبال وتقع عينى على صورته الفوتوغرافية الشاحبة معلقة على الجدار، أراه يبتسم لى ويكاد ينادينى..

* * *

ولم أكد أوظف بالحكومة وأقبض أول مرتب حتى ماتت أمى. كأنها لم تقو على فراقنا إلا بعد أن اطمأنت علىّ. سرت وحيداً منفرداً خلف النعش، أمّا شقيقتاى، نعمات وعطيات، فقد بقيتا تنوحان وتلطمان الخدود وهما متدليتان من النوافذ. رأيت أكثر المشيعين يتطلعون إلى وجوههما ونهودهما من أطراف العيون. فى تلك اللحظة استفقت. وأدركت أننى أصبحت رب أسرة. أية أسرة! فتاتان جميلتان، نعم جميلتان، وإن لم تصح شهادتى، ليس لهما غيرى. قوّمت من ظهرى المنحنى، وسرت رافع الرأس، وتقبلت – على القبر – دون ثورة أو غضب وكره، عبارات التشجيع والعزاء والوصية بالصبر والرجولة.

ثم مرت الأيام ودرج النسيان بأذياله على الماضى وأهله، وإذا بى فى صحبة شقيقتى من أهنأ الناس. ثلاثتنا فى مقتبل الشباب ورونقه، فى مرحه ونزقه، فى جريه وقفزه، فى عطره ونضرته، تساو طليق، لا تضغطه شيخوخة مولية، ولا تأخذ بخناقة طفولة

هاجمة. من حسن الحظ أننا لم نكن فى سعة تكفى للأنفاق على ثلاثتنا، فقدّم الصبى وحجزت البنتان فى الدار، وكذلك نجاهما الله من الجامعة بآدابها وفلسفتها، وسلم لهما عقل غير ملتو يضل فى الفضاء، وطبع غير متكلف، كل منهما نَمَتْ أنثى، جسما وعقلاً. لا يعكر حديثنا نقاش أو جدال. صحبة لم يترك لى صفاؤها مطمعا.. فمن مثلى مِن الرجال، تحوطه فتاتان - لا فتاة واحدة - بكل ما وسعهما من عناية وإخلاص؟ لا تقلّ ملابسى هنداماً ولا أكلى جودة عن زملائى المتزوجين، دون أن أدفع ثمن هذه النعمة بالكدر والهم والضيق الذى أتبينه على وجوههم كل صباح فى المكتب.

كانت نفسى قانعة وجسمى سعيداً. نعيش متلاصقين كصغار القطط وهن عُمى. حلقتنا كاملة: هذه نعمات لبسها دور الأم الحنون فلبسته. هى أكثرنا رزانة واتزانا. فى يدها مصروف البيت وتدبير خزينه. وبقيت عطيات «دلوعتنا القنونة». التى من أجلها نحرص - فى خفية منها - على تذكر أقل رغبة لها ترد عرضاً فى سياق حديثها وننتظر إلى أن تحين الفرصة، فنجد أكبر اللذة فى تعب البحث عن طلبتها، وفى التحايل على كتمان أمرها إلى أن نعثر عليها فى تمام مناسبتها، فنضحك معها لدهشتها، ونشاركها الفرح بهديتنا.. فى بعض الأحيان أضع رأسى على ركبة عطيات فتعبث بأصابعها الطويلة فى شعرى، كأم القرد تفلى رأسه وتناغيه.. بجانبنا نعمات تغمرنا بابتساماتها الحلوة وهى تخيط لى بعض ملابسى الداخلية. لو تُركنا لأنفسنا لعشنا سعداء. فى هناء يكمل

بعضنا بعضاً. ولكن كيف يتأتى ذلك وفى الناس إخلاص ومحبة ورغبة فى مساعدة الغير وتطوّع لعمل الخير والتحريض عليه!! بدأ أقاربى ومعارفى يهمسون لى: «متى تزوج أختيك؟ لقد آن الأوان!» ثم فى مرة أخرى: «كيف تأمل أن تعثر لهما على زوج صالح وأنت قابع فى داركم القديمة المختبئة بدرب الحجر من وراء حارة التمساح لا تزور ولا تزار.. أم تراك معتمداً على الخاطبة ومقالبها»؟

أخذت وأنا خائف أتطلع إلى عيون شقيقتى على غفلة منهما وأسال نفسى:

– هل هذه عيون ظامئة جائعة؟

خيل إلىّ فى بعض الأحيان أن نظرتهما الناطقة تخرس فجأة وتشرد فى الفضاء وأن تحت وشى هذه النظرات الجميلة يختبئ قزم من الحزن والحرمان له عين البوم وأسنان الفأر وعناد الثور ونزق الجدى.. أيها الشيطان الأسود! مهما تراوغ فلن تخفى علىّ بعد الآن!

سهرت الليل أفكر. وأنار الفجر ظلام الليل وبصيرتى. فاستبانت لى الحقيقة على ضوء النهار، جسداً نيئا قبيحاً قوى العضلات. لا فائدة من مغالطة الطبيعة. ولابد من التضحية وتحمل الوحدة، والصبر على مرارة التسليم والانسحاب.. رسمت لنفسى برنامجاً وصممت على تنفيذه دون استشارة أحد حتى شقيقتىّ. لن ألجأ إلى الأقارب، فهم – كما يقول المثل – عقارب، و إلى الخاطبة،فهى سمسار بين عجزة، أليست المشكلة أن الزوج الصالح لم يأت

إلينا؟ إذاً قلنبحث عنه، ولنذهب إليه، وفى موطنه، ولو أدى الأمر إلى اصطياده احتيالا. سأعد الشبكة الماكرة بنفسي، وألقيها فى طريقه بيدى. هذا صيد حلال. وأى شيء أعظم ثواباً عند الله من تدبير زوج صالح لأعز الناس إلىّ؟

بعت بعض الحلىّ، وسحبت كل نقودى المودعة بصندوق التوفير، وأجرت شقة كالحُقّ - ولكنها غالية علىّ! - فى جاردن ستى، واشتريت لها بعض الأثاث من معارض سليمان باشا. عن إذنك يادرب الحجر! لقد ألغي الرق فأعتقنا لوجه الله! وأنت أيتها الصناديق والشكمجيات، وأنت أيتها الشمعدانات والمرايا المذهبة، وأنت أيتها الكنبات والمقاعد المطعمة بالصدف، منك إلى صالة المزاد، خطوة مباركة، وداعا وداعاً. فنحن فى دار كل مقام فيها قصير، وكل صحبة إلى فراق. أتنتظرين أن أرثيك بدمعة؟ من تلفت إلى الماضى لم تكفه دموع الخنساء! تسألينا، البكاء؟ بل اسألينا النسيان، والنسيان السريع...

ولما دخلت العمارة، وقام لنا بواب بربرى له وقار القديسين وهيبة الأباطرة ولما دلفت إلى المصعد بعد سلالم قليلة فرشت بالبساط وزينت بأصص الزهر، ولما سمعت الوكيل يقول: «هنا الأنتريه، وهنا الأوفيس» اطمأن قلبى وقلت: قد أحكمت الشبكة، فلننتظر صابرين، وعلى الله توكلنا...

* * *

عشنا غرباء زمناً ثم بدأنا نألف الحىّ وأصواته، ووجوه سكانه وعاداتهم. خرجت من الشقة ذات صباح فإذا بى أواجه صاحب الشقة المقابلة خارجاً بدوره. واحتوانا المصعد سويا... لا أدرى

لماذا اطمأن قلبى إليه. ابتسامة منى، وكنت أنا البادئ، وابتسامة منه، أوصلت الحديث بيننا، هو موظف كبير على المعاش. دعوت الله أن يكون له ابن صالح، أو ابن أخ، أو ابن أخت، أو صديق، أو معرفة، وقلت: لعلهم إذا رأوا أخلاقنا وشرفنا، وخبروا أحوالنا واستقامتنا، تقدموا بالخطبة. دعوته لزيارتنا فإذا به – لشدة دهشتى – يقبل بسهولة. جاء وزوجته سيدة نَصَف، حنّت على أختى حنو الأم الرءوم، دعتنا لشرب الشاى عندهم وقالت وهى تنصرف:

– عسى أن تكون ابنتى سنية قد عادت من الإسكندرية فأقدمها إليكم.

حاولت ألا يظهر غمى على وجهى . كنت أنتظر أسماء رجال لا نساء. وقلت فى نفسى: «فلتكن زيارتنا الأولى هى الأخيرة. فلم أجىء هنا من أجل التزاور مع عائلة ليس لديها رجال».

وذهبت فى الموعد المضروب، وأنا متحرج ضيق الصدر... وجاءت سنية! أيها الناس! لا تبخلوا على بكرمكم وطيبتكم. أشفقوا على شاب قليل الخبرة والتجربة مثلى، ولا تبتسموا إذا وصفت لكم اضطرابى أمامها وحيرتى.

ماذا أقول ؟ كان اللقاء هو بدء تاريخ حياتى، ما قبله جاهلية معتمة، وما بعده نور وإشراق. أحدثها وأسارقها النظر، وإلا كيف تقوى عيناى العاشيتان على مواجهة هذا الجمال كله؟ كنت بجانبها كالجرو المبتل يوضع فى الشمس... ما كنت أدرك قبل رؤيتها أن اللباس من الفنون الجميلة.. كأن جسدها تمنى فكان ثوبها تحقيق أمنيته. وكأن الثوب نفسه اشتهى، فكان هذا الجسد خليلته التى وجد لديها السكينة وطعم

الحياة.. ثوبٌ كم أبدى وكم أخفى! استدار عليها يكاد يأسرها، فإذا أسيرته طليقة تتحكم فيه. هابط إلى أن يقف حيث يتأرجح الذيل بين الكتمان والإفصاح، وحذاء تغنيك أناقته عن التساؤل عما يداريه. كل شعرة في رأسها تسابقت إليها، واصطفت راضية بجانب أختها أو التفت معها أو من تحتها، عالمة أنها تشارك فى زينة، سعيدة ناعمة بالدور الذى رسم لها، لو تهشم هذا الجسد وتفتت ألف كسرة لما خدش جماله. وضحكت فأسمعتنى ضحكة تختصر العمر كله، فيها سذاجة الطفولة، ومرح الصبا، ومرارة التجربة.. فم متهم، وعيون بريئة.. لم تهتم بى كثيراً. وما وجهت لى غير نظرة أو نظرتين.

ومع ذلك عندما انصرفت – وأنا أجرّ رجليّ جرًّا – كنت شاعراً بتعب من جس دقيق تناول روحى وجسدى بأصابع توهم أنها تمسح وتربت وهى تندس وتنقب.. شعرت أننى عُرِّيت، وقُلِّبت ظهراً لبطن وفحصت، واختبرت، قيست قامتى، وسُبرت، وُزنت وكُيِّلت، عُركت وعُضضت بالأسنان ورننت على الأرض.. حُركت أوتار روحى واستُمع لموسيقاها.. ثم استخرج من مخبئه كتابى الدفين، فووجهت فى النور صفحاته وقرئت سطوره كلمة كلمة. كل هذا والعيون مترددة والشفاة مستفهمة. ثم أصدرت حكما لن يكون له نقض أو إبرام إلى آخر حياتها وحياتى.

أيها الناس! أشفقوا عليّ مرة أخرى ولا تبتسموا من جديد إذا قلت لكم إننى تعبت حقا، ولكني مع ذلك وجدت التعب لذة كبرى... لم أخش حكما. بل سّرنى أنها تناولتنى بالفحص. كنت كالمريض لا يسعده أمل الشفاء بقدر ما يسعده تقلبه بين يدى

طبيب مدل ممتنع وراء أجر باهظ.. انصرفت وأنا لا أزال ألوك في فمي لذة مذاقها.. ولما دخلت شقتنا حانت مني التفاتة إلى أختي فقلت في نفسي - والأسى يملؤها - ما ينقصهما والله إلاّ أن تطول الضفيرة، ويغطى الجورب السميك الركبة، لتبدوا شابتين من الريف.. من غد إن شاء الله سأعنى بتوجيههما إلى الاعتناء بهندامهما وزينتهما وإلا فشل برنامجي المرسوم محققاً.

ولكني في غد نسيتُ كلَّ شيء إلا سنية! حاولت أن أجد مسوغا لتكرار الزيارة فلم أوفق. بل وجدت باب الشقة موصداً في وجهي. ألأنهم رأوا لعابي يسيل وأنا أحدق في ابنتهم خلسة فرثوا لحالي وأرادوا تجنيبي التعلق بسراب؟ لما شعرت أنهم يتعمدون صدِّي زاد هياجي، فإذا بي - وأنا المعروف باتزاني وأدبي - أفقد كل سيطرة على نفسي، ورأيتني لشدة دهشتي آتي بحركات وتصرفات لا تصدر إلا عن أطفال أو مجانين. حاولت أن أستعين برشوة الخدم فضحكوا مني. تصديت لها في الطريق. ألقيت أمامها رسائلي. تتبعتها كظلها. كل هذا وهي لا تتكرم عليّ بكلمة أو بابتسامة. أقسم لكم أنني لا أدري كم من الزمن مرّ عليّ وأنا في هذه الحالة، قد يكون أسبوعاً، وقد يكون شهراً. وأخيراً ضاق ذرعي وأحسست أن العذاب لو طال لقصفني الألم ودمّر قلبي وقضى عليّ. هجمت عليها ذات يوم وهي سائرة وأمسكتها من ذراعها، لمسة فيها رعشة الغيظ والأمل، وقلت لها صارخاً:

ماذا تظنين؟ أجري وراءك طول العمر؟ أليس لي عمل في هذه الدنيا إلا أن أسير في ركاب حضرتك؟ العفو! الآن أريد كلمة واحدة نعم أو لا.

فنظرت إلىّ وابتسمت.......

زرت معها معالم القاهرة فكأننى سائح يجوس خلال مدينة مجهولة ساحرة لم يكن يعرفها من قبل.. كنت أتلو كالببغاء قصيدة النيل فشرحتها لى سنية بيتاً بيتاً، وأفهمتنى جمال معانيها ولفتاتها. فى حديقة الحيوان، التى طالما زرتها فلم أر شيئاً، كلمتنى لأول مرة، من وراء أعمدة السجن المؤبدة، عيون صافية جميلة حزينة، وشكت إلىّ وحدتها وآلامها. الفضل لسنية فى الراحة الكبرى التى شملت نفسى عندما آخيتهم جميعاً.. من زحف منهم وطار ودب على أربع..

قالت لى ذات يوم:

– ما العمل إذاً؟ إن بابا يرفض بتاتاً لأنك موظف صغير، ومرتبك قليل، ولا يدرى كيف تقوى بهذا المرتب على المعيشة فى جاردن سيتى.. ولما رأتنى مطرق الرأس غمًّا، أضافت تقول:

– ولكن ماما فى صفّى..

وكان القرار أن أنتقل إلى مسكنهم، على أن تذهب نعمات وعطيات للإقامة مع إحدى خالاتى...

كلهم قالوا لى إننى ساعة «كَتْب الكتاب» كنت شارد اللب. ثم إذا بى فجأة أبتسم ابتسامة خفيفة. ظنوها من حرج سؤال المأذون الصريح. لا يعلمون أننى – ولا أدرى كيف – انتبهت إذا ذاك فحسب، إلى قسوة الفكاهة، وهى تنطبق على، فى المثل القائل:

«راح يصطاد.. اصطادوه..»

[مجلة الثقافة سبتمبر ١٩٤٢]

ضباب ورماد

قصـــة رمزيـة

لم يكن فى الليل نجم واحد وطلـع النهـار بغيـر شمس.

هكذا احتجبت شخوص مسرح الطبيعة وراءالستـار وقيـل للبشر المتفـرج أن انـزووا في جحوركـم فليس الليلـة تمثيـل ولـن يكـون عرض فى الصباح. ويسألون عن الخبر فتهمس أعلام الطبيعة الصغرى من شجر وأنهار:

– لقد اعتكفت أمهاتنا الكبرى فى أبراجهـا العلويـة.

ويردد البشر الواجف:

– ما الخبر؟

فتبتسم الورود الثرثارة ثم تميل على أعوادهـا متمتمـة:

– إنهّن يتدارسنَ أمراً خطيـراً.

شاعت فى وجـه البسيطـة نـذر الأمـر الخطيـر. ونبض الجـو بـالهمس والصوت المكتـوم. فتملّك الآدميين فـزع غـامض انطـوى عليه لا شعورهـم ثم تسرب إلى أفئدتهم فى صورة إحساس ملهوف: إحساس ترقب شيء يخشونه ولا يدرونه ولكنهم يريدونه.

لازمهم هذا الشعور وهم يتمون زينتهـم أمـام المرايـا. وظـل فى حاشية وعيهـم وهـم يشربـون قهوتهـم الساخنـة. ثـم رافقهـم وهـم

يسعون وراء ما يوصلهم إلى محال أعمالهم. وكانوا لا يزالون يذكرونه وهم يقرأون صحفهم. ثم رجعوا به إذ آووا إلى بيوتهم يأكلون ويتماوتون. أما هو فلم يغادر حجرته مع قوافل النمل الآدمى بل بقى قابعاً إلى جوار النافذة يرقب طلائع هذا الصباح الرمادى. وكان فى يده كوب من الشاى أخذ يرتشف منه ثم يطلق أنفاسه الساخنة على زجاج النافذة فيكتسى أديمه بضباب فضى. وكأنما خالجته فكرة فأطرق مبتسماً: إن نهار هذا اليوم يراه الخلق من خلال زجاج ناضح بالضباب ولكنه ما يلبث أن ينقشع فيبين. أما هو فإن نافذة حياته ليس فيها مطل واحد صافى الأديم.

الضباب... هذه حياته وهذا عنصره. وإن كان لقدره لون ما فهو لون الرماد. الرماد يوم ولد والرماد إلى أن يموت. إن الناس يتألقون جمراً ثم يستحيلون تراباً، أم هو فيعيش فى الموت حيث ولد. إنه دودة آدمية لا يحوى جسمها دماً بل قيحاً.

قيحاً... يا للبشاعة! لشد ما تمنى لو حوت عروقة دماً حاراً قانياً! لشد ما اشتهى دفء الحياة يسرى فى أوصاله فيحرك مستنقع نفسه الراكد! لشد ما زعق وصاح فى خلوته.

— إننى مضطهد مظلوم. لِمَ حقت على لعنة الضباب والرماد بينما ينعم غيرى بسورة الجمر والدم...

الضباب والرماد...

أما من فرار من ربقة هذين الشيطانين الغليظين! إنه لا يطلب من جلاديه سوى ساعة واحدة يعيشها كبقية الخلق، يعيشها بقلبه وأمعائه ودمه. يعيشها كما يعيش النبت إذ يمتص حياته من الأرض

أمه. يعيشها بجذور كيانه الممتدة في جوف الكون. وبعد ذلك لن يضجره إن مات فى الرماد أو عاش فيه.

لحظة من جمر ودم...

* * *

تصرمت ساعات قصيرة من النهار وهو لا يزال على هجوعه يحلم ويرقب. وكان الصباح يزداد دكنة حتى خشى البشر ان يكون الشمس قد أصابها ضرٌ فتك بها، إذ كيف ترضى بهذه العتمة تغزو صباحها وهى شمس! وكيف تهادن البرودة فتتركها تجمد الأطراف وتميت النبت وهي شمس! وكيف تحتمل رؤية طرقات المدينة مقفرة موحشة كمسارب المقابر وهي شمس !

ليس هذا صبحهم ولا تلك شمسهم. وأحس الناس أن دنيا هذا اليوم غريبة عليهم أجنبية عن إدراكهم حتى صور لهم أنهم يعيشون في كوكب آخر غير الأرض، المريخ أو زحل، فكان أن خافوا واكتأبوا.

أما هو فقد قهقه في سريرته إذ أدرك لتوه أن اليوم يومه والصباح صباحه. إنها فرصة العمر قد أتيحت له ليحيا فى عنصره فها هو ذا الضباب قد تكاثف لينشق منه ابن الضباب، وها هي ذى الدنيا الغريبة على البشر قد جاءت تبسط صدرها لربيب الشياطين. لعل الرجاء قد أثمر فاستجاب جلادوه الدعاء.

نزل «إبليس الصغير» إلى الطريق يضرب فى جنباته الخاوية وقلبه يحدثه بأن العالم اليوم ملكه وحده. وكأنه هو زعيم سياسى غداة

استلائه على مقاليد الحكم فأصبح وحده الآمر الناهى بين رجاله وأعوانه. وفرح بهذا الخاطر وانبسط فراح يحدث نفسه حديثا عجباً.

- هكذا أنا. إننى أشرف الناس جميعاً لأننى أقذعهم سخرية. أنا أكثرهم احتراماً لأنى صعلوك. صعلوك بين الملوك. ملوك صعاليك وصعاليك ملوك. ليس لى دم أزرق.. ها... ولا أحمر. إن دمى أبيض. إنه القيح الملقح ضد كل شعور وإحساس. إنه دم الآلهة المنزهين عن الغضب والفرح والحب والحزن. إن كل ما ليس لآدمى إله.. أو شيطان. فليكن دمى من حريق الأبالسة فلست بمبتئس مادمت لا أمت إلى الشر بصلة.

لشد ما أمقت آدم وأبناء آدم وحواء وبناتها. ولم تكن سعادتى لتكمل لولا أنهم يمقتوننى كما أمقتهم. ولكن من منا بادأ الآخر بالكره؟ لو أنهم ابتدرونى ببغضهم فأنا شخص ممقوت يصدّ السهام بأخرى من نوعها. بينما لا أستحق ثواباً على كرهى لهم إن لم أكن أمقتهم فى حين أننى محبوب. محبوب ممن... منهم؟ من نفسى؟ من الآلهة أم من الشياطين؟ هذا لا يهم. يكفى أن أكون شخصية محبوبة فى ذاتها. ولكن هذا هراء. فأنا شخصية بغيضة لا جدال فى ذلك وعلىّ أن أبنى سعادتى على هذا الأساس. وإلا فأنا ملعون من نفسى بقدر لعنتى منهم.

بودلير.. هذا الشيطان الملعون المحبوب. ولكن ما لى وله. اننى لا أنهج نهج أحد فى الوجود وإلا أصبحت بشراً كبعض أحزاب البشر.

فاوست... إنه معتوه. لقد رغب عامداً فى الشيطنة وما هو بشيطان. دفع الثمن من دمه وأثبت المعاملة فى صك كأنما يعقد صفقة فى سوق مع أن الشيطنة هبة وموهبة. ولذا فما كاد الأجل أن ينصرم ويشرف المسكين على أبواب الأبد حتى نراه يعول وينتحب كالنساء. وكلام كثير عن تأنيب الضمير والتوبة والندم. ياللعار... كان عليه أن يفخر بنهايته كأى قديس استشهد فى سبيل الله. فالحق أنه يجب أن يكون للأبالسة قد يسين كما للأنبياء.

عيب البشر أنهم لا يثبتون على حال فتأتيهم الرهبة فى أعقاب الرغبة ويجرى الندم فى ذيول سعادتهم. أين هو الرجل الثابت الصامد كهرم خوفو؟ ولكنهم أمواج رقيقة مذعورة يقطعها عود من العشب. هؤلاء البشر...

هذا وغيره وكثير سواه.

ما كان أتعسنى منذ لحظة حين تمنيت ساعة من جمر ودم! الرجل الصمل هو العنيد كالحمار، الغبى كالبغل. هو الذى لا يتمنى غير نفسه. لهذا قدس جدودى الثور وعبدوه.

هذا وغيره وكثير سواه.

ولكن هل أنا حقًّا كما أصوّر نفسى أم أكون فى الواقع شخصية أخرى مخالفة ؟

هل من أجالسهم وأحادثهم يدركون فى هذه الصورة أم تراهم يقولون «ياله من فتى طيب خجول!»... وحق نفسى لأقطعن ألسنتهم ولأدقن رؤوسهم بالأرض.

ومع ذلك أفإن كنت غير نفسى وقابلت نفسى حول مائدة شراب فهل كنت أقول عنها مثل ما يقولون؟ هل يفرض على الناس شخصية اجتماعية أواجههم بها وينكرون على أن أظهر بينهم بشخصيتي الفردية دكتور جيكل ومستر هايد.

لا كان الناس ولا كانت آراؤهم التعسة، إنهم إن قالوا عنى هذا القول فإنما يقولونه ليستروا خوفهم منى ورهبتهم إياى وهذا جهد ضائع. فما أنا معنيّ بخوفهم أو مشتاق لرضائهم أو شاعر بوجودهم. إننى وحدى من صنع نفسى.

ما لتلك الخواطر تزحم رأسى فتضنى نفسى فى يوم عرسى

أيكون هذا شعراً؟ ما علينا. لأمض فى بطن دنياى أحادثها فليس اليوم وقت المناجاة.

أو صلته هذه التأملات إلى خارج المدينة فما إن أفاق منها حتى وجد نفسه وسط حقول مغشى عليها من فرط البرد وقد أقفرت شعابها من كل دابٍ وخلت أجواؤها من كل طائر. ألقى ببصره على تلك المروج المذعورة فبدت له فى إطار الصباح الرمادى كبعض أحلام النائم التى تنتابه فى مطلع الفجر. لم يكن فى الصورة المنشورة أمامه مشهدٍ واحد حقيقى.

واستهوته هذه الفتنة الجديدة فمضى وسط الحقول متخيلا أنه صاحب هذا الفضاء بأسره. وراقته فكرة أن يكون غنيًّا غنى طائلا فابتسم ثم قهقه فى صوت مكتوم. أن يكون صاحب ملايين... إنه يستطيع حينئذ ان يكره البشر بكل ما أوتى من قوى وأن يظهر

هذه الكراهية بشتى ما يحلو له من وسائل. يستطيع مثلا أن يشترى قانون الحكام وأن يبتاع ذمم أولى الأمر. فإذا ما أمن جانب الدولة وانزاح عن عاتقه خطر السجن سهل عليه بعدئذ أن ينال الناس فى أعزما يقدسونه وأن يسخر علناً بكل ما يضعونه موضع الاحترام وأن يسفه كل رأى يربط به القوم أمانيهم. له حينئذ أن يحقر ويلطخ كل معانيهم كالوطن. والحرية. والمساواة. والعدالة بل والدين نفسه دون ان يخشى عقاباً أو يأبه بآراء الرعاع.

ويصبح فى مقدوره أن يتفنن فى هذه الأساليب وأن يجعل منها نظماً قائمة على مؤسسات ثابتة تكون عنوان مسبة دائمة فى جبين الناس وهم لا يدرون. فهو يستطيع عن طريق ملايينه أن يجعل من سائس اصطبلاته زعيم حزب سياسى لا يلبث ان يشترى له الأعوان، ويجمع من حوله الأنصار، ثم يحلى أصابعه بالجواهر ويرشق فى سترته الأزهار، ويطلقه من بعد ذلك يخطب فى قطعان الناس، فما إن يهل عليهم ببلاهته المجسدة وغبائه البشع حتى يضجون بالهتاف والتصفيق وينتهون بحمله على الأعناق. وتصبح لغة الاصطبلات التى يحدثهم بها لغة السياسة المثلى وعنوان البراعة ورمز البلاغة.

فإذا استطاع بعد ذلك أن يوصله إلى كرسى الحكم... ما أعظمها سخرية! وكم تكون الطعنة نجلاء والمسبة فاحشة حين يخلعه بعد ذلك من منصبه ويعيده إلى وظيفته الأولى فيعلم قطيع الخراف الآدمية أن حاكمهم الذى أشادوا بعبقريته لم يكن سوى سائس فى اصطبل.

ألهته هذه السوانح الشيطانية حيناً من الزمن فما إن أفاق منها حتى وجد نفسه ينتفض من فرط البرد. فقد كانت برودة الجو تنفذ فى الجسم كإبر من جليد والريح تهب مثلوجة كأنها أنفاس الأبالسة. وكان صاحبنا قد غادر حجرته برأس عار وعلى منكبيه درداء خفيف ما لبث ان تآمر مع الجو فاستضاف برودته.

نظر إلى يديه المقرورتين برهة وهو يبتسم. كانتا ناصعتى البياض لا يشوبهما سوى صفرة خفيفة في سبابة اليد اليمنى من أثر التبغ. وراقه مالا حظه من نعومتهما ورقى أديمهما حتى كأنهما أكف العذارى الخود لا يفارقن مخادعهن ولا تلمس أصابعهن غير المخمل والحرير وقد بلغ من فرط رقتهما أن كادت البشرة تشف عما تحتهما من عظام وشرايين. لشد ما أعجبه هذا! أن يده ليست يد رجل...

غير أن البرد القاسي عاد يعكر عليه صفو راحته. فعمد إلى حائط متهدم ليحتمى فى جوفه ولكنه وجد أن القرّ قد سبقه إليه. وفجأة شعر بأن نفسه قد تخلخلت وباتت بغير أساس. وأن صدره أصبح فارغاً خرباً موحشاً. وكان كلما لفحه الريح بأكفه الميتة ازداد شعوره بوحدته وبقلة حيلته.

أجل هاهى الريح تصرخ في وجهه بأنه وحيد وحيد. لا صاحب له ولا قرين. يقيناً أنه ولد من أبوين وكان لهذين الأبوين أقارب وأنسباء وأصدقاء فأين ذهب هؤلاء جميعاً إذ بات ثم أصبح فإذا به فى عالم لا يعرف من مخلوقاته أحداً، ألم يكن يعنيه أمر هذه الوحدة وهو قابع فى حجرته ولكنه وسط هذا البرد اللئيم شعر بحاجته إلى الدفء فتاقت نفسه إلى الجموع يستتر ويتكمّش.

إذن فما أتعس الإنسان! إنه تافه هفاف يصطنع مشاعره من درجة الحرارة ومن لون المرئيات ومن طعام كثير الفلفل. فهو يحب ويكره ويحسد ويثور، ويغضب وينتقم، ويرضى ويفرح، لأنه لمح قشرة موز ملقاة على عرض الطريق، أو رأى القميص الداخلى لامرأة سائرة أمامه متدلياً من تحت ردائها الخارجى، أو لأنه سمع بائعاً ينادى على بضاعة بنغمة شاذة. أتكون مشاعر الآدميين من التفاهة والرقة بحيث تستثيرها هذه النكرات الحسية! وهل منع الإنسان حقًّا من أن يشعر شعوراً أصيلا ثابتاً لا يحركه سوى الأمر الخطير والمعنى الجسيم!

إذن ما باله قد ترك شيطنته وأنكر اعتزازه بوحدته وراح يسعى وراء الجموع متمنياً وجود القرناء لمجرد إحساسه بريح باردة تلفح وجهه!

ومع ذلك فإن هذه العلل العقلية جميعها لم تنجح فى تحويل شعوره إلى الوجهة التى أراد. وما لبث أن أحس بأن حاجته إلى الدفء قد تدرجت إلى نوع من الحنين الملح إلى شىء مجهول لا يستطيع إدراكه. شعر بأنه يريد ان يحتضن إلى صدره شيئاً ما وأن يطبق عليه بذراعيه فيعتصره كأن فى أحشائه قطباً مغناطيسياً يتلهف إلى الاكتمال بقطب معاكس أو كأنما هو جائع إلى شىء فيريد أن ينطلق فى بسيط الأرض باحثاً عن الشبع.

عجباً! أيكون «إبليس الصغير» متعطشاً إلى حب امرأة!

إنه يذكر أن هذا الشعور بالجوع العاطفى كثيراً ما انتابه وهو لا يزال طالباً فى الجامعة تلك الأبنية المهيبة التى لا تحتمل من

معاني اسمها سوى أنها مكان معد لاجتماع نفر متفرق في صعيد واحد. كان يخرج منفرداً ليجوس في الحدائق المحيطة بها فيخطر في طرقاتها المورقة وتقع عيناه على النبات الأخضر وعلى الماء الراكد السجين، ويطرق أذنيه صوت الدوح تسامر جاراتها، وشدو الطيور تسمع أهل الأرض أنغام السماء. وحين تتعب قدماه وتسأم نفسه كان يأوى إلى مقعد مهجور في ركن ظليل فيجلس ويطرق. وما من مرة طال به المقام في هذه العزلة الصامتة إلا وتنبه من أحلامه الحزينة على احساسه بدمعه الساخن يتساقط على كفيه.

كان يبكي من غير وعى. إلا أن وعيه الداخلي كان يدأب على إشعاره في كل بادرة تسنح له بأنه وحيد وأنه محروم. كان يحس بأن نفسه تكاد تتشقق من شدة الجفاف وأن فؤاده يصرخ مطالباً بالعطف والحنان اللذين لا يستطيع العيش بدونهما.

ويذكر أنه في ذلك الوقت كان إذا ذهب إلى مسرح أو سينما لم يكن يعني بجل ما يعرض عليه من مشاعر مصورة. غير أن ثمة نوعاً واحداً من المشاهد لم يفشل مرة في استثارته وتحريك لواعجه. فكان يكفيه أن يرى أمًّا تمر بيدها على جبين ابنها المحموم، أو أختاً تستقبل في احضانها أخيها العائد من سفر طويل، أو فتاة تحمى عشيقها بجسمها لتدفع عنه خطراً ما. حتى يشعر بأن قلبه يعتصر عصراً.

بل إن كثيراً من مشاهد الحياة العادية ككلب يقبل مبصبصاً بذنبه لتحية صاحبه، أو زوج يساعد زوجه علي الصعود في الترام، أو بائع جرائد يصلح من هندام زميل له، أو عابر يأخذ بيد أعمى

ليوصله إلى الجانب الآخر من طريق، أو بائع فقير يجود بشيء من بضاعته على شحاذ، أو أم ترقب طفلها وهو يلعب وسط المروج.. كان أى واحد من هذه المشاهد كفيلا بأن يغمر عينه بالدمع ويجعل شفتيه ترتجفان. ثم لا يلبث أن يعض على نواجذه ويمضى فى طريقه كسيفاً وقد عصفت به مشاعره المضطربة.

وكان يخيل إليه ألا نجاة له بغير الحب فالحب على حسب ما كان يرى هو المظهر والمصدر لما يحتاج إليه الفتى من حنان عاطفى.

وأخيراً أحب. ثم قبع فى وكره ينتظر الثمار. فكان بعد ذلك مالا يود ان تمر مجرد ذكراه بباله. وإذا به فى ذات يوم يهجم على حبه فيخنقه ثم يحطم تمثال من أحب.

وقال: لأكن هذا الفتى الصلب العود المصفح القلب الذى يأنف من أن يبذل أنبل مشاعره فى الهوس والسخافات. وكان يحلو له أن يردد قول الأعرابى «ما بال الرجل منكم يموت فى هوى امرأة! إنما ذلك لضعف فيكم يا بنى عذرة».

وأحاط نفسه بالسياج فأصبح فى عصمة أنوفة منيعة وبدأ يشعر بجبروت الآلهة.

فما باله اليوم إذن يعود إلى وساوس أيفاع الشبان!

ازداد شعوره بالبرد فغادر مكانه وانثنى صوب المدينة. وكان كلما خطا خطوة آلمته قدماه وكأنما يسير على قتاد مرهف. وبعد أن سار شوطاً مضنياً وقف تحت خميلة وارفة وهو مقرور. ووقع

بصره على قرية بعيدة يتصاعد من أكواخها الدخان فاشتاق النار. وكانت القرية مضمومة على منازل متقاربة تتوسطها قبة بيضاء لجامع أو لمدفن أحد الأولياء ولم يكن بجوار القبة مئذنة. وفى أنحاء متفرقة من هذا المشهد قامت أشجار الجميز الفرعونى العجوز فبدت كشحاذين مكفوفين يدبون على عصىّ. وظهرت فى الأفق البعيد قلعة القاهرة الشامخة تشرف على المدينة فتدمغ كل منظر فيها بطابعه القاهرى. وكان الضباب يغلب هذا المشهد بأسره فيبدو كصورة خيالية من تلك الصور التى تصنع خصيصاً للسائحين الأجانب فيبتاعونها كتذكار ممثل للطابع القاهرى.

* * *

غادر مكمنه من جديد واستأنف السير حثيثاً حتى وصل إلى المدينة. وكانت الطرقات لاتزال مقفرة من السابلة، والعربات تجرى مذعورة بين حين وآخر كأنما تفر من عدو مطارد، وكان السكوت مخيماً فى كل مكان حتى خيل إليه أنه يهبط مدينة قد اكتسحها الغزاة فسلبوا متاجرها وفتكوا بأهلها.

شاهد مطعماً فى طريقه. وشعر بأنه جائع فدخله وبدأ يأكل ما طلب من طعام غير أنه لم يتناول سوى لقيمات حتى أحس بأنه قد فقد شهيته تماماً فأمسك عن الأكل وأشعل لفافة أخذ يشهق دخانها بنهم.

وفجأة وقعت عيناه على فتاة فى الجانب الآخر من الطريق تقف أمام نافذة مكتبة، فتاة متوسطة القامة هيفاء القد، ترتدى السواد ولها شعر فى لون الذهب. لم تكن هذه أول فتاة صادفها فى يومه.

فقد مرت أمامه كثيرات غيرها رآهن يهرولن مطرقات كأنما قد مات أزواجهن وأخواتهن ثم لا يلبثن أن يتلاشين فى الضباب. ومع ذلك فقد وجد نفسه – ولسبب مجهول – يغادر مائدته ويدفع حسابه ثم يخرج إلى الطريق. لعل ما أثار اهتمامه بهذه الفتاة هو أنها لم تكن مذعورة وجلى كسائر الخلق فى هذا الحرب بل وقفت منتصبة فى مهابة وهدوء تتصفح فى إمعان وتركيز الكتب المعروضة فى واجهة المكتبة.

وقف برهة يتأملها من جانب الطريق الآخر.. وخيل إليه أنها شاعرة بوجوده إذ لم تلبث حيناً حتى حانت منها التفاتة لم تستغرق ثوانى خاطفة. وهبط على الفتى تردد وخشية فهم بالرجوع إلى المطعم ولكنه وجد الفتاة تدخل المكتبة فعبر الطريق للتو ولحق بُها. ولما دخل المكتبة جعل يحدق فيها عن بعد فرأى عينين زرقاوين. وشفتين ورديتين. وبشرة فى لون الحنطة. وفيما عدا ذلك كان وجهها مغلقاً صامتاً لا تبين قسماته عن عاطفة أو معنى. ثم تكلمت فسمع صوتاً كترجيع الريح وسط الغابات فى قلل الجبال. كانت تسأل عن ديوان لشاعر مات فى شرخ شبابه فعرف الناس بعد موته أنه لم يكن بشراً مثلهم بل روحاً علوية هبطت عليهم من السماء. وبدا على الكتبى المنكمش فى دثاره أنه لم يسمع باسم هذا الشاعر من قبل. فهز رأسه واعتذر عن عدم وجود هذا الكتاب لديه.

غير أن الفتاة لزمت مكانها فلم تتحرك وصمتت برهة ثم قالت فى إمارة وسيطرة بأنها مستوثقة من وجود هذا الكتاب الذى تطلبه

لديه وتضايق الكتبى من لهجة الفتاة فأجاب فى حدة خفيفة بأنه أعرف الناس ببضاعته وها هى الكتب معروضة أمامها فلتبحث فيها كما تشاء.

وكان هو فى هذه الأثناء قد اقترب حتى أصبح يواجه الفتاة، فلما سمعها تعبر عن استيثاقها من وجود الكتاب امتلأ قلبه دهشة. فقد كان الآخر يعرف أن الكتاب موجود كما كان يعرف موضعه من المكتبة، ولكن هذا شىء آخر، فهو يعرف مواضع جميع الكتب فى معظم مكتبات المدينة لأنه يعيش معظم حياته فى حناياها. أما الفتاة فكيف تأتى لها هذه المعرفة وهو لم يشاهدها فى سوق الكتب من قبل ثم إنها لم تر الكتاب ولم تعرف موضعه !

وفى حركة هادئة رفع الفتى يده فاستخرج الديوان من وسط الكتب وقدمه إليها بغير لفظ. ولكنها لم تتناوله منه إلا بعد أن ظلت يده مبسوطة به بعض الوقت. فلما أصبح فى كفيها ألقت عليه نظرة ثم رفعت للفتى وجهها الصامت وتحركت شفتاها بلفظ فرد.

— أشكرك.

أما هو فلم يجب. بل ظل يحدجها بعينين مدهوشتين كأنما يشاهد رؤيا من عالم آخر ومع ذلك فلم يبد على الفتاة أنها تضيق بنظراته. ولكنها أيضاً لم تبتسم له بل قالت بعد برهة :

— لِمَ تحملق فىّ ؟

ولكن الفتى ظل على صمته حيناً طويلا وأخيراً تكلم من غير أن يحوّل بصره عنها:

– آه لـو أن شعـرك أسود...

– إن ردائى أسود.

وبعد برهة صمت استطردت قائلـة:

– أرى أنك تهتم بالألـوان.

– بل بما توحى به من معان. إن السواد هو العنصر الـذى أعيش فيه.

– السواد...

– أكان من الممكن أن تكـونى زنجيـة؟

– إن عينىّ زرقـاوان.

– إنهما جميلتان.

– ولكنهما لا ترضيـانك؟

– لا أدرى.

ثم قال مقطباً:

– من أنت!

– أنـا...

وصمتت برهة ثم أجـابت:

– إننى أحب قراءة شعـر الملائكـة.

* * *

خرج معها إلى الطريق وسار بجوارها وهو مقطب. وبعـد برهـة سمعها تقول له:

– لِمَ تتبعنى؟

التفت إليها وقد ازداد وجهه عبوساً ثم خاطبها فى شىء من الحدة:

– لست أتبعك بل أسير إلى جوارك. إن كلينا مدفوع بيد واحدة وهو ما يضايقنى فبدا على شفتى الفتاة طيف ابتسامة غامضة :

– حقًّا!

ووجد الفتى نفسه يصرخ لغير سبب:

– أجل وكأننى موشك على الاستغاثة بالشرطى ليمنعك منى.

– ولكنك تركت مكانك ولحقت بى!

– إذن فقد رأيتنى حين كنت فى المطعم!

لم تجب الفتاة فساد الصمت بينهما. وعلى حين غرة توقف الفتى عن السير وقبض على ذراع الفتاة بأصابع عصبية وأخذ يحدجها بنظر من نار. أما هى فلم يبد عليها أثر ما لهذه المفاجأة بل نظرت إليه فى هدوء وهو يقول:

– أكنت تتوقعين رؤيتى اليوم؟ اعترفى.

ولكنها رفعت عينيها إلى السماء ولوحت بيدها فى الفضاء:

– اليوم ضباب، انظر، ما أشد التفافه حولنا.

واستأنفا السير فعاد إلى إطراقه وهو كظيم، أدرك لتوه أن هذه الفتاة الغامضة تقبض عليه بيد من حديد وأنها تستطيع معه ما تشاء.

لقد هبطت عليه من الضباب. ومع ذلك شعر بأنها ليست من عنصره، فهو لا يستطيع أن يسيطر عليها كما يسيطر على مخلوقات مملكة الظلمات التى يعيش فيها. فهو وسط الأبالسة حاكم وأمير. وفى حنايا الجحور المستورة يتأتى له أن يأمر فلا يرد له أمر، ثم إنه يقدر على التحكم فى معظم النفوس البشرية إن استطاع أن يدلف إليها من المسارب التى تلائمه، مسارب الدود الأملس والحيات السود حيث لا حكم للقوة السوقية ولا للعنف القبيح بل يطلق المجال للحيلة الملتوية والعقل النافذ والإيهام البارع ولكنه لا يجد مع هذه الفتاة ثغرة ينساب إليها منها.

آه لو كانت سوداء الشعر ولم تكن عيناها زرقاوين..

ومع ذلك فقد أحس بلذة غريبة فى سيطرتها عليه وعبوديته لها. وتأمل هذا الشعور الجديد الذى يملأ صدره فأحب لو استطاع دوامه بعض الحين ليتمكن من وضعه تحت مجهره فيجرى عليه تجاربه. وحدث نفسه بأن لا خطر عليه من هذه العاطفة النامية مادام هو لا يوحد ما بينها وبين نفسه أو يلقى بكيانه فى خضمها. فهو على يقين من قدرته على إبقاء رأسه فوق سطح الماء. وما دام الأمر كذلك فهو يستطيع أن ينتشل نفسه متى شاء. فهذه القدرة على تجنيب نفسه من كل قيد وكفالة الحرية التامة لها فى الفكر والعمل هى أثمن ما استطاع انتزاعه من كبد هذه الدنيا البغيضة. وهو فى سبيل محافظته على هذه الإمارة الروحية قد قطع صلاته بكل الناس ونفض عن قلبه قيد كل عقيدة ودين.

حينئذ أحسَّ بأنه يمسك الكون فى كفيه وبأنه فى عصمته المعنوية هذه أقوى بكثير من كل طاغية أو إمبراطور. إذاً لا شيء على الأرض يستطيع أن يعتدى على شبر من آفاقه الممتدة إلى ما وراء النجوم. ولا شعب يهدده بالقيام فى وجهه ولا ثورة تقدر تسقطه عن عرشه. فى حين أن الحكام عبيد لإدارة المحكومين وعبيد لنفوسهم المشبعة بأغراض عمياء تقودهم من أنوفهم إلى هنا وهناك.

التفت إلى الفتاة وقال:

– أترضين بمصادقتى؟

– لِمَ؟

– لأننى أريد أن أحبك.

أطلقت الفتاة ضحكة من مقطع واحد وقالت:

– أنت فتى طيب القلب.

أثارت هذه الإجابة ثورته فصاح:

– لماذا تراوغين؟

– لست أراوغ.

– بل أنت ككل النساء. هل المرأة لا تستطيع إلا إن تكون قطرة من زئبق تتخذ كل شكل ولا شكل لها. وتسعى إلى كل غرض من غير أن يكون لها غرض لماذا لا تكونين قطعة من الحديد الصلب؟

– ماذا تريد.

– أن نتحابَّ.

– أنت لا تستطيع الحب.

– إنني إذا أردت الحب فلا شيء في العالم يمنع من قدرتي عليه.

– ولكن الحب ليس إرادة بل هو على العكس من ذلك تماماً. فهل أنت مستعد ؟

نظر الفتى إلى وجهها الباهت العذب فأحس بالحنان يتفجر من صدره وودَّ لو حوى هذا الوجه في يديه وغمره بالقبل.

– أجل.

صمتت الفتاة برهة طويلة وهي سائرة إلى جواره. ثم التفتت إليه مبتسمة وقالت:

– هل أنت مستعد لأن تنجب مني أطفالا؟

توقف الفتى عن السير فجأة وصرخ مذعوراً:

– لا لا. إلاّ هذا.

ضحكت الفتاة وضربت بكفها على كفه قائلة:

– أرأيت...

– لا.. إنني لا أحب الحياة فكيف تطلبين مني أن أعاونها على الاستمرار والبقاء.

– ولكن أنا هي الحياة أيها الفتى الطيب. فإن رغبت فيَّ فعليك أن تحب الحياة أولا.

واصل الفتى سيره إلى جوارها وهو مغيظ. فها هى الفتاة تكرر دعوتهُ «بالفتى الطيب القلب» – هذا التعبير البغيض الذى خشى منذ لحظات أن يكون المجتمع قد أطلقهُ عليه.

وبعد برهة رفع رأسهُ وقال :

– هل تتعهدين بأن تبقى إلى جوارى دائماً فأستطيع أن أضغط على لحم ذراعك كلما أردت ؟

– إننى بجوارك ما دمت تؤمن بأن الحب ليس إرادة وبأن الحياة طاعة وخضوع ثم..

– ثم ماذا؟

– لا بدَّ أن تنجب منى أطفالاً.

وجم الفتى. ولكن وجومهُ لم يستغرق سوى برهة قصيرة انطلق بعدها يقول:

– سأفعل كل ما تطلبين. إن عبوديتك تلذ لّى وأشعر بأن أحب الأشياء إلىّ هو أن أطيع أمراً لك. إننى أعبدك. أتفهمين؟

وأمسك بكفها يقبلها.

شعر بسعادة غامرة تعرفها حياتهُ من قبل. وودّ لو اختلى بالفتاة ليبكى بين يديها بدمع غزير ثم يحدّثها عن كل ماضيه. أراد أن يبثها لواعجهُ وأن يطلعها على أشجانه التى تضنيه ثم يسألها الصفح عما سلف ويطلب منها الإرشاد والعون على المستقبل.

لقد طلبت منهُ أن يخضع للحياة وأن يتنازل عن إرادته. آه لو درت بأنهُ الآن مستعد لأن يكون أسيراً لها وعبداً لأهوائها..

أن يكـون خادمهـا وكلبهـا ومـوطىء قدميهـا.. فـإن مـرت بأناملهـا الناعمة بعد ذلك على جبهته، أو نادته باسمه أوضحكت فى وجهـه فقد نال كـل شىء.

أجل . إن عبوديته لها أجمل من حريـة نفسه أضعافـاً. كـل شىء يهون ويتضاءل ما دام جسدها الحـار إلى جـواره.

* * *

أمضى مع الفتاة بقية النهـار فى حـان فلمـا أن جـنَّ الليـل وجـد نفسه يسير معها طفل صغيـر ناعـم. وتمنى لـو استطـاع أن يحمـل عنها عبء التنفس والكلام والحركـة حتى يجنب مخلوقتـه الثمينـة كل عناء أو طيف عناء. فكان يحضر إليها كل ما تطلب ويعـدُّ لهـا ما تشاء من مأكل ومشرب. وصارت أعظم أمنية له أن يراها راضيـة قانعة فى ركنها الدافىء حيث يغمرهـا بنظراتـه الملهوفـة. وهـو فى كل هذا يـدأب على تلمسهـا والضغـط على يدهـا حتى يطمئن إلى بقائها بجواره.

ولأول مرة فى حياته أدْرك معـانى التقـديس والعبـادة والصلاة.

كان الجوُّ لا يزال فاتك البرودة شديد العتمـة والريـح تصفـر فى الطرقات كذئاب جائعة، ولقد خيّل إليـه أول أن خـرج من الحـان أن هذه العناصر المتدبقة تعتب عليـه هجـره إياهـا وانشقاقـه عليهـا ولكنهُ أشاح بوجهه وهزَّ كتفيه. مـا لـه الآن ولهـا؟

ولكن طال سيره مع الفتاة فى جوف الليل فكان لا يرى وجههـا كما امتنع عليه الضغط على لحـم ذراعها الـذى أصبـح مستـوراً فى

معطف كثيف. وكأنما البرد واحتجاب الفتاة عنهُ قد تآمرا على النفوذ إلى عاطفته الوليدة فما لبثا أن غلّفاها في إطار من الشباب، ولم يعد الفتى يشعر بالأثر البالغ الذى كان لفتاته عليه منذ لحظات بل أصبح ينصت في وجل إلى زمجرة الريح الغاضبة فبدت له كوعيد طاغية مستبد يهدده بالويل والثبور.

أحاط الفتى خصر فتاته بذراعه وضغط عليه متمتماً:

— لا. لن يأخذوك مني سأقاومهم إلى النهاية.

ولكن الريح اشتدت وأخذت تلفح وجههُ بسنان كالإبر. فأدرك الفتى أن صحبتهُ القديمة قد بدأت العمل. وسرعان ما شاهد الضباب يهبط من جديد على المدينة ليلف معالمها ويحيل مشاهدها إلى أحلام مخيفة كخرافات الأساطير.

سحب الفتى ذراعه الذى كان يلفُّ به صاحبته وابتسم فى حسرة.

— لا بأس أيها الرفاق. اتركوها لى حقبة وأنا أعاهدكم بأننى لن أنجب منها أطفالا. أما الريح فلم تهدأ. وأخذ الضباب يثقل ويتكاثف. حتى هذه الترضية لم تخفف من حدة عشيرته الباغية.

— لماذا أنتم غضابى! اتركونى برهة وثقوا بأننى سأنجح فى ضم من تدعى أنها الحياة إلى زمرتكم يا أهل الظلام.

التفتت إليه الفتاة تسأله:

— فيم تفكر؟

لم يجب الفتى أول الأمر. ثم انطلق يضحك ضحكاً مكتوماً لم تنفرج عنه شفتاه وقال:

– أفكر فى رجل له ذنب وفى رأسه قرنان.

نظرت إليه الفتاة فى لهفة فخيَّل إليه أنه قد نجح فى إخافتها. ولأول مرة فى هذا اليوم أحسَّ بيدها تمسك بذراعه وتضغط عليها، لقد كان هو الذى يبدأها دائماً بالمخاصرة والعناق فماذا دفع الفتاة الساعة لأن تكون البادئة ! أتراها قاربت منزلها فهى تحييه من قبل أن تفارقه؟ أم لعلها شعرت بما يدور فى رأسه من أفكار فهى تحاول أن تشد عضده ليقوى على مكافحة غرمائه ؟

إنها إن همت بفراقه فعليه أن يتمالك نفسه فلا يظهر حسرة أو حزناً بل يسألها فى عدم مبالاة عن موعد لقائهما المقبل ثم يصافحها وينطلق.

وسمع الريح تهمس فى أذنيه وتقول:

– بل فلتعطها نقوداً فهذا أوقع.

* * *

كانا يسيران على إفريز ضيق والفتاة تتمتم بلحن خافت حزين. وصادفهما حائط أبيض ممدود فى جوف الليل كصراط يوم القيامة. وهمَّ الفتى بسحب فتاته إلى ناحية الحائط الخارجية، ولكنهُ وجدها تلزم ناحيته الأخرى فخطا ليلحق بها. ثم خطر له أن لا يتبعها. لم يتبعها؟ فليمض كل منهما من أحد جانبى الحائط الذى إن فصلهما برهة فلسوف يلتقيان فى نهايته. ولكنهُ لم يكد يخطو

خطوة فى الجانب الآخر حتى هبط عليه شعور غامض قابض فعزم على أن يعود فيلحق بصاحبته. ولكنهُ لم يفعل. بل واصل سيره فما إن بلغ منتصف الحائط حتى سمع همساً يملأ مسامعه.

– إنك لم تتبعها. ها أنت حرٌ من جديد فهنيئاً لك بسيادتك المستعادة أنت حرٌ. حرٌ. حر...

ووجد نفسه يقهقه قهقهة شيطانية ويقول :

– أجل. لم تعد الفتاة معبودتى وإلهى. ما هى إلا حشرة مسكينة سأجرى عليها تجاربى بينما أوهمها بأننى مشغوف بحبها. ها! ها! هاى!

وفجأة شعر بأن قلبه يهبط إلى غير قرار. وأحسّ بالدمع يسيل ساخناً من عينيه والغصة تملأ حلقه فصرخ قائلاً :

– رحماك أيتها النفس العاتية! اتركينى أعيش...

وأسرع إلى نهاية الحائط وجال بعينه باحثاً عن الفتاة فلم يجدها..

لم يحاول البحث عنها، بل سار فى طريقه مطرقاً وهو موقن بأنه قد فقدها إلى الأبد.

وفى هذا الحين دوّى الفضاءُ بصوت الرعد القاصف وومض البرق فى عرض السماء ثم بدأ المطر ينهمر.

وتلاشى شبح الفتى فى جوف الظلمات من جديد.

• **يوسف جوهر**

الأفيون

أحقًا يا سيدى الطبيب تستطيع أن تشفينى؟! إنى لا أرى فى يدك سماعة وحجرتك خالية من أسلحة الجراحة وأجهزة الأشعة.. فكيف أنت مستطيع أن تستأصل الداء الوبيل.. أبهذه الصورة على الحائط؟ ما اسمها؟.. الأمل.. أين هو؟! إن الفتاة تبدو حائرة وفى يدها قيثارة ممزقة الأوتار.. آه.. بقى واحد.. خيط رفيع.. دقيق.. كأنه وهم.. أممكن حقًا أن ينبعث منه نغم.. وأن يوحى بالأمل.. حسنا.. إنى أصدقك.. وسأستلقى على أريكتك المريحة وسأتكلم فى الضوء الخافت.. وأطلق لأفكارى العنان.. بلا خجل.. لن أحبس خاطراً واحداً فى رأسى.. سأعطيك الفرصة كاملة لتحللنى وتغربلنى.. من يدرى.. لعلك تنجح حيث أخفقت العقاقير..

* * *

فى تلك الأيام البعيدة.. كنت تلميذة صغيرة.. وكنت أذهب كل صباح إلى محطة قريتنا أنتظر قطار الدلتا الذى يحملنى إلى مدرستى فى البندر المجاور. ولم يكن القطار يصل فى موعده أبداً.. فإن العطب كان كثيراً ما يصيبه فى الطريق، كما أن بيت السائق كان يقع على الخط.. ولم يكن يجد بأسا من أن «يربط» هناك ليشرب كوباً من الشاى..

ولم يكن ذلك يضايق أهل قريتنا الذين تعودوا ذلك.. واستغلوه.. وصاروا يشيرون للقطار إذا خرج من المحطة وهم فى طريقهم

إليها فلا يجد «عم مصطفى» بأسا من الوقوف.. وإذا تصادف ورأى زوجاً من الفراخ، فى يد قروية فإن الوقفة تطول وهو «يفاصلها» فى الثمن..

وكانت الوجوه التى تركب القطار من قريتنا معروفة على مر السنين.. وكنا نستعين بالحديث على انتظار عم مصطفى وقطاره.. وكانت المحطة تتحول فى الصباح إلى ما يشبه القهوة.. وقد ساهم «تعلب» فى ذلك.

ولم يكن «تعلب» حيواناً.. ولكنه كان عجوزاً طيباً له لحية بيضاء وعينان ثاقبتان تحب النظر إلى بريقهما العسلى، وهو يصنع الشاى تحت شجرة الجميز العتيقة ويوزع أكوابه على الزبائن.

ولم يكن تعلب طيبا فى شبابه.. هكذا كان يقول للناس فى المحطة.. ويعترف أنه كان من زجال الليل.. وطالما شن مع العصابات الهجوم المسلح على العزب.. وسحب المواشى من حظائر الخاصة الملكية وكبار الأغنياء. وكان يحرص على أن يؤكد أنه لم يسط أبداً على ناس على قد الحال.. ولم يلوث يديه بدم ولا شرفه بالهجوم على عرض.. والمعاصرون لشباب تعلب كانوا يتغامزون أنه مؤلف قصص كشاعر الربابة الذى يجئ أحياناً إلى المحطة وينسب إلى عنتر والزناتى بطولات من نسج الخيال. وعلى أى حال فإن حكايات تعلب كانت لذيذة، وكان بدنى يقشعر من وصفه لمغامراته ومخاطراته مع العفاريت، وصراعه مع مارد الطاحونة عندما كان يهزأ بالخوف ويمشى وحده تحت ليل بلا نجوم.

وكنت أشارك فى هذه المناقشات المثيرة بالاستماع فقط.. فإن الأدب كان يفرض على التلميذات الصمت فى المحطة.. وحتى التلاميذ لم يكن يتحدثن إليهم. كلام الأولاد مع البنات كان عيبا فى قريتنا.. وكل القرى..

كانت أمى تقول لى منذرة: «عمرك الآن ثلاثة عشر عاماً.. إنى حملت بك وأنا فى هذه السن.. إياك أن ترفعى عينك من الأرض وأنت ماشية فى الطريق».

فإذا كان أبى حاضراً التحذير فإنه يعلق ضاحكاً وهو يلف سيجارته. ويقول معارضاً وكأنه فقيه واسع الاطلاع: «أولادكم خلقوا لزمان غير زمانكم.. بنتك الآن تقرأ الجرنال فهل كنت أنت تعرفين الألف من النبوت..» ثم يلتفت إلى مكملا جملته وهو يمر على «البفرة» بطرف لسانه: «كانت أمك حاملا بك.. ومع ذلك كانت تشترى بمصروفها حلاوة.. واسألى حنضل».

ولم يكن أبى كاذباً.. فإن حنضل كان «جروبى» قريتنا.. وكان كل الصبيان والبنات يعرفونه.. ويعرفون عصاه الطويلة التى يعلق عليها حلواه ويمط منها قطعة بأصابعه كلما امتدت إليه يد بمليم.

وكان وجه أمى يحمر كأنه يذكرها بفضيحة وتقول فى خجل فتاة الثالثة عشرة «وما ذنبى، إنى كنت أتوحم».

لم يسأم أبى أبداً هذا التعليق.. ولم تسأم أمى الرد.. وإنى لأدرك الآن وقد امتدت بى الأعوام أن نقاشهما ذاك كان نوعاً من الغزل.

* * *

ومع أن أبى كـان يطلب إلى أن أفتـح عينىّ ولا أرخيهمـا إلى الأرض فإنى لم أكن أفعل.. وكان مجرد التفكيـر فى أن يصبح فى بطنى طفـل كمـا حـدث لأمى يملـؤنى غرابـة واضطراباً وإحساساً بخطر مجهول يقترب منى.. وزاد شعورى بالخطـر أن أمى صارت تتحدث عن حجزى فى البيت وكيف أن أخوالى غيـر راضيـن عـن استمرار خروجى وسفرى.. لأن ذلك يكاد يكـون عـاراً.. وكـانت أمى تشفع ذلك بقولها إن ثيابى صارت تضيق على صدرى بشكـل يلفت الناظرين.. ثم تميـل على أذنى هـامسة: «هـل حـدث لك مـا يحدث للبنات فى سن البلوغ». وإذا سألتها فى دهشة ما هو الـذى يحدث؟! تغطى ابتسامتها بكفها وتقـول لى وهى أشد منى خجـلا: «ما دام الأمر لم يحـدث.. فليس مـن الضرورى أن تعرفى الآن»..

* * *

وكان القلق الذى تبثـه أمى فى نفسى بهـذه الأحـاديث يصاحبه قلق آخـر أن أحجـز مـن المـدرسة.. فقـد كـانت أمنيتى أن أحصل على شهادة الثقافة، وكنت متفوقة على زميلاتى تفوقاً جعل معلماتى يباهين بى المفتشات.. وقالت لى الناظـرة إنهـا تستطيـع أن تلحقنى بعد الثقافة بمعهـد الفنـون للمعلمـات فى القاهـرة.. ومـلأت رأسى بأحلام جميلة عن المستقبل.. إننى مادمت دائمـا فى المقدمـة فـإن تعيينى فى القاهرة أو الإسكندرية مضمون بعـد تخـرجى..

وكنت ذهبت إلى الإسكندريـة مـرة واحـدة فى حيـاتى.. وبعـد عـودتى شككت أن تكـون الجنـة بمثـل هـذا الجمـال.. وصارت الحيـاة فى الإسكندريـة هى حلمى الأول والأخيـر.. وربمـا كـان

ذلك هو الذى حفزنى أن أكون الأولى بعد أن كنت فى الترتيب الثانية أو الثالثة.

* * *

وعندما وصلت إلى «الثقافة» كنت البنت الوحيدة التى تظهر فى محطة القرية مع أنها فى السادسة عشرة. أما زميلتاى سعاد وبثينة فقد كفتا عن الدراسة والسفر. تزوجت سعاد ضابط النقطة.. وتزوجت بثينة نجل العمدة وهو شاب لم يفلح فى المدارس ولكنه لمع فى تجارة المواشى.. وأقام العمدة ابتهاجاً بزفاف ابنه فرحا هائلاً وذبح لمدعويه عجلاً كبيراً وجاء من القاهرة بفتحية أحمد وشكوكو لإحياء الليلة..

وذهبت إلى بثينة أهنئها. وعرفت منها أن ابن العمدة خطبها من المحطة، وأنه هو الذى دل صاحبه ضابط النقطة على سعاد.. ثم همست أنى مادمت أداوم على الذهاب إلى المحطة كل صباح فستفرج. وكان ذلك من بثينة مداعبة فإنها كانت تعرف أنى أحلم بالمدينة ومعهد الفنون.

وبينما هى تودعنى على السلم فوجئنا بالعمدة والد العريس صاعداً.. فمد إلى يده مسلماً وهو يسألنى: «بنت مين؟!».. وأجبته متلعثمة وأنا أقبل يده: «بنت إبراهيم صالح..» وأضاف ضاحكاً وهو يهز يدى من جديد «تبقى بنتنا».. وكيف أمك أمينة.. هل تعلمين.. لقد حضرت مع أبوك قبض مهرها، وشهدت على عقد الزواج، وليلة الدخلة أحضرناها بالرفاص عبر النيل من بيت المرحوم جدك.. وكان الرفاص لا يريد أن يرسو أمام بلدنا لضعف الجسر

في الفيضان.. ولكنى هددت السائق بإطلاق الرصاص على رأسه إذا لم يذهب إلى الشاطىء حيث ينتظرنا الطبل.. ولما غاص الرفاص فى الوحل حملت أمك على كتفى وقفزت بها إلى الشاطيء.. كانت عيلة.. وقال الناس إنها لن تحمل.. ولكنها حملت.. وأنت الدليل.. يازينة البنات»..

هذا كل ما وعيته من حديثه.. فقد كان يخلط كلامه بالضحك.. وكان صوته حنونا وأبويًا.. ومع أن وجهه كان سميناً فإنك كنت تجد فيه ملامح الأربعين وتحس أن الصحة شيء يمكن أن يمسك باليد فى محياه المتورد..

ومن لهجته الودية تخيلت أنه لو كان رآنى وهو على هذه العلاقة القديمة بأبى لفضلنى على بثينة وخطبنى لابنه.. وحمدت الله أنه نجانى.. ثم تذكرت باطمئنان أن ذلك لم يكن ليحدث فإن صداقته لأبى مردها ولا شك التواضع.. فإن أبى نجار بسيط.. يصلح سواقى القرية.. والقرى المجاورة.. وإذا ابتسم الحظ له.. استدعى لترميم بعض القوارب عند نزول النيل وركود النشاط.. والبيت الوحيد الذى رضى صاحبه أن يضع له أبى الشبابيك والأبواب كان بيتنا.. وكان دائماً يقول متنهداً: «لو كان عندى حظ لتعلمت فى صباى نجارة الدواليب والأطقم.. فات الأوان الآن.. ويدى يبست»..

* * *

ولما وصلت إلى البيت أخبرت أبى بما قاله لى العمدة.. وأجابنى أبى مزهوًا: «هل صدقت».. وبدأ يحكى لى من جديد الحكايات التى حفظتها عن ظهر قلب.. وكيف أنه والعمدة لم يكونا يفترقان

فى شبابهما.. لأن الفقر والغنى لا يهمان فى الوداد.. وإنما الشهامة هى التى تجذب الرجل إلى الرجـل.

* * *

وأمضيت ليلتى ومحطة الدلتا تملأ أحـلامى بعـد أن عـرفت مـن بثينة وسعاد أن الرجال يختارون من هنـاك عرائسهـم..

وعندما وقفت فى المحطة فى الصباح خيل إلى أنى نهب العيون الفاحصة، وأصابنى ذلك بارتبـاك شغلنى عـن قصص تعلب وجعلنى أغض بصرى كما أوصتنى أمى.. وبينما أنـا كـذلك شعـرت بعينيـه ترقبانى.. وفى لحظة خاطفة عرفت أن شعـورى كـان صادقـاً..

وعندمـا وصل القطـار تمهـل فى الركـوب.. ثـم تبينت أن ذلك كان عن قصد.. وأنه تـريث لكى يختـار المقعـد المقابـل لمقعـدى ولم أعد فى حاجة إلى أن أختلس النظـر لكى أتبيـن أنـه يتـأملنى..

* * *

وكنت أعرف «أحمد» منذ الطفولة.. ولكنى لا أدرى متى كففنا عن أن يتحدث أحدنا إلى الآخر فإن ذلك حدث تدريجـاً منـذ بـدأ الشعـر يظهـر على شفتيـه، ومنـذ بـدأت تظهـر فى صوتـه خشونـة تخيف.. وتذكرنى بتحذيرات أمى.

وكان أحمد يركب القطار مثلى إلى المدرسة الثانويـة فى البنـدر ثم نجـح فى «الثقافـة» وذهب إلى كليـة الطب.. عـرفت ذلك من تعلب.. فقد كان يناديه بقوله: يادكتور.. وكـان يتحـداه بصحتـه.. ويفخر أنه لم يزر طبيبـا قـط، وسيمـوت فى المائـة دون أن يلمسه

الأطباء وكان يقول لى إن المدينة هى التى جاءت بالأمراض وأن الناس هزلت أجسامهم من الماء المقطر.. وأن هؤلاء النحويين الذين يغسلون الفجل والجرجير تصيبهم العلل ويموتون وعمرهم ناقص.

* * *

وفي ذلك النهار أثناء الدراسة لم يغب وجه أحمد عن عينى وأنا أنظر للمعلمات وأصغى للدرس.

وعند العودة وددت لو أجد أحمد معى فى القطار.. فلما ظهر وجلس قبالتى لم أستطع أن أنسب الأمر إلى المصادفة وأيقنت أنه لى بالمرصاد، وأن نظراته التى تتجنبنى تتعقبنى.. وفى المحطة التالية نزل الركاب الذين كانوا معنا فى الديوان وصرنا وحدنا..

وتوقعت أن ينتهز الفرصة ويكلمنى وأحسست الدم يلهب وجهى.. فحولت عينى إلى النافذة، ومضيت أتشاغل بالنظر إلى الشمس الغاربة وغيوم يناير تنهال عليها كأنها جبال من الثلج.. ولكنه ظل محتفظاً بصمته، هادئاً فى معطفه الثقيل ويداه فى جيبه..

ومن خلال زجاج لم يعرف النظافة أخذت أنظر إلى قطرات المطر وهى تكبر وتتحول إلى حبات من البرد..

وأحسست كأن حبات من الكآبة تسقط فى قلبى.. وملأنى عويل العاصفة رهبة.. واحتجت إلى ابتسامة من هذا الجالس أمامى أرد بها وحشتى ولكنه بقى مغطى بمعطفه وسكوته..

* * *

وفجأة اهتز القطار هزة عنيفة.. وبعد لحظة سمعنا الناس وهم يتصايحون خارجه، وحاولت أن أفتح النافذة العتيقة لكنى لم أستطع. فخف إلى وشعرت بأصابعه وهى تنحى أصابعى الباردة حتى خيل إلى أنها تركت على جلدى أثراً.. وأطللنا معاً لنسمع «عم مصطفى» يسب ويلعن.. لقد خرجت القاطرة عن الخط بعد أن ذهب المطر بصلابة الأرض تحت الفلنكات.. وصاح عم مصطفى: «من أراد المبيت فى القطار فليشرف فإنه لن يسير قبل الصباح»..

وكانت قريتنا تقبع على بعد كيلو مترين تقريباً ولم يكن الوصول إليها سيراً على الأقدام، عبر الحقول الموحلة فى الظلام الحالك، من هين الأمور. وأخذ الركاب القلائل ينظرون من النوافذ فى تردد وإشفاق.. ثم ذهب البرد والملل بالحذر.. وبدأوا يغادرون القطار تباعاً وهم يسيرون ويسخطون..

ومرت الدقائق بطيئة ثقيلة. وصرت أعانى من البرد والجوع والخوف.. ومن صمته. وسألت نفسى ماذا هو صانع؟ هل سيحمل نفسه ومعطفه ويتركنى؟ أم سيبقى هكذا بقية الليل يعذبنى بصمته وبروده؟!

ووجدتنى أبكى.. ولو لم يتحول بكائى إلى نشيج عال لما فطن إلى دموعى ولما انبعث صوته يسألنى: «خائفة أنت».. كلمتان ولكنهما كانتا مملوءتين عطفاً وشعرت كأنه يربت بهما على خدى ويطمئننى.. وأجبته وأنا أحاول أن أقمع شهيقى: «هل أستطيع أن أمشى فى ونسك إلى القرية».. قال ضاحكاً ضحكة خفيفة: «منذ ساعة وأنا أنتظر أن تتحركى فقد عز على أن أتركك وحدك»..

وكان سلم القطار يعلو عن الجسر قرابة متر فسبقني إلى النزول ومد يديه يتلقاني بهما وارتعشت وهو يحملني.. ولم تكن رعشة البرد ولكنها كانت أول يد غريبة تلمسني..

وكان الظلام حالكاً لف في عباءته السوداء النجوم والسحاب والشجر.. والمطر ما زال يهطل غزيرا وكأن السماء عجزت عن أن تمسك منه شيئاً..

وفي لحظة صارت ملابسي لاصقة بجسمي، فخلع معطفه ووضعه على رأسي ولكنني أشفقت عليه من الغرق وقلت له إنه يكفينا معا.. وسرنا تحت هذا الغطاء ونحن لا نتبين موضع أقدامنا.. وكان متعذراً أن أمشي خطوة في الأرض الزلقة بغير معونته.. فتشبثت بذراعه وأحسست وأنا إلى جواره كأني في أمان من غضب الطبيعة وكأني صرت فجأة، والمعطف يظللنا معاً، كأني داخل قوقعة سعيدة.. ووجدت الدفء يسري في أوصالي وهو يقول لي إنه يذكرني منذ كنت طفلة ذات ضفائر وأنه كان يحلو له دائماً أن يرقبني وأنا أنط الحبل في الساحة أمام الدار.. ثم ذهب إلى القاهرة ليدرس الطب.. وهناك كان ينساني تماماً شهوراً بأكملها.. ثم يتذكرني فجأة دون أن يدري لذلك سبباً. وقد يجئ ليراني من بعيد..

وكانت كلماته وهو يبوح لي بذلك تنضح صفاء وكأن المطر سقط على صوته وغسله.. ولم أعد أدرى هل أنا أترنح لأن قدمي تغوص في وحل الحقول أم لأن اعترافه المفاجيء أدار رأسي.. وأحسست في تحفزه لنجدتي أنه يخاف على السقوط خوفاً حنوناً.. ثم يزعم بعد ذلك أنه لا يعرف السبب الذي يجعله يتذكرني فجأة!..

أما أنا فعرفتـه.. وأيقنت أنـه.. الحب..

وحتى لو كنت غبية بليدة لكان حتما أن أعرف.. فقد حملنى آخر الأمر، بعد أن ذهب الخوض فى الوحل البارد والانفعال الحاد بما بقى من قـواى.. ومضى بى مترنحاً من ثقلى وأحسست وصدرى ساقط على صدره وساعدى محيط بعنقه أنه لا هو برغم عبثه ولا أنا برغم الانفعال الذى يطرق ضلوعى نريد لهذه الرحلة أن تنتهى..

ولكن نوراً كان يتحـرك من بعيـد ويقتـرب منـا.. وقـال أحمـد وصوته لا تخفى فيه الحسرة: إن النور قـادم نحونـا.. ولعلـه يبحث عنك.. وبعد قليل لن نكـون وحدنـا..

ثـم أضاف فجـأة.. «قلت لنفسي إنى ربمـا أراك.. ويشاء القـدر ألا أراك فقط بل أن أبوح لك أيضاً بما كنت أريـد أن أفـاتحك فيـه على طول المـدى.. والآن فى هـذا الظـلام الـدامس يتوهـج حلمى ويضىء حتى كـأنى أرى نفسى طبيبـاً لهـذه القريـة البـائسة، أداوى أهلك وأهلى وأنت إلى جوارى زوجتى.. فقولى أنك ترين المستقبل كما أراه».. وحـاولت أن أتكلـم ولكـن صوتى هـرب منى فانبـرى يتعجلنى فى لهفة: «تكلمى قبل أن يصل الرجل.. قـولى إنك لى».. وظللت خرساء.. ولكن يدى تكلمت وهى تمسك يـده وتعانقهـا..

وفهم أحمد.. وفوجئت بشفتيه تمسان خدى، وكأن ناراً هى التى مستنى وصعقتنى.. ونقلت فجأة إلى غيبوبة أفقت منهـا على صوت الرجال الذين يحملون المصابيح وإذا نحن أمامهم وجهاً لوجه..

* * *

وكان «العمدة» هو مرافق أبى ومعه عباس شيخ الخفراء تلمع فى النور الخافت ماسورة بندقيته وهى تتأرجح على كتفه.. وقال أبى وقد هدأ قلقه : « إننا كنا ذاهبين لنأخذك من القطار »..

وفجأة اخترق الصمت والمطر والصقيع ضحكة العمدة وهو يسأل: «ماذا كنتما تصنعان تحت المعطف طول الطريق؟».. وعند ذلك تنبهت إلى أني لا أزال مستظلة مع أحمد تحت معطفه.. فنحيته عن رأسى وأنا أعانى الخجل والارتباك.. وأحسست أن صوت العمدة هو أسوأ ما لقيته فى ليلتى.. أسوأ من المطر الذى شربته ثيابى.. ومن الصقيع الذى تجمدت منه أطرافى..

ووجدت أبى شديد الزهو بأن العمدة شاركه فى البحث عنى.. وضايقنى أنه يحتفى به غير حافل بأحمد الذى نقع نفسه فى الوحل من أجلى.. ولو لم يقل له العمدة: «كيف أمك يابن وهيبة؟».. لصار نسياً منسيًّا.. وأضاف العمدة وهو يسقى بالضحك صوته السيء: «كانت أمك تلعب معنا ونحن أطفال حفاة.. وكنا نعيرها بأصبع سادسة في قدمها، ولكن وهيبة صار لها ابن دكتور.. ما شاء الله»..

وكأن أحمد لم يعجبه الحديث فاستأذن ليميل مع الطريق إلى بيته.. وصاح العمدة فى أثره: «لا تدخل تحت العباءة مع البنات مرة أخرى.. فإننا فى الفلاحين لا فى البندر يابن وهيبة»..

وضحك العمدة وشيخ الخفراء للدعابة، لكن أحمد لم يضحك، ولم يجب بشيء ومضى لسبيله.. وكرهت من العمدة ولعه هذا بنداء الأبناء بأسماء أمهاتهم، كأن الأولاد فى قريتنا ليس لهم آباء..

* * *

وأبديت ونحن نتناول العشاء نفورى من طريقة العمدة فى الحديث.. ولكن أبى دافع عنه وقال إنه رجل حلو الدعابة.. ثم صاح مخاطباً أمى وهى تصب على يديه الماء من الأبريق: «رزق جديد.. العمدة شرع فى بناء طابق ثالث، والشبابيك والأبواب والترسينة أنا سأصنعها.. مع أنه عندما بنى البيت جاء بالنجارين من مصر، فتصورى فضل الله»..

* * *

وضحكت وأنا فى فراشى من بساطة أبى.. وقلت لنفسى ماذا يسمى صنيع الله لو عرف أن ابنته ستصبح زوجة طبيب.

وتذكرت عند ذلك ما قاله لى أحمد، وكيف أنه يريد فتح عيادته فى قريتنا. وتمنيت لو يطلع الصباح.. وأراه فى المحطة وأسأله إن كان يستطيع أن يعدل حلمه قليلا ويسكننى فى مصر الجديدة ولو لفترة.. فقد تمنيت كثيراً أن أعيش هناك..

ولم يقدر لى أن أبوح لأبى بأمر أحمد.

فإن أحمد.. مات فى الصباح.. أصابته رصاصة وهو واقف فى المحطة ينتظر القطار.. ودخل فى نفسى حين بلغنى النبأ أنى اشتركت فى قتله فلعله لم يبكر إلا لينتظرنى..

وسقطت مريضة.. وكنت أبكى وأصرخ وأتوجع وأدعى الألم فى عظامى، وهو فى قلبى..

ولم أكن أمسك دمعى إلا لأسأل: «هل وجدوا القاتل».. فإن أبى كان يقول إن العمدة لن يستريح إلا إن قبض عليه..

وكانت الشبهة محصورة فى أسرة بينها وبين أسرة أحمد ثأر قديم..

وقال تعلب إنه رأى أحد شبان هذه الأسرة واسمه سرحان فى المحطة وشرب عنده الشاى ولكنه لم يره وهو يطلق النار.

وقبض على سرحان.. ولكن النيابة لم تستطع أن تحصل منه على اعتراف.

* * *

ومضت شهور والتحقيق معلق. وذات ظهر قال لنا أبى وهو متهلل: «ستسمعان خبراً غريباً»..

وظننت أن أبى سيخبرنا أن سرحان قد أقر بجزيمته، ولكنه قاطعنى قائلا: «ما لنا والقاتل والقتيل.. تصورى الطابق الذى بناه العمدة والشبابيك التى صنعتها بيدى والترسينة.. إنها لك.. كل هذا العز لك.. فإنك ستكونين حرم العمدة.. ألم أقل لكما أن الفقر والغنى لا يهمان وأن الشهامة هى التى تربط الرجال بالرجال»..

وصرخت معترضة. ولكن صرختى صرعتها لطمة قاسية.. وأيقنت أنه لن يسمح لى بحرمانه من فخر حياته.

* * *

وانتقلت إلى بيت العمدة وأنا أحس لطمة أبى على وجهى وعلى قلبى..

والحق أنه لم تكن لى رغبة فى المقاومة.. فإنما يقاوم من يحب الحياة.. أما وقد ذهب أحمد فإن كل الأمور صارت تستوى

عندى.. وكنت أعتبر الأيام التى جئت أقضيها فى الطابق الجديد أيام فتاة أخرى لا يعنينى أمرها.

وكانت صديقتى بثينة زوجة الابن تسكن الطابق الذى تحتى. وكانت تصعد إلى كلما وجدتنى وحدى وتحاول أن تسليني وتقول لتضحكني: «من كان يظن أن زميلتى المدرسة تصبح إحداهما حماة الأخرى.. أتعلمين أنك الآن أمى فى القانون.. زوجى ابن زوجك ولكنه شاحب هزيل يبدو كأنه أكبر من أبيه سناً»..

والحق أن العمدة كان فحلا.. وكان يدخن الحشيش مع أصحابه فى الطابق الأسفل ثم يصعد إلى وقد انتصف الليل.. وكان على أن أحتفظ بعشائه ساخناً، وبنفسى فى أبهى زينة، لكى يلتهمنا معاً بشهية الوحوش وفظاظتها.

* * *

وفى تلك الليلة وأنا فى انتظاره رأيت فى الترسينة أصحابه منصرفين.. وانتظرت طويلا أن يصعد ثم خفت أن يكون غلبه النوم فى المندرة كما يحدث له أحياناً عندما يبدأ سهرته بالحشيش ويختمها بالأفيون. وقررت أن أهبط إليه حتى لا يلحقنى تأنيبه.. ولكنى توقفت فى آخر السلم فقد سمعت صوته يرتفع غاضباً وهو يناقش شخصاً وكان الصوت الآخر هو صوت تعلب بائع الشاى فى المحطة يقول فى ارتباك: «وماذا أفعل فى أقوالى أمام النيابة. شهدت أنى رأيت سرحان فى المحطة لكنى لم أره وهو يطلق النار».. ويصرخ زوجى فى غضب: «تذهب إلى النيابة وتغير أقوالك.. وتقول.. إنك رأيت سرحان وهو يقتل أحمد.. وإنك

سكت لخوفك من أهل سرحان.. هذه عشرة جنيهات هل تريدها أم تريد أن أضربك بالنار كما ضربت أحمد؟»..

* * *

كما ضربت أحمد!..

وجدت نفسى فى فراشى أعض الوسادة.. وأخفى فيها لوعتى..

ومع ذلك تحاملت على نفسى وكنت فى استقباله رقيقة مرحة وكأنما ألهمت بالغريزة أن المرأة سلاحها الضعف والرياء.

وجلس لاهثاً ليستريح من صعود السلم وقد أحال الغضب عينيه إلى كأسين من الدم.. وقال لى: «أحضرى الجوزة.. فقد أضاع النكد النفسين اللذين شربتهما تحت».

وجئت بالجوزة.. وكان قد علمنى كيف أضع الفحم على الطباق.. وجلست عند قدميه كالجارية أنفخ النار.. وسألته فى شفقة عن سبب نكده.

قال وهو يمر بيده الغليظة على شعرى: «شغلانة العمودية متعبة.. أريد أن أثبت التهمة على قاتل أحمد.. ولكن الناس لا يساعدوننى»..

فأخذت بيده وقبلتها وأنا أقول له: «يا لك من شهم»..

قبلت اليد التى قتلت أحمد ومسحت خدى فى ركبته..

وشغفه ذلك فرفعنى وأجلسنى فى حضنه..

وصعد إلى رأسه دم النشوة ودوار المخدر وقال، وقد ذهب حذره ومضى يسحقنى على ضلوعه: «الولد أحمد بن وهيبة أحسن صنعاً بموته فلو أنه الآن حى لكان فى وسعه أن يقول إنه مشى

مع حرم العمدة من المحطة إلى القرية تحت عباءة واحدة.. وأن أشياء حدثت فى الطريق»..

* * *

وتمنيت لو أنشبت أظافرى في عنقه وأصرخ: «ألهذا كلفته حياته ثمناً.. أم أنك توقعت أننى لن أرضى بك وأننى هاربة معه. ولن أكون فريستك وهو حى»..

ولكن بدلا من أن أخنقه مددت أصابعى فى القصبة التى يدخنها، ولأول مرة وضعتها على فمي واستنشقت دخانها المعطر وهو في دهشة من أمرى، فطالما حاول أن يغرينى بمشاركته ولكنى عصيته..

وكان على حق فى دهشته.. من أين يعرف أنى كنت فى حاجة إلى أن أغيب عن وعيى لكى أقوى على البقاء مع قاتل أحمد فى حجرة واحدة وفى فراش واحد..

* * *

وسبب آخر كان يحبب إلى الغيبوبة.. كنت أريد أن أنام إلى الأبد ولا أحس حركة الجنين البغيض الذى أودعه القاتل فى أحشائى.. كانت هناك وثيقة زواج لكنى لم أقتنع لحظة أنه ابن شرعى لى..

وأنام إلى الأبد أيضاً حتى يقع الحدث الذى كنت أنتظره..

فقد كتبت إلى أهل أحمد رسالة بلا توقيع أخبرهم فيها أنهم يستطيعون أن يشتروا من تعلب الحقيقة.. ومن أجل ذلك كان الانتظار قاسياً ورهيباً..

كنت فى حاجة إلى الغيبوبة لكى أستطيع أن أصبر.. وكنت فى حاجة إليها لكى أنجو من مواجهة الحدث حين يحدث..

ومن أجل هذا امتدت يدى إلى الأفيون الذى كان العمدة يحتفظ به فى مخدعه..

* * *

ولولا الأفيون وعالم الذهول الذى أرسلنى إليه لظللت ساهرة وسمعته يئن وينزف الدم فى بئر السلم..

هناك وجدوه فى الصباح جثة هامدة، وفى رقبته وصدره سبع طعنات كلها فى مقتل..

ووجدت نفسى أصرخ.. وظن الناس أنى مفجوعة فيه، ولم يعرف أحد أن فجيعتى كانت فى أحمد، وأننى وجدت الفرصة لأبكى عليه بلا رقيب..

وورثت العمدة.. ورثت عنه تسعين فداناً.. لكننى رفضت الميراث الذى تركه فى أحشائى وخلصتنى منه إحدى القابلات..

ولما وجدت المال فى يدى جئت إلى المدينة وعشت فيها.. وأعطتنى كل ما يشتريه المال لكنها لم تعطنى النسيان.. وعدت إلى المخدر لكى ينعم على بالغيبوبة الطويلة ويريحنى من التفكير

المرير.. إن كل من مروا فى طريقى كان نصيبهم القتل.. «أحمد والعمدة والروح البريئة التى لم تر النور»..

عشر سنين الآن أيها الطبيب وأنا عبدة للمخدر.. أغضب عليه في الصباح وأضرع إليه فى الضحى.. وكأنه عاشق نذل وهبته حياتى..

* * *

هذه هي يا سيدى الطبيب قصتي.. قصصتها عليك مفصلة ولم أخف عنك شيئاً.. وبقى أن تفعل أنت شيئاً.. فهل أنت مستطيع بهذه الصورة على الحائط التى توحى بالأمل.. وبهذه الأريكة المريحة التى تغرى بالهذيان والاعتراف.. هل أنت مستطيع أن تشفيني؟.. ليتك تستطيع.. خذ كل ما أملك.. الأرض الملعونة.. والحلى والنقود.. وأرجعنى طالبة تقف فى المحطة.. تنتظر القطار.. وتصغى خلية القلب لقصص تعلب..

الله محبة

كان كل شيء بينهما يبدو طبيعيًا، كما يبدو بين كل فتى وفتاة.. وليس فيه شذوذ. ولا غرابة، ولا ينذر بمأساة..

كان شقيقاً لإحدى صديقاتها، وكانت تراه دائماً كلما رأت شقيقته، ثم أصبحت ترى شقيقته كلما رأته، ثم أصبحت تراه دون أن ترى شقيقته!..

وإذا بها في شوق دائم إليه.. إلى وجهه الأسمر في لون البن المحروق.. وعينيه السوداوين الذكيتين، وقامته المديدة كأنه فرعون صغير، ولم يكن يميزه عن فرعون إلا أدبه الكثير، وصوته الخفيض، وكلماته التي ينطقها ببطء كأنه ينتزعها من بئر عميقة، وينطقها بلهجة صعيدية يحرص عليها رغم أنه لا يزور الصعيد إلا في كل عام مرة أو مرتين ليجمع محصول أرضه...

وإذا بها تعيش دائماً معه، في ذكرى لفتاته ولمساته وابتساماته النادرة. وإذا بها تضحك كلما تذكرت لهجته الصعيدية، ثم تقلده فيها حتى كادت هي الأخرى تنطق بها.

وعندما التقت شفتاها بشفتيه لأول مرة، عرفت أنها تحبه.. وإن لم تعرف إلى أى حد يمكن أن تحبه!..

ولم تكن في شك من أنه يحبها.. إنها تقرأ الحب في عينيه، وتشربه من شفتيه، وتسمعه مع أنفاسه..

إنها تحبه.. ولكن إلى أين؟..

إلى أين هـذا الحب؟!!..

وحاولت أن تهرب من تساؤلها.. حاولت أن تهرب من مستقبلها.. حاولت أن تهـرب مـن الحقيقـة التى تجاهلتهـا منـذ أن رأته ومنـذ أحبته..

إنه قبطى..

وهى مسلمة..

ومضت بها الأيام فى عذاب، وذبلت عيناها تحت ثقل دموعهـا، وذوى عودها حتى كأنها تجف، وسقطت سحابة فوق وجهها فبدت كأنها تعيش دائماً فى سحاب.. وكانت تراه فترى دموعها فى عينيه، وترى كأنه مع عودها فى سباق نحو الجفاف، وتراه يعيش معها فى سحاب.. كانت تعلم أنه يتعذب مثل عذابها، وأكثر..

وبرغم ذلك لم يواجها الحقيقـة..

لم يقل لها إلى أين.. ولـم تسألـه إلى أيـن..

ولكنها لم تستطع أن تهرب طويلا من تساؤلها، ولا من مستقبلها.. كانت كلما ضم شفتيه إلى شفتيها سمعت دقًا كأنه دق دفوف الزفاف، وكلما أراحت رأسها على صدره أحست أنها فى «الكوشة» وكلمـا رأته آتياً نحوها من بعيد خيل إليها أن الملائكة ينشدون من حولها:

«مبروك عليك عريسك الخفـة»!!

وكان يجب أن تبحث عن حل.. عن نهاية يستقر عندها حبها..

وبدأ تفكيرها يتخذ خطوطاً عملية.. إنه يستطيع أن يشهر إسلامه.. ويستطيع بعد ذلك أن يتزوجها..

إنها مجرد شكليات.. أن يذهب إلى المحكمة الشرعية ويقول أمام القاضي: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله».. ثم يصحبها بعد ذلك إلى المأذون!..

واستراحت إلى هذا التفكير، وقررت أن تدفعه إليه..

وكأنهما كانا على موعد.. فلم يكد يلتقى بها ويسحب شفتيه من فوق شفتيها، حتى قال بصوته الخفيض وكأنه ينزع كلماته من بئر عميقة:

– لقد فكرت طويلا.. يجب أن ننتهى إلى حل..

قالت وكأنها تزغرد:

– هل تشهر إسلامك؟!

وصمت طويلا وكأن شفتيه الرقيقتين قد اختفتا من وجهه، وعادت تقول وقد انهارت فرحتها:

– إنك لا تريد.. لا تريد أن تتزوجنى.

وتحركت شفتاه ببطء..

– لى سؤال واحد..

– ماذا ؟..

– هل لو طلبت منك أن تخرجى عن دينك.. تخرجين؟

وأجابت فوراً، وكأنها لم تفكر، ولا تريد أن تفكر:

– نعم..

ثم سكتت ولم تعلق بشيء، وكأنها أحست بخطورة ما وافقت عليه.. أحست بأن شيئاً كبيراً مجهولا قد تخلى عنها، وتركها معلقة بين السماء والأرض، وسلط عليها هواء رطباً يملأ صدرها ويعصف فى عروقها..

وابتسم ابتسامة حانية وقال وهو يحتضنها بابتسامته، ويمسح بيده فوق رأسها كأنها يد قسيس طيب تباركها:

– إلى هذا الحد؟!!!..

قالت وهى لا تنظر إليه، وليس فى صوتها سوى حشرجة:

– لقد قلت إننا يجب أن ننتهى إلى حل.. أى حل!!..

قال وقد أحس ما بها:

إن كلا منا يريد أن يضحى للآخر بأعز ما يملك.. ولكنى لا أريدك أن تضحى، أو على الأقل لا أريد أن أضحى بدينى لمجرد أنه مفروض فى أن أضحى به..! لنترك الله يختار بيننا.. فهو صاحب دينك ودينى..

– وكيف يختار الله؟!!..

– لنجرب الحظ.. فهو أبسط مظاهر حكم القدر..

وأخرج من جيبه قطعة نقود فضية، وقدمها إليها قائلا:

– اختارى لك وجها..

وابتسمت، أو حاولت أن تبتسم، واختارت أحد وجهى قطعة النقود، واختار هو الوجه الآخر، ثم وضع قطعة النقود فى يدها قائلا:

- اقذفي بها في الهواء.. والوجه الذي يسقط إلى أعلى يغير صاحبه دينه!!..

وحاولت مرة أخرى أن تبتسم، ولكنها لم تستطع ووجمت، وأحست أنها مقدمة لتسير فوق الصراط المستقيم.. وعندما قذفت بقطعة النقود في الهواء أحست أنها تقذف بقلبها..

وانحنت إلى الأرض وقد جحظت عيناها، وكتمت أنفاسها.. ثم شهقت شهقة خافتة، ورفعت رأسها وقد تصلب وجهها وتاهت نظراتها..

أصبح عليها أن تغير دينها وتعتنق المسيحية.

وارتبك وهو بجانبها، ولم يدر ماذا يقول، ثم افتعل ضحكة جافة.. قائلا:

- هل صدقت؟!!. لقد كنت أهزر إنها نكتة أردت أن أسليك بها.. لا تأخذيها على محمل الجد.. إن الإنسان لا يقامر بدينه، وهذا نوع من القمار..

قالت وهي لا تزال ساهمة:

- إنه القدر.. والحب قدر!!..

- لا.. لن أسمح لك..

- لا تتعب نفسك.. لقد قررت..

- قل لي.. هل كنت تشهر إسلامك لو رفضت أنا أن أعتنق المسيحية؟!

ولم يجب، ولكنها لمحت دموعه فى عينيه.. دموعا تشهد على حبه، وتقسم بجميع الأديان أنه لها.. فانكفأت على صدره تبكى.. وجمعتهما الدموع فى دين واحد..

ولم تنم ليلتها..

ولم تحس بالإسلام وبأنها مسلمة.. قدر ما أحست هذه الليلة.. بل خيل إليها أن كل حياتها وكل ذكرياتها كانت كلها للدين.. أشياء صغيرة مرت بها ولم تكن تذكرها أصبحت تذكرها وكأنها قطعة من حياتها.. الحاجة أم إبراهيم مربية والدها التى تأتى لزيارتها كل أسبوع لتبخر البيت ثم تطوف فوق رأسها بالمبخرة وهى تقرأ الأوراد وتتلو الأدعية.. وأم عبده «الماشطة» التى كانت تدخل معها الحمام فى صغرها وتدلك جسدها البكر وهى تسكب فوقه الماء الساخن، وتتمتم «اللهم صلى عليه وسلم.. قل أعوذ برب الفلق من شر حاسد إذا حسد».. وزيارتها «للقرافة» لتقرأ الفاتحة.. وصوت المقرىء الذى ينبعث من الراديو ويتلو القرآن وقسمها بالنبى فى كل مناسبة.. أى نبى تقصد عندما تقسم اليوم؟!!..

إنها مسلمة ولم تكن تدرى أن الإسلام يعيش فى حياتها إلى هذا الحد.. إنها لا تصلى ولا تصوم، ولكن هناك من الإسلام شىء أكثر من الصلاة والصوم، شىء يختلط بدمها، ويتردد مع أنفاسها ولم تكن تحس به لأن الإنسان لا يحس بدمه ولا يعد أنفاسه..

وكادت تجن..

يارب.. لماذا لم توحد الأديان.

يارب.. وإذا كانت هذه إرادتك فما ذنبى أنـا!!

وقامت فى الصباح مقرحة الجفنين، كأنها أفـاقت مـن إغمـاء..

وذهبت للقائـه، وصحبهـا إلى قسيس ليسألاه عـن الإجـراءات المتبعة.. وكانت تسير بجانبه صامتة، متصلبة العود، شاردة النظرات كأنها آتية مـن عالـم آخـر.. وكـانت تسمـع صوتـه وكأنـه آت مـن بعيد.. من بعيـد جـدًّا.. ولا تجيب عليـه إلا بهـزات رأسهـا وكـأن الناس فى هذا العالم الذى أتت منـه ليس لهـم ألسنـة..

ونظرت إلى القسيس دون أن تراه.. وخيل إليها أنها أمام عمـلاق ضخم مجلل بالسواد.. وأن رأسه كبير.. كبير جدًّا.. وذقنـه سوداء تتدلى حتى ركبتيه.. ولم تسمع شيئاً مما كان يقوله الرجـلان وهى بينهما.. إنما شردت عيناها تطوفان بالغرفة، ثم سقطت فـوق لوحـة معلقة الجدار.. ولمحت شيئاً مكتوباً على هذه اللوحـه.. حروفـاً لا تستطيع أن تلتقطها بعينيها الشاردتين، إنما هى تهتز وتتمـوج كأنهـا حروف مكتوبة فوق المـاء..

وأجهدت عينيها، ودققت النظر، وحصرت ذهنها، إلى أن اتضحت الحروف أمامها..

وقرأت: الله محبة..

وابتسمت ابتسامـة باهتة.. ثـم ابتسم وجههـا كلـه.. وارتخت أعصابها المتصلبة، وارتاحت عيناها الشاردتـان..

وأحست أن قلبها يهلل ويضحك ويملأ الدنيـا كلهـا ضحكـاً..

إن الله محبـة.. الله الحب..

إذن فهى مع الله، لأنها تحب، ولأنها هنا من أجل الحب..

والتفتت إلى القسيس لتراه لأول مرة.. وخيل إليها أنه جميل.. وجميل جدًا.. أشبه بكيوبيد إله الحب الذى يصورونه فى الكتب..

اقترب منها القسيس وربت على كتفها بيد حنون وهو يقول فى صوت كأنه نغم مزمار.. مزمار داود: «بارك الله لك يا ابنتى»!

وطأطأت رأسها وقد استبدت بها السعادة حتى خجلت منها.. ثم انصرفت مع فتاها..

وسألته وهما فى الطريق:

– إلى أين؟

– إلى المحكمة الشرعية..

– لماذا؟..

– ألم تسمعى ما قاله القسيس!!

– لا..

– إنك لا تستطيعين أن تغيرى دينك لأنك لم تبلغى سن الرشد بعد..

– وما العمل؟..

– سأعتنق أنا الإسلام..

وتعلقت بعنقه وأخذت تقبله فى جميع أنحاء وجهه..

وقال وهو يقود سيارته:

– هذه المرة.. إنه القدر!..

وتم إشهار إسلامه.. ولم يكن الأمر لديه يتعدى مجرد شكليات يفرضها عليه المجتمع، ومجرد ورقة يوقعها إرضاء للحكومة.. إن ما بينه وبين الله فى قلبه وفى سريرته لا شأن للمجتمع ولا للحكومة ولا للمشايخ ولا للقسس به. والله ليس فى حاجة إلى هذه الإجراءات ليعرف إيمانه، وهذه الإجراءات أيضاً لن تبدل شيئاً مما بينه وبين الله..

أشهر إسلامه وهو لا يشعر بشىء إلا شعوراً أشبه بالتحدى... تحدى قومه وتحدى قوم فتاته... وربما ارتجفت شفتاه وهو يتلو الشهادتين، وربما ارتعشت يده وهو يوقع الأوراق، ولكنه كذّب رجفته وانكر رعشته وأقنع نفسه بأنه يؤدى واجباً يفرضه عليه النبل، والشهامة، والحب.. وكلها صفات من صفات الله..

وكان عليه بعد ذلك أن يذهب إلى شقيق الفتاة ليخطبها منه إلى نفسه.. وكانت هذه الخطوة أصعب عليه من تغيير دينه.. بل إنه لم يحس أنه قد خرج عن دينه إلا وهو جالس إلى شقيق الفتاة كالتلميذ المرتبك أمام لجنة الامتحان.. يحاول أن يتذكر كل ما اختزنه فى رأسه فلا يذكر منه شيئاً..

وقال الأخ الكبير فى هدوء:

– إنى لا أستطيع أن أعترض، فأنت تملك جميع صفات الزوج الكامل ولكن..

وسكت الأخ قليلا، وتعلقت أنفاس الفتى بشفتيه..

واستطرد الأخ قائلا:

– هل تجيبنى بصراحة لو سألتك؟!..

– سأحاول..

– هل أشهرت إسلامك إيمانا منك بالإسلام، أم لمجرد الزواج من شقيقتى.

وسكت الفتى طويلا.. واحتقن وجهه.. وأخذ يضغط بيده على الأخرى.. ثم قال وهو يختار كلماته بدقة حتى لا يخطىء، وكأنه يختار مواضع قدمه فى طريق ملىء بالأشواك:

– الواقع أنى لم أكن متدينا أبداً.. كنت قبطيا بالوراثة، وكنت أشترك فى القليل من مراسم الدين بحكم العادة وبحكم وجودى بين أفراد عائلتى.. ولكنى لم أحاول أبداً أن أعى الديانة وعياً كاملا أو أومن بالدين إيماناً مفصلا.. إنما كنت دائماً أومن بالله إيماناً مطلقاً مجرداً، وأخافه، وأتقى غضبه. وكنت أومن بالصدق والأمانة وبقية المثل العليا دون أن أربط هذا الإيمان بالدين.. فإذا كان هذا حالى وأنا قبطى، فلا تنتظر منى أن أقول إنى أومن بالإسلام كدين مفضل، بل إنى أعترف لك أنى لا أعلم من الإسلام إلا أنه دين سماوى.

– إذاً فأنت لا تؤمن بالإسلام.. ولا بالمسيحية!!

– إنى أومن بالله.. وكل الأديان لله!!

– إن الإيمان يحتاج إلى قواعد يرسو عليها، وإلى خطوط تحدده حتى لا يكزن إيماناً مائعاً يخضع لهوى النفس ولأطماع البشر.. والله عندما فرض علينا الإيمان به فرض علينا أيضاً صور هذا الإيمان

وتفاصيله، وربط نواصيه ربطاً محكماً حتى لا يترك فيه ثغرة يدخل منها المجادلون وبصحبتهم الشياطين ليضللوا العباد باسم الله سبحانه وتعالى..

– إنى أحسدك على إيمانك، وهو نوع من الإيمان يحتاج إلى قوة روحية لا أملكها.. ولكنى لا أريد أن أتزوج شقيقتك فى الآخرة، إنما أريد أن أتزوجها فى الدنيا.. والدنيا لا تتطلب منى كشرط لزواجها إلا أن أكون قادراً على إسعادها، فاكتف بهذا وأنت تحاسبنى، ودع الله يحاسبنى على الباقى.

– إن الإيمان شرط لحياة الدنيا وحياة الآخرة.. والله يحاسبك فى الدنيا والآخرة.. وأنا أحاسبك باسم الله، وبكتاب المسلمين وكتاب الأقباط..

– إنى أحبها.. والله مع الحب!

– إن الحب إيمان.. والإيمان يبدأ بالله والدين!

– إن الله جمع بين قلبينا، وأنت تريد أن تفرق بيننا.. إنك تتحدى الله.

– أستغفر الله.. ولو كان الزواج هو مجرد الجمع بينكما، لتركتكما لله يصدر فيكما حكمه.. ولكن الزواج هو الأولاد وهو المجتمع.. وأنا لا أستطيع أن أغمض عينى عن جريمة ترتكب فى حق أولاد لم يولدوا وفى حق المجتمع.. تصور أولادك عندما ينشأون وهم لا يدرون إن كانوا مسلمين أو أقباطاً.. لا يعرفون نبيًّا يقدسونه، ولا يعرفون قديسين وأولياء يتشبهون بسيرتهم،

ولا يسمعون هذه القصص الدينية التى تبدو ساذجة، ولكنها تترك فى نفوس الأطفال خطوطاً عميقة تنمو معهم وتصون مبادئهم، ولا يمارسون هذه التقاليد والطقوس الدينية التى تبدو فطرية تافهة ولكنها تحيط القلوب الصغيرة بأغلفة من السمو الروحانى وتقطر فيها الإيمان قطرة فقطرة حتى تصبح قلوباً كبيرة محصنة أمام الشر وأمام الخطيئة..

وسكت الأخ الكبير كأنه يقيس وقع كلامه على الفتى، بينما الفتى منكس الرأس يدق الأرض بقدمه دقات خفيفة متوالية كأنه لا يريد أن يسمع ولا يريد مزيداً من الكلام..

واستطرد الأخ قائلا:

– انظر إلى نفسك، إنك فتى صالح. أتدرى سر صلاحك وقوة خلقك؟ إنهما فى طفولتك وفى نشأتك.. لقد نشأت وأنت تعرف دينك، وتعرف نبيك، وتربت مخافة الله معك، وشربت الصدق والإخلاص وبقية المثل العليا مع لبن أمك، حتى لو أنك اليوم تنكر الدين، وتنكر تفاصيله، وتنكر طقوسه.. إنى أريد أولاد أختى أن يكونوا مثلك ومثلى، لا أريدهم حيارى بين أم تؤمن فى قرارة نفسها بالإسلام، وأب يؤمن فى قرارة نفسه بالمسيحية، وكل منهما يخاف أن يفصح عما فى قرارة نفسه خوفاً من إغضاب الآخر، وكل منهما يخاف أن يروى لأولاده قصص دينه، ويمارس أمامهم تقاليده وطقوسه.. ثم المجتمع.. و..

وقاطعه الفتى وهو يصفع ركبته بكفه فى حركة عصبية:

– يبدو أننا لن نتفق. وقد كدت أيأس !

– خير لك أن تيأس..

– إذاً، فلن توافق على الزواج..

– وسأمنعه بكل ما فىّ من قوة..

– وتتركنا للعذاب!!

– إنى أوفر على أختى عذاباً كبيراً..

– وتظن أن الله يرضى عنك؟

– إنى أتقى غضب الله !..

وانتفض الفتى واقفاً، ومد يدا باردة إلى الرجل، ثم اتجه نحو الباب.. وفى البهو الخارجى التقى بالفتاة واقفة وبين عينيها سؤال متلهف، قرأت جوابه فى وجهه المربد وعينيه الغاضبتين وشفتيه المزمومتين حتى كادتا تختفيان من وجهه.. فشهقت ووضعت كفها فوق شفتيها حتى تكتم شهقتها وارتفعت فى عينيها نظرة فزع وألم كأنها رأت قلبها يذبح أمامها..

ووقف الفتى قبالتها برهة، ينظر إليها ولا يتكلم ولا يمد لها يداً.. ثم نقل عينيه إلى أخيها.. ثم خرج!!..

وفى الليلة نفسها صحب الأخ شقيقته إلى عزبته، ومعها دموعها..

وهناك مرت بها الأيام وهى فى كل يوم تفقد شيئاً من نفسها حتى خيل للناس أنها فقدت عقلها..

جفت حتى أصبحت كعود الحطب. لا يرويه ابتسام ولا ترويه دموع.. وشرد كل ما فيها حتى لم يعد فيها شىء.. ولم تعد تتكلم، ولم تعد تسمع شيئاً مما يقوله لها أخوها، ولم تعد تحس

بجوع أو بشبع، ولا بظمأ أو ارتواء، ولـم تعـد تقـف أمـام مرآتهـا، أو تضع الطـلاء على وجههـا، أو تمشط شعرهـا، أو تبـدل ثوبهـا.. أصبحت كياناً مذهولا يطوف كالخيال بين أربعـة جـدران..

لم يعد فيها إلا شيء واحد علامة الحياة.. عيناهـا.. كـان فيهمـا دائماً بريق خاطف وكانتا دائماً مفتوحتين، وكانتا دائماً تبحثان عـن شيء.. ربمـا شيء فى عقلهـا أو شيء فى قلبهـا، أو شيء وراء الحياة..

ثم بدأت تميل إلى امرأة معينة مـن نساء العزبـة.. تدعوهـا دائمـاً إلى صحبتها ولا تتنـاول شيئاً إلا مـن يدهـا، ولا تتكلـم إلا معهـا.. وأحبتها المرأة، وحنت عليها ودللتهـا، وأخلصت فى خدمتهـا..

وجلست يوماً تكتب خطابـاً.. خطابـاً قصيراً.. بضعـة كلمـات مرتعشة:

«حبيبى..»

«لـم أعـد أحتمـل.. إنى أحس بالجنـون يزحـف فـوق صدرى.. سأذهب إلى الله.. ربى وربك.. ربمـا التقينـا هنـاك!»

وأعطت الخطاب إلى المرأة لتلقيه فى صندوق البريـد فى خفيـة من أخيها.. ثم أرسلتها بعد يومين لتقف عند باب العزبة فى انتظـار موزع البريد، ربما يأتى إليهـا بـرد..

وجاءها الرد.. قصيراً.. بضعة كلمـات مـرتعشة:

«حبيبتى..»

«لا تـذهبي وحـدك.. انتظـرى، سأذهـب معك.. اخبـرينى كيـف تذهبين ومتى تذهبين.. التاريخ والساعة بالضبط، حتى نصعـد سويًـا فـلا يضل أحدنـا طريقـه إلى الآخـر.. إن الله موافـق على زواجنـا والملائكة يعدون حفل الزفـاف..»

وفى يوم معيـن فى ساعـة معينـة، ارتفعت صرختـان مـن ألـم فى وقـت واحد.. إحداهمـا فى عزبـة شكـرى بكفـر صقـر والثانيـة فى شارع شيكولانى بحى شبـرا..

وخرجت سيارة من عزبـة شكـرى تطـوى الأرض نحـو المركـز لاستدعاء طبيب، وكان الطريق طويـلا والطبيب متكـاسلا، وعندمـا عادت به السيارة إلى العزبة، كانت الصرخة قد سكنت.. إلى الأبد!!

واستدعى الطبيب القريب فى حى شبرا فجاء سريعاً.. واستطـاع أن يطرد الموت من حـول الفتى وأن يستـرد السم مـن أمعائـه قبـل أن يفتك بهـا..

كانا قد اتفقـا على كـل شىء.. اليـوم، والساعـة، ونـوع السم.. ولـم يبق أمامهما إلا الزفـاف إلى السمـاء..

ولكن الله أرادها وحدها.. وتركه فى الدنيا وحيداً مع عذابـه فى انتظار زفافه إليها.. إنه يعيش منذ عامين يستجمع شجاعتـه ليحـاول اللحاق بها مرة أخـرى.. والطريـق صعب، وقـد جربـه مـرة، وذاق أوله، فلم يستطع ان يجربه مـرى أخـرى..

إنه يعيش هيكلا متداعيـا مـن ذكريـات حبـه.. هيكـلا يضـم مـن الروح نسمات هافتة.. ويضم من الموت فراغـاً كبيـراً هائـلا..

يعيش وهو ينثر العذاب من حوله.. فقد عرفت الفتيات القبطيات قصته، وحاولت كل منهن أن ترد له الحياة وتبعد عنه الموت، فلـم تنل منه إلا أن تعذبت معـه وبـه..

ابعدوا عنه.. إنه معذب ينثر العذاب !..

ولكن.. أين الأخ الكبير الجليل ؟..

إنه يضلى !!..

عنبر لولو

قام الكشك فى الوسط من الحديقة الجنوبى. كشك مصنوع من جذور الأشجار على هيئة هرم تكتنفه أغصان الياسمين. وقف فى وسطه كهل أبيض الشعر نحيل القامة مازال يجرى فى صفحة وجهه بقية من حيوية. جعل ينظر فى ساعة يده ويمد بصره إلى الحديقة المترامية مستقبلا شعاعاً ذهبيًّا من الشمس المائلة فوق النيل نفذ إلى باطن الكوخ من ثغرة انحسرت عنها أوراق الياسمين. ولاحت الفتاة وهى تتجه نحو الكشك سائرة على فسيفساء الممشى الرئيسى. أحنت هامتها قليلا وهى تمرق من مدخل الكشك القصير، ومضت نحو الكهل بوجهها الأسمر وعينيها الخضراوين. تصافحا. ثم قالت بصوت ناعم ونبرة اعتذار:

– إنى خجلة!

فقال الكهل برقة:

– يسرنى أن ألقاك.

– لا يحق لى أن أنهب وقتك.

– لا يعد ضائعا وقت نمنحه لعلاقة إنسانية.

– شكراً لطيبة قلبك.

أشار إلى الأريكة داعياً إياها للجلوس فجلست ثم جلس. وقالت:

- لم تسعفنى الجرأة على طلب مقابلتك إلا لأنى في مسيس الحاجة إلى رأى حكيم.

- كل إنسان عرضة لذلك، غير أن من يراك فى الإدارة لا يتصور أنك تحملين هما !

- دعك من المظاهر!

فهز رأسه موافقاً فواصلت:

- وتساءلت طويلا إلي من يحسن بى أن ألجأ، حتى هدانى التفكير إليك.

- أستغفر الله.

وتريثت لحظات ثم قالت:

- إنك لا تعرفنى إلا كزميلة فى إدارة السكرتارية.

- بلى.

- فعلى أن أقدم نفسى الحقيقية..

- أهلا بها.

- هى نفس مقضى عليها بالسجن المؤبد فى شقاء دائم..

- أرجو أن تتكشف بعد تبادل الرأى عن مغالاة عاطفية..

- بل هى حقيقة واقعية..

تجلى الاهتمام فى عينيه وهو يقول:

- إنى مصغ إليك..

فقالت وهى تتنهد:

– حسبى أن أعرض عليك الفصل الأخير من المأساة..

فتجلى الاهتمام بصورة أوضح.

– إنى يتيمة الأبوين، لى إخوة ثلاثة صغار، نقيم فى بيت زوج المرحومة أمنا..

– وضع معقد..

– وأبعد ما يكون عن الراحة..

– لا يمكن إنكار ذلك.

– وهو رجل عنيد متعجرف.

– زوج المرحومة ؟

– دون غيرة..

– أهو عجوز مثلى ؟

– بل أكبر، وهو لا يحبنا !

– هل أنجب لكم إخوة ؟

– كلا، إنه عقيم !

– ذلك مدعاة لحب الأطفال.

– ولكنه شاذ، وقد أفهمنى عقب وفاة والدتى بأننى المسئولة وحدى عن إخوتى.

وساد الصمت مليًا حتى استطردت قائلة:

– لعله بقراره لم يجاوز العقل!

– بلى ولكنه جاوز الرحمة..

– على أى حال أنا لا طمع فى رحمته!

– مفهوم.

وهو يمن علينا بالمأوى وببعض المساعدات وإن يكن يحتسبها ديوناً مؤجلة..

هز الكهل رأسه دن أن ينبس فقالت متنهدة:

– لعلك تخيلت الصورة التى أعيش فى إطارها، والحق أنى لا أملك النقود اللازمة لملابس فتاة موظفة..

– وشابة فى عز شبابها !

– هكذا تمضى الأيام فى قسوة ومرارة، تحت رعاية عنيفة لا تعرف الرحمة، بلا أمل، أى أمل فى غد أفضل !

فقال الكهل كالمحتج:

– لا يجوز أن ننظر إلى الحياة بهذه العين.

– ولو كانت بالحال التى ذكرت ؟

– ولو كانت!

ثم تساءل وكأنه يناجى نفسه:

– منذا يقطع بما يخبئه الغد ؟!

فرفعت منكبيها زهدًا فى مناقشة فكرته وقالت وهى تتنهد:

– وإذا بى أشعر بزحف الزمن، ومن خلال حياة التقشف والمرارة أخذ الزمن يطاردنى..

– ولكنك مازلت فى مطلع الشباب.

- إني في الرابعة والعشرين من عمرى..

- عز الشباب !

- ولكنه في مثل حالتي يعد مرحلة من الشيخوخة..

- لا داعي للمبالغة، إن وضعك، ليس الوحيد من نوعه في بلادنا، ما أكثر أشباهه وإن اختلفت الظروف والأسباب.

فرمته بنظرة غامضة وقالت:

- ولكنى لم أحدثك بعد عن المشكلة الحقيقية !

- الحقيقية ؟!

- التي تتحداني في اليقظة والمنام !

- غير ما سبق ذكره ؟

- ما حدثتك عنه حال يمكن اعتيادها كما يعتاد المريض مرضه المزمن.

فرفع الكهل حاجبيه متسائلا فقالت:

- أصبحت أشعر بشبابي لا كفترة من العمر تتسرب في ضياع، ولكن كقوة دافعة، قوة قاهرة، كهبة مقدسة، وحق إلهي!..

نظر الكهل في بريق عينيها الخضراوين كالمأخوذ فقالت بنشوة وحماس:

- كم تنازعني نفسي إلى أشياء وأشياء، إلى كل شيء، إلى الوجود كله!

ثم وهي تخفض عينيها ونبرة معتصرة بالحسرة والحزن:

– أود أن أرقص وأغنى وأمرح !

اختبأ الكهل فى صمته وهو يطبق شفتيه متفكراً. ولما طال انتظارها قالت:

– لعلى دهمتك بصراحتى !

فأصر على الاختباء فقالت:

– لم تتوقع ذلك، أصبحت الأكاذيب وجبات يومية متكررة، ولكن ما جدوى هذا اللقاء إذا لم أكاشفك بدخيلة نفسى ؟!

فتمتم الرجل بحذر:

– صراحتك مشكورة !

– وكان على أن أعلن ما فى نفسى أو أجن، ولكن كان على أيضاً ان أختار الرجل المناسب، وكنت تخطر على بالى دائماً، رجل وقور ومحبوب وذو سمعة طيبة، له تاريخ مجيد قضى عليه بأن يكون ضحية فتعلقت به قلوب الضحايا !

– أشكر لك إنسانيتك ولطفك.

– لا أنكر أن لى صديقتين حميمتين فى المصلحة ولكنى لم أفد من رأيهما ما يذكر!

– هل كاشفتهما بما كاشفتنى به ؟

– كلا ولكنى سألتهما الرأى فى مناسبات جادة وخطيرة !

– بم نصحاك؟

– بدت لى إحداهما أبعد ما تكون عن الرحمة !

- زيدينى إيضاحاً.
- ليس الآن موضعه.
- والأخرى؟

- إنها غاية فى الغرابة، قالت لى إن مشكلتى عامة وإن بدت خاصة وأنها لا تحل بالحلول الفردية، وأن علينا أن نغير تفكيرنا من جذوره لنحقق تغييراً عامًّا وشاملا...

فابتسم قائلا:

- ليس رأيها بالجديد على مسمعى، ولكن كيف كانت استجابتك لها ؟

- لم يستمر ما بينى وبينها طويلا بعد ذلك فقد ألقى القبض عليها فجأة.

- عرفت المعنية بحديثك، أليست هى زميلتنا السابقة بالحسابات؟

- بلى، وهكذا لم أجد أحداً سواك..

فقال بلهجة أبوية:

- إنك تنظرين إلى الأمور بمنظار أسود، ونسيت أنك قد ترزقين بابن الحلال غداً أو بعد غد !

- أبناء الحلال متوفرون..

- ألم يقع اختيارك على أحدهم ؟

- كلا، إنهم موظفون شبان فى مستوى مادى لا يختلف عن مستواى، وقبول يد أحدهم يعنى التخلى عن إخوتى، ودعنا من تكاليف الزواج ومشاكلها !

فقال الكهل بإصرار:

– عسى أن يجيء عريس غنى يقوم بكافة التكاليف ويسمح بالنزول عن مرتبك لإخوتك !

– هذا حلم وليس عريساً !

– الأحلام توجد كما توجد الحقائق.

– أرفض أن أقيم ميزان حياتى على الأحلام، إنى أعيش فى جفاف قاتل وبلا أمل، ونفسى تتحرق إلى الحياة والسعادة، وفى كلمة أود من أعماقى أن أرقص وأغنى وأمرح..

رجع الكهل إلى حيرته وصمته فقالت بوضوح:

– هذه هى مشكلتى الحقيقية !

ولما وجدته مصرًّا على الصمت عادت تقول:

– يسعدنى أنى وجدت أخيراً الشجاعة لمصارحتك بها !

فجعل يغمغم بكلمات مبهمة فقالت باسمة:

– وطبيعى أن أنتظر منك شيئاً غير الصمت..

فجمع عزمه وقال:

– إنى بطبعى وتاريخى أرفض التسليم بوجود طرق مسدودة !

– ولكن طريقى مسدودة !

– ما تزال..

– أرجو أن نعتبرها كذلك إكراماً لى، أنا لم ألجأ إليك إلا مطاردة بسياط الجزع، وبعد كفر بالأحلام والخوارق !

فقال بوضوح:

– لا رأى عندى دون مراعاة كاملة للكرامة !

– الكرامة ؟

– أعنى السلوك الخليق بفتاة محترمة.

فقالت بتحد:

– لقد جئتك وأنا على علم غزير بالنصائح التقليدية !

– طيب، هل تتوقعين لدى رأيا آخر ؟

– نعم !

– أن أسوغ لك السقوط ؟

– نعم !

فتساءل الكهل بذهول:

– ألم تجئينى مدفوعة بما ذكرت عن تاريخى وحسن سمعتى ؟

– بلى !

– وتصورت بعد ذلك أن أبارك سقوطك ؟

– نعم !

فضحك الكهل على رغمه وقال:

– الحق أنى لا أفهمك..

– ولكننى واضحة كضوء الشمس !

– الرقص والغناء والمرح ؟

– نعم !

– خبرينى عما تتوقعين منى ؟

– أن تصرح لى بأن النهل من متعة الحياة ليس سقوطاً !

– ولكنه ينقلب كذلك أردنا أم لم نرد !

– وإذن فما على أن أصبر حتى أذوى وأذبل وأموت ؟

– بل حتى تفرج..

– كلام لن يكلفك شيئاً ولكنه سيكلفنى حياتي..

فقال متحايلا للهروب من حدة الموقف:

– حدثينى عن رأى صديقتك الأخرى، أعنى التى لم تعتقل ؟

– كان الحديث لمناسبة تقدم شاب لخطبتى فطالبتنى بأن أقبله دون تردد، وأما عن إخوتى فقد قالت ليس من حق أحد أن يضحى بحياة آخر فى هذه الدنيا قصيرة الأجل !

فهز الكهل رأسه فى حيرة صامتاً فقالت:

– ولكنى أرفض التضحية بإخوتى !

– يالك من فتاة نبيلة !

– ولكن من حقى أن أحب الحياة، وأن أستمتع بهذا الحب..

– إذا فقدنا الكرامة فإنه لا يطيب لنا شيء.

– من الذى خلق الكرامة ؟

– خلقتها السماء كما خلقتها الأرض..

– ألم تسمع عما يقال عن الفتاة الأوربية ؟

– إنهـا تنتمى إلى حيـاة أخـرى فى أوربـا ولست أملك المعرفـة ولا أملك الحكـم عليهـا..

– ولكنها أثبتت لنا أنه من الممكن الاستهانـة بالتقاليـد الموروثـة دون التضحية بقيم إنسانية باهرة !

– قلت إنى لا أملك الحكـم عليهـا..

– هل تهرب من مواجهة الحقيقة ؟

– بل أتكلم بما أعلـم..

– أخشى أن تعدنى مسئولية ثقيلة اعترضت طـريقك الهـادئ ؟

– بل أود مساعدتك بكـل قلبى..

فقالت برجاء:

– إذن قدم لى نصيحـة مبتكـرة..

– مبتكرة !!

– أجل، لم أعد أومن بالماضى، لقد ورثت تعاستى عن الماضى، لذلك أكـره كـل مـا يمت إليـه بصلـة، هبنى نصيحـة مبتكـرة ولـو هزئت فى النهاية بما سميته بالكرامة !

– ولكنى صارحتك بما أومـن بـه.

– إنك رجل غير عادى، لابد أن تنبع منك أفكار مبتكرة، أفكار لا تستمد سدادها من قول سلف أو من عـادة أثـرت..

– من حقى، ومـن واجبى، أن أكـون مخلصا لطبعى أبـداً.

فقالت وهى تنظر فى عينيه بجـرأة:

– أحياناً يخيل إلى أن شراً عصريًّا أفضل من خير بال !

– أى ثورة تنطوى عليها جوانحك الرقيقة الجميلة !

– الحياة توشك أن تفلت من بين أصابعى تحت شعارات متهرئة، ترددها ألسنة محتضرة..

– هذه انعكاسات أزمة كفرت بحكمة الصبر..

– صدقنى فإن حياتنا وقف قديم متهدم تتحكم فيه وصايا الأموات..

– كل ذلك لأنك تودين أن ترقصى وتغنى وتمرحى؟

– لأنى أود أن أعيش حياتى.

– وربما تودين غداً أن تقتلى الأنفس وتشعلى الحرائق وتهدمى الجدران ؟

فضحكت قائلة فى حبور:

– أود حقًّا أن أقتل زوج أمى، وأن أحرق من يتطاول على رميى بالسقوط وأن أهدم جدران الإدارة !

ابتسم الكهل وهو يرمقها بحنان أبوى وقال:

– لعله الحب ؟

– هه ؟

– لعله حب يائس الذى أضرم فيك نار الثورة !

– لا يوجد حب معين الآن، أحببت مرات وخبت مرات، أما الآن فأنا أحب الحب وحده !

– لا شك أن للحب عندك قصة !

هزت منكبيها فى استهانة وقالت:

– أنت تعرف حب المراهقة ومصيره المحتوم.. ذاك واحد، وحلمت يوما بحب ممثل، وكان كلما تقدم لى خاطب أبدى قلبى استعداداً طيباً للحب لا يلبث أن يذهب بذهابه..

– لا قصة حب الآن ؟

– أكبر قصة حب، حب الحب نفسه !

وتبادلا نظرة طويلة. ثم سألته:

– بم تنصحنى يا سيدى النبيل ؟

فقال باسما:

– أنصحك بالرقص والغناء والمرح والقتل والتحريق والهدم..

– أتسخر منى يا سيدى..

– معاذ الله، بل إنك تغريننى بالتعلق بك !

– حقًّا ؟

– ما أكثر أوجه الشبه بيننا !

– فيم ؟

– فى التعاسة على الأقل ؟

فقالت باستطلاع:

– لقد سمعت عنك الكثير..

فلاحت فى عينيه نظرة حالمة وقال:

– كنت يوما ذا شباب يافع ومستقبل مرموق.

ثم وهو يبتسم :

– وذات يوم قررت الانضمام إلى الجموع الثائرة.

وسكت لحظة ثم تمتم :

– ولم أكتف بذلك فجازفت بالعمل فى السراديب..

ثم واصل وهو يضحك ضحكة موجزة :

– ثم قضيت من حياتى خمسة وعشرون عاماً فى السجن..

– أول ما لفتنى إليك حديث بعض الزملاء فى المصلحة عندما أشاروا إليك وقالوا هذا الرجل بطل من أبطالنا القدامى !

– وقد خرج البطل من السجن بعد أن جاوز الخمسين، وبعطف من البعض ألحقت بالوظيفة، بمرتب مبتدىء، وعما قليل سأترك الخدمة دون أن أستحق معاشاً، وقد فاتنى الحب والزواج والأسرة، وإن امتد بى العمر فلا مفر من التشرد والجوع..

– يا للبطولة !

– لذلك قلت إن بيننا أوجه شبه..

– لكنك بطل !

– لا يذكرنى اليوم أحد !

ترامت إليها فى الكشك ضحكات هامسة وهى تقترب. مرق إلى الداخل فتاة وشاب سرعان ما تبادلا عناقا حاراً. أسلمت الفتاة رأسها إلى كتف الشاب وأغمضت عينيها. قلبت رأسها، ولما

فتحت عينيها وقع بصرها على الكهل والفتاة السمراء ذات العينين الخضراوين. إبتسمت بلا ارتياب يذكر ثم سحبت فتاها من يده وغادرا الكشك. ضحكت السمراء وابتسم الكهل. وسألته:

– لم اخترت هذه الحديقة مكاناً للقائنا ؟

– كنت أتردد عليها في الزمان الأول..

– لا علم لك بما يدور فيها اليوم ؟

– كلا، كنا نتخذها أحياناً مخبأ ننقض منه على أعدائنا..

فقامت برشاقة آخذة إياه من ذراعه، فمضت به إلى جدار الكشك. مدت بصرها من الثغرات بين أوراق الياسمين داعية إياه إلى النظر. نظرا معا وهما شبه متلاصقين حتى فغر الكهل فاه. وهمست في أذنه :

– انظر إلى الحديقة !

ثم وهي تكتم ضحكة:

– كم أنها مرصعة بالعشاق !

– فوق ما يتصور العقل..

– العقل يستطيع أن يتصور كل شيء لو تخلت عنه القبضة الخانقة..

فقال في انفعال ظاهر :

– انظرى إلى هذه الفاجرة !

– يالها من سكرى بالحب !..

- أهذه حديقة عامة ؟

- لا عيب فيها إلا أنها تشبه الجنة..

- إنها فى عمر الورد ؟

- الحديقة ؟

- الفاجرة !

- يخيل إلى أنه لا زوج أم يرهبها ولا سجن يهددها !

رجع الرجل إلى مجلسه وهو يلهث. تراجعت الفتاة إلى وسط الكشك. وقفت كأنما تستعرض جسمها الرشيق.

دارت حول نفسها مرتين كأنما تشرع فى الرقص. سألها وهو لا يتمالك نفسه :

- لم وقع اختيارك علىّ بالذات ؟

- لأنك الرجل الذى قضى زهرة عمره فى السجن.

- كيف ظننت أنك واجدة رأياً جنونيًّا عند رجل مثلى ؟!

- تخيلت أنه لن ينتشلنى من الموت إلا رجل كان الموت لعبته !

- يا له من مزاح !.

- قلت لنفسى سأجد عنده رأياً جديراً ببطل !

فتردد قليلا ثم سألها :

- ألم تخشى أن أغازلك ؟

- ليس ثمة ما أخشاه فى ذلك !

هز الكهل رأسه مغلوباً على أمره فعادت إلى مجلسها إلى جانبه وهى تسأله :

– أليس فى حياتك جانب لهو ؟

فأجاب دون اكتراث:

– أقرأ بانتظام، وأذهب إلى السينما بين حين وآخر.

– تعيش وحدك ؟

– نعم، لا أقارب لى فى القاهرة.

– ولا أصدقاء لك ؟

– منهم من قتل فى الثورة ومنهم من تبوأ يوماً الوزارة فبعد ما بينى وبينه..

– والنساء، أليس فى حياتك نساء ؟

– ولَّى موسمهن فى عمرى..

ففكرت قليلا وقالت :

– أود أن أعترف لك بسر !

فى تلك اللحظة ترامى إلى سمعيهما صوت رصاص ينطلق بقوة وغزارة. بهت الرجل وارتجفت الفتاة. تساءلت :

– ما هذا ؟

– رصاص من بندقية سريعة الطلقات..

– كيف ؟.. لم..

– لا أدرى..

– غارة ؟!

– ولكن صفارة الإنذار لم تنطلق، لعله تمرين.

وسكت الضرب. لبثا يرهفان السمع ولم يزايلهما القلق تساءلت:

– هل يعود ؟

– لا علم لي..

– هل تستأنف الحرب ؟

– من يدرى!

– الكلام عن ذلك لا ينقطع.

– وهو ينتهى حيث يبدأ.

– أتفكر فى ذلك كثيراً ؟

– إنه ظلنا ومصيرنا.

وفصل الصمت بينهما طويلا. حتى قال :

– إن الرصاص يحرك غرائز فى أعماقى، لقد زلزل كيانى فى هذه اللحظة القصيرة.

– يؤسفنى أننى كدرت صفوك.

– لنعد إلى ما كنا فيه، أكنت تتحدثين عن سر ؟!

فابتسمت قائلة :

– أجل.. هناك سر..

فرمقها بنظرة مستطلعة فقالت :

– ثمة رجل فى حياتى.

- حقًّا ؟

- شاب غنى من طنطا !

- ها هو الحلم يتحقق..

- كلا، إنه متزوج.

- ما مهنته ؟

- تاجر.

- أتقبلين أن تكونى الزوجة الثانية ؟

- لكنه يمقت فكرة تعدد الزوجات.

- هل سيطلق زوجته ؟

- ويمقت فكرة الطلاق.

- وماذا يريد إذاً ؟

- إنه يحبنى !

- كذاب !

- أعتقد أنه صادق.

- هل.. هل..

- تقابلنا فى مشرب شاى مرتين..

- ماذا يريد ؟

- يريد أن أقابله مرة ثالثة..

- لا كرامة فى ذلك.

– رجعنا إلى الكرامة !

– واضح أنـه يريـد العبث بك.

– أو أن أعبث به !

– كونى بريئة بقدر مـا أنت صغيـرة..

– وحدثنى عرضا عن شقة يملكها فى الهرم !

– الداعر !

– لم أقطع برأى بعـد.

فهتف بحدة:

– الرقص والغناء والمـرح.

– لا أحب لك أن تغضب..

ومالت نحوه فلثمت جبينه. وجعـل ينظـر إليهـا باهتمـام وتوقـد. سألته برجاء :

– ألا تريد أن تمن على برأى ؟

– عليك أن تصبرى حتى يجىء الفـرج كمـا أن على أن أصبـر حتى يجئ الموت !

فقامت وهى تقول:

– شكـراً، وإذاً فيجب أن أذهب..

هتف باستنكار:

– تذهبين..!

– لم أجىء لأقيم هنـا.

– أنت ذاهبة إلى الشاب الغنى من طنطا..

– كلا، ليس موعده اليوم..

– لا يمكن أن تذهبى..

– آن لى أن أذهب..

قام إلى جدار الكشك ورمى ببصره إلى الخارج ثم قال بعصبية:

– الحب لا يتوقف لحظة واحدة..

– متع بصرك..

تحول إليها وهو يقول بانفعال:

– كأنك ابنتى!

ومال نحوها فلثم جبينها وهو يقول:

– لا تذهبى إلى مشرب الشاى.

– ليس اليوم..

– إنه يريد عشيقة !

– لم يصرح بذلك.

– أنت ساذجة ؟، أنت ماكرة.. ما أنت ؟

– أنا مصممة.

– أنت جميلة، وأنت فاتنة، اصبرى..

– يجب أن أذهب.

– إنه يرفض أن يطلق، ويرفض أن يتزوج زوجة ثانية، لماذا ؟ لعل زوجته غنية، لعلها رأسماله الحقيقى، وغير بعيد أن تكون أكبر

منه سنًا، لذلك جهز شقة للعبث، يجيء إلى القاهرة باسم التجارة ليمارس الدعارة، هذه هى الحقيقة.

– أشكرك، ولكن آن لى أن أذهب.

قبض على يدها، ثم على ساعدها، وقال وهو يزداد انفعالاً:

– لن تذهبى..

ابتسمت قائلة:

– لقد تأثرت لحالى أكثر مما يجوز..

– لا حدود لما يجوز فى ذلك.

– شد ما أزعجتك.

– أكثر من سبب يشد أحدنا إلى الآخر.

– ولكن الوقت يسرقنا وزوج أمى رجل شرس..

– فلنسحق رأسه ولكن لا تذهبى إلى الشاب الغنى من طنطا.

– إنى راجعة إلى البيت.

ففرقع بأصابعه وقال:

– جاءتنى فكرة طيبة.

– فكرة ؟

– إنك مشغولة بالحياة، ولا خوف عليك من كهل مثلى، فلنذهب سويًا إلى عنبر لولو.

– عنبر لولو ؟

– حديقة فى صحراء سقارة، فى المركز منها بركة مترامية من ماء الورد، وتنتشر بها المقاصير المغطاة بالأزهار، وشعارها غير المكتوب افعل ما تشاء.

فاتسعت عيناها دهشة وقالت:

– أنت تدعونى إلى ذلك ؟

– مع آمن رفيق!

– لا أصدق!

– لا يعز شيء على التصديق.

– ولكن .. ولكن ليس الوقت مناسباً.

– كل وقت فهو مناسب لزيارة عنبر لولو!

– لم أسمع بها من قبل.

– إنها جنة الأحلام، كل حلم فهو واقع فى عنبر لولو.

– إنك تتكلم بصوت جديد، وعيناك تنطقان بمعان جديدة.

جذبها من يدها إلى جدار الكشك فنظر من الثغرات داعياً إياها إلى النظر وقال محموماً :

– انظرى، جميع هؤلاء حمقى لأنهم لم يعرفوا الطريق إلى عنبر لولو.

– تلك الحدائق النائية عرضة للخطر!

– إنها ترقد فى حضن الأمان وآى ذلك أنه لا يوجد بها شرطى واحد!

– وماذا تفعل هناك ؟

– كما تهوين، لا أحد يرى الآخر فى عنبر لولو.

– انظر إلى هذه الفتاة الفاجرة !

– إنها فاجرة لأنها تلهو بعيداً عن عنبر لولو.

– إنك تخيفنى!

– لا ظل للخوف فى عنبر لولو.

تراجعت عن الجدار فلحق بها فى نشاط غير معهود وهو يشد على يدها. وتساءل:

– ألم تجيئى لتسمعى نصيحة من كهل ؟

– إنى أمقت النصائح !

– اذهبى معى إلى عنبر لولو.

– رباه.. إنى أتراجع، لعل حديثك الحكيم أثر فى أكبر مما توقعت !

– حديث عنبر لولو ؟

– حديث الصبر والكرامة !

– إنك لا تؤمنين بالألفاظ الصفراء.

– ولكنك تؤمن بها ؟

– إن ربع قرن فى السجن خليق بأن يخل الميزان.

– إنك تخيفنى.

– كلا، ولكنها حيلة نسائية بالية !

– اهدأ، فلنجلس، أود أن أعترف بسر جديد.

– اعتراف آخر ؟!

عادا إلى مجلسهما وهو يلهث. وقبل أن تفتح فاها تدافعت أقدام مهرولة تند بين ضحكات شابة متوثبة. اندفعت إلى الداخل فتاة يطاردها شاب. لمحا وجود الكهل والفتاة ولكنهما لم يلقيا إلى ذلك بالا. مضت تحاوره وهو يتحين غفلة للانقضاض عليها. وفجأة وثبت الفتاة فوق الأريكة الوحيدة التي يستقر عليها الكهل وصاحبته وتخطت الرجل فاختفى لحظة بين ساقيها ثم قفزت إلى الباب، ومنه إلى الحديقة والشاب فى أثرها. سوّى الكهل هندامه وتمتم كأنما يناجى نفسه:

– ما أجمل أن يذهبا إلى عنبر لولو !

ثم قال لفتاته بضيق:

– نحن نضيع وقتاً ثميناً لا يعوض !

فقالت تذكره :

– ولكن ثمة إعتراف جديد !

– لا قيمة الآن لأى إعتراف !

– أود أن أعترف لك بأن حكاية الشاب الغنى من طنطا مختلقة من جذورها ولا أساس لها فى الواقع !

– حقًّا ؟

– بالصدق أعترف لك.

– ذاك يعقد الأمور ولا يبسطها !

– وعليّ أن أذهب الآن.

– كلا، لن تـذهبى.

– لا شىء يدعونا للبقـاء.

– بل علينا أن نفهم الأسبـاب التى دعتك إلى اختـراع الحكايـة.

– لا أهمية لذلك ألبتـة.

– كلام غير علمى، فالحلم لـه أسبابـه كالواقـع سواء بسواء.

– أكرر ألاّ أهمية لـذلك.

فهز رأسه مفكراً وقال باهتمام :

– دعينى أفكر.

ومسح على جبينه واستطرد :

– شاب.. تاجر.. غنى.. من طنطا.. شقـة خـاصة فى الهـرم.

– كدت أنسى تلك التفاصيـل.

– لا يمكـن أن تنّسى.

– أنت ظريف ولكنك عنيـد.

– أصغى إلى، شاب، تخيلته شابا، الشبـاب رمـز الجنـون، يحب الحياة، وأنت تهيمين بحب الحياة لحـد الجنـون.

– لكنى تغيرت.

– كذب، لم يمر وقت يسمـح بالتغييـر.

– يخيل إلىّ أنى عـاشرتك فى هـذا الكشك عمـراً.

– أصغى إلىّ يا عزيـزتى،.. تاجـر.. مـا معنى تاجـر؟، إنـه نقيض الموظف، الموظف رمز الروتين، التاجر رمز الحركة، الموظف ظل الأخلاق التقليدية، التاجر ظل الإنطـلاق واللاأخلاقيـة.

فتساءلت ضاحكة :

– أترانى حلمت بقرصان ؟

– وأكثر يا عزيزتى، إنك تدعيننا للإيمان بإبليس كما آمـن إبليس بنفسه، إنك تنبذين آدم مخلوق الخطيئة والاستغفار، وتعشقين إبليس مخلوق الإبداع والكبرياء، إنك تعيدين للنار كرامتها حيال التـراب.

– سامحك الله.. أنت خفيـف الـروح.

– وما معنى غنى؟، الغنى هو الذى يملك المال والقـوة، ولكننـا لم نعد فى عصر الأغنياء، أى غنى اليوم هو كاللص الذى لـم يهتـد إلى أثره بعد، ستطبـق عليـه يـد العدالـة فى المساء أو عنـد منتصف الليل، فالحلم يريد شابًّا، غنيًّا، لفترة محدودة، إنه يخشى المعـاشرة الطويلـة، يخشى أن ينكشف مـع الزمـن عـن شخص حقيـر شرس مثل زوج أمك، فأنت ترغبين فيه وتكرهين فى الـوقت نفسه فكـرة دوامه، سوء ظن مكتسب مـن مـاض تعيس..

– أتقرأ الفنجال أيضا ؟

– من طنطا !.. ماذا يقول الحلم؟، طنطا هى مثوى السيد البدوى، صاحب الكرامات والمعجزات، الذى كان يجىء بالأسرى من الأعداء.. فهمت يا عزيزتى ؟!

– فهمت يا سيدنا الشيـخ.

– وشقة الهرم؟.. الشقة مفهومة ولكن لماذا فى الهرم؟. الهرم فى ظاهره قبر ولكنه فى حقيقته يشكل تحديًا للزمن.. للموت.

– تفسير مسل وجميل، ولكن يجب أن نفكر فى الذهاب.

– ابصقى هذه النية من فيك وهلمى إلى عنبر لولو.

– بل إلى البيت..

– ماذا فى البيت مما يغريك بالعودة إليه ؟

– هو بيتى على أى حال.

– سيتغير طعمه ومذاقه عقب زيارة لعنبر لولو.

رمقته بنظرة ارتياب وسألته:

– ما علاقة كهل وقور مثلك بعنبر لولو ؟

– فيه خلوة للعجزة، كل شىء فى عنبر لولو.

– ترى.. ترى أأنت جدير بالسمعة الطيبة التى تتمتع بها ؟

– أنسيت رأيك فى الوقف القديم ووصايا الأموات ؟

– لكنى تعلمت أشياء جميلة من معاشرتك الطويلة هنا !

– لا تسخرى من رجل قضى زهرة عمره وراء القضبان.

– اغفر لى فأنا لم أجاوز الأربعة والعشرين ربيعا من عمرى !

– ولكنه فى حالتك يعتبر مرحلة من مراحل الشيخوخة !

وقامت متجهمة فقام فى أثرها بحال توحى بالاعتذار، وقال :

– لا معنى للغضب بعد أن تعارفنا على خير وجه !

فقالت بنبرة ساخرة :

– شيدت قصراً ولكن على الرمال !

– حقًّا ؟

– الشاب الغنى من طنطا حقيقة من صميم الواقع !

– بل خيال فى خيال !

– حقيقة من صميم الواقع.

فقبض على ساعدها بعنف وهو يطلق على عينيها نظرة من نار. وتوثب ليقذفها بسيل من الكلمات التى انصهر بها شدقاه ولكن شخصاً غريباً اقتحم الكشك على غير توقع. اقتحمه وكأنما ألقى به إليه. مشعث الشعر، أغبر الوجه، يتصبب عرقا. رفع بنطلونه وحبكه حول وسطه. ضرب الأرض بقدميه بشدة ليزيل عن حذائه ما يطويه من طين. بادلهما النظر صامتاً دون أن ينبس. مضى إلى طرف الأريكة وارتمى عليها فى إعياء. جعل صدره يرتفع وينخفض ورائحة عرقه تنتشر. حل بالكشك صمت كالشلل. لكن الفتاة كانت أول من خرج منه. خلصت يدها من قبضة الكهل وقالت:

– أستودعك الله، إنى ذاهبة.

فقال الكهل برجاء :

– انتظرى، يجسن بك ألا تسيرى وحدك فى الطرقات الخالية فى هذه الساعة من الأصيل !

وإذا بالشاب الغريب يقول :

– ليست الطرقات بالخالية !

فرماه الكهل بنظرة مغيظة متسائلة فقال الشباب :

–جميع الطرقات مطوقة برجال الشرطة !

فتحول غيظ الكهل إلى دهشة وسأله :

– لم ؟

فسأله الشاب بدوره :

– ألم تسمعوا طلقات الرصاص ؟

– بلى، منذ وقت غير قصير، ظننته تدريباً عسكريًّا.

– لم يكن تدريباً عسكريًّا.

فسألته الفتاة :

– أكان غارة جوية ؟

– لم يكن غارة جوية.

فسأله الكهل :

– هل بلغتك عنه أنباء صادقة ؟

فهز الشاب رأسه بالإيجاب، وأجاب النظرات المتسائلة قائلا :

– صعد شخص إلى قمة البرج وأطلق الرصاص من بندقية سريعة الطلقات.

– ما هويته ؟

– لا يدرى أحد.

– وما الهدف الذى أطلق عليه الرصاص؟

– أطلقه على كافة الجهات، على جميع الناس !

– ياللخبر، وكم عدد الضحايا ؟

– لم يصب أحد !

– غير معقول.

– يبدو أنه أراد أن يطلق الرصاص لا أن يصيب أحداً.

– حادث غامض.

– إنه لكذلك.

– هيهات أن يثبت عدم الشروع فى القتل.

– ذاك واضح، ولكن ربما صفحته خالية من السوابق !

فقال الكهل باستياء:

– ليس خلو الصفحة من السوابق بالشهادة الطبية دائماً، ولا العكس بالصحيح.

– قول لا يخلو من حكمة.

– أهنئك على حسن إدراكك.

– شكراً.

– لكن لنعد إلى مطلق الرصاص، لعله مجنون ؟

– كلا..

– إنك تتحدث عنه بيقين !

– بل أردد ما تناقله الناس فى الطريق.

– ولكن لم يطلق النار فى جميع الجهات دون أن يقصد إصابة أحد ؟.

– ذاك بعض السر الذى يسعى وراءه رجال الشرطة.

فقالت الفتاة :

– لعله مجنون بالشهرة.

– لا يبدو كذلك.

فعادت تقول :

– لعله كان فى حاجة ملحة إلى الترفيه !؟

فابتسم الشاب قائلا :

– لا أظن الأمر كذلك.

وسأله الكهل :

– ماذا يقول الناس عنه أيضاً ؟

– يقال إنه كان ضمن وفد دعى إلى زيارة الجبهة ومعسكرات اللاجئين.

– حقًّا !.. لعل أعصابه اهتزت فوق ما يحتمل.

لكنه لم يفقد توازنه قط وإلا لقتل الناس بالعشرات.

– أطلق النار وهو فى كامل وعيه !

– وكامل عقله !

– ياله من حادث غامض !

وقالت الفتاة :

– كم أود أن أراه.

فقال الكهل :

– سترينه فى جرائد الغد، كذلك تجرى الأمور منذ قديم !.

ثم التفت إلى الشاب وهو يقول كأنما يقدم له نفسه:

– أنا أيضاً ولعت يوماً بإطلاق النار!

ثم بنبرة إعتزاز:

– ولكن الرصاص انصب على الأعداء !

فقال الشاب بامتعاض :

– يقال إن صاحب البندقية المجهولة هتف قبل أن يختفى «ليستقر الرصاص فى قلب العدو الأكبر».

فقال الكهل فى حيرة :

– حتى القتل أصبح غامضاً رغم أنه أوضح فعل فى الوجود!

– ليس ثمة غموض ألبتة..

فتساءل الكهل بغيظ:

– أكان العدو الأكبر يسير فوق رءوس المارة ؟

– أو خلفهم أو أمامهم أو تحت أرجلهم !

فقالت الفتاة بانفعال:

– واضح أو غامض، لا يهم، كم هو جميل أن يطوف إنسان بالجبهة وبمعسكرات اللاجئين ثم يصعد إلى برج القاهرة ليطلق النار فى جميع الجهات !

فسألها الكهل :

– هل وضح لك ما غمض علىّ ؟

– نعم.

– ولكن كيف ؟

– إنى أفهم بطريقتى الخاصة !

وسادت لحظات من الصمت ارتفعت خلالها ضجة فى الخارج. ثم تبين على وجه اليقين أن ثمة ضجة تجتاح الحديقة.

هرعا إلى ثغرات الياسمين فرأيا العشاق يتجمعون فى الممشى وقد تولاهم الوجوم والارتباك. ثم رجال الشرطة وهم يحتلون الأركان. قالت الفتاة بانفعال.

– أصبحنا فى قلب الحدث..

فقال الكهل :

– وقد يقع صدام دام.

والتفتت الفتاة نحو الباب وقالت له :

– واضح أن رجال الشرطة يعتقدون أن صاحبك المجهول فى الحقيقة معنا !

فقال الشاب بهدوء :

– وهو فرض محتمل !

فقال الكهل:

– ولم يعد ثمة مجال للهرب..

فقال الشاب:

– إن من يقدم على ما أقدم عليه لا يمكن أن يركن إلى الهرب إلى ما لا نهاية.

فقال الكهل وهو يحدجه بمودة :

– وعليه فخير سبيل أن يذهب إليهم بنفسه..

– أتظن ذلك؟

وابتسم. ثم قام بهدوء. حياهما بإحناءة من رأسه قائلا :

– إلى اللقاء..

ومضى نحو باب الكشك فمرق منه إلى الحديقة وهما يردان وراءه..

– إلى اللقاء !

واقتربا من باب الكشك متلاصقين وراحا يراقبان ما يحدث فى الخارج ولبثا وقتا غير قصير ثم رجعا إلى مجلسهما فيما يشبه الإعياء والحزن. وقال الكهل وكأنه يناجى نفسه:

– فاتنى أن أستوضحه بعض الأمور، كان الوقت قصيراً وحرجاً!

فقالت الفتاة :

– وفاتنى أن أدعوه إلى شىء من اللهو !

فقال لها معاتباً:

– ما زلت قادرة على المزاح !

– أنسيت هيامى بالرقص والغناء والمرح ؟

فقال بامتعاض:

– آن لك أن تذهبى إلى شابك الغنى من طنطا !

فضحكت قائلة :

– دعنى أعترف لك بأنه حلم لا أساس له فى الواقع !

فهتف بغضب :

– لقد أرهقتنى إعترافاتك المتضاربة..

– فقالت بتسليم :

– هلم بنا إلى عنبر لولو !

ونهضت قائمة. لكنه جذبها برقة من يدها فأجلسها مرة أخرى وقال وهو يحنى رأسه :

– دعينى أعترف لك بأن عنبر لولو لم توجد بعد.

فاتسعت عيناها دهشة وتمتمت :

– ماذا قلت ؟

– كانت مجرد مشروع !

– مشروع ؟!

– أجل.

– ماذا تملك لتنفيذه ؟

– رسمنا له خطة عظيمة فى غيابات السجن !

– السجن ؟!

– كان حياتنا الحقيقية، أنا وبعض الزملاء، وقد اشتققنا اسمه من عنبر السجن وأضفنا إليه «لولو» على مثال هونولولو..

– وماذا عن تمويله ؟

– فكرنا فى ذلك بطبيعة الحال، وبالإجماع اتفقنا على وسيلتين لا ثالث لهما وهما السرقة والقتل !

فضحكت متسائلة :

– وماذا أخركم عن التنفيذ منذ تم الإفراج عنكم ؟

– الخيانة !

– الخيانة !

– إذا بالزملاء يتوبون إلى الله ويؤدون فريضة الحج فى عام واحد!، هكذا تعطل مشروع عنبر لولو !

– يا للخسارة..

– العين بصيرة واليد قصيرة !

وفرق بينهما صمت واجم ثقيل حتى قال الكهل :

– آن لنا أن نذهب ولكن لا يجوز أن نفترق !

– حقًّا ؟

– ألا ترحبين بذلك ؟

– من المؤسف أنك لن تحسن الرقص ولا الغناء ولا المرح..

– ولكنى صاحب مشروع قيم !

– عنبر لولو ؟!

– أجل..

– لكنه لا يمكن تنفيذه بمجهود فردى ؟

– إذا اتفقنا أمكن ان نصنع شيئاً ذا بال..

– وماذا فى وسعى أنا ؟

– أصغى إلى، نحن نملك مواهب لا تقدر بثمن..

– ما أريد إلا أن أرقص وأغنى وأمرح.

– لن أطالبك بأكثر من ذلك.

– ماذا تعنى؟

– عنبر لولو، جنة الأحلام، ما قيمتها بلا رقص وغناء ومرح ؟

فابتسمت الفتاة بأمل وتساءلت :

– وأنت ؟

فقال بفخار :

– أنا مولع بالقتل منذ قديم الزمان..

قام فقامت. أعطاها ذراعه فتأبطتها. مضيا نحو باب الكشك وهو يقول :

– سأطلق الرصاص فى جميع الجهات وسنرقص ونغنى ونمرح..

• كتب الأستاذ نجيب محفوظ هذه القصة صيف عام ١٩٦٧، بعد هزيمة ٥ يونية، ونشرها فى جريدة الأهرام، ثم أعاد نشرها فى مجموعة قصصه التى تحمل عنوان: «حكاية بلا بداية ولا نهاية»، ونشرت الطبعة الأولى منها عام ١٩٧١، مع ملاحظة أنه نشر قبلها مجموعتين من القصص القصيرة، أولاهما: خمارة القط الأسود، ونشرت عام ١٩٦٩، والأخرى: تحت المظلة، ونشرت فى العام نفسه.

• أمين يوسف غراب

العوالم السفلى

عندما يقبل المساء، وتزدحم شوارع القاهرة الرئيسية بالعابرين وتمتلىء أرصفة شارعى سليمان وفؤاد بالفارغين من الناس الذين حرموا موارد الامتلاء، فراحوا يبحثون عنها فى وجوه بعضهم البعض، وفى عيون الحسان، وخلف زجاج الفترينات وألوان المرايا التى تصور لهم سرابهم البعيد ماء زلالا وجدولا عذباً تكاد تمتصه شفاههم الجافة، ويصوره لهم الجوع طعامًا شهيًّا تلعقه عيونهم النهمة ونظراتهم الظامئة، كما تصوره لهم أحاسيسهم تصويراً لذيذاً لما يجب أن يكون، فيزيدهم هذا تمسكاً بما هو كائن.

ويظلون كالقطيع يروحون ويجيئون ويلفون ويدورون حول الأمريكين، والاكسلسير ومامبو، كما يلف الثور المغمى فى الساقية يقطع آلاف الخطوات وهو فى مكانه، وينظر إلى الدنيا بأسرها ولكن من فوق قبة عينيه المعصوبتين.

فى هذا الوقت بالذات، وفى مغرب كل ليلة، يبدأ (أبو خطوة) عمله بعد أن يكون قد شرب قدحا كبيراً من القهوة السادة الممزوجة بالأفيون، وتناول ساقه الخشبية وثبت تكأتها المبطنة باللباد تحت إبطه، ولف ذراعه عليها كما يلف الثعبان نفسه على فرع شجرة ميتة، وأمسك بأصابع هذه اليد نفسها ما يزيد على العشرين ورقة من أوراق اليانصيب القديمة التى مرت عليها شهور، بعد أن يكون

قد لوثها، قبل أن يحملها بتراب الطباشير أو الحبر، وهو يمسك بها فى هذه اليد بالذات لأنه لا يملك يداً أخرى.

ذلك لأنه فقد ساقه اليسرى وذراعه اليمنى فى حادث سقوطه بين عجلات الترام، حينما كان يحاول نشل نقود أحد الريفيين منذ عشرين عاماً.

ويذهب أبو خطوة إلى منطقة نفوذه، وهى المنطقة التى يحددها غربا فندق الناسيونال، وتمد شرقاً إلى ناصية الأمريكين، وتنتهى عند نهاية مبنى محكمة القضاء العالى.. ويسقط أبو خطوة وسط هذا الزحام كما يسقط الحجر فى الخضم المتلاطم فلا تعرف له أثراً، ويروح يتفرس فى وجوه العابرين والذين يدورون فى الساقية ويقطعون آلاف الخطوات وهم فى مكانهم لا يبرحونه.

وكانت له قدرة عجيبة فى معرفة الناس من مجرد النظر إليهم، فهو بنظرة واحدة يستطيع أن يعرف إن كان هذا الأفندى ريفيًّا أم حضاريًّا. وإن كان هذا موظفا أم تاجراً، وهل هو زير نساء أم مدمن مخدرات. وهل هو ثرى يحمل نقوداً أم مفلس يتظاهر بالثراء، وكان ذكاؤه خارقاً فى سبر أغوار نفوسهم ومعرفة ألوان الطعام الذى يشتهونه، فيخاطب كلامنهم برائحة الشواء الذى يحبه، فعندما يشعر أن هذا الرجل «مثلا»، يشتهى رائحة الأنثى، يقترب منه وكأنه يعرفه من زمن بعيد، ويهمس فى أذنه وهو يشير إلى رزمة أوراق اليانصيب التى فى يده ويقول:

— حاجة لوز.. ورقة.. ملبن.

فيجيبه زير النساء على الفور، مدركًا بأحاسيسه كل شىء:

– بس أوعى تكون (دبـة).

– فشر، وشرفك (غزالـة).

ثم يضحك وهو يغمز له بعينـه ويتمتـم:

– والسحب الليلة.

– فين ؟

– قدام الإسعاف.

– يعنى انتظر ؟

– ما تتحركش.. عيب !

ويتركه أبو خطوة. بعد أن يكون قد خـط على كتفـه أو ذراعـه، دون أن يدرك، خطًا أو أكثر بأرواق اليانصيب الملوثـة بالطباشيـر.. ثم يغيب بقدمه الواحدة كما يغيب الدب فى الظلام، تاركاً الرجـل ينتظره. وهو مطمئن إلى أنه سينتظـره حتى ولـو يقضى الليـل كلـه، ثم يروح يتفرس فى وجوه الآخريـن، إلى أن يـرى وجهـاً تصطـرع فى عينيه ثورة المراهقة، وتتقـد على شفتيـه قيلولـة الظمـأ، فيتسلـل إليه يخاطب نفسه :

– آخر طبعة من بـاريس.

فيدرك الشاب على الفور، ويقول فرحـاً ناسيـاً نفسه:

– ورينى..

فيهمس أبو خطوة، وكأنه يهمس بأمـر خطيـر:

– وطى صوتك ٦ أو ١٢ أو ٢٤.

فيقول الفتى فرحاً:

– دبل..

– كله دبل. بقول لك آخر طبعة من باريس.

فينطلق الفتى وكأن أحاسيسه هي التي تنطلق:

– ٢٤ .

– حيلك.. ح تدفع ٣ جنيه.

ثم ينظر إلى الفتى، وإلى الأسى الذى ارتسم سريعاً على عينيه ويقول:

– ومع ذلك انتظر. سأرسل لك من يحملها.

ثم يتركه أبو خطوة فى مكانه مسمراً، ويغيب بقدمه الواحدة فى زحمة الناس. ويظل يسير حتى إذا ما اكتفى بصيد ثالث، ورأى عينيه مظلمتين محمرتين تشبهان عينيه هو تماماً، بعد أن يشرب القهوة السادة الممزوجة بالأفيون، اقترب منه ودندن مغنياً وكأنه يطرب نفسه:

– أنت وبس اللى حبيبى.

فيفهم على الفور رجل المخدرات المدمن اصطلاح هذه الشفرة المتعارف عليها، ويحييه على الفور، وكأنه يحيى معه أحاسيسه المحترقة، وهو يتسم ويتلفت حواليه هامساً فى خوف:

– والعذال ؟!

– نعكنن عليهم.

ثم يروح أبو خطوة في ذكاء ولباقة يطمئن الرجل، حتى إذا ما اطمأن، تفاهم معه فى أخر ما ورد من بضاعة. وآخر ما وصلت

إليه من جودة، وما تعرف عليه من اصطلاح، وكيف أن (ليه خليتنى أحبك) تختلف عن (دليلى احتار)، وكيف أن (والله ما أنا سالى) تزيد فى الطرب عن (يا امه القمر ع الباب) ثم بعد أن يتفاهم معه أبو خطوة على ما يريد يتركه على أنه سيرسل له صبيه بالبضاعة، دون أن يعقد معه أية صفقة. وأبو خطوة لا يعقد صفقات مع أحد ولا يأخذ شيئاً من أحد، وكل الذى يقوم به هو التعرف على شخصيات الزبائن واكتشاف ميولهم، ثم يتركهم بعد ذلك لصبيانه يفعلون بهم ما يشاءون وهم يتعرفون عليهم من خطوط الطباشير التى يرسمها على أكتافهم أو ظهورهم.

وبعد أن ينتهى من جولته هذه التى لا تستغرق ساعة أو بعض ساعة كل ليلة، يذهب إلى ذلك المنحنى المظلم الذى يفصل بين مبنى محكمة القضاء العالى ونادى القضاة، حيث عصابته من الصبية والغلمان والفتيان والفتيات، وهى تتخذ لنفسها فى الظاهر صفة التسول أو بيع أوراق اليانصيب أو جمع أعقاب اللفائف.

وأبو خطوة يعرف أفراد عصابته معرفة جيدة. وقدرة كل منهم على امتصاص دم الفريسة. والصبى يعرف الفريسة على الفور ويدرك ميولها أيضا من خطوط الطباشير التى خطها (المعلم). إذا كان خطًا على الكتف فهو ينتظر آخر طبعة من باريس، وإذا كان الخط على الظهر، فهو ينتظر ذات الحسن، وأما الزبون الذى يتوسم فيه أبو خطوة الذكاء، ويعرف أنه صعب المراس، وليس من السهل القضاء عليه سريعاً.. هذا الزبون يكلف به (زبدة) وهى فتاة رائعة الجمال، بدأت حياتها جامعة أعقاب فى عصابة أبو خطوة..

كانت وظيفة (زبدة) فى أول الأمر التلصص على رجال الشرطة وقت الإيقاع بالفريسة، ثم تخصصت بعد ذلك فى النشل. وقد برعت فى ذلك براعة فائقة. وكانت لها قدرة عجيبة على تجريد راكب أو راكبة السيارة من كل شيء فى لحظات خاطفة، عندما يتعطل المرور وفى اللحظة التى تمد فيها يديها الجميلتين بعقد الفل داخل السيارة. وكان يساعدها على ذلك جمالها وفتنتها وأنوثتها الصارخة التى تفجرت وراحت من خلف الثوب البالى والسروال الممزق تشع نوراً يخدر الزبون بمجرد النظر إليه.

ولما توسم فيها أبو خطوة هذه المهارة الفائقة وهذا الذكاء النادر، وخفة اليد التى لا نظير لها، ادخرها للصعب من الأمور، فإذا جاء هذا الصعب، وخرجت زبدة للقنص، خرجت مزودة بأسلحتها التى تعرف جيداً كيف تستخدمها. فهى تحكم على جسدها الثوب الممزق، وتضع ثقوبه دائماً فوق النقط التى تمزق الثوب من أجل إبرازها، فثقب على الكتف من أسفل بحيث يبرز تثنية الإبط لامعة باهرة تتشوق لها العين، وآخر فى مكان معين فوق الصدر، بحيث يكون متأرجحاً لا هو فوق الثدى ولا هو فى منحدر، وإنما بين بين بحيث يستمد نوره دائما من مجرى القمتين. وآخر بجانب الخصر الأيمن، بحيث يجاور تماماً فتحة الجيب، وهذا الثقب بالذات يضيق ويتسع حسب رغبتها هى، فإن أرادت أن تلقى طعما كثيراً للقنص، بحيث توقعه فى الشباك سريعاً ودون عناء، وضعت يدها فى جيبها وضغطت قليلا فيتسع الثقب ويكشف عن تثنيات الخصر النزق المرن الذى تتموج بشرته الناصعة البيضاء،

وتتثنى مع همسات أنفاسها الدافئة التى تخدر بها أعصاب محدثها، ولذلك كان النجاح حليفها دائماً، لأنها كانت تستطيع مطمئنة ان تفعل كل شيء وتأخذ كل شيء، والفريسة لاهية بالنظر إلى هذا الثقب أو ذاك، وكان أبو خطوة يعرف ذلك جيداً، ولذلك كان لا يفرط فيها إلا إذا تأزمت الأمور.

وذات يوم تأزمت الأمور، واقترح (مطوة) و (شقرة) و (دبوس) و (شلفط) وهم فتيان أبو خطوة الذين لهم الرأى.. اقترحوا ضرورة خروج (زبدة) لهذا القنص، والسفر خلفه إلى بنها للقضاء عليه هناك، لأن التجارب العديدة أثبتت أن صيده متعذر فى القاهرة. ووافق المعلم على الخطة التى وضعها شلفط ودبوس، وزود زبدة بتعاليمه، كما زود غيرها بتعاليمه أيضاً ثم تركهم كالكلاب المفترسة، كل يذهب إلى فريسته ويصنع بها ما يشاء، أما هو فإما أن يذهب إلى بعض الأحياء الأخرى كالسيدة، أو شبرا، أو العتبة، حيث يوجد بعض الزبائن والعملاء.. وإما أن يذهب إلى وكره فى حى معروف، حيث يكون (القط) وهو خادمه الخاص قد أعد له القهوة الممزوجة بالأفيون، وزجاجة الكونياك، ثم عشاءه المفضل المكون غالياً من الفطير المحشو بالدجاج، وهناك تكون فى انتظاره إحدى محظياته.

ومحظيات أبو خطوة كثيرات ومعروفات وهن لسن من أتباعه أو أفراد عصابته، فهو دائماً يفرق بين نفسه وعمله، ويعتقد أن الجمع بين الاثنين عمل لا تستقيم معه الأمور، ولذلك فمحظياته دائماً من طبقة غير طبقته، ومن أحياء غير حيه أو منطقة نفوذه.. فهذه من السبتية وتلك من القللى، وثالثة من زينهم. وهن معروفات

لدى عصابته جميعا، ولدى منافسيه أيضاً، ومع أنه كان يختارهن من صفوة الجميلات اللواتى تهفو إليهن العين ويتمناهن القلب، إلا أن أحداً كان لا يجرؤ حتى على مجرد التطلع إليهن، لأن من يفعل ذلك مصيره الموت بطريقة لا تتغير، وهى أن يغمد أبو خطوة سكينه التى يعلقها فى رقبته من عشرين عاما فى صدره ببساطة، وكأنه يغمدها فى عنق دجاجة!

بيد أنه فى هذه الليلة لم يأمر القط، كالعادة، أن يهيىء له إحدى محظياته، وهو أيضا لم يذهب إلى حي آخر من تلكم الأحياء التى اعتاد أن يطوف عليها من حين إلى آخر، وإنما شعر بشىء من القلق على (زبدة) التى سافرت من الصباح إلى بنها ولم تعد، كما أحس أيضا بشىء من القلق على (شلفط) الذى ذهب مع الزبون إلى أمبابة ليجهز عليه هناك.. لكنه أمر القط أن يعد له العشاء فقط وزجاجة الكونياك، ريثما يجىء خلفه. وبعد حين كان يدق الأرض بقدمه الواحدة كالدب الأعرج فى الظلام، حتى بلغ حى معروف، ومن ثم تسلل إلى حارة درب النعناعية، وعرج منها على زقاق الزناتى، وهو زقاق ضيق مسدود من نهايته، يبدو فى الليل أشبه ما يكون بمخزن للظلام الأسود الكريه فلا تستطيع أن ترى قدمك، ولا ترى حتى الطريق الذى تسير عليه من كثرة الأوحال والمياه القذرة العفنة ذات الرائحة الكريهة. وظل يدق فى الظلام والليل بقدمه الواحدة حتى بلغ نهاية الزقاق، ومن ثم أسند جسده على الحائط، ومد يده الواحدة إلى الخيط المعلق فى رقبته ومنه تتدلى السكين ذات النصلين، تناول من جانبها مفتاحاً حديديًّا كبيراً وفتح

باباً صغيراً، ثم دلف منه إلى دهليز مهجور كان فيما مضى طاحونة وأصبح الآن مأوى ووكراً لأبى خطوة وعصابته، وبعد ذلك تسلل فى الظلام إلى سلم خشبى مرتكز على حائط الدهليز المهدم، وراح يصعده بمهارة فائقة. وما أن بلغ نهايته حتى أحس به القط ففتح له باب الوكر الذى يسكنه ويقضى فيه أسعد لياليه. وهو عبارة عن كشك من الخشب القديم الأسود، وضع به دولاب حديدى كان أبو خطوة قد سرقه فيما مضى من مخلفات الجيش الإنجليزى، وأمامه على الأرض مرتبة من القطن ملوثة ببعض حروق من أعقاب السجاير وفحم الجوزة، وعليها بطانية من الصوف الخشن الأسود، ثم حول المرتبة امتلأت الأرض بزجاجات الخمر الفارغة، وأوراق «الحسن كيف» الفارغة أيضاً.

أما على الحائط، فوق المرتبة، فقد علقت جوزة وثلاث غابات وضعت على هيئة سيوف متعانقة، ثم طبلية أمام المرتبة من الخشب تآكلت أطرافها وشوهتها جمرات الفحم التى تركت آثارها السوداء عليها، أشبه ما تكون بآثار الجدرى على الوجه.. ونزع أبو خطوة فردة حذائه الواحدة، وألقى بساقه على المرتبة، وهى جلسته المفضلة عندما يتناول عشاءه الشهى الذى يعده له القط. ثم أخذ يلتهم الطعام ويحتسى الخمر. وأمامه القط يأكل معه حيناً، ويحتسى الخمر حيناً أخر،ويشغل نفسه مرة بالنار التى يعدها للجوزة. كل ذلك وهما يتحدثان أحاديث متفرقة، تارة عن أفراد العصابة والمهام التى تلقى على بعضهم، وأخرى عن قلق المعلم الزائد على زبدة، وكيف أنها لو ضبطت أو فقدتها العصابة، تكون قد فقدت ركناً

هامًّا يعتمد عليه، وتركت فراغاً ليس من سبيل إلى ملئه، إلا أن يخرج أبو خطوة بنفسه من جديد للقنص، لأن هناك من الأمور مالا يمكن أن يعتمد فيها على شلفط مثلا، أو مطوة. وانتهز القط الحديث وشجعته الخمر التى لعبت برأسه على أن يتحدث إلى المعلم فيما لا يستطيع أن يتحدث به إليه وهو متمالك قواه، ومن ثم راح يحدثه عن غرامه بزبدة، وحبه الزائد لها، وكيف أنه لا ينام الليل من أجلها. وكأن هذا الحديث كان مفاجأة كبرى للمعلم لأنه التفت فى دهشة كبيرة وسأله :

– كيف.. أتضن عليك زبدة بجسدها ؟

– أبداً ولكنها تعطيه لى كما تعطيه لمطوة وشقرف وشلفط تمامًا.

– وما الفرق بينك وبينهم ؟

– إننى خادمك.

فازدادت دهشته وقال :

– وهم، ما وظيفتهم إذن ؟

فارتبك القط ولكنه قال :

– خدم لك. ولكنى أكثر منهم صلة بك. إننى أعد لك الطعام والشراب، وأحمل مفتاح بيتك، كما أحمل أيضاً أكثر أسرارك..

فصمت المعلم برهة ثم قال :

– وماذا قالت هى فى ذلك ؟

– فى النهار تعدنى، وفى الليل أفتح عينى على الدهليز فأراها كالكرة، تتقاذفها أحضانهم جميعاً.

فأطبق أبو خطوة يده الواحدة على عنق الزجاجة التى أمامه ورفعها إلى ثغره وشرب منها طويلا، ثم أعادها إلى الطبلية وهو ينظر إلى القط بعينيه المحمرتين ويقول:

– والبنات الأخريات؟

– الذى يهمنى زبدة فقط.

فصمت أبو خطوة حيناً. وبعد أن التهم ورك الدجاجة مسح على شفتيه الملوثتين وقال:

– وشقرف أيضاً يتقاذف معهم الكرة ؟

– أجل.

– وأنت معه ؟

فنكس القط رأسه وقال فى خجل :

– لقد حاولت أن أقطع ما بينى وبينه.

فضحك أبو خطوة حتى كاد يستلقى وقال :

– وانقطعت ؟

فصمت القط ولم يجب، وضحك أبو خطوة مرة أخرى وهو يتناول الزجاجة التي فرغت ويقذفها ويتناول زجاجة أخرى، ثم أراد أن يقول شيئا وهو يبعد عن وجهه بيده الواحدة أمواج الدخان الأسود الذى لفظته الجوزة والمفحمة وتكدس فى الكشك، بيد أنه سمع باب الدهليز يفتح ويدخل منه أفراد العصابة بعد أن عادوا من جولاتهم، وراح شقرف وشلفط ومطوة ودبوس وبعض الغلمان يتسلقون السلم الخشبى فى الظلام أشبه بجرذان الليل، ثم دخلوا

على المعلم وكُره محيين فى أدب جم، واحترام زائد، وكل يتقدم خطوة ويضع أمامه فوق الطبلية ما ظفر به من غنيمة، حتى اكتظت الطبلية أمام المعلم ببعض النقود، وعدة أكياس مختلفة الأحجام، وثلاث ساعات ذهبية، وخمس نظارات ثمينة. وعدة أقلام أمريكانى غالية.. إلا أن المعلم لم يلتفت إلى شيء من هذا كله، وإنما نظر إلى ساعة واحدة ورأى عقاربها وقال فى ضيق شديد :

– وزبدة.. ألم تحضر بعد ؟

وقبل أن يتم كلمته كان الباب قد فتح فجأة ودخلت زبدة كما يدخل النور والإشراق، لكنها كانت مجهدة، لذلك ما إن دلفت إلى الكشك حتى ارتمت بجوار المعلم على المرتبة وهى تخرج من صدرها منديلا وتضعه أمامه على الطبلية، وقد جمعت أطرافه على حزمة أوراق كبيرة من النقد تزيد على الخمسين جنيهاً، ولم يكد المعلم يرى ذلك حتى تهللت أساريره وأطبق على الزجاجة من عنقها وأفرغ ما يقرب من نصفها فى جوفه. ثم مسح شفتيه وهو يهدر كما يهدر الحيوان الضخم،ونظر إلى زبدة التى مازالت بجانبه على الفراش، وانحنى عليها ليقبلها وهو مخمور يترنح، فرأى شيئاً كأنه لم يره من قبل.. رأى ذلك الثقب الذى فوق الصدر يتأرجح ويستمد نوره القوى من القمتين معا، وكأن النور بهر عينيه فوقف عنده قليلا، ولكنه فجأة وكأن شيئاً أفزعه أطبق على عنق الزجاجة ثانية، ولم يرفعها إلى ثغره كالعادة، وإنما قدمها إليها وأمرها فى عنف أن تشرب، ثم راح ينظر إليها وهى تشرب من الزجاجة، فلما دقق النظر رأى ثانية ذلك الثقب الذى فوق الصدر،

ورآه فى هذه المرة كثقب صغير جدًّا فى نافذة يزدحم خلفها نور كثير، وكأنه اشتهى أن يرى النور كله، لأنه فجأة رفع يده الواحدة ومد أصابعه الخشنة المتحجرة إلى الثقب ثم هبط به إلى أسفل فانشق الثوب كله. وكانت هذه مفاجأة لزبدة. ومفاجأة أيضاً للجميع، وكانت فوق ذلك أمراً إليهم بالانصراف، فانصرفوا جميعاً، ومن خلفهم (القط) الذى حرص قبل أن ينصرف أن يغلق الباب عليهما.

ونظر أبو خطوة، وهو متكور فى مكانه بساقه الواحدة، كما يتكور الكلب الأجرب على الأرض.. نظر إلى القوام الفارع الذى أمامه. ولم تخف زبدة ولم تضطرب، وإنما غمرتها فرحة كبيرة وهى واقعة أمامه على الأرض، وقد غرقت أقدامها بين الزجاجات الفارغة المكدسة حولها، تماماً كما غرق جسدها فى الدخان المتراكم فى قلب الغرفة، فغدت فيه وهى عارية، أشبه بغانية من غانيات الأساطير تسبح قبيل الفجر وراء الغمام. وقالت ضاحكة:

– ماذا تريد ؟

فقال وهو يئن أشبه ما يكون بحيوان مذبوح :

– أريدك.

– الليلة فقط ؟

– كل ليلة.

– إذن سأكون محظيتك.

– والمفضلة عليهن جميعاً.

ثم مد يده الواحدة، وهو يلهث كالثور، وأنشب أظافره الخشنة المدببة فى شعرها، وأمرها أن تأتى له بزجاجه ثالثة. فنهضت متخاذلة وقدمت له الزجاجة فراح يشرب وهو ينظر إلى عينيها وصدرها فرحاً ويقول:

– حدثينى إذن. ماذا فعلت فى بنها اليوم. وكيف أوقعت فريستك فى الشرك.

فقالت مبتهجة وذراعها مازالت على كتفه :

– أهم شيء فعلته فى بنها هو أننى زرت قبر أمى.

فقال فى دهشة وهو يجاهد نفسه ليفتح عينيه اللتين بلون الدم:

– أمن بنها أنت ؟

فقالت ضاحكة :

– يقولون ذلك.

– إذن نحن من بلدة واحدة. أنا أيضا من بنها.

– كلها بلاد الله.

فقال، ولكن بعد حين، وهو ينظر إليها وسط الدخان المتكاثف. وكأنه ينظر إلى خيالات تتراقص أمام عينيه من بعيد:

– وكانت لك أم ؟

فضحكت حتى استلقت وهى تقول :

– وهل هناك من لا أم له ؟!

– هؤلاء جميعاً الذين تعيشين فى وسطهم لا أم لهم ولا أب أيضاً.

ثم مسح على شفتيه واستطرد ولكـن دون أن ينظـر إليهـا:

– ولذلك يسمونهم بأبناء السبيـل..

فقالت وهى تتناول الثوب المشقوق، وتضعه على جسدها العارى:

– ليتنى كنت كـذلك.

– أعذبتك أمك ؟

– لم أرها...

– ماتت وأنت طفلة ؟

– ماتت وعندى عشر سنيـن.

– وكيف إذن لم تريها ؟

– ولدتنى وهى فى السجـن، ومـاتت وهى فى السجـن أيضاً.

فقال مفكراً فى صمت، كمن تذكر شيئا بعيداً. وكأنـه يخـاطب نفسه :

– فى السجن ؟

– أجل.

– لماذا ؟

فقالت دون اكتراث، وهى تضع طرف الثـوب على فخذهـا التى مازالت عارية :

– يقولون إنهـا قتلت أبى.

فأحس فجأة كأن شيئاً مخيفاً يقترب منه، وكأنه يطبق بأنيابه على قلبه. فاضطرب وجحظت عيناه جحوظاً مخيفاً وهو يصرخ فى وجهها:

- ما هو اسم أمك ؟

فلم تجب، لأنها صمدت فى مكانها خائفة تنظر إليه. فغرس أظافر يده الواحدة المدببة سريعاً فى ذراعها العارية، وهو يصرخ ثانية كالمجنون:

- قولى ما اسم أمك ؟

فتمتمت خائفة ترتعش، وهى تنظر إلى عينيه الجاحظتين، وشعرات رأسه التى تصلبت فوق جبهته كالحراب تماماً:

- ماذا أخافك ؟

فصرخ وهو يطبق على عنق الزجاجة ويريد أن ينهال بها على رأسها:

- قلت ما اسم أمك ؟

فقالت سريعاً وكأنها لا تدرى ما تقول:

- اسمها مازنة حسنين.

فتخاذلت ذراعه وسقطت الزجاجة من يده وهو يغمض عينيه رويداً ويرتمى فى مكانه ناشباً أظافره فى الحشية القذرة الملوثة التى دفن وجهه فيها وهو يتلوى فى ألم شديد ويتمتم بصوت مبحوح مختنق أشبه بفحيح الأفعى:

- إنها أمى.. إنها أمى.

فانفرجت شفتاها المرتعشتان عن صرخة مكتومة وهى تنظر إليه:

- أمك.. أمك.

فلم يجب وإنما فتح عينيه فانفرطت منهما الدموع غزيرة جداً وظل يبكي والدموع تنهمر. كل ذلك وهو ينظر إلى أشياء كثيرة لا يرى منها شيئاً، ويتمتم بألفاظ مضطربة متقطعة.. لا يعرف لها معنى.. شقرف.. مطوة.. ويروح ينظر إلى الجوزة ودخانها الذى تمتلىء به الغرفة.. الزجاجات الفارغة المكدسة أمامه على الأرض.. الطبلية وما عليها من أشياء غالية.. ساعات ذهبية.. ثمينة.. أقلام حبر كثيرة.. نقود متعددة القيم والأحجام. منديل جميل ضمت أطرافه على رزمة كبيرة من أوراق النقد تزيد على الخمسين جنيهاً، ثم رأى ثقباً صغيراً على صدر جميل يرسل نوراً باهراً، ثم الأصابع الخشنة التى مزقت الثقب وهبطت به إلى أسفل، ثم رن فى أذنه حديث قصير، قصير جداً. بنها.. السجن.. مازنة حسنين.. الزوج الذى قتل.. الابنة التى ضلت.. الأخت التى ذلت.. الأخ الذى..

وفجأة جحظت عيناه مرة أخرى. وراحت نظراته فى جنون غريب تعربد بكل شيء.. الجسد العارى الذى أمامه. الحشية الملوثة التى يجلس عليها.. الزجاجات الفارغة التى حوله. ساقه الخشبية الملقاة هناك.. الدخان الذى يكتم أنفاسه.. ثم رأى مع ذلك كله شيئاً لم يكن قد رآه، مع أنه طول العمر يحمله على صدره، فطرب سريعاً لرؤيته حتى لكأنه يراه لأول مرة، وأطبق عليه أصابع يده الواحدة سريعاً، وفى عنف شديد حتى لا يفلت منه، وفجأة أيضاً وفى نفس السرعة وبنفس الضعف الشديد أغمد الخنجر فى صدره وارتمى عليه بجسده الثقيل حتى تساعده قواه جميعاً على الوصول به أيضاً إلى المكان الذى يريد، ورأت هى ذلك،

وأرعبتها رؤية الدم الذى انبثق من صدره على الحشية كالرقعة الحمراء، فانفرجت شفتاها عن صرخة مدوية قفزت على أثرها الجماعة التى تنام فى الدهليز، وتسلقت السلم سريعاً كالجرذان الهلعة، وفتحت الباب وازدحم الكشك بالجميع. شقرف.. ومطوة.. والقط.. وشلفط.. ودبوس.. وأم سنة.. وكيداهم.. وما إن رأوا ما رأوا حتى وقفوا ذاهلين، ينظرون إلى المعلم والسكين التى فى صدره، والدم الذى يتفجر منه ويسيل دافئاً تحت أرجلهم، ثم ينظرون إلي زبدة وقد وقفت عارية كتمثال من الحجر.

وفتح أبو خطوة عينيه، ونظر إليهم جميعاً، وإلى الخنجر الذى فى صدره، والدم الذى يتفجر من حواليه، ثم إلى زبدة وتمتم وكأنه يلفظ مع بعض الكلمات أنفاسه أيضاً:

– أتعرفون.. زبدة.. زبدة التى كانت محظيتى هذه الليلة..

وأراد أن يقول شيئاً آخر، بيد أن زبدة لم تجعله يتمم، إذ انقضت عليه سريعاً مربدة السحنة كما تنقض الصاعقة تماماً، وفى سرعة خارقة سحبت الخنجر من صدره وأغمدته فى عنقه، وقالت وهى تجهز عليه قبل أن يلفظ السر الكبير:

– لقد أراد بى سوءاً فقتلته.

ثم أطبقت ذاهلة عن كل شىء إلا العنق الذى مازال فى يدها تجهز عليه، وتجتثه من جذوره لتجتث معه سرها.

ومنذ تلك الليلة التى ذهبت فيها زبدة إلى السجن حتى اليوم، وشلفط.. ومطوة.. وشقرف.. ودبوس.. والقط.. يتساءلون فيما بينهم عن هذا السوء الذى كان المعلم يريده بها.

• محمد عبد الحليم عبد الله

طريق شجر الكافور

كانت عيادة طبيب الأسنان فى هذا البندر الصغير مزدحمة بالمرضى هذا المساء. والصالة الصغيرة ملأتها رائحة العقاقير حيث جلس الرجال على مقربة من حجرة الطبيب. أما استراحة النساء فكانت عند نهاية الممر وعلى مقربة من مرافق الشقة. وتجمع فيها عدد من النساء من مختلف الأعمار والألوان، لكن طابعاً واحداً كان يجمع بينهن كلهن وهو طابع الطبقة الدنيا.

وكان اللغط السائد فى الحجرة أشبه شىء بلغط الدجاج. ومع الأمهات صبيان لا يكفون عن المطالب. وفى زاوية الغرفة سيدة متقدمة فى السن تحكى عن ظلم زوجة ابنها لها، فى الوقت الذى كانت فيه إحدى الشابات فى الركن المقابل تصف ظلم حماتها، والبلاء الذى تصبه على رأسها فى الصبح، إذا ما أحست أن ليلتها الماضية كانت هنية !

وهناك سيدة فى منتصف العمر كانت تنظر إلى الجالسات ولا تتكلم.. وكان فى عينيها قلق من مرور الوقت، وعلى ملامح وجهها ألم ينتابها على موجات. وحين يبلغ الذروة كانت تضم شفتيها أو تعض السفلى بثناياها. وفى خدها الأيسر ورم خفيف، يدل على أن ضرسها يهددها بخراج. عليها ثوب من الحرير أسود اللون، عبرت سذاجة خياطته عن طبقة صاحبته، فهى ريفية الأصل، انتقلت

مع زوجها إلى أحد البنادر، تفرق شعرها من الوسط ويتحدث حالها عن أن زوجها من ذوى الصناعات، أو هو على الأكثر مستخدم فى مصلحة حكومية. تقف بين فخذيها طفلة بنت خمس سنوات، ذات شعر أكرت يميل إلى الصفرة، تأخذها بين الحين والحين سنة من النوم فتميل برأسها على جسم أمها، وإذا استيقظت قطمت قطعة من البسكويت فى يدها، ونادت أمها برجاء وتكاسل: «ماما.. ماما.. مش خلاص؟!»

وكانت الأم تنتظر دورها، وتنظر إلى الخارجين من حجرة الطبيب عند نهاية الممر، وقد كست وجوههم جميعاً تعابير من الألم. على أنها كانت خائفة كأنها مقدمة على عملية خطيرة، لأن أمها ماتت بسبب خراج فى الفم، ظل ينقلها بخداعه الناعم من مرحلة خطر إلى مرحلة أخطر حتى انتهى كل شىء.

وكانت قد ذكرت هذه القصة لزوجها قبل مجيئها إلى البندر، فأرسلها إلى الطبيب بحمية وحماسة ولولا عمله الليلى الذى لا يقبل تأجيلا لصحبها إلى هناك. لكن سفر نصف ساعة فى إحدى السيارات العامة ليس أمراً صعباً على كل حال.

ولم يوصها بنفسها لأنه يعلم مقدار غيرتها عليها، فقد عاشرها سبع سنوات لم يربه منها شىء. وهى وإن كانت بادية الأنوثة، فإنها سريعة التقلب إذا دهمها خطر، شأن كل فتاة وجدت نفسها مكلفة بالدفاع عن نفسها، بعد أن مات أبوها فى عنفوان شبابه، وتزوجت أمها فوجدت الفتاة نفسها وجهاً لوجه أمام عاديات الزمن وإغراء الرجال.

وكان الوقت يمر وهى تتململ، فهى تريد أن تسافر قبل أن يتقدم الليل. ثم تنفست الصعداء حين قطع الممرض العجوز سؤالها عن الساعة، ودعاها إلى الدخول، فهرولت تقطع الممر إلى حجرة الطبيب، وقلبها يخفق إلى مدى ربع ساعة، ثم خرجت أيضاً وعلى وجهها تعابير الألم.

وفجأة تحول الألم إلى صرخة عندما فطنت إلى أن الطفلة لم تكن معها ساعة دخولها إلى الطبيب. وفطنت أيضاً - كأنها تفسر حلما - إلى أن الطفلة كانت فى آخر لحظاتها بعيدة عنها تلعب مع بنية تقاربها فى السن، فى حجرة استقبال الحريم، فلما هرولت إلى هناك لم تجد أثراً لها. وكان اللغط لا يزال سائداً على الصورة التى تركته عليها.

وقالت بعض الجالسات فى شىء من الرثاء: «لقد خرجت وراءك».. واستفسر بعض الرجال الجالسين فى الصالة عن لون جلباب البنية ثم أكد لها أنه رآها تخرج من هذا الباب.. هذا الباب.. باب العيادة !

وليس فى استطاعة أى أم إلا أن تفعل نفس ما يفعله الظمآن الأحمق، حين يلقى بنفسه فى البئر، كأنما قبل أن يفوت الأوان ويحيق الخطر. وكما نفتش بلهفة عن شىء ثمين سقط فى التراب، فندفنه بأيدينا، أخذت الأم تعدو فى الشارع الرئيسى الذى تقع فيه العيادة وهى تنادى على «فوزية».. وكلما ابتعدت عن المكان خيل إليها أنها على وشك أن تلقى بنتها.

ومن خلال الغطاء الكثيف الذى سقط على إحساسها فجعله كإحساس السكارى، رأت تجمع الناس حولها وسمعت إلى مشورة كثير منهم. وكانت تشرع فى تنفيذ إحداها، ثم تعدل بسرعة، لتأخذ بمشورة أخرى، فى ارتباك وفوضى وجزع... وكلمات الرثاء تثير دمعها، أما النظرة الجامدة من بعض الوجوه فكانت تشعل النار فى قلبها.

وكانت تفحص وجه كل طفلة وتكاد تلمس كل شعر مجعد. وخيل إليها أنها على وشك أن تلقى زوجها فى أحد الشوارع، بل لعله لاح لأوهامها فى النور بوجهه المستطيل الأصفر، وشعره الحالك السواد، وشاربه الرفيع المسبسب وألهبت هذه الصورة مخاوفها، واشترك الحنان والخوف فى إلقائها فى النار، فصارت تصرخ بأعلى صوتها: «فوزية.. فوزية».

وأحست أن يداً قوية تمسك بمعصمها، ونظرت فإذا رجل ضخم فى ثياب بلدية، يبدو عليه أنه من التجار، يدعوها بصوت غليظ منخفض ألا تضيع وقتها، وأنه يحب أن تذهب إلى الشرطة فتبلغ عن ضياع بنتها.

ونظرت إليه بعينين زائغتين، ولكنها لم تجد ما تقوله. وانصرف الرجل وظل صوته عالقاً فى أذنيها كأنه بقايا أزيز. وفطنت الأم إلى ألم ناوشها فى فكها، وصداع يحتل رأسها كله، وجفاف فى حلقها ومرارة. ثم فطنت إلى أنها عادت من حيث أتت، وإلى أن اللافتة التى تحمل اسم الطبيب ظهرت فى مواجتها معلقة على الشرفة المستطيلة ذات الحديد المصنوع على هيئة كئوس.

وكأنما كان هذا المنظر نذير فشل، فخيل إليها أنها فرغت من الجولان فى كل الأزقة، وأنه لم يبق إلا اليأس، بدليل أنها عادت إلى نفس المكان! فصرخت بحلقها الجاف تنادى على بنتها. وعندئذ جاءها صوت خائف ملهوف: «نعم يا ماما..».

وتلفتت الأم وهى تجمع ما تشتت من حواسها، لتفرق بين الحقيقة والوهم. ولكن ذلك لم يكن وهماً بل كان حقيقة. فهذه «فوزية» فى يد الممرض تنتفض من الخوف، وتقف الدموع على أهدابها، وحبات العرق على جبينها الصغير. ولم تسأل الأم أين كانت بنتها، فقد كان المهم هو أن تراها فى الوقت الذى أخذ فيه الرجل الضعيف البصر الذى جاوز الستين من عمره، يصف لها كيف أنه وجدها نائمة فى دورة المياه الملاصقة لاستراحة الحريم، بعد ما انصرف المرضى وكان هو فى سبيل إغلاق العيادة.

* * *

ولم تكن تدرى كم مر من الوقت، فإن الحوادث قد سرقتها. واتجهت من فورها نحو الطريق الزراعى لتعود إلى بلدها، وكان الوقت صيفاً والليل بادى النداوة،خصوصاً على شجر الكافور.

وأخذت نفساً طويلا حين صافحها النسيم، وتذكرت وجه زوجها وقلقه عليها، ثم تذكرت ثقته فيها عندما تصل بالسلامة وتحكى له حوادث الليلة وتوقعت بعض الملامة، فأخذت تجهز الإجابة والأعذار.

لكن مشكلة جديدة مالبثت أن لاحت على الأفق، فقد طال انتظارها لسيارة الأوتوبيس، التى تعتبر المواصلة الأولى على هذا

الطريق. ولما ضاع الوقت أخذت توازن بين القلق الصاخب، والقلق المكبوت اللذين عانتهما فى هذه الليلة.

وبهر عينيها على بعد ضوء أحد الكشافات، فرفعت يدها تشير بالوقوف لكن حركة الاندفاع نحو الأمام كانت تدل على أن السيارة لن تقف ووقعت الأم والطفلة فى نطاق النور ثم حاذتهما السيارة ثم جاوزتهما وعبرت ثم توقفت بعد ذلك !

ولم تتحرك الأم من مكانها حين رأتها إحدى سيارات النقل التى تمر أحياناً على الطريق. لكنها سمعت صوتاً يناديها: «ياست.. ياست.. تعالى ياست» !

وتقدمت آلياً بلا إرادة، كما نعانق الأخطار لفرط خوفنا منها. وكان الصوت لا يزال يناديها آمن النبرة هادئاً فيه خمول النوم. تقدمت الأم بعد ان وازنت بسرعة بين كل الأخطار. فنحن فى طرفة عين نصدر أحكامنا بطريقة غريزية لا عقلية إذا هددتنا المخاوف. على أن المرأة تذكرت أن شخصاً ما سينقذها على الطريق.. حتما.

ووصل إليها الصوت من مقعد السيارة.

– لأجل خاطر الطفلة.. تفضلى.. وإلى أين أنت ذاهبة ؟

– عند محطة (...) أنزلنى.. لكن.. كم تطلب أجراً ؟

فانخرط فى ضحك هادىء ولم يردّ وأخرج الثقاب ليشعل لفافة، فرأت وجهه المكتنز الأسمر، وذقنه غير المحلوق. ولم يكن صغير

السن ومن الممكن أن يطمئن القلب إليه. ونفخ أول نفس من اللفافة وقال وهو يفتح الباب.

– أجرة؟! من يأخذ أجرة على إنقاذ الغريق؟! أليس من الجائز أن تظلى واقفة حتى الصباح!؟.. اصعدى من أجل الطفلة.

وفى الدقائق الأولى كان الصمت ثقيلا. وكانت الطفلة بينها وبين السائق ورائحة البنزين وحرارة الجو وصوت المحرك وألم فى الفم وترقب الكلمة الأولى، كل هذه الأشياء كانت أشبه بإصبعين تضغطان على حلقها.

ومرت دقيقتان، وتنهد السائق فى الوقت الذى كانت هى فيه تقدر سرعة السيارة بمرور أشباح الشجر إلى الوراء، وكأنها تقدر خطورة القفز إذا اقتضى الأمر. ثم تنهد السائق مرة أخرى ثم قال للطفلة بعد أن مال نحوها قليلا: « ما اسمك يا عروسة ؟».

وضحك بصوت عال، إذ لم ترد عليه، ثم حول الكلام نحو الأم:

– لماذا لا ترد؟ لعلها خائفة منى. سأبحث إذاً عن عروسة أخرى!

ولم يجئه جواب من أحد، فقد كان يفتح باب الحديث بخبث ثم عاد يسأل الأم:

– على فكرة.. ما اسمها ؟

فأجابت بصوت متهالك من الألم وصل إلى أذنه على صورة ظنها إغراء :

– اسمها فوزية.

فهتف بسرعة:

– فوزية؟!. يا لها من عجيبة. تصورى أن حبيبتى الأولى كان اسمها فوزية! فوزية.. فوزية!

وسكت ولم تتكلم المرأة فعاد بعد وهلة يقول:

– آه.. فوزية.. فكرتنى بالذى مضى (ثم وجه الكلام إلى الأم) ولكن ما الذى أخرك فى البندر حتى نصف الليل ما دمت ذاهبة إلى هذه البلدة ؟!

– كنت.. كنت.. فى زيارة أخى.

– هل هو فى البندر؟

– لا.. فى السجن.

– يا ساتر! ولماذا هو مسجون؟ فلم تجب. فمال على البنية وقبلها بصوت عال ثم طلب الجواب فقالت المرأة:

– اتهم فى جريمة قتل.

– قتل ؟! يا ساتر!

وسكت، وعاد أزيز المحرك إلى أذنها ولامست قلبها فرحة الطمأنينة حين استطاعت – كما تعلمت من زوجها – أن تسارع بإلقاء الرعب إلى قلب من يريد تخويفها. ومضت فترة قال بعدها السائق:

– هل تعلمين أننى لا ألوم القاتل أحياناً لأنه قد يندفع إلى الجريمة بلا وعى ؟

– ولا أنا.

فضحك فى شيء من السخرية. ثم سكت. ثم قال بعد فترة:

– ولأننى أنا شخصيًّا قد قتلت زوجتى وأنا شاب صغير!

فأمسكت المرأة أعصابها ونظرت إلى أشباح الشجر وهى تجرى إلى الخلف، ورأت أنواراً متتابعة لسيارات فى طريقها المضاد نحو البندر فحملت إليها شجاعة جديدة، وبما أنها كانت تلفق الأكاذيب فقد رجحت أنه هو الآخر يكذب فعادت تقول وكأنهما فى مزاد:

– لابد أنك كنت تحب زوجتك فأنا أعرف امرأة قتلت زوجها من حبها فيه.. من الغيرة عليه.. دست له السم.

فهتف مسرعاً:

– امرأة وتقتل ؟! إن جرائم النساء أفظع من جرائم الرجال. يا ساتر! هل كانت جارتك مثلا ؟

– أقرب.

– صديقتك ؟

– أقرب.

– قريبتك ؟

– أقرب.

– أختك أو أمك مثلا ؟!

– أقرب.

– أقرب؟!.. ها. ها. ها. إذاً فأنت التى قد قتلت زوجك؟ هل من الممكن أن يجتمع قاتلان على كرسى فى سيارة نقل بمحض المصادفة أيتها الكاذبة ؟!

وانخرط فى الضحك لأنه كان كاذباً فى كل ما قاله، ثم استطرد:

– وما دمنا متشابهين فلماذا لا نتزوج؟! أليس هذا مناسباً ؟!

– ليس عندى مانع. تعال معى إلى بلدنا لتخطبنى من أخى.

فأجاب بسرعة من رأى خطراً لم يكن على باله:

– ليس هذا مهمًا الآن. المهم الآن أن تعرفى أننا سنقف بعد دقيقتين عند (نقطة مرور) وعندما أسأل عنك، سأقول إنك زوجتى وهذه الطفلة التى يعاكسها النوم ابنتى، لأن لوائح المرور تحرم علينا أن نركب أحداً معنا. هل فهمت؟ ثم.. أليس هذا فألا حسنا. لا تنسى أنك زوجتى !

وظلل الصمت. وعاد أزيز المحرك ورائحة البنزين وألم الفم تسيطر على مشاعر المرأة. على أنها كانت أكثر سعادة من أى لحظة مضت فقد قرب الوقت، وسينزاح الكابوس.

ووقفت السيارة أمام النقطة. وخرج من المبنى أحد رجال الشرطة وتقدم نحو المقعد الذى جلسوا عليه فى اللحظة التى كانت البنيّة فيها تقول بأعلى صوتها: «أشرب يا ماما. أشرب يا ماما».

– هل تريدين أن تشربى يا فوزية؟! تعالى يا حبيبتى.

ونظرت الطفلة نحو رجل الشرطة الذى كلمها وغيرت نداءها فوراً.

- «أشرب يا بابا.. أشرب يا بابا» !

•وفى هذه اللحظة فتح باب السيارة ونزلت الأم فى تهالك شديد واحتضن الأب الطفلة وقبلها ومال نحو السائق يقول له قبل أن يمشى.

- أشكرك. هذا فضل لن أنساه لك.

وتحركت السيارة وكلمات سائقها تتناثر على الطريق.

- هذا أقل واجب.. ربنا يديم المعروف.

ثم سابق الريح !

* * *

وعندما أخذ الزوج يستوضح الأمر قالت الزوجة فى إعياء شديد:

- إنها حكاية طويلة.. ستعرفها في البيت.. صب على وجهى حفنة من الماء.

أبو سيّد

الدنيا كلها سكون، والصوت الوحيد الذى يتسرب إلى الحجرة كان ينبعث من «وابور الجاز» وهو يون من بعيد فى ضعف مستمر واهن وكأنه نواح طفل عنيد مسلول، ولا يقطع الون الشاحب البعيد إلاّ زحف «الكوز» على أرض الحمام، ثم صوته وهو يبتلع الماء ويصبه بعد ذلك فى ضوضاء مكتومة...

واستمر الوابور يزن، والكوز يحف ويبتلغ وينصب ماؤه، وصفيحة الماء تقرقع. استمرت الأصوات كلها تتضارب وتحلق كالوطاويط فى سماء الحجرة، حتى جاد الوابور بآخر أنفاسه وانطفأ، وأعاد المكان إلى سكون الدنيا الثقيل.

ومضى وقت طويل قبل أن يفتح باب الحمام، ويسمع رمضان نقيق «القبقاب» على البلاط وهو يقترب، ويعلو وهو يقترب، حتى دلفت امرأته إلى الحجرة، وأحس بنفسها الذى ليس غريباً عليه يملأ الجو.

وظل «القبقاب» رائحاً غاديًا، وضوء الصباح ينتقل من مكان إلى مكان، وهمهمة حزينة خافتة تنحدر وتعلو من فم امرأته مع اقتراب الضوء وابتعاده.... ظل هذا يدور ورمضان مغلق عينيه، ومصر على إغلاقهما. ولم ينتفض ويفتحهما إلا فى قطرات من الماء البارد تلسع وجهه.

وجمّده قليلا مشهد امرأته وقد وقفت منكوشة الرأس، والمشط الخشبي في يدها تدكه بين غزارة شعرها الأكرت، ثم تشده بكل ما تستطيع ليحرث طريقة بين الجذور والسيقان، وقد زمت وجهها السمين الخمرى اللامع، وارتسمت دقائق التجاعيد حول أنفها السهل الفاطس، وبان النور من عينيها اللتين ضيقتهما فى فروغ بال بينما رذاذ الماء تدفعه جذبة المشط فيتساقط هنا وهناك، وعلى ثوبها الشيت النظيف ذى الورود الكبيرة الباهتة.

وانتهى جمود رمضان، ثم عاد إلى نومته وقال فى شىء من التحدى وهو يغلق عينه:

– مش تحاسبى يا وليه.... قزازة اللمبة حطق من الميه...

وردت المرأة بكلام مضغوم لم يفسره، ولم يهتم به، فقد عاد يتنفس بعمق، ولكن رجله لم يفردها، ويشخر بمطلق إرادته، ثم قرر أن ينام.

وحين كان يجذب اللحاف فوق أكتافه، وارب عينيه، وألقى نظرة أخيرة على زوجته التى كانت يدها تمتد إلى المصباح تمسيه، وشعرها قد تم نظامه، وازدادت لمعته، ووجهها قد ابيض حتى كادت تختفى تجاعيده فى تلك الابتسامة الكبيرة الرائعة التى احتلت وسطه..

وارتعش رمضان، وأسرع يصفق عينيه فى عنف، فقد كان يعرف من زمان سر هذه الابتسامة... فاليوم يوم الخميس... والليلة ليلة الجمعة...

وأحس الرجل بالسرير ذى الأعمدة الرفيعة يهتز، ويزيق، ثم بامرأته تستوى على السرير، وتدخل تحت الغطاء، وعبقت فى الدنيا التى يصنع اللحاف سماءها رائحة المرأة مختلطة برائحة ثوبها الشيت، ورائحة الصابون الرخيص الذى دعكت به جسدها.

وكح رمضان وكان لابد أن يكح، وطال سعاله، وقالت امرأته ووجهها إلى الناحية الأخرى فى صوت حنون ذليل:

- مالك ياسى رمضان...

ثم سكتت قليلا قبل أن تقول فى همس خافت ملىء بالإثم:

- اوعى سيد يكون صاحى...

ولما لم يرد، تنهدت فى حرقة تصاعدت من كبدة قلبها، واهتزت أعمدة السرير وهى تستدير لتكمل آهتها، حتى أصبح وجهها يتدفأ بكثير من الحرارة والخشونة المنبعثة من رمضان.

وكان الرجل ساعتها يلهث، ولفح أنفاسه يحملها بعيداً... إلى حيث لا يراهما أحد، ثم يلوكها فى نشوة ويدغدغ ضلوعها فى حنان ومدت يدها وملّست أصابعها على جبهته اللزجة بالعرق ثم أرسلت تتحسس رقبته الغليظة النافرة العروق، وقالت فى صوت خنقته وأطالت فيه حتى غدا كمواء قطة جائعة:

- اسم الله عليك يا خويا.... اسم النبى حارسك يا ضنايا...

وكح رمضان، وكان لا يريد أن يكح، وزام من خلال فمه المطبق، ثم اهتز السرير وهو يستدير ليعطيها ظهره...

* * *

وما كانت هذه أول ليلة يستدير فيها، ولا كانت هذه أول مرة يكح فيها ويزوم ويعبس.. وهو لا يذكر كم شهراً مضى، وهل بدأت المسألة عقب أيام العيد الصغير أم قبله، وهناك ضباب كثيف بينه وبين البداية، فما فكر في الأمر أبداً ولا اعتبر ما حدث - يوم حدث - بداية لأية نهاية.... تماماً كما لم يتبين جاره سى أحمد الكمسارى فى شركة الأوتوبيس أن السخونة التى أصابت ابنته ممكن أن تكون البداية لنهاية يعزيه فيها الناس على البنت.

والناس على هذه الحال، وكذلك رد ما أصابه فى تلك الليلة إلى نوبة البرد التى ألمت به، ومرت أيام، وراح البرد من جسده، وحين استيقظ ذات صباح ووجد العافية قد ردت إليه، قرر أن يفعلها فى نفس المساء.

وانشرح خاطره لقراره ومضى إلى الميدان يردد فى انتعاش مطلع الموال الوحيد الذى يعرفه. وتسلم صرة الميدان كما تركها، ووقفت العربات لإشارته كما اعتادت أن تقف، ويده قوية فى قفازها الأبيض القديم كما كانت طول عمرها، وبدلته بزرائرها الصفراء اللامعة محبوكة عليه، تبرز أكتافه وتضيق فوق كرشه فتكوره وتجعله كالبطيخة أمامه، وقبعته يلمع فوقها الدهان الذى لا يفلح فى إخفاء كل ما فيها من قذارة وبلى، وقلمه الثابت الثقيل فى يده يلتقط نمرة العربة فى سرعة الواثق من يومه وأمسه وغده ويدونها بخطه الواضح الذى كان يفخر بجماله... كانت الدنيا هى الدنيا.. الدنيا التى هنا والتى هو ملكها، كانت لا تزال بخير، ولا يزال يتربع على عرشها، ويحكمها بصفارته، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء فقط متى لوح بقفازه.

وحين كان يكتب أول مخالفة كان عقله سارحاً فى الليلة التى سينفض فيها عن نفسه خمول المرض الذى لازمه أسبوعاً، ولكن أمور اليوم شغلته، وعيونه الزائغة هنا وهناك تنقر المخالف من تحت القبعة، هذه العيون ألهته عن الخاطر. ولم ينتبه له إلا هناك.. حين كان يجاهد فى خلع حذائه الميرى الثقيل وقد ألقى بجسده المنهوك على «الكنبة» وامرأته تلقى إليه بتحيتها الوادعة، ثم تتربع على الأرض وتقول فى حماس أطفأت العادة جدته:

— عنك أنت.

وطوقت يدها اللينة قليلا سمانة رجله بينما مقدمة حذائه أصبحت مدفونة بين أقدامها. وحينئذ نقر الخاطر فوق رأسه...

ولم يعتبر ما جاء فى باله عملا صبيانيًّا، فراح يزغزغ المرأة بحذائه الثقيل العريض وهى تضحك، وتشدد من قبضتها على عضلات رجله، وترخى القبضة فى بطء، وهو قد استمرأ اللعبة، وانتشى وهو يعب من صوت امرأته التى كانت تمطه، وترفعه ثم تحيله همساً، ونصفها يضحك، ونصفها يتدلل، وكلها تريد وترغب.

* * *

فى ضباب البداية يذكر رمضان هذه الليلة ولا ينساها، فقد حاول فى كل دقيقة منها وسالت عليه بحور العرق، وقد أصم شعوره عن العالم، وأصبح هو وامرأته والفراش كل دنياه وتفكيره.

فأزاحته المرأة مرات ومرات، ولعن أباها آلاف المرات، والمعركة تدور وتدور لا تهبط إلا حين يتململ الصبى حتى يكاد يستيقظ، وتبدأ حين يعود إلى غطيطه ويعود اللعاب يسيل من جانب فمه..

وهجعت المحاولات قرب الفجر، ونامت المرأة، ولم ينم رمضان.

وليلتها مضت، وليلة أخرى جاءت، وصراع جديد نشب، وثقة رمضان فى نفسه ورجولته تستميت وهى تدافع عن نفسها، والواقع وما يحدث يسلب هذه الثقة كل ما تملك.

وأخيراً سلم رمضان بعد ليال، وقال لنفسه فى صباح يوم بصوت لا يدرى أكان مسموعاً أم غير مسموع:

– لا حول ولا قوة إلا بالله... واللاضعت يا رمضان واللى كان كان.

ولم تكن أول مرة يتحاشى فيها امرأته وهى تقدم له الفطار، وإنما كان يود أن يزيحها فى هذا اليوم من أمامه، ثم يسرح ويخبط رأسه فى الحائط عله ينفلق، كان شىء غريب يدور فيه، فبالقوة والعافية والعرق والليالى الطويلة كان عليه أن يصدق أنه لم يعد رجلا وكان هو يأبى أن يصدق، ويكابر هذه الحقيقة وهو مكسوف خجل كما لو كانوا يزفونه فى البلد فوق الحمارة وهو عارى الجسد وعلى رأسه كومة طين.

ويعود من جديد يقول وكأنه يتلو آية الكرسى ليطرد جنية من الجان:

– واللاضعت يا رمضان، واللى كان كان.

ويصمت ثم يقطع لقمة كبيرة من الرغيف ولا يأكلها، ويقوم، وينظر من النافذة ثم يكح ويبصق بصقة كبيرة على العشش التى فوق السطوح أمامه ويعود إلى جلسته أمام الطبلية. ويسرح فى

صمت طويل آخر وهو يحدق فى الطعام ويمضغ صمته حتى يشبع فيرتدى البدلة وكأنه يخلع كل ملابسه ثم يتسلل من البيت كحرامى النحاس وجسده هارب منه وأطرافه لا يعثر عليها....

وحين يقف وسط الميدان، والعربات تزدحم حوله، والأرض والسماء تتحرك، وهو وحده الواقف الهامد الضائع.. حينئذ يشعر بتفاهة هذه المملكة التى له، ويضايقه القفاز الأبيض، ويحس بالقبعة وكأنها حجر الطاحونة يكتم أنفاسه.. ويومها لا يقيد محضراً واحداً، وما له هو والمحاضر والمخالفات، فليدع من يخطىء يخطئ، ومن يتحطم يتحطم، ومن يقتل يقتل.. وهل هو الذى ينظم الكون... لعن الله العربات وأصحاب العربات والمرور وكل ما يمت إلى خلية النحل التى يلسعه دويها وصرخاتها.

ولأول مرة فى حياته كره بيته، ووجه امرأته النحس، ولم يعد توًّا إليهما..

وفى خطوات لا يهمه وقعها، ولا أين تقع، راح يدق الشارع بحذائه الثقيل، وقد كفأ القبعة فوق جبهته، وامتلأت أخاديد وجهه بالاشمئزاز واليأس، وفك حزامه العريض، وتمني أن ترحمه عربة نقل وتأكله، ووصل أخيراً إلى باب الإنسان الذى لا يصادق فى المدينة إنساناً سواه. وطرق الباب - ونادراً ما كان يطرقه - ولم يفاجأ طنطاوى وإنما رحب به وسأله عن الصحة وكالمعتاد عن البلد والقرايب والنسايب والذى مات والذى عاش ومن تزوج. ولكنه فوجىء فعلا حين قطع رمضان أسئلته وقال فى جد:

- اسمع يا واد يا طنطاوى.. عايزين تعميره..

ولم يكن رمضان يشرب الحشيش كثيراً ولكنه شرب هذه المرة حتى أن طنطاوى لم يأتمن الطريق عليه فأصر على مرافقته، ولم يرفض رمضان، ولم يقبل، ولم يرد على أسئلة صاحبه عن السر الذى يكمن وراء سكوته.

وفى الطريق سرح رمضان بعيداً، وأوغل فى الزمان والمكان، حتى وصل سكينة جارتهم فى بيتهم على الترعة، ثم السنوات القليلة التى أعقبت بلوغه... وكان رمضان يتوقف عن السير، ولا يدرى لماذا، ثم تجذبه ذراع طنطاوى فيمشى ويسرح ثم يتوقف، حتى خطر له خاطر قاله فى انبهار:

– يكونشى يا ولاد الحشيش ينفع؟!

وانفجر ضاحكاً وقد كف عن المشى وغمغم طنطاوى وهو يهز رأسه فى رثاء:

– الجدع انسطل والنبى.

وهم رمضان أن ينطق، وكادت الكلمة تغادر فمه، ولكنه لحق نفسه، وابتلع الكلمة، وابتلع معها ريقه الجاف. وحين جره طنطاوى من يده عاد حذاؤه يقرع الطريق مرة أخرى..

* * *

ولم ينفع الحشيش.... أبداً.

وعاش رمضان يعد لياليها صامتاً.. ولا يتحدث إلا حين يمد إنسان يده فيستخرج من جوفه كلاماً كالعصارة الفاسدة لا نكهة لها ولا معنى، وإنما هو مزيج من الضجر والتبرّم يعكره سخط

غامق بليد، وامرأته تتكلم، وتكثر من الكلام، وهو لا يتحرك وعمله في الميدان أصبح علقماً يشربه في بطء الساعات التي يقضيها نصف واقف وتحيته التي طالما انتفض بها لرؤسائه في مرورهم تضاءلت ووهنت وأصبح ينتزعها من جسده كما ينتزع الناب الفاسد، وأصبح يتخبط في حبل طويل من الأكاذيب التي يقصها على الطبيب فيمنحه اليوم أو اليومين إجازة يقضيها حيث لا يقضيها.

وعمره ما عاد لبيته إلا ويده مشغولة بشيء. ولو بربطة فجل فصار يعود ويده خاوية تتأرجح بجانبه وكأنها ليست من جسده.

وفي ذات عودة، سلم على حماته وكانت قد حضرت لتوها، وتندّى جبين امرأته لبروده وعدم مبالاته، وأكلت النيران قلبها وحديثه لأمها لا يخرج عن: ازيك.. سلامات، ثم صمت طويل من صمته البارد. تعقبه سلامات أخرى حتى ضاقت الضيفة فلم تكد تلهف صلاة العشاء حتى تمددت على السرير وهي تئز بآهاتها وتشكو من مفاصلها.

ولم تمض ساعة حتى كان ممداً بجانب ابنه وامرأته على الحصيرة تحت أقدام الفراش. وأيقظته حماته حين عثرت به لما قامت تتوضأ قبل الفجر، وحين كانت تخطىء كعادتها وهي تقرأ الفاتحة بصوتها الخشن، كان يسأل نفسه بعدم اكتراث، ترى ما الذى جاء بها؟...

وكان الجواب ينتظره في المساء حين تنحنحت الحاجّة بعد العشاء وقد تربعت على الأرض وأسندت ظهرها إلى الحائط وانتهت من إحاطة نفسها ورقبتها وصدرها بالمحرمة الكبيرة البيضاء، وبدأت تقول بصوتها المبحوح:

- بقى يا بنى ما خبيش عليك....

والحق أنها أخفت عنه الخطاب الذى أرسلته لها ابنتها من ورائه، وإنما راحت تسوق له القصة في حنكة العجائز، وكان صمته هو الذى شجعها على أخذها دور أمه وأخته ثم ناصحته حين قالت:

- وكل عقدة وليها يابنى حلاّل.... ألف حلاّل....

عقدة ماذا؟ وحلال إيه؟! وماذا جاء بك؟! وما لك أنت وما أضناك يا بنت المركوب؟! وبدأت اللعنات التى تنهال من داخله إلى داخله تصنع بصابيص النار التى ألهبت ثورته. فحتى هذه اللحظة لم يكن قد أدخل امرأته فى المسألة، ولم يعترض وجودها وشعورها ورأيها طريقه وهو يترنح فى الخرابة وحده، إنه ليس وحده.... ومن يدرى كم معه الآن ؟

وشبت الثورة فى حريق هائل قلب الطبلية وأطفأ المصباح وسمع الجيران طقطقة حطبها حين علا صوته فى زئير مرتفع:

- علىّ الطلاق ما انتى نايمة فى بيتى.

وباتت الحاجّة وابنتها عند الجيران وقبل الشروق كان القطار يحمل الأم وحدها إلى البلد ولو كان للبنت مكان فى دار أخيها لحملها هى الأخرى...

كان رمضان فى نفس الوقت يتسرب من الحارة وهى يتلفت حوله حتى لا يراه أحد.وقابله أبو سلطان وصبح عليه، غمغم بتحية قصيرة، ورأسه منكس، فأقدامه تسعى فى عجلة حتى يتوارى عن الأنظار. وكذلك فعل مع عبد الرازق بائع الجرائد والحاج محمد

الفوال، وكل الوجوه التى يعرفها والتى لا يعرفها، وكانت أقل حركة فيها سره، والكلمة الواحدة فيها إشارة واضحة، والضحكة فيها سخرية منصبة عليه... كل الناس يعرفون حتى الواقف بجانبه، المتعلق معه في عامود الترام، حين زغده بعينه والترام يميل، كان يعرف هو الآخر.

ومضى إلى صرة الميدان كالريخ وهو يتمنى أن يشف حتى لا يراه أحد.

وبدأ العمل...

ومن لحظتها بدأ يحس أنه واقف فى الوسط كالواجهة الزجاجية يتطفل عليه كل غاد ورائح. ويحاول كل محدق وناظر أن ينكش سره الباتع، وخيل إليه وهو يحاول ضم ضفتى نفسه ليحكم إغلاقها أن الناس يضعون عيونهم وأنوفهم بين ضفتيها حتى تبقى مكشوفة مفتوحة. ودعاه فشله إلى صب جام غضبه على الناس. وقضى اليوم بطوله يدون المخالفات ويهدر بأوقح الألفاظ ويزور مركز البوليس جانيا ومجنيًا عليه وكان يومه حافلا....

وتلقف الميدان من ساعتها رجلا كئيباً غريباً لا يفك وجهه الأسمر الجاف إلا ليعقده، ولا ينكسر صمته بكلمة تائهة عابرة إلا ليعود إليه الصمت بلون سمرته، ويرتعش له شاربه الذى نماه وشوشه حتى غدا كحزمة متنافرة من عشب شيطانى.

وميدانه تحول ميدان رعب. وهو أصبح «بعبع» السائقين... تخفق قلوبهم وهم يمرون أمامه – وما أقل ما يمرون – ويتندرون بينهم وبين أنفسهم على الجاويش الأسمر أبى شوارب، وخشونته وسلاطة

لسانه، وحقده المرير على كل امرأة سولت لها نفسها أن تقود عربة أو حتى تعبر الميدان.

واعتاد التأخر فى العودة بعد أن أدمن على باب طنطاوى، وعاد مرة فى شيخوخة الليل وارتدى جلبابه الأبيض وأحكم طاقيته الصوف فوق رأسه وفرش جسده المنهك المخدر فوق السرير، وأصوات اليوم تطن فى أذنه، وحديث طنطاوى ينبثق فى مخيلته ثم يختفى...

وتبين بعد أن خف الطنين وغاب طنطاوى أن امرأته لا زالت مستيقظة.... ليس هذا فقط بل إنها تنهنه بنحيب مبتل، وكان رمضان ليلتها قد بلغ به الأمر منتهاه. ووصل إلى حافة مقاومته، فظل بكاء المرأة يتساقط على الحاجز الجامد الذى وضعه بينهما فيلعقه. الحاجز يرق، حتى لم يعد يفصله عنها إلا اللحاف. وظل ينصت لبكائها، وهو لا يملك إلا الصمت حتى انهار، وقال وكل جزء من جسده ينشج بغير دموع :

– بس قوليلى يا نعيمة... أعمل إيه...

ولم ترد وإنما كانت تحملها شهقة وتضعها شهقة وقد انخرطت فى بكاء عال.

وهزها رمضان فى حنان ذليل وعاد يسألها، وما كان ينتظر منها شيئاً وإنما ألحف فى سؤالها ليغلب عجزه ويشرك إنساناً على الأقل فى حل لغزه.

* * *

وبدأ البحث عما يفعله الناس، وبدأ السؤال. وفتح رمضان الكتاب، والتمس حل عقاله عند أصحاب الحل والربط، أسياد البلد

كلهم، وأطعمته نعيمة الحمام والمنجة من توفيرهـا. ومص زعازيـع القصب، وترنح على دقة الطار فى الزار، واستيقظ مع الفجر مرات ليرمى العمل فى البحر، وسوت له امرأتـه الفطيـر مختلطاً بدمائهـا، وتجرع من العطار كل ما عنـد العطـار...

وفى كل مرة كان يعود وكأننا يـا بـدر لا رحنـا ولا جينـا...

ثـم عـرف رمضان الطريـق إلى المستشفى السرى، وتعـرف فى طابور المرضى على رفاقه، وآنسته الصحبـة بقـدر مـا امتـلأ الكيس الـذى خيطتـه لـه نعيمـة بزجاجـات الـدواء، وفـرغ الكيس وامتـلأ، وانغرزت الإبر فى عروقه وفى عضلاته ودخل المستشفى وخرج...

وجاءت حماته ومعها بعض النقود، وراحت النقـود كمـا راحت غيرها، ولم يفرغ من مشورات الحمـاة ونصائحهـا ولا آراء الأهـل وأطراف الأهل...

واستمر رمضان يفتش عن رجولتـه فى كثيـر مـن اليـأس، سائـلا كل من يلقاه، جاريًا وراء كل مثير، متبعاً كل أصبع، وحديثـه أثنـاء ذلك لا يـدور إلا عـن البحـث الـذى وهـب لـه نفسه... والحـديث يـدور فى صلاة الجمعـة، وعلى القهـوة وفى سوق السمك، وعلى محطة الترام، ومع تومرجى المستشفى، وحتى مع حضرة الضابـط، كل هذا... والحال مثل الحـال...

* * *

كان الحديث يدور بين رمضان ونعيمـة فـوق السطـح والشمس تدفئها فى ذلك اليوم من الشتاء، وكأحاديث الضحى الـدافىء كـان الكلام يشرق ويغرب فى كسل هادىء، والـوقت يمضى، ورمضان

فى يوم راحته لا يسأل ولا يُسأل، ونعيمة قد اشترت «سردين» الغداء من الصباح وتمددت فى استسلام فاتر. ودار الحديث ودار. كانت لهجة رمضان أرق ما يكون، فلعله فكر كثيراً فى امرأته، وأنب نفسه كثيراً حين فكر، فاختار هذا اليوم بالذات، وهذه الساعة نفسها ليقول كل ما يثقل ضميره...

واقترب مما يريد، وطأطأ كلامه وكأن حديث الضحى لا زال يدور وهو يقول:

– اسمعى يا نعيمة...

– خير....

وتردد رمضان ثم أسلمه تردده إلى سكون راح يخلص نفسه من حرجه ويتملص منه ليقول:

– مش... مش أحسن أخلص ذمتى من الله و...

وحين نظرت إليه فى كسل وبشائر ضحكة تكاد تهب منه لحديثه المتعثر... استمر هو يتهته:

– أحسن.. أحسن.. أطلقك يا نعيمة..

واعتدلت المرأة حتى واجهته ودبت على صدرها وقد اربدت ملامحها، وبان فيها عتب كثير:

– يا عيب الشوم يا رمضان.. إيه الكلام ده.. دانت أبويا وخويا وتاج راسى.. دانت فى عينى من جوه.. هو أنا أسوى الأرض اللى بتمشى عليها.. دانا خدامتك يا حبيبى.. بقى ده كلام.. مقصوصى شاب.. وشعرك ابيض ونعمل زى العيال.. دا.. دا.. يصح. يا بوسيد..

ولـم يسكتهـا إلا مـوجـة البكــاء التي أوقفت لسانهــا، وسحبت المنديل من فوق رأسها وضمـدت بـه دموعهـا حيـن قـامت هالعة تهبط السلم وهى تتعثـر على درجاتـه.

وتـركت وراءهـا رمضان يتحسس تجاعيـد وجهـه، ويملس على رأسه التى كادت تخلو من الشعر، ويمر بيـده على بطنـه المتكـور، ويشد شعر رجله الكث الذى ابيض أكثره، وينظـر إلى ابنـه سيـد. وتأمل الصبى وكأنه يراه لأول مرة منـذ سنـوات!

كان الصبى يرقد أمامه وقد غطى رأسه بكراسة الحساب. وظـل الرجل يلتهم الولد بعينيه ويتوه، ثم يعود إليه غير مصدق... لا حول ولا قوة.. أيكون قد نسى سيد فى زحمة البحث عن رجولته ؟. أيكون قد نسى حتى أن له ابناً ؟. أبو سيد ينسى سيد ولا يذكر من الدنيا إلا نفسه !

كيف حدث هذا ؟! كيف ؟!

– سيد.. يا سيد.. اقعد هنا جنبى.. أيوه كده.. يا بنى يا حبيبى.. بـاسم الله مـا شاء الله.. وكبـرت يـا سيـد.. بقيت طـولى.. خلينى أبوسك يا سيد.. هه. وكمان مرة.. يا نبي.. أنت كنت فين.. وأنـا فين وكبرت يا سيد.. وحتبقى راجل.. وأجوزك يـا سيـد.. سيـد.. حجوزك واحدة حلوة.. لا.. أربعة حلويـن عشان خاطـرك.. وتبقى راجلهم فاهم.. فاهم يعنى إيه راجلهـم يـا سيـد... معلهش.. بكـرة حتفهم. وتخلف.. سامع يا سيد حتخلف.. واشيـل خلفتك بايـدى يا سيد.. بايدى دى.. فاهم يـا سيـد.

[مايو ١٩٥٢]

• محمد أبو المعاطى أبو النجا

ذراعـان

تباعا كانت الأضواء الهادئـة تختفى فى حديقـة سينمـا الكـرنك، وهبت نسمات رقيقة اهتزت لها الأشجـار التى تصنـع سوراً أخضر حول الصالة يخفى وراءه السور الحجرى الحقيقى، واهتزت خلالها تلك المصابيح الملونة التى كانت تـرسل ضوءاً لا يتجـاوز الممشى المجاور لها، قبل أن يسود الظلام صالـة العـرض.

خـف قليـلا إحساس بحـرارة الجـو، الجريـدة المصورة تطـوف حولنا خلجان العالم وتصف كيف يصيدون الأسماك بينمـا تحجب قامات الذين يبحثون عن مقاعد خالية صورة السفينة الضخمـة التى يركبها الصيـادون، المقاعـد حـولى لا تـزال خاليـة ولـن يمـر وقت طويـل حتى تمتلئ، وأحرم مـن تلك الجلسة التى أمـد فيهـا قـدمى وذراعى بحثاً عن نسمة عابرة، قائد السفينة يشبه كثيراً أستاذ التاريخ الذى دفعتنى محاضراته إلى هذا المكان، بعـد أن ظللت أستذكرهـا طوال النهـار، أستـاذ التاريـخ يختفى، والرحلـة حـول العالـم تمتـد، والمقاعد تمتلىء، وبجوارى تجلس فتاة كانت تتقدم الأسرة الصغيرة التى أحتلت المقاعد الأربعة عن يمين، كان من الضرورى أن أعتدل فى جلستى، خاصة وأننى أرتدى قميصاً بنصف كم، وجارتى تلبس فستاناً بلا أكمام، والمقاعد من النوع الذى يفصل بين كل مقعدين فيه مسند واحد، لا يتسع إلا لذراع واحـدة أو ذراعيـن صديقيـن!!

كانت مجرد فتاة مجهولة، وكان وجودها بجواري.. مجرد وجودها يعتبر مصادفة طيبة، لا ينبغي أن أغامر بفقدها، ولهذا تعمدت ألا أتصرف بطريقة تجعل جارتي تفكر في تغيير مقعدها، وأسعدني أن اللحظات قد مضت دون أن تصدر الجهات المسئولة والموجودة بجوار الفتاة أي تعديل في الأوضاع!

ومع أنني لم أحاول أن ألتفت ناحية الفتاة خلال هذه اللحظات فقد كنت أحس بها تتسلل إلى وجودي المتحفظ الرزين، كأن النسيم يحمل إلى عطرها الهادئ، وصوتها الذي يشي بعمرها في هذا الظلام بأكبر مما تستطيع ملامحها، كان واضحاً أنها تحب مغامرات «توم وجيري» التي بدأ عرضها، كانت تضحك من قلبها وتضرب الأرض بقدميها، فأبصر برغم تحفظي شعرها وساقيها، وأحس بهذا التحفظ وهو يهتز مع كل حركة مرحة تصدر عنها، من المؤكد أنها فتاة بسيطة وطبيعية، وأنني لم أكن أخشى سوى مخاوفي، ومن الطبيعي أن أتصرف ببساطة.. على الأقل مثلها وبدأت أمارس واحداً من حقوقي.. أبسط هذه الحقوق.. أشرت إلى (الجرسون) الذي كان يمر قريباً مني وطلبت زجاجة «كوكاكولا» كانت فرصة مشروعة ليتحرك ذراعي من المكان الذي حددت فيه إقامته ليأخذ الزجاجة ويرتفع بها إلى فمي في مرات عديدة بطيئة وفي إحدى المرات اصطدمت ذراعي بذراعها، فاكتشفت لحظتها فقط أن جارتي قد اعتبرت المسند الوحيد المشترك حقاً خالصاً لها فأسندت ذراعها إليه، كيف لم ألاحظ هذا من قبل؟، لم أكن قد مارست حق الالتفات إليها بشكل كامل، وحين وقع ذلك

الصدام الذى لم يستغرق سوى لحظة عابرة تركزت حواسى كلها حول مكان الحادث فى انتظار قلق لرد الفعل، ومع اللحظات الحاسمة التى تلت ذلك الصدام، تحول الانتظار القلق إلى شعور عميق بالراحة حين لم تستجب جارتى بما يعبر عن ضيقها بما حدث، كانت الذراع الرقيقة الناعمة لا تزال تحتل مكانها على المسند المشترك، لا شك أنها فهمته كحادث عرضى لا يعنى شيئاً، لم أعد أشك فى أنها فتاة عاقلة، وأن ذراعها - وبالتحديد الجزء الذى لمسته منه - أرق وأنعم شيء لمسته في حياتى، وبدأت أحس بذلك الجزء الآخر من ذراعى الذى تلقى هذا الإحساس، كشيء مغاير لى تماماً. شيء ينتمى إلى ذلك الكيان الرقيق الناعم الذى يجلس بجوارى ويشيع من حوله جواً من البهجة والسعادة لا يستطيع كائن بشرى أن يقاومه، ولم أستطع أن أقاوم رغبتى فى الالتفات إليها التفافاً كاملاً هذه المرة، يستطلع هذا العالم الذى غمرنى سحره، لا شك أن هذا واحد من حقوقى أيضاً.

وفوجئت بها مشدودة إلى الشاشة، لا تكاد تحس بى، مما ضايقنى لأول وهلة، ولكنه أتاح لى أن أكتشف شيئاً هامًّا جدًّا، كانت ذراعها لا تحتل من المسند المشترك سوى نصفه الخلفى، فقد كانت تستند إليه بكوعها فقط، بينما بقى النصف الأمامى خاليًا، ومن الممكن لو تقدمت، قليلا فى مقعدى أن أستند إليه دون أن يلتصق ذراعانا وحتى لو حدث ذلك فسيكون محض صدفة.. ربما لم تعرها أدنى اهتمام كسابقتها، لماذا تبدو اللعينة كأنها لا تحس بى؟ بينما يعذبنى الخوف من إزعاجها، سأمارس كل حقوقى حتى

لو أغضبتها، فهذا أفضل ألف مرة من أن تبقى هكذا غير شاعرة بى!

واستندت بمرفقي على الجزء الأمامى من المسند مطمئنًا إلى أن ثمة حاجزاً من الفراغ يفصل بين ذراعينا..!

«توم وجيرى» يواصلان مغامراتهما على الشاشة فيثيران فى الصالة عاصفة من المرح، تنساب مع نسمات الصيف التى تخرج بين العطور والضحكات والأصوات التى تفقد ملامحها فى هذا الظلام الرقيق!!

وفى لحظة أحسست أن حاجز الفراغ الذى كنت أستند إليه قد تلاشى تماماً، وربما كانت عاصفة الضحك هى المسئولة عن ذلك، كانت الذراع الناعمة قد مست ذراعى فى رفق، وأشاعت فى كيانى كله يقظة مفاجئة، ولم يلبث حاجز الفراغ أن عاد يفصل بين ذراعينا، ولكنه هذه المرة كان رقيقاً جدًّا يتلاشى مع كل عاصفة مرحة يهتز لها جسد جارتى الذى أحسست به قريباً منى!

حتى هذه اللحظة لم أحاول أن أختلس من جارتى أية نظرة، كنت أجلس فى مقدمة مقعدى، وكانت تجلس فى مؤخرة مقعدها، وكانت أية نظرة تحتاج إلى أن أدير رأسى إلى الوراء بشكل يلفت نظر الجهات المسئولة، والواقع أننى شعرت أن علاقتنا قد انحصرت فى هذا الحاجز من الفراغ الذى أصبح يربط بين ذراعينا أكثر مما يفصل بينهما!

كيف فكرت أن جارتى يمكن أن تضيق بشىء كهذا؟ صحيح أنها حريصة على ألا تستمر لحظة اللقاء تلك، وألا تخرج عن

كونها شيئاً يقع دون قصد، وأنها دائماً تسحب ذراعها إلى الوراء قليلا فى كل مرة تحدث ولكن من المؤكد أنها ليست حريصة على ألا تحدث.. فبمقدورها أن تسحب ذراعها من على المسند لو أن ذلك كان يضايقها !!

مغامرات «توم وجيرى» توشك أن تنتهى، وعواصف المرح تهدأ ولحظات اللقاء بين الذراعين تتباعد، وحاجز الفراغ يستعيد صلابته ولكن.. اللحظة الأخيرة من هذا اللقاء تبطئ، وتفقد معناها كلحظة.. وتيار عميق وهادىء من النشوة يتسلل إلى كيانى كله عبر ذلك الجزء من ذراعى التى تلتصق بعضدها، وأصبحنا فى تلك اللحظة الممتدة صديقين !!

لست أشك فى أنها كانت تحس بى فى تلك اللحظة أكثر مما كانت تحس بأمها التى لا تكف عن الثرثرة معها !

لا، لم أكن فى حاجة إلى أن أنظر إليها، ولا حتى أبادلها الحديث، فهناك تفاهم عميق يوشك أن يتم بين ذراعينا، وحتى حين بدأت تسحب ذراعها من على المسند المشترك، مع أول ضوء لمع فى الصالة، كان هذا السلوك جزءاً رائعاً من الحوار الصامت الذى بدأ، بل كان أكثر الأجزاء روعة، وكان ردى عليها أننى سحبت ذراعى أنا الآخر حتى لا ترى الأم بين مقعدينا سوى الفراغ، ولم يكن لهذا كله من معنى سوى أننا قد اهتدينا إلى الكلمات الأولى فى لغة بسيطة وعميقة لن يفهمها أحد سوانا فى هذا المكان !

* * *

مع أنني كنت أنتظر بصبر نافـذ لحظـة الضوء هـذه لأرى كيـف تبدو جارتي، فـإنني لـم أتعجـل النظر إليهـا، كنت مستريحـاً لهـذا التفاهـم الـذي تـم بيـن ذراعينـا دون كلمـة أو حتى نظـرة، وكنت أحس أن الضوء قد يزيدنا تفاهماً، وأيضاً يلغي ما وصلنا إليـه، كمـا كنت أخشى أية نزوة قد تؤدي إلى تغيير الأماكن في فترة الاستراحة. ولكن جارتي أعفتني من محاولة التعقل هذه، حيـن وقفت، ودارت برأسها في جميع الجهات تبحث عن بائع المثلجات ثم تشيـر إليـه، وتنحني على أمهـا، وتضحك، وتعـابث أخاهـا الصغيـر وهي تناولـه زجاجة الليمون، وخلال ذلك كله لم أكن أشك في أنها تفحصني، وبطريقة عجزت أنا نفسي عن ضبطها مرة واحدة !

وفي الحقيقة أنها بدت في الضوء رائعة جداً، حتى لقـد حسدت نفسي لأنني كنت منذ لحظات صديقاً لهذه الفتاة الرائعة، وأن ذراعها كانت تلتصق بذراعي، لا أظنها أتمت العشرين ربيعاً، عيناها سوداوان تظللهما أهداب ثقيلة دون أية زينة، شعرها قصير ناعم تحركـه أقـل اهتزازة من رأسها الذي لا يكف عن الحركة، فتبدو في كل لحظة في صورة جديدة وجميلة معاً، فستانها غامق الزرقـة يفضح بشكـل حاد بشرتها الناصعة، ويتم من خلال فتحاته عن جسد بديع، يعبر في كل حركة عن ضيقه بما يحيط به من قيود حريرية ناعمة !

لم أشعر بالراحة إلا بعد أن عادت إلى الجلوس في نفس المكـان وبدأ العرض !

كنت أعتبـر مجـرد بقائهـا في نفس المكـان نوعـاً مـن النجـاح، ورحت أتابع العرض في هدوء لم يقلقه اكتشافي ان المسند المشترك

بيننا لا يزال خالياً، كنت أعتقد أن هذا نوع من المناورة ليس غير، وأنه لا يجب بحال أن يسبق ذراعى ذراعها إلى المسند!

– تبدين خائفة كأن الرجال نوع غريب من المخلوقات!

– هذه أول مرة أجد نفسى مع شخص مثلك، كنت مع أبوى فى منطقة صحراوية لاستخراج البترول، وهذه أول مرة أركب فيها سفينة وأتحدث إلى شاب غريب.

– إذن فأنا أول شاب يسعده الحظ برؤية هذا الجمال ؟

– لست أدرى كيف ينبغى أن أتصرف، ولا ماذا أقول ؟

– أجمل شىء ألا يعرف الإنسان ماذا ينبغى أن يفعل ؟ بل أن يفعل فقط ما يحب !

– أحب أن أراك.. وأن.

– هنا كل ليلة سأنتظرك على ظهر السفينة !

– دون أن أخبر أبوىّ ؟

– لا.. سآتى معك الآن لنخبرهما معاً !

المسند بيننا لا يزال خاليًا.. ربما شغفها الحوار بين البطل والبطلة فنسيت وجودى، وربما لم تكن هناك مناورة، لم يكن الحوار بين ذراعينا سوى حديث نفس واهمة.. بينما جارتى لا تحس بى !

«جون ومارى» يلتقيان كل ليلة على ظهر السفينة ويكتشفان روعة البحر والليل والحب والحياة، بينما يتحول المسند بيننا إلى مجرد حاجز خشبى وموجة سخط هائلة تحمل ذراعى إلى المسند الخالى، وإذا كانت جارتى لا تحس بى فلماذا لا أستعمل حقى

فى هذا المسند؟ ولتتضايق، ولتغير مكانها فهذا أفضل من هذه اللامبالاة التى لم أعد أحتملها..!

– ومتى سنتزوج يا جون ؟

– حين أعود من تلك الرحلة التى أتسلق فيها قمة «الأنديز».

– ليتك لا تذهب يا حبيبى!

– سأعود بطل العالم فى تسلق الجبال !

– أحبك هكذا، أما أنت فتحب أن تكون بطلا !

– لا أرضى أن تكونى زوجة لأقل من بطل !

* * *

آه يا عزيزتى.. لا أدرى كيف أعتذر لك عن ظنونى القاسية. صحيح أنك لا تعرفينها، ولكن كيف أغفر لنفسى أننى ظننتك لا تحسين بى؟ كانت لحظة رائعة تلك التى أحس فيها ذراعى بذراعها يعود إلى المسند المشترك... يعود هذه المرة فى ثقة.. عارفاً مكانه.. كطائر لا يضلله الظلام عن عشه.. مستريحاً خلف الذراع الذى ظل ينتظر..! كانت لحظة لقاء حقيقى بين صديقين لا أحد يعرف تاريخ صداقتهما وكأنه لم يعد ثمة مجال للتردد أو حتى انتظار الأسباب..!

والغريب أن لحظة اللقاء بين ذراعينا تأتى مع اللحظة التى يفترق فيها «جون ومارى» فى الميناء !

وفى إحدى مزارع كاليفورنيا حيث استقرت أسرة «مارى» نحس بوجود «جون» فى كل مكان، فعلى المائدة لا تتحدث «مارى» مع

أبويها إلا عنه، وفى الصحف لا تقرأ إلا أنباء المسابقة المنتظرة فى تسلق الجبال، والأزهار التى يعشقها تربى فى أحواض خاصة – تتعهدها هى – ليجدها حين يعود قد نمت، والمهارى الصغيرة التى يهوى ركوبها تدرب فى انتظاره، وحتى «كلارك» الذى يشرف على تربية الخيول في المزرعة، والذى يكتم حبه «لمارى» كما يكتم حلمه بأن يصبح كاتباً مشهوراً، يجد نفسه فى النهاية ولا عمل له سوى الاستماع إلى أحاديث مارى عنه، أما الرسائل التى تصل منه، فقد سمعتها الطيور والأشجار والخيول فى المزرعة كما سمعتها مع جارتى، وأحسست أن دائرة سحرية تنبعث من كلماتها الحارة لتخترق جسدينا معاً، وتتصل الدائرة عبر ذراعين تشدهما خيوط غير منظورة، وأحس فى لحظة أن ما بينى وبين جارتى ليس مجرد مصادفة أو وهم، ما الذى ينبغى أن يحدث لكى يحدث الحب، لا شيء أكثر من أن يلتقى شاب وفتاة، ثم تخلق المبررات خلقاً، ولا أعتقد أننا فى حاجة إلى كلمات، كل شيء يقع من تلقاء نفسه، وأروع ما وصلنا إليه أننا اكتشفنا معاً لغتنا تلك التى لا يحسها أحد سوانا !

ربما كان هذا هو ما تفكرين فيه..! ها نحن معاً، وبين ذراعينا مكان لا يستطيع الهواء أن ينفذ منه.. وأروع الألحان يعزفها لنا أمهر العازفين، وكاتب لا نعرفه... يعرف ما فى قلبينا، ويكشفه لى ولك ولأبويك وللناس الذين نخافهم، ومزارع كاليفورنيا الشاسعة الجميلة تستدرج أحلامنا خارج حدود المكان، والخطوة القادمة يجب أن أبدأها أنا... منذ البداية كنت رائعة وبسيطة، ولا أظنك سعيدة بى وأنا أكلم نفسى طوال الوقت، يجب أن يحدث شيء

يتمى إلى هذا العالم الرائع الذى أصبحنا جزءاً منه، فالحقيقة الباردة أننا لا نزال نحتمى بالظلام، وبالمسند المشترك وبالمصادفة! وامتدت يدى هذه المرة لتلمس يدها فى رفق وحنان، لم أتصور لحظة أن يدها ستختلج فى يدى للحظات خاطفة وكأنها ترددت خلالها قبل أن تسحب يدها من على المسند كله...؟!

لقد مرت لحظات كنت خلالها عاجزاً عن تقدير الموقف!

أى جنون قادنى إلى هذا السلوك؟ كان كل شىء رائعاً..! دون حاجة إلى هذه الحماقة التى دمرت كل شىء، كنت أحس تردد أنفاسها! وشعرها يكاد يلمس وجهى، وذراعها ملتصقة بذراعى..! ولكن كان كل شىء يبدو وكأننا غير مسئولين عنه !! أما الآن ؟

مستحيل أن يكون وهماً كل ما يحدث! لقد أحسست أنها ترددت، أجل ترددت قبل أن تسحب يدها من يدى، لست واهماً هذه المرة كأنها لم تفاجأ بيدى! كأنها كانت تنتظرها. وربما خشيت أن ترى أمها يدينا مشتبكتين! يكفى أنها سحبت يدها فى هدوء دون أن يشعر أحد، ويكفى أنها لا تزال بجوارى، كانت دائماً فتاة عاقلة ولكن سهول كاليفورنيا أفقدتنى صوابى، وحتى فى هذه السهول تقع أحداث جديدة...!

– مستحيل يا ابنتى أن تبقى هكذا لا تأكلين ولا تنامين لأن جون لم يعد يكتب لك... ربما لم يكن جاداًّ فى علاقته بك !

من السهل أن تنسيه لو أردت ذلك !

– نعم يا ماما... ولكنى لا أريد ذلك !

– أنت صغيرة يا عزيزتى لا تعرفين الناس والحياة!

– وأنت يا ماما لا تعرفين جون، أنا واثقة من أنه سيعود.

– لماذا لا يكون لك بعض هذه الثقة فى نفسك وفى أبيك وفى !

وتصرخ «مارى» وهى تخرج وقبل أن تصفق خلفها الباب :

– أحبه أكثر من نفسى ومنك ومن أبى !

وبلا شعور وجدتنى ألتفت إلى جارتى، لأضبطها هذه المرة ملتفتة إلى ولأول مرة أحس أن الدائرة السحرية تتصل من جديد.. وبرغم الظلام أبصرت فى عينيها الرائعتين نظرة نفذت إلى قلبى.. لا.. لست واهماً هذه المرة، ولست آسفا لأن الذراع لم تعد إلى مكانها، كانت النظرة السريعة الخاطفة النافذة أكثر رقة وصلابة فى نفس الوقت من ملمس ذراعها الناعمة..!

وحتى حين عدنا نستمع إلى الحوار كنت أحس أننا نسمعه معاً.

– مكالمة خارجية لك يا مارى !

وتهرع مارى فى جنون، لا بد أنه جون فليس فى العالم الخارجى أحد سواه.

– من... جون ؟

– لا، أنا والده، من أنت ؟

– مارى، أين جون ؟

– يا ابنتى..! لدى أخبار لك عنه !

– ماذا ؟ قل.

– لقد فقد كلانا جون يا ابنتي... سقط من فوق الجبل... كان، يعتزم الحضور لو أنه عاد!

....

....

. . جون لن يعود إذن.؟ لم يعد ذلك في مقدوره فما الذى يمنعها من أن تذهب هى إليه؟ أجل يجب أن تذهب إليه! يجب..! ولا ينقذها من الموت غير «كلارك» الذى لا يزال يكتم حبه لها!

– يا ابنتى، يا روحى.. لازلت صغيرة.. والزمن سيمحو جراحك وستجدين فى الحياة مسرات كثيرة.

– الحياة بدونه لا تساوى شيئاً يا ماما !

– لماذا لا تفكرين لحظة فى حياة أبويك بدونك؟ إنك تريدين قتلنا يا مارى دون أن يعيد لك هذا جون !

– كنت يا ماما تظنينه وغداً! يجب أن تأسفى لذلك! الموت هو الذى منعه من المجئ..! لا شىء غير الموت كان يؤخره !

وتلتقى نظراتنا من جديد، كأنها على موعد... لا لست آسفاً على هذه الحماقة، قبلها لم يكن من حقى أن أجد فى هذه النظرات أى معنى! أما الآن و«مارى» تمنح الحب كل هذه القداسة، وملامح جارتى ترق وترتعش... وشىء ما يسقط من يدها تحت قدمى، فتنحنى للبحث عنه، وأنحنى معها لأعيد لها المنديل، فتلتقى يدانا وعينانا فى لحظة ذاهلة، أحس خلالها أنها غفرت كل شىء دون

كلمة.! لا لن أحلم بما هو أكثر..! يكفى أننا عدنا صديقين حقيقيين هذه المرة... لن أترك شيئاً ما يفسد الأمور بيننا..!

لست مستعداً لأن أخسر هذا الشعور الرائع بأن هذه الفتاة التى لا أعرف لها اسماً قد عادت صديقتى!..

كنت أتابع مبهوراً قدرة الحياة وقدرة «كلارك» على أن يأسو جراح «مارى» حين أحسست بذراع جارتى تعود إلى المسند..! تعود هذه المرة لتتمدد بجوار ذراعى تماماً وتلتصق بها.! ودون أن ألتفت إليها، وعيناى مشدودتان إلى الشاشة، كانت أصابعى تمر فى رفق على يدها الوادعة المستسلمة، وكانت ذراعانا قد تراجعتا معاً – كأنما تحركهما إرادة واحدة – عن مقدمة المسند بحيث أصبحتا بيننا تماماً كسر نخفيه حتى عن عيوننا، منذ تلك اللحظة لم نتبادل نظرة واحدة !

كانت كل مشاعرنا مع السر الرقيق الذى تخفيه يدانا المرتعشتان كطائر نخشى أن يموت أو ينفلت !

– ليس ما يدهشنى يا «كلارك» أنك أخفيت حبك لى منذ عرفتنى، بل إنك ظللت تحبنى برغم أنك تعرف كل شىء !

– ما أعرفه عنك جعلنى أحبك أكثر !

– لا أدرى يا كلارك كيف كانت ستصبح حياتى لو لم تكن هنا ؟ إنك لم تكتف بأن تنقذنى من الموت بل أنقذت منه «جون» أيضاً بعد أن كتبت عنه روايتك الرائعة..!

وفى اللحظة التى يضم فيها كلارك مارى إلى صدره، ترتعش يدانا وينفلت الطائر الذى كنا نخفيه بينهما!

ومع أول شعاع من الضوء لمع في الصالة، عاد المسند المشترك مجرد حاجز خشبى، وبرز الناس فجأة وكأنهم أتوا مع الضوء، وبدونا وسطهم، صغيرين عاجزين، بدت المسافة الضيقة التى تفصل بيننا، وكأنها وجدت لتبقى..! كانت جارتي تقف خلف أمها، وتسوى ملابسها، وتتبادل معها كلمات متقطعة، وتتحاشى النظر إلى..! وكانت المسافة التى تفصل بينى وبين جارتى تفصل بين جميع الخارجين الذين كانت تبطىء خطواتهم فجأة حتى لا يخدشوها.. ! مرة واحدة التفتت جارتى خلفها قبل أن تغلق خلفها باب التاكسى الذى ركبته الأسرة أمام «السينما». كنت واقفاً على الرصيف فى انتظار تلك النظرة التى كانت آخر عهدى بتلك الفتاة! وحتى بعد أن اختفى التاكسى فى نهاية الطريق، وبعد أن أصبحت المسافة بيننا كبيرة جدًّا إلى درجة لا تصدق..! كنت أحس أنه لا فرق أبداً بينها وبين تلك المسافة الضيقة التي كانت تفصل بيننا حين برز الناس فجأة!

ليـلى والذئب

إني خائفة.

كل ما حولي يرتعد خوفاً.

السطور في مجلد الطب الكبير المفتوح أمامي ترتجف. عبثاً أثبت نظراتي على الحروف، التي يختبيء بعضها خلف الآخر.

النور المسلط على مكتبي يصاب بإغماء أصفر، أصفر، كأنياب سوف تنبت فجأة، وتنقض عليّ من مكان ما، لسبب أجهله كما تجهله هي أيضاً.. إني خائفة (يافراس.. لو تدري).

خائفة.

حتى الجمجمة الحسناء صديقتي الوحيدة فقدت مرحها، بريق السخرية في فجوتي عينيها خبا.. مغارتان للرعب الداكن أراهما أمامي، وفكها الأسفل يرتجف. ربما في عنقها المقطوع صرخة ميتة.. الصرخة في حنجرتي تنطفيء في كوم رماد صديء.

والريح.

توقفت عن العويل. ربما اختبأت في أحد المخابر. حتى المطر كف عن الهطول.

كل شيء يحبس أنفاسه في ترقب متوتر هلع. خائفة.. (يا فراس.. تراك كنت تدري!).

حتى موسيقى (البارتي) في قبو مسكننا الجامعي (البستاني هول) صار فيها إيقاعاً مشحوناً بالانتظار. صار في تسارعها، وقرع طبولها، تشنج يد معقوفة الأظافر، تتحرك في الظلام، وتطبق على عنق ما.

خائفة (يا فراس، أين يدك؟).. خائفة، رائحة باردة الزرقة تملأ عيني بأبخرتها.. تتدفق من أشباح شجر الصنوبر خلف النافذة.. ربما كانت تتدفق من حديقة الجامعة، ربما كانت أنفاس المخلوقات السجينة في البناء الرابض في العتمة، المقابل لغرفتي في التل.. خائفة (يا فراس، أين يدك؟.. ربما لم تحمني من الخوف، ربما كانت تشاركني خوفي، لكنني أحببتها).

خائفة.. قرع الطبول يتسارع. الضحكات التي تعلو من القبو تتحول إلى ما يشبه الصراخ.. إلى ما يشبه النباح.. الزرقة تتكاثف.. أسنان الجمجمة تصطك بتواتر متسارع. برغم عويل الموسيقى عادت الأصوات الرهيبة تتسرب من ذلك البناء الغامض المخيف، عاد النحيب الممطوط الحزين... (الليلة، بعد أن ينمن جميعاً سأظل وحيدة أنصت دون أن أجرؤ على غرس سيخ في أذني ليتوقف كل شيء، ما دام همسك منذ الليلة لم يعد لي.. ربما يتوقف حينئذ كل شيء آخر إلا تلك الشكوى المريرة الدامية.. ربما يسكن كل شيء إلا سيل الليالي الحزينة الباردة والتي عادت تتدفق خائفة.. (يا فراس.. أين يدك، فالليل بارد وحزين؟..) خائفة.. (كان الليل حزيناً وبارداً، ونحن في طريقنا إلى «البستاني هول»). مررنا بمبنى كلية الطب حيث أقضي أكثر ساعات النهار. كان من الصعب أن أصدق أن خلف تلك الجدران المعتمة مقاعد خشبية بريئة نلتصق

بها بهدوء، ونوافذ تنسكب منها أشعة شمس مضيئة.. فى الليل يتغير وجه العالم، وربما يستعيد وجهه الحقيقى. أحسست بأشياء مرعبة تغلى داخل البناء. الهياكل العظيمة تتحرك وتتجه نحو النوافذ المغلقة. عبثاً تحاول الهرب.. ربما يجلس بعضها فى الزوايا، لينتحب بصمت وبراءة، من أجل أشياء لا يدرى إذا كان قد ارتكبها حقًا.

بحثت عن يدك في الظلمة. كانت كبيرة ودافئة كسقف دار، كأيدى الآباء جميعاً.. أردت أن أقول شيئاً، برغم حفنة الرماد الصدئة فى حلقى.. ربما كنت أرتعد كطفلة يتيمة خائفة لأنك سألتنى: متى تلقيت آخر رسالة من البيت؟..

- تلقيت آخر «حوالة» منذ أيام فى موعدها المحدد، فسكرتير أمى، فى منتهى الدقة والحرص فى كل شىء!... على أية حال، لا أتوقع منها رسالة قبل انقضاء فترة الأعياد: الميلاد، ورأس السنة..

ورأيت بيتنا الكبير فى المدينة المجاورة يغلى... أمى مشغولة، مشغولة دائماً.. لا أدرى كيف وجدت الوقت ذات يوم لولادتى، وربما أبقتنى فى جوفها شهراً إضافيًّا ريثما وجدت لى فى زحمة مشاريعها ومواعيدها وقتاً، ولهذا فأنا مصابة أبداً بضيق خائف من الجدران.. ربما أكره المدارس الداخلية لهذا السبب...

أراها الآن بقامتها، تقف بين دوامة من الخدم الذين يزينون المكان.. وجهها على صينية لها مفرش من الدانتيل والتنتناه، وتحتها ثوب من الحرير.. من وقت إلى آخر ترسل من سيجارتها المغروزة فى «بز» من العاج الثمين الحفر، دخاناً شفافاً... إنها أبداً هكذا،

أنيقة وجميلة، كما هى فى صورها فى الصحف... أنيقة وجميلة كالصقيع النائى.. لا تتعب، ولا تذبل، كالزهور الاصطناعية.. كأهدابها الاصطناعية.. كالتماثيل الجميلة القد، لا تسمن ولا تنحف ولا تتهدل أثداؤها.. وكلما جاءت الخادمة التى أرضعتنى لتزورنى متحببة، كنت أتمنى أن أتقيأ نفسي. وبعد أن تذهب، أتجسس على أمى فى غرفة نومها، لأننى أشك فى أن لها جسداً كبقية (المرضعات) وفى أنها التوأم الآخر للتمثال المرمرى الجميل فى الصالة الكبيرة.

– ليلى.. أين أنت ؟

أيقظنى صوتك. أعادنى من غابة إلى غابة.. وتلفت. كنا ما نزال نهبط الدرج الذى يمتد على طول التلة الكبيرة، وعلى جانبيه تقع أبنية الجامعة المختلفة، وفى أسفله (البستانى هول).. أذكر أننى أردت أن أقول شيئاً، حينما بدأ نحيب ممطوط حزين متقطع، ينطلق من بين القضبان الحديدية والشبك على نوافذ البناء الذى تمر به.. ثم تلاحق النحيب وتكاثر، وتعالى، صار شبيها بعواء مئات من الرجال، المنهكين تعذيباً، والذين تسيل الدماء من ألسنتهم المقطعة..

أحسست بك تشد على يدى، ويدك تكبر وتكبر، وأنا صغيرة ووحيدة أتكوم فى ركنها، وأطمر رأسى تحت أحد أظافرها، هرباً من الأصوات الفظيعة..

– ليلى.. ما هذه الأصوات؟.. ما هذا المبنى المواجه لبنائكم الداخلى؟..

– إنه المبنى الداخلى الآخر!..

– وفيه فتيات غربيات؟.. ما هذا العويل الحيواني؟

– إنهن أكثر وعيًا وحساسية لذا فهن عاجزات عن النوم، ويعبرن بصدق عن مشاعرهن..

– ليلى...

قالها عاتباً،

– لم أكن أمزح ولكن يبدو أنك تريد تقريراً باللغة العلمية عن هذا المكان.

– هذا أقل ما ينتظر من تلميذة طب..

– هذا هو المخبر.. فيه مجموعة من الأرانب والقطط والفئران والحيوانات الأخرى...

– لم أسمع في حياتي صوتاً كهذا..

– في النهار أشارك في تخديرها وصنع التجاويف والشقوق في أجسادها المتشنجة. تظل صامتة لا تشكو. وأحياناً ألمح في عيونها الصامتة دهشة خائفة لأنها لا تستطيع أن تفهم، لماذا يحدث هذا كله.. وفي الليل، ربما ينحسر التخدير، ولا تبقى إلا مرارة السجن، والجراح المسمومة، والخوف، الخوف الوحش..

– هذا فظيع..

– أبداً، أحسدها. فهي على الأقل ما تزال قادرة على الأنين والعواء والعويل. ما زالت تفترض أن هنالك من يمكن أن يسمع، أو يفهم، أو يمد يده..

– هذا فظيع.. تتحدثين عنها كأنك واحدة منهـا.. كـأنك لست من الفريق، الذى يشارك فى زرع الجراثيم والعـذاب فى حناجرهـا وفقراتها..

وازددت تكوماً فى كفك الكبيرة، ولم أقل لك أنك ربما ستفعل بى الشىء نفسه دون أن تـدرى.. مـددت يـدى أتحسس حنجرتى وفقـراتى. قفـز شىء بيـن الأشجـار فكـدت أصرخ. اكتشفت أنــه (مدجج). إنحنيت أحمله بينما استسلم مرتعداً لقبلاتى. إنه خائـف. لم يخطر لى أن أتساءل من قبل أين ينام؟ قـدرتك على أن لا تفقـد مرحك أدهشتنى دائماً. سألتنى مازحاً: من الغريـم الجديـد؟..

– إنه مدجج، القط الذى أتولى إطعامـه.. إنـه يعيش فى الجامعـة مثلنـا، لكنـه أكثـر حظًّـا لأنـه غيـر مجبـر على النـوم فى (البستـانى هول).. إنه وحيد دائماً. لا ريب فى أن أمـه سيـدة مجتمـع خالـدة الجمال..

– مدجج؟.. هذا اسم غريب. لمـاذا اخترتـه؟..

– سئمت الحديث بالإنكليزية طوال الوقت لأن أكثـر الزميـلات أجنبيات. إن لفظ اسمه يتطلب منهن جهداً لم نبذله فى تعلم لغتهن بأكملها.. اسمـه انتقـامى منهـن. أمـام البـاب رميت (بمدجـج) إلى عتمة الغابة وأنـا أحسده.

– سأتصل بك هاتفيًّا بعد نصف ساعـة لأقـول لك مرحبـاً...

مرحباً..

مرحباً... أهلا... فراس... فراس... أى شيء... كان المهـم أن أسمع صوتك فى الليل بعد أن تغلق الأبواب، كان جرعتى المخدرة، كان وحده يحمينى، يعيدنى فتاة سوية قـادرة على النـوم كأيـة فتـاة فى شارعنا الحزين الذى يمتد على جانبيه شريط من الغرف، ولكل باب رقم، واسمى فى بيتى هذا: الرقم ٢٠٢!.. كان وحده، الصوت العميق، الدافىء، كلبن أم امتص للتو، المفعم بالحنان، كان وحده، يطغى على أصوات جيراننا فى البناء الداخلى الآخر المرعب، وكان وحده يحولنى من الرقم ٢٠٢ فى شارع اللـواتى أمهاتهـن سيـدات مجتمع، إلى ليلى التى تفرد لها ضفيرتها قبل أن تنام وتمشط شعرها بأصابعك وترسل الغطاء عليهـا ثـم تقبلهـا فى جبينهـا وتغلـق البـاب بهدوء...

– فراس.. تصبح على خيـر...

– ليلى.. حبيبتى.. اذهبى ونـامى...

وعلى رؤوس أصابعى العارية أتسلل على الدرج عائدة إلى غرفتى. ولا أشعـر بـأى حقـد حينمـا أصل إلى الممشى، شارع الغـرف المتشابهة، وأرى أضواءهـا كلهـا مطفـأة، وأنفـاس النـوم الكسولـة، تنسكب من شقوق الأبواب بتكاسل أبخرة ثقيلـة. وأنـام..

ولا أحلم بذلك الحلم الرهيب الذى لاحقنى طيلة حياتى.. حلـم الخوف.. الخوف.. خوف اليقظة.. الخـوف.. إنى خائفـة..).

خائفة.. الحفارة تعمـل فى صدرى. النحيب يتعـالى. الجمجمـة لم تعد صديقة.. الرعب يتدفق من عينها... فى القبو وليمة وحشيـة

للصراخ... يجب أن أمسك يداً ما (يا فراس.. أين يدك؟.. بحجر كبير أهشمها وأبكى لأغسل دمها)..

التفت إلى شريكتى الباكستانية فى الغرفة، إنها ليست موجودة إلا حينما تزعجنى.. إنها نائمة.. شىء لا يصدق إنها تستطيع أن تنام هكذا... أن تفتح فمها بهذه البلاهة، أن يعلو صدرها ويهبط بهذا الانتظام... شىء لا يصدق أنها تسجن نفسها هكذا، تسجن نفسها وتسخر من (البارتى) والشبان، وتصلى من أجلى لأنها تجدنى طفلة ضالة، ثم تأوى إلى فراشها تقرأ أحد الكتب الجنسية البذيئة، التى جلدتها بغلاف كتب عليه «الأخلاق فى الحياة الدنيا والآخرة»... إنها نائمة، والعالم كله ينزف رعباً... ربما كانت ميتة.. ربما كانت ميتة... ربما ماتت خوفاً دون أن أدرى... ربما ماتت لذة وهى تقرأ وتقرأ فى كتبها.. ربما ماتت تُقى أثناء صلاتها قبل النوم..

أريد أن أنهض وأهزها، لا أستطيع أن أتحرك. أنا يابسة، يابسة. زهرة جُففت بين دفتى مجلد الطب الكبير أمامى.. أنا ضائعة.. أريد أن أصرخ (زبيدة.. هل أنت ميتة) لا أستطيع، لا أستطيع شيئاً.. كما فى الكوابيس الفظيعة.. الحفارة فى صدرى.. يد مجهولة معقوفة الأظافر تدفع بها.. الدم والحصى يتناثر على وجهى.. لولا الرماد فى حلقى لصرخت.. (يا فراس.. هل كنت تفهم معنى أن نفترق) خائفة..بيطء.. ببطء مخيف يرتجف مقبض الباب. يتحرك.. تعلو الصرخات.. يفتح الباب.. تتدفق موسيقى الوليمة فى القبو.. مَنْ.. من.. من يمكن أن يأتى الآن؟.. مَنْ صاحب اليد ذات الأظافر المعقوفة؟ تدخل فتاة أظافرها ليست معقوفة.

- ليلى.. كفاك دراسة.. كلهم يسأل عنك، تعالى قليلا، فالحفلة قد شارفت على النهاية على أية حـال...

كان من الصعب أن أجيبها بالإنكليزية، وحتى بالعربية. أحسست باللغـة شيء مضحك وسخيـف، والحـديث الوحيـد الحقيقى هـو انتحاب سجناء البناء الداخلى الآخـر.. حـديث مـن طـرف واحـد. الحوار أكذوبة.. الالتصاق وحده هو الحوار الحقيقي.. الانسكاب.. أن أنسكب مـن أمي.. أن ينسكب لبنهـا فى جــوفى.. أن ينسكب فراس فى ارتشافى..

ولكنى خائفة.. فلأ هبط قليـلاً.

الطرب ما يزال يهزها.. تقف وتحرك قدميها مع الألحان المتوترة من القبو.

بينما أغلق أزرار ثوب بسيط ينفد صبرها.. ربما ما يزال صديقها واقفاً فى الحلبة وفاتحاً ذراعيه بانتظارها كما تركته، قالت: «إلحقى بى بسرعة».. تخرج.. ألحق بها بعـد دقائـق.

أهبط الدرج إلى القبو. أمرّ بالهاتف. أمسك بسماعته وأدير أرقامك كالمخدرة.. وأسمع صوتك مشحوناً بالنعاس والتأفف.. آلو.

(يا فراس كيف تستطيع أن تنـام الليلـة.. الليلـة وقـد عـدت ذئبـاً وحيداً، وخلفتنى ليلى بلا جـزار)..

بكلتا يدى أقبض على السماعة، وبثقلى كله أشدها وأقطع الشريط الأسود.. الجسر الأكذوبة للالتصاق الأكذوبة.. غداً سأكون المتهمة

الوحيدة.. فأنا كما يعرف الجميع شريرة.. الشريرة الوحيدة.. كيف يمكن لامرأة رقيقة وراقية أن تنجب فتاة شرسة هكذا..

على باب القبو أقف.. عبثاً أنتمى إلى عالمهم.. الأضواء لففنها بالورق الملون وامتزج الأحمر القانى بالأزرق الخافت بأخضر الغابات المسود.. وعلى الجدران الأوراق المقصوصة.. وعلى الرؤوس الطراطير، والفتات الملونة لم تُنفض كلها عن الوجوه، فالتصقت بالعرق، والضجيج، وزملاء الدراسة يلعبون أدوارهم الحقيقية، والضحك، وقرع الطبول، والرقص والشعر المتطاير، والريح فى الخارج خائفة، واليد المجهولة ذات الأظافر المعقوفة تتخبط فى الفضاء بحثاً عن صدر تزج بالحفارة فيه، والحفارة فى صدرى، والمخلوقات السجينة فى البناء الآخر برغم كل شىء أسمعها تلهث فى أذنى (يا فراس... كان من الصعب أن تفهم، وإلا لما استطعت أن تنام)، والثياب تتطاير، وأنا أزداد التصاقاً بالباب، بحاجة إلى أن التصق بشىء ما.. الوجوه تدور أمامى، تدور، تقفز، تصرخ، تهذى، الموسيقى تعول، الطبل الطبل، فجأة أرى الأقدام عارية، الثياب مخيفة الألوان، الطبل وحده ضرباته وحشية متلاحقة، القبو المزين غابة فى الليل، والنار، ووليمة وعلى الوجوه أصباغ مخيفة، والعويل، والبناءان صارا بناء واحداً، وجوقة النحيب هناك، هنا، والسماء لوحة فولاذية ليس عليها حرف واحد، ثم كرة صغيرة ثم شحنات مجهولة تتدفق منها، ويسرى وعى مبهم بخطر فظيع، الكل يتلفت حوله، والخوف، والرقص الوحشى، وعلينا أن نرفع ضحية ما بطريقة ما لنهرب من مصير ندفع إليه،

لنهرب من تعذيب أحدنا للآخر. فقدنا القدرة على المراوغة وفى الأعلى اليد الكبيرة ذات الأظافر المعقوفة تهيمن، نطيع ونتوقف عن انتحال الأسباب وتسخير المنطق، والقرع الفظيع، والرعب، والهستيريا من الضربات العارية على الأرض، أين دبابيسى. ليخرج كل دُماه.. أين الدبابيس خائفة.. خائفة..

وأركض.. أركض.. أنا في الغابة خائفة، أنا فى الغابة.. يجب أن أهرب.. أن أهرب.. أن أهرب، يجب أن يتوقف كل شىء بطريقة ما، أهرب مما لا أدريه إلى ما لا يوجد.. ماذا؟ ماذا؟ لا!..

ربما بعنف أغلقت باب غرفتى ورائى. زبيدة شريكتى (بالقرعة) فى الغرفة تقفز بهلع من نومها.. النور الباهت على مكتبتى ما يزال مضاء.. تصرخ رعباً وهى تنظر فى وجهى، ثم فى مشهد الدمى المشنوقة المتدلية من الجدار خلف المكتبة..

– هل عدت إلى هذه الأعمال الفظيعة.. سأقدم شكوى غداً ضدك وسأطلب نقلى من هذا الجحيم الوثنى. لا أستطيع أن أعيش فى غرفة واحدة مع شريرة. انظرى إلى وجهك فى المرآة...

ونظرت إلى المرآة ولم أر فيها شيئاً!. على الجدار يتأرجح شريط الدمى المشنوقة فى الريح.. دمية لامرأة جميلة وجهها على صينية من الدانتيلا والتنتناه وثوبها الطويل من الحرير، وفى فمها (بز) عاجى صغير، وعود يشبه سيجارة.. وعلى صدرها عَلقتُ ورقة بيضاء، صغيرة، برقية، بعشرات الدبابيس غرزتها وثبتها.. برقية تلقيتها بعد الأعياد..

... انفجرت ضاحكة أمام الموظف المشدوه.. برقية؟.. برقية من والدتى مع الحوالة النقدية؟.. قلت ربما كانت برقية تهنئة بعيد ميلادى. بعيد خلاص رشاقتها منذ عشرين عاماً من التشويه الذى أحدثته لأشهر...

وقرأت: «تم الطلاق بينى وبين والدك... اختارى أحدنا»..

وانفجرت أضحك.. نكتة حلوة سأرويها لصديقتى الجمجمة ونحن نغرس الدبابيس ونضحك..

أعطيت البرقية للموظف المشدوه وطلبت منه قراءتها.. كنت بحاجة لأن يشاركنى إنسان ما ضحكى. يشاركنى.. يبدو أنه لم يفهم النكتة.. سألنى بلطف مشفق إذا كنت بخير..

فى طريقى إلى الجانب الآخر من التل لم أتمالك نفسى من الضحك.. برغم نظرات زبائن (فيصل) و (أنكل سام) المدهوشة.. أن أختار أحدهما!!.. كيف أختار إذا كنت لا أعرف عنهما إلا أخبارهما فى الصحف؟.. ربما كانت الآن تجرى حصر الأمتعة استعداداً ليتقاسماها فيما بينهما، وحصر الفواتير لتقسيم الثروة، وتذكرانى لما وجدا فواتير المرضعة والمدارس الداخلية..

تطلب منى أن أختار أحدهما!..

خمسة عشر عاماً وأنا وحيدة، أتسول يداً كبيرة دافئة كسقف دار. خمسة عشر عاماً من جحيم إلى جحيم، وأنا دوماً النعجة السوداء الشاردة.. خمسة عشر عاماً وليلى فى الغابة بحثاً عن

الذئب كى يؤنس وحدتها.. خمسة عشر عاماً وأنا أينما حللت الشريرة الشرسة.

أن أختار أحدهما!.. كأنْ كان لى أحدهما كى أختار.. وطويت البرقية.. وفتحت مفكرتى وأنا أغادر باب الجامعة وأسير فى الجانب الثانى من التل..

واتجهت إلى مخزن «معتوق». اخترته لا لمنظر الحلويات فى واجهته ولكن لأن اسمه «معتوق».. اسم عربى كاسم «مدجج» فقد سئمت الحديث الدائم باللغة الأخرى.. خلف الموظف كان وجهى فى مرآة.

– أريد كعكعة لعيد ميلاد الجمجمة.

– ماذا؟..

– قلت لك لعيد ميلادى.. أريدها كهذه الكعكة..

– حاضر. عنوان البيت؟

البيت! كلمة مرعبة...

– بيتى شارع طويل على جانبيه شريط من الغرف المتشابهة و...

– عفواً.. لم أفهم اسم الشارع..

– المصيطبة.. رقم...

أعطيته عنوان دارك يا فراس..

– والاسم ؟

– رقم ٢٠٢ ..

– عفواً لمقاطعتك، ولكن لا حاجة لرقم الهاتف. الاسم فقط..

– بالضبط... ٢٠٢

– لم أسمع...

– فراس!.. المهندس فراس هاشم..

وخرجت هاربة. كان من الصعب أن أفسر له أن بنات سيدات المجتمع صاحبات الجمال الخالد (بلا أسماء وبلا عناوين)...

زبيدة لا تزال تصرخ. في عينيها خوف تافه لئيم. الخوف، لو تعرف ما الخوف (يا فراس.. أحقًا أنك نائم؟.. هل استطعت أن تنام مثلها؟)..

– انزلي هذه الدمى.. الغرفة مليئة بالأرواح الشريرة.

تتثاءب من جديد.

– لم أنم ثانية واحدة منذ جئت إلى هذه الغرفة المشؤومة. تمد يدها إلى المنضدة..

– سأقرأ بعض الأدعية لأنام.

تلتقط كتابها الجنسي ذا الغلاف «أعمدة الحكمة السبعة» وتسوى غطاء فراشها مع سجادة الصلاة التي تحب أن تمدها فوق الأغطية!.. تشعل النورالصغير فوق رأسها.. فك الجمجمة يتوقف لحظة عن الارتعاد.. تصوب إلى زبيدة من مغارتَيْ عينيها أشعة سوداء قاسية.. ثم يعاود وجهها ذلك التعبير الساحر الحلو..

بحنان أتحسس عظامها..

– يا جمجمتي الحسناء.. لو كنت دافئة فقط..

تصرخ زبيدة: كفّى عن مخاطبة الجمجمة، هذه وسيلة إيضاح لدراستك وليست صديقة ثالثة فى الغرفة.. ولملمى هذه الدمى..

الدمية الثانية.. لرجل بلا وجه، أشيب الشعر منتفخ الجيب.. كانت جيوب أبى منتفخة دائماً، ولم يكن فيها قط حلوى لى. فى درجى الخاص أدفنهما من جديد

وفى الدامية الثالثة، دميتك، أدفن دبوساً جديداً..

أعض على شفتى لأمص من شفتى دمك..

قد أبكى إذا آلمتك، فأستريح..

افترقنا..

لم يحدث شيء.. أبداً كنت خائفة، أبداً كانت الغابة موحشة والليل طويلا، وأنا سجينة أنتمى إلى قافلة الاحتجاج الدامى فى البناء الداخلى الآخر.. (يا فراس.. لا ريب فى أنك لا تدرى.. لا ريب فى ذلك فقد كنت أبداً كبيراً وكريماً.. وفى لحظات الغروب كنت أحب أن أراك، لأن ظلك على الرمل كان طويلا طويلا أركض وأركض لأدرك الرأس فيه.. وتغيب الشمس ويختفى قبل أن أصل إلى نهايته العملاقة.. إنك متعب، ولا تدرى، ولهذا أنت نائم.. آسفة لأننى أيقظتك)..

تعود الحفارة إلى صدرى.. لا.. لست آسفة لست بآسفة، كان عليك أن تدرى.. لقد سمعت الأصوات ذات ليلة.. خذ، هذا دبوس آخر فى دميتك...

ربما أبكى إذا استطعت أن أولمك، فأستريح!..

(تصرخ الراهبة فى وجهى: ابكى.. كونى طفلة طيبة تصلى وتكتب الرسائل لأمها.. ابكى فالفتيات الشريرات فقط لا يبكين ولا يستغفرن..

وكنت أبكى بمرارة بلا صوت ولا دموع.. كان من الصعب أن أتعرى أمامها.. كنت أحس أنها بلا قلب، وأننى بحاجة للبكاء لأنى خائفة، لا لأنى طامعة فى قطعة الحلوى كبقية الفتيات.

سأعاقبك ولن أسامحك حتى تبكين.. أديرى وجهك للحائط وقفى على ساق واحدة.

وتحجرت.. كسرة خبز جافة للعشاء وكأس ماء.. لم آكل قطعة الخبز لكننى وأنا أشرب الماء تذكرت حلماً فظيعاً رأيته ولا أدرى كيف أطبقت بأسنانى على الكأس.

وعرفت طعم الزجاج المسحوق بالأسنان، الممزوج بدم مالح وحار).

كفت الموسيقى. ربما تعبوا. أسمع وقع خطى كثيرة على الدرج. مارسنَ تخديرهن وودعن الفرسان. وعدنَ إلى جحورهن.. وسوف ينمن بسلام كما فى كل ليلة، ولن يسمعن الأصوات المخيفة.. زبيدة تطفىء النور الصغير فوق رأسها. وترمى بالكتاب من يدها لتنام من جديد وهى تتمتم: لم أعرف طعم النوم منذ جئت إلى هذه الغرفة المشؤومة..

أنا من جديد مسمرة خلف منضدتى.

خائفة، برغم أصوات الأبواب التى تفتح وتغلق وانسكاب المياه وصوت بقايا النشوة الضاحكة.. الضحك. يضحكن برغم انتحاب مخلوقات البناء الآخر المقابل، ويحلمن.. رغم كابوس ليلى فى الغرفة المجاورة.. الجوع وحده هو الذى يجمعنا إلى مائدة واحدة.. لا جسر لا خيط لا حوار.. (يا فراس لا جسر لا خيط لا حوار؟.. ويدك؟ سقف سحابة؟ يا فراس.. لا يهمنى كيف ولماذا، كل ما أعرفه هو أننى لن أتكوم فى صدرك يا ذئبى الحنون وأننى أحببتك حقًا ذات يوم.. ولكنك لن تدرى ولم تدر برغم كل ما قلته وما كنت أود أن أقوله.. فالحوار ميت ما دامت الكلمات فى عالمك تعنى شيئاً آخر عما تعينه فى عالمى.. وكل ما قيل كان للرياح لأن خط الهاتف كان مقطوعاً دائماً.. اليد المجهولة ذات الأظافر المعقوفة قطعته.. كان مقطوعاً منذ البداية، لم أقطعه الليلة أنا.. غداً كيف أفسر لهم أننى لست شريرة وأن شريط الهاتف كان مقطوعاً دائماً دائماً..

ومع ذلك، كان يكفى أن أحس أنك فى الطرف الآخر من الجهاز الأكذوبة وأنك على الأقل تحاول أن تكون معى، وأنفاسك اللاهثة جسر نور مرتجف).

بدأ ضجيجهن يخفت. زبيدة غارقة فى النوم من جديد، الجمجمة صامتة وحزينة. الأصوات هدأت برهة لكننى أعرف أنها ستعود. عدت وحدى معك.. عن الجدار أتناول دميتك. أنتزع الدبابيس منها واحداً بعد الآخر.. كم أحببتك.. (يا فراس.. أعرف أنك أحببتنى كما لم تحب امرأة فى حياتك.. أعرف أنك أيضاً وحيد

وكئيب، وأن شفتيك ما تزالان تجوسان عنقى بحنانهما العجيب، لكنهما تقولان كما أقول: افترقنا.. لم يحدث شيء).

بلى.. حدث شيء فظيع، وهو أن ما حدث لن يتكرر ربما طيلة العمر.. وأننا افترقنا بلا مبرر، ولم يكن هنالك أى مهرب من ذلك.. والحفارة لم تختر صدرى بنفسها. هنالك طرف ثالث فى كل ما كان.. نتصرف كأننا وحدنا كل شيء، وننسى اليد المجهولة ذات الأظافر المعقوفة. ربما لأننا لا ندرى عنها شيئاً، لكننا نعرف أنها مادام ذلك كله يحدث، ولا يتبقى لنا إلا الخوف، وعناقنا احتماء خائف بخائف.. (يا فراس.. أين أنت أخفيك فى صدرى من خوفى). لن أقبل دميتك، أخشى أن لا أبكى فأنفجر.. يجب أن أبكى مرة ما..

– ابك. قولى أى شيء..

ظللت صامتة. كنت أعرف أن ذلك سوف يحدث. كنت أعرف أن لا مفر من أن يحدث. ظللت جامدة. تمنيت شيئاً واحداً: أن أروى لك ذلك الحلم الذى يلازمنى منذ طفولتى، منذ عرفت طعم الزجاج المسحوق بالدم.

أنا طفلة أركض باكية فى غابة مخيفة الأصوات. جائعة. جائعة لأننى خائفة. لأننى هربت من كوخ جدتى التى تتمدد دائماً فى فراش لا تنهض منه ولا يبدو منها سوى رأسها عائماً فوق الدانتيل والتنتناه، ويدها التى تمسك (بز) سيجارة من العاج المنقوش وتدخن، أو تمدها للرجال الداخلين والخارجين باستمرار فينحنون لتقبيلها..

فقد حدث أن أحسست بالجوع لأننى أحسست بالخوف.. ولما دببت على فراشها بحثاً عن صدرها لأرضع بنفسى بعد أن شاهدت إحدى الخادمات ترضع طفلها دفعتنى بقسوة لأنها مشغولة ولا وقت لديها.

هجمت عليها بأنيابى الصغيرة، مزقت ثوبها لأننى جائعة لأننى خائفة، لأننى سأموت رعباً إذا لم أرضع.. ولما طردتنى من الغرفة هربت إلى الغابة بحثاً عن الذئب لأرضع.. كنت أعرف أنه هناك، ولم أكن خائفة منه كبقية الأطفال.. كنت أعرف أنه يحبهم بطريقته الخاصة، وكنت أعرف أنه ليس شريراً، وأنه ربما سيروى لى قصته.. وينتهى الحلم دائماً وأنا فى الغابة أبحث بلهفة عن الذئب.. تمنيت أن أقول إننى لست آسفة على شىء ولست نادمة وإننى أفيض امتناناً ومحبة.. وإننى إذا رويت قصة ليلى والذئب لأولادى فسأخبرهم بأنه كان شابًّا رقيقاً شفاف العينين. فى احتضانه الشرس لليلى تخدير يشبه الحنان، يشبه اغتصاب موت عنيف كاليقظة وكالفرح.. وأنه لم يعذب ليلى، وأنه أراد أن يقبلها، لكن أسنانه رُكِّبَتْ بطريقة جعلت من قبلته عضة مميتة.. وأنه حاول فى البداية أن ينسيها خوفها بعناقه الدافىء المنعش، فلما ابتسمت بنشوة طفل فرغ للتو من امتصاص ثدى أمه، تمنى أن يمنحها كل ما يملك..

لمّا سرى سمه فى جسدها لم يستطع أن يصدق.. كان يظن أنه يمنحها عسلا ورحيقاً.. مَن شوهه هكذا دون أن يدرى؟.. فصار حينما يظن أنه يبتسم، يستحيل مرعباً مخيفاً كأصوات الغابة ؟؟.. كأنه صورة حسية للأصوات البائسة..

وحينما قتل الخوف ليلى لم يدرك أحد أن ليلى كانت هى الذئب لأنها أتعسته بحبه لها، وجعلته يدرك كم هو عاجز وضعيف ووحيد.

ومن يومها انطلق الذئب فى الغابة بحثاً عن يد مجهولة لها أظافر معقوفة..

أردت أن أقول لك هذا كله.. لتعرف لماذا لم أبك ولم أناقش، ولماذا كنت أعرف أن شيئاً ما سوف يحدث.

عدت تهمس بقسوة تقسرها عن الانسكاب فى ارتجاف صوتك الحزين: ليلى.. قولى شيئاً.. ما رأيك؟.. وكان يقف خلفك أحد عمالك وبيده الحفارة الكهربائية.. ألصق نابها الذى يدور بوحشية على صدر الصخر وبدأ يأكلها والغبار الصخرى يتطاير.. كنت تقول.. ليلى.. يجب أن تفهمى أننى.. وضاع صوتك فى ضجيج ناب الحفارة الذى يدور بوحشية وينغرس شيئاً فشيئاً فى الصخر..

ربما لم يضع تماماً فقد ظللت تحرك شفتيك وتشير بيديك، لكننى لم أعد أسمع شيئاً.. لمحت لسانك يتحرك فى فمك، ثم لم أعد أرى سوى لسانك، ثم أحسستنى عارية ممدودة على الصخر فى الغابة ولسانك حفارة تعمل فى صدرى.. فولاذ لا حد لوحشية دورانه وتمزيقه.. الحفارة فى صدرى. عاجزة عن الفهم. عن المناقشة.. الأشياء أقسى من أن تكون موضوع بحث منطقى.. أردت أن أهرب لم أستطع. على وجهى يتطاير الحصى من صدرى.. كفى.. صممت الحفارة.. اقترب العامل منك ليسألك عن شىء ما.. سمعته يخاطبك: سيد فراس. فذكرت اسمك.. فراس. المهندس

فراس.. ذئبى الغالى.. التفت إليه تناقشه باهتمام كبير. لم أسمع صوتك.. لم أعد أسمع شيئاً.. أغمى على الأصوات.. ربما سرت طويلا فى شوارع المدينة التى تصادف أننى أعيش فيها.. لم أكن حزينة ولا فرحة ولا متعبة ولا مدهوشة.

افترقنا..

لم يحدث شىء.

كنت خائفة فقط كما كنت أبداً.. الخوف القديم التوأم نفسه...

توقفت عند أول بائع عصير فقد كان فمى مرًّا كما لم يكن أبداً.

كان كل ما أعرفه هو أننى رضعت فى الغابة نباتاً مر السموم.

ولا أذكر كيف ومتى.

كنت أتأمل وجه بائع العصير وأحاول أن أذكر أين ومتى رأيته... كان مألوفاً لدى إلى حد لا يصدق.. ومحبباً

مرة قلت لى: لا أطمئن إليك يا ليلى.. تتصرفين كالأطفال... ردود فعلك كالأطفال.. تحبين بسرعة وتنسين بسرعة، ولا تعرفين فى بعض اللحظات معنى ما تحسين به..

وظللت أتأمل وجه بائع العصير وشاربيه.. أين؟ أين؟.. ثم تذكرت أنه يشبه وجه قطى مدجج. لو ألصق وجهه على جسد رجل لكانت الحصيلة هكذا.. لذا تناولت كأس العصير منه وقلت: شكراً يا مدجج.. ضحك بدهشة القطط واهتز شارباه. وهنا كدت أتأكد من أنه مدجج نفسه وأردت أن أسأله إن كان سيخلع هذا الجسد

المضحك ويعود إلى الحديقة مساء وقت العشاء، وإذا كان يريد مني اليوم أن أسرق له فخذ دجاج من (الكافيتيريا) أم أن لديه فئراناً كافية.. لكن رجلا مر بنا في تلك اللحظة، وقد حمل بين يديه بعناية لفافة صغيرة.. تمتم بائع العصير الذى لم يعد يشبه مدجج: إنا لله وإنا إليه راجعون.. جف حليب زوجته من التعب والفقر، ومات طفلهما جوعاً!..

وهنا فقط لاحظت أن ثيابه رثة وقذرة، وأنه يحمل جثة طفل ملفوف بشرشف ممزق.. وفى رأسه المنكس انكسار لا حد له.. ذل غريب في خطواته المتثاقلة، ذل إنسان مقسور على أداء دور لا يدرى كيف ولماذا زج به.. شيء ما فى المشهد أعادنى أمامك.. عدت أسمع صوتك: ابكى... ناقشى... قولى شيئاً... عدت أسمع حديثك الضائع فى أزيز الحفارة. عادت الحفارة. لسانك. الحفارة على صدرى من جديد كلماتك لا أسمعها لكننى أشم الكارثة بالحاسة نفسها التى يدرك بها الأطفال أن عزيزاً ما فى الدار مات دون أن يفهموا معني ما يدور. الحفارة بوحشية تدور، بوحشية تنغرس فى صدرى. أختنق. أعجز عن الصراخ، تزداد أكلا لأعصابى. هذه المرة أحسها تقسر على الانغراس فى صدرى. اليد المجهولة ذات الأظافر تدفع بها. تقسرها.. هذه المرة أحس بانكسار لا حد له فى رأسها الفولاذى.. بذل عجيب فى قسوتها، ذل آلة مجبرة على أداء دور لا تدرى كيف ولماذا زج بها فيه.. أحسست برغبة فى أن أتحدى اليد المجهولة.. فى أن أشد الحفارة إلى صدرى، أزداد التصاقاً بها.. أحسست أننى أحبك.. أنك أيضاً خائف مثلى،

ربما كنت أكثر خوفاً، لكنك كالكبار جميعاً، وكالذئاب، ترفض أن تعترف بذلك كله. أحسست أن وجهى بدا يتجعد، وظهرى ينحنى، وأسنانى تتساقط فى فمى، وأنفاسى تضيق، والرماد الصدىء فى حلقى يتكاثر، وأننى عجوز عجوز، وسيرتاع بائع العصير لو نظر إلى، فرميت بالكأس أمه، وتلمظت بطعم الزجاج المسحوق فى فمى المهترىء، وغمرنى حزن كبيرْ كبير.. حزن أشد قسوة من الخوف ومن الغربة..

حزنت حزناً طفلاً عجوزاً ليس فيه من رياء حزن الكبار والذئاب ومكابرتهم.. دون أن أدرى لماذا وكيف سرت خلف الرجل فى جنازة الطفل الذى لم يرضع..

سرت طويلا، ويداى مشدودتان أمامى، مثقلتان بشبح جثة لا أدرى كيف أدفنها.

نظرات المارة لا تهمنى.. لو سمعوا نحيب المبنى الآخر لساروا جميعاً خلفى.. سرت طويلا.. لا أدرى كيف أدفنها).

والآن.. لا أدرى كيف أبكيها.. لا شىء يبكيها. صمت عجيب. كل شىء صامت وجامد. الخوف متصلب خوفاً.. زبيدة نائمة.. إنى خائفة. ربما كانت ميتة.

الجمجمة عادت مجموعة جامدة من العظام المتقززة، لأن الديدان ساحت عليها زمناً طويلاً قبل أن تدرك أنها فرغت تماماً ولم يبق فيها ما يؤكل..

عبثاً أحاول أن أقرأ فى كتابى المفتوح. ماتت الحروف واستحالت جثثاً ولم تعد تعبر عن أى شىء..

الأشجار ماتت خلف النافذة. لا حركة. لا صوت سقوط ثمرة على الأرض.

سكان المبنى المقابل توقفوا تماماً عن الأنين. استحال المبنى قلعة تعذيب مات هلها منذ زمن بعيد.. حتى الأعشاب السامة التى تنمو بغزارة على جدرانها توقفت فى هذه اللحظة.

مات كل شيء.. والجثث الثقيلة كلها تطفو فوق صدرى.. والخوف مات خوفاً.

جثث الرياح ممددة تحت الأشجار.. وجثث الأصوات.. والليل الوباء توقف عن الانتشار فى عروق الوجود الميتة.. والعتمة المهيمنة ليست إلا خيال اليد المجهولة المعقوفة الأظافر التى ربما تهوم فى هذه اللحظة بالذات فوق المكان. والخوف مات فيه الترقب والنبض والتشنج.. أحسه غازاً فولاذيًا كثيفاً ينسكب ببطء من جثث الأشياء كلها ويتجمع فى الأرض ويعلو ببطء طوفان غادر الصمت ليغرق العالم.. أصرخ: زبيدة..

لا تتحرك. أخرج من الغرفة مسعورة. الممشى الطويل ميت. لا حسّ. لا حركة، لا ضوء من شقوق الأبواب. أنا وحيدة فى ساحة معركة انتهت منذ ساعات وكف الجرحى عن الأنين وماتوا جميعاً.. خائفة. (يا فراس يا فراس أين نبض عروقك؟..أريد أن أتحسسها.. أن أفرح بملمس الحياة وتوثبها).. على الدرج أركض مجنونة.. إلى الهاتف. أمسك بالسماعة وأدير أرقامك. الهاتف أيضاً ميت. الجسور كلها مقطعة.. أقفز مجنونة إلى لوحة الأزرار المائة، كل زر فيها موصول بإحدى الغرف المائة.. سأضغط عليها كلها

دفعة واحدة لتدق الأجراس في الغرف كلها ويستيقظ الجميع.. طوفان الخوف الفولاذي يعلو ويعلو. يصل حتى ذقني. بعد قليل أختنق، وأعجز عن ابتلاع الهواء الميت الثقيل..

ألتصق بجسدي باللوحة.. ألتصق بها بشراسة.. ألتصق بالأزرار وأضغط وأتمنى لو تمتصني الأزرار وتحملني الأسلاك المائة لتوزعني على الغرف كلها ولأكون في وقت واحد مع مئتين من المخلوقات الحية التي تنام في الليل.. الأجراس لم تمت. تنطلق مسعورة. مائة جرس في لحظة واحدة. ضجيج رائع.. ستستيقظ الجثث بقية الليل ولن أبقى وحيدة مع الموت الميت.. بفرح أسمع جلبتهن.. بشماتة أنصت إلى وقع أقدامهن على الدرج.. أتسلل إلى القبو لأختبىء وأصواتهن الهلعة الهابطة نحو اللوحة تطربني.. جوارهن الفزع يريحني.. الآن، كلهن مثلي، خائفات وحائرات وغير نائمات يبحثن عن الشبح المزعج دائماً.. القبو بشع.. بقايا الوليمة في الظلمة لا حد لبشاعتها.. بقايا الأكل، بقايا الروائح.. أعقاب اللفافات المستهلكة، أعقاب النكات وعبارات الحب المستهلكة.. بقايا الزهور.. الكراسي الفارغة المشوشة الترتيب. الزينات الممزقة.. القبو وجه مومس عجوز ساح ماكياجها.. لماذا لم يغادروا المكان وكل شيء في أوجه؟.. لماذا نشوه الأشياء بإصرارنا على استهلاكها حتى النهاية؟.. (ربما انتصرنا على البشاعة ولو لمرة يا فراس.. وليمتنا ما تزال في أولها.. نكاتنا لم نقلها بعد.. أسماكنا ما زالت حارة ومكسوة باللحم، لم نعر عظامها بعد، ولن تفوح منها قط رائحة زنخة.. وزهورنا لم نقطفها، وموسيقانا لم نرقص على ألحانها، ولم نبدأ

استمتاعنا بها.. ربما لم تكن جريمة أن نفترق، ربما كانت الجريمة هى أن لا نجرؤ على ارتكابها فى الوقت المناسب.. الآن، سيظل اسمك أبداً يأكلنى حبًّا وشوقاً وحنيناً وجوعاً كلما ذكرته.. وسأظل أحلم بالساعات التى لن تصدأ لأنها لن تكون، وسأظل أستمتع بقبلاتك التى لن أسأمها لأننى لن أنالها، وستظل شفتاك حارتين بين شفتى، لن تبردا لأننى لو أطبقت عليهما لما وجدتهما).

حزن لا حد لمرارته كان سيعم فى القبو لو لم يتم الحفل.. ولو لم تفح رائحة النهاية المقرفة.. لا مفر. حزن أو قرف.. لماذا لا يسمح لنا بأن نصنع مصيراً ثالثاً ؟

كيف وأنا سجينة.. وصوت السجان الذى أحببته انطفأ.. أتسلل على الدرج. شىء لا يصدق. هدوء عجيب. عدن إلى النوم، ببساطة. كلهن راضيات بالحزن أو القرف. كأن سكان البناء الآخر من الذين لا يطمعون فى مصير ثالث.. ربما عوقبوا لطمعهم بمصير ثالث.. (يا فراس. ربما دون أن أدرى كنت أطمع بمصير ثالث لنا) لست خائفة.. لم يبق ما يمكن أن يخيفنى.. يجب أن أهرب.. الجدران تقترب منى، يجب أن أهرب.. يجب أن أطير من هنا.. (المكان بلا أفيونك لا يطاق يا فراس) أرفع رأسى إلى السقف.. لقد هربت الملائكة التى كانت ملصقة هناك.. ترى هل نبتت أجنحتى الآن بعد هذه الأعوام الطويلة.

(– لم تحاول طفلة الهرب من هذا المكان قبل اليوم.. لو لم يجدك الحارس لأكلتك ذئاب برمانا.. وبرغم غطاء الراهبة على

رأسها، رأيت شعرها ينتصب، ورأسها يستحيل إلى قنفذ شرس. فظللت أتأملها بدهشة، ورأسى يكاد لا يصل إلى خصرها.

– انظرى إلى الأرض يا طفلة الشيطان.

ونظرت إلى السقف.

وفى السقف كانت هنالك صور ملائكة لها أجنحة، رأيتها للمرة الأولى يوم جاءت بى أمى إلى هذا المكان..

أدهشنى أنها ما زالت فى السقف، ولم تغادر هذا المكان الفظيع برغم أن لها أجنحة..

وقررت.. غداً حينما أكبر وتطول أجنحتى سأهرب وأطير بعيداً بعيداً.

وكنت فى كل صباح أتحسس كتفى بحثاً عن أجنحتى التى ستطول)..

يجب أن أخرج الآن من هذا المكان. سأهرب إلى الغابة.. سأتسلل من النافذة الضيقة الوحيدة التى لا تغطيها القضبان.. ربما استطعت التسلل.. غرفة الألعاب ضيقة ومظلمة.. سوف أهرب، سوف أهرب.. ضربات قلبى مرتفعة. ربما أيقظت المديرة التى لم يوقظها قرع الأجراس المائة.. (أين همسك يخدرنى، يعيدنى إلى فراشى مهدئًا) أحمل كرسيًا وترتجف يداى وأنا أحاول أن أضعه تحت النافذة بلا صوت. أصعد عليه. أفتحها، نحيب طويل حزين ممطوط من البناء المقابل. أرفع ركبتى إلى النافذة وأنا أمسك بأحجارها من الخارج أتمدد بطرف جسدى عليها.. نحيب آخر،

ثم عشرات الصرخات من نباح حاد غريب.. ربما كانوا فى البناء الآخر فرحين من أجلى لأن أجنحتى طالت وها أنا أهرب.. بجسدى النحيل ورأسى المحنى أنزلق على النافذة إلى طرفها الآخر ويصبح رأسى ونصفى فى الخارج.. أستوى جالسة بصعوبة، نصف مثنية إلى الداخل لأحفظ توازنى.

أقفز إلى الأرض، أحسنى أطير من النافذة..

أقفز فى الغابة.. حرة..

حزينة لأننى أعرف أن لا ذئب فيها (فراس، يا ذئبى الطيب. كيف.. استطعنا أن نفترق؟)..

أنا فى الغابة.. وحرة..

وماذا بعد؟..

لذة عجيبة فى أن أتحرك طليقة لمجرد أننى أريد أن أتحرك، أن أطير من النافذة وأعود ليلى حينما يكون على أن أتمدد فى فراش أمامه باب كتب عليه رقم ٢٠٢.. أقفز طليقة.. أركض طليقة وأفتح ذراعى لأضم الريح والليل والصمت المريب..

إحساس يشبه فرحاً عجوزاً يغمرنى..

يكبر يكبر فيصبح فرحاً طفلاً.

توق غامض إلى ما لا أدريه ينبض فى أجنحتى وأنا أطير وأطير.. الغابة.. أنا طليقة فى الغابة..

كلهن نائمات، يتلقين من النوم أحلامهن صدقة.. أنا وحدى أطير من بين القضبان لأكتشف أحلامى، لأصنعها..

برد برد.. تعبت من الركض.. برد على جبيني تتجمد حبات العرق.. أجنحتى تضمر.. بصعوبة أنتزع خطواتى.. بصعوبة أدب على التراب الموحل..

صمت مريب فى المجهول الذى أبحث عنه.. صمت مريب يفوح من رائحة الأغصان العملاقة والظلمة المشبوهة وظلالها اللثيمة.

الجذوع خشنة تجرح خدى.. همسات وأنين وأصوات غامضة لمؤامرات مجهولة تحاك فى الأجمات ضدى.. على شجرة ما سوف تمتد اليد المجهولة ذات الأظافر لتشنقنى.. وحينما تهز الريح جثتى ويتعالى قرع الطبول سوف تنهال على الدبابيس والرماح، تغرس فى صدرى. وإذا بكيت فسيخيفنى صوتى لأننى سأنبح نباحاً طويلاً مسعوراً يضيع مع أصوات قافلة العذاب فى البناء المرعب.

الغابة قاسية، كالمدينة، (كالبستانى هول)، كالجانب الآخر من التل ونظرات أهله خلف زجاج مقاهيهم.

عبثاً أصرخ.. فى حلقى انتحرت الأصوات رعباً، وشىء رخو سقط على رقبتى. أحس بما يشبه الملاقط الدقيقة يتمسك بلحمى، أتقزز هلعاً..

بلا وعى أنتزعه وأرمى به.. ربما كان دودة كبيرة.. صرصاراً.. أو ربما..

آلاف الصور لمختلف الحشرات التى طالما درستها ورأيت صورها فى كتبى أحسها تتحرك الآن فى موكب مخيف.. تزحف فى القمة هابطة إحدى الأشجار وتتحرك نحوى.. آلاف الديدان

والعلق والسرطانات والهوام التى طالما شرحتها فى المخابر وثبتّ الدبابيس فى جسدها على قرص شمعى فى حوض، وغمرتها بمختلف المحاليل ومزقتها بمشرطى، كلها تزحف نحوى حاقدة نهمة، تتسلق جسدى وتنفذ إلى لحمى خلال فتحات ثوب نومى الهزيل.. أسمع صوت انسحاق بعضها تحت خفى الرقيق وأكاد أسمع انسحاق أسنانى المتشنجة.

الغابة كبيرة.. فى الليل، فى النهار، فى الشوارع، فى العيون، الغابة القاسية والهمسات المريبة والدبابيس والمؤامرات فى الزوايا وأنا وحيدة وحيدة وحيدة.. (يا فراس أين أفيونى؟)

أنا حرة فى الغابة..

ما الفرق؟.. بعد دقائق أصل أسوارها، وأمام الأسوار حراس، وخلف الأسوار غابة، وفى الصباح غابة.. لا شىء يتبدل سوى الأصوات والألوان ويظل المضمون واحداً، والهلع والبرد.

على الدرج الحجرى أصعد بصعوبة.. فى الليل يقطن العالم سكان آخرون، وعلى الدرج الذى يغلى بالطالبات فى النهار تتحرك الآن عشرات الديدان والحشرات الأخرى الفظيعة -.. ما الفرق ما دمت أبداً خائفة ومتقززة ووحيدة.. (إلا أيام كنا نهبط معاً، معك وحدك يا فراس كان الغاب ينحسر).

صرت قرب البناء الآخر..

الأصوات عادت تنطلق. قافلة العذاب بأكملها تعوى والدم يسيل من ألسنتها المقطعة على حديد أقفاصها.. والليل بارد وحزين

(يا فراس.. أين يدك؟ دافئة وكبيرة كسقف دار.. أتكوم في قبضتها وأخفي رأسي تحت إحدى أظافرها)..

يمزقني أن أذكر.. ربما لن أبكي ضياعي في صدرك، دفء عناقك، نشوة انسحاقي، همجية انطفائي قطعة من الحديد المحمي تنتشي في الماء المثلج.. يمزقني أن أذكر يدك (يدك يا فراس دافئة وكبيرة كسقف دار.. أتكوم في قبضتها وأخفي رأسي تحت إحدى أظافرها).

أجنحتي تتكسر..

أنها على الدرج الحجري. في فمي دم وزجاج مسحوق.. بين يدي أدفن وجهي.

أفقد كل قدرة على الخوف أو التفكير أو الحركة أو الموت..

أحس بالهزيمة.. بهزيمة كبيرة في محاولة التصاقي بشيء ما.. بيد.. بثدي.. بغيمة.. بجذع شجرة.. بدانتيلا وجه أمي.. بالغابة. بالليل.. بقافلة الغرباء.. بقبيلة «البستاني هول».. بفراس..

مهزومة.. مهزومة.. راية منكسة على حافة جسر مهدوم..

شيء ما يدب ويتحرك ملتصقاً بساقي.. أحسه يروح ويجيء..

بلا خوف. ببطء. بلا مبالاة الجثث أرفع رأسي.. بعيني اللتين اعتادتا الظلمة أراه..

يروح ويجيء متمسحاً بساقي.. يهمهم، لعله عاجز عن أن يبلغني رسالة ما..

أتحسسه بيدى.. يزداد تمسحاً ووداً غامضاً.. أحمله إلى صدرى.. يستسلم بود عجيب.. يدفن رأسه فى عنقى.. أحمله وأنهض به عن الدرج.. يسترخى يتعب من لم ينم عصورا.. وأنا أيضاً متعبة يأكلنى النعاس.

يلتصق بى دافئاً ودوداً عجيب الألفة.. أهمس: مدجج هل أنت أيضاً خائف؟..

يزداد التصاقاً بعنقى وأنا أهبط الدرج وأنحرف فى الغابة لأتجنب حارس «البستانى هول»..

– مدجج.. هل أمك أنت أيضا سيدة مجتمع ؟

تحت النافذة المفتوحة التى هربت منها أقف.

– مدجج.. هل أنت أيضاً عاجز عن النوم ؟

هل أنت خائف ومهزوم ؟

يزداد تكوماً فى صدرى. يخفى رأسه تماماً فى عنقى، وأحس بلفح أنفاسه الحارة برغم الصقيع.

– مدجج.. تعال معى.. كن شريراً مثلى.

أرفعه إلى النافذة وأضعه على حافتها..

يربض هادئاً لا يموء ولا يتحرك. أتلفت حولى. لا شىء يمكن الصعود عليه كى أتسلق النافذة. فى الظلمة عيناه تلتمعان بما يشبه الترقب.. صرصور كبير يتحرك قرب قدمى، أضع يدى على طرف النافذة وأستميت لأرفع جسدى.. على الحجر الخشن أسمع جلدى يتمزق عند الركبتين.. أظل أكافح مسعورة لأصعد.. شىء حار

يسيل على ساقى.. أنجح فى وضع إحدى ركبتى على النافذة.. مدجج يزيح لى مكاناً بصمت. أدخل رأسى ونصف جسدى من الحديقة إلى الغرفة. يقفز مدجج إلى أرضها ويقف منتظراً. بهدوء أدلى بساقى إلى الكرسى وأقف عليه. أغلق النافذة. أهبط عنه وأبعده من تحتها. أحمله فيعود إلى استرخائه المحبب على صدرى. أصعد الدرج إلى غرفتى. أمر بغرفة المديرة وأسمعها تصرخ بى كما ستصرخ غداً: ستكون عقوبتك كبيرة..

• عدت إلى صنع الدمى وغرس الدبابيس.. مثل هذه الطقوس ممنوعة فى مكان مكرّس للعلم.

• قطع شريط الهاتف: أنت حتماً المتهمة، فقد سبق لك إفساد اللوحات الفنية فى غرفة الاستقبال برسم شوارب لوجوهها، وآذان قطط وأذناب لها.. وسبق لك سكب الحبر على الثياب المنشورة فى غرف الغسيل.. وإخافة الفتيات بالجماجم.. وقرع الأجراس وإيقاظ الجميع.. لولا أمك السيدة الراقية لما تركتك لحظة هنا..

• ممنوع إدخال الحيوانات إلى الغرف.. وهذا القط قضى ليلته فى غرفتك حاملا معه الأمراض والقذارة.

أزداد ضمًّا له، أحبه حب شريكين فى جريمة. أظل أتسلل على الدرج.

أمام الغرفة ٢٠٢ أحبس أنفاسى وأفتح الباب بهدوء. زبيدة نائمة طبعاً. أكاد أنفجر ضاحكة بأعلى صوتى وأنا أذكر عبارتها التقليدية (لم أعرف طعم النوم منذ جئت إلى هذه الغرفة المسكونة)..

بين الأغطية نندس بصمت..

– سجننا فظيع، لكنه دافئ على الأقل، وحسراته لا تغادر فراشها وغرفها..

يموء بصوت خافت كهمسي.. جو محبب من الحوار الغامض، ثم رأسه مدفون في عنقي، وجسده الحار يعلو ويهبط تحت يدى طفلا يفيض أنسا وألفة..

– مدجج هل تسمعنى؟.. فراس مضى.. افترقنا اليوم..

يمدّ يده الصغيرة يربت بها على وجهى بما يشبه الحنان.. يصمت تماماً كأنما يحبس أنفاسه بانتظار بقية الحكاية.

متعبة.. أكثر تعباً من أن أستعيد التفاصيل.. عصابى اهترأت، حتى الحفارة فقدت مفعولها.. أعصابى تسترخى.. العناد والشراسة والمقاومة والتحدى.. كل شيء يسترخي.. (يا فراس.. أين يداك تحلان ضفيرتى، وأصابعك تتخلل شعرى ثم تغطينى بعناية، وتقبلنى على جبينى لأنام.. مدجج يزداد التصاقاً بى.. أصابعى تتخلل شعره. أغطيه معى بعناية، أقبله على جبينه لينام.. ربما فى المرآة المقابلة لفراشى الآن لوحة لطفلتين فى الغاب التصق أحدهما بالآخر)..

– مدجج ؟؟ هل رأيت اليد المجهولة ذات الأظافر المعقوفة ؟

أحسه يرتعد ؟ ربما كان هو أيضاً يجهل صاحبها ؟

– مدجج ؟؟ هل أمك أيضاً سيدة مجتمع كبيرة ؟؟

برغم الظلام بخيل إلى أنه يبكى؟ على خدى دمعة انحدرت من إحدى عيوننا الأربع ؟

– مدجج.. هل تستطيع الصلاة؟.. كلما فكرت بفراس تمنيت لو أصليّ بطريقة ما..

شلل مريح يستولى على أعصابى.. خدر، شىء مبهم يثقل على جسدى ويربض على الصور المتلاحقة فى أعماقى.

– قل لى: هل يمكن أن يستمر هذا العذاب طويلا قبل أن ألتقى بخدر ما؟.. «أحببته» كلمة سخيفة تقولها البنات الطيبات لأمهاتهن.. هل وجدت كلمة أخرى..

وأنا أفقد القدرة على التركيز، أحس بلسانه الخشن يلعق خدى بحنان، وبدموع كثيرة تغسل وجهى، وبالسكينة الدامعة لجزيرة انحسر الماء عنها بعد أن جرف كل شىء..

ويظل بلسانه الخشن يلعق خدى بحنان.. يده الصغيرة على خدى.. تكبر وتكبر.. دافئة وكبيرة كسقف الدار..

أحس بيدى ذات الأظافر المعقوفة تسترخى!..

[من مجموعة ليل الغرباء ١٩٦٦]

قصّة قصيرة

١

لا تقنطى أبداً من رحمــة المطر . .
فقد أحبُّكِ فى الخمسين من عُمـرى
وقــد أحبكِ والأشجــارُ يـابســـةٌ
والثلجُ يســقط فى قلبى وفى شعـرى
وقـــد أحبـكِ حين الصيفُ غادرنــا
فالأرضُ من بعــده تبكى على الثمــرِ
وقــد أحبك - يا عصفـورتى - وأنـا
محـــاصرٌ بجبــال الحــزن والضجــر
قــد تحمــــــل الريح أخباراً مُطَمْئنةً
لناِهدَيْك ، قبيل الفجـر ، فانتظرى .
لن تخرجى من رهان الحب خـاسرةً
عندى تراثى، وعندى حكمةُ الشجـرِ
فاستمتعى بـالحضـــــارات التى بَقِيتْ
على شـفاهى . . فإنى آخرُ الحضَر

٢

قــرأتُ شعرى عليهــا . . وهى نائمـــةٌ
فمـــا أحسّتْ بتجريدى ولا صــــورى
ولا تحمَّس نهداهـــــا لقــــــافيةٍ . .
ولا استجـــــــابا لقيثـــــارٍ ولا وتــرِ
هززتُهــــــا من ذراعيْها . . فمـــا انتبهتْ
ناديتُ : يا قطتى البيضــاء . . يا عمرى
قــومى . . ســــأهديكِ تيجاناً مرصَّعةً
وأشترى لك مــــا فى البحــــــر مــن دُررِ
وأشترى لــك بلـــداناً بكاملهـــــــا . .
وأشترى لك ضـــوء الشمس والقمر . .

٣

ناديتُ . . ناديتُ .. لكن لم يجب أحدٌ
فى مخدع الحبّ.. غير الريح والمطـر..
أزحتُ أثوابها عنهـــا . . فما اكترثتْ
كأنّها يئست منِّى . . ومن خطرِى . .

٤

وكــــان لَيْلى طـــولاً مثل عادته . .
وكنت أبكىِ على قبرينِ من حجرِ . !

الرجل القبرصي

نيقوسيا في شهر يوليو كما لو أن الخرطوم قامت مقام دمشق. الشوارع كما خططها الإنجليز، والصحراء صحراء الخرطوم. ولكن ذلك الصراع بين ريح الصبا وريح الدبور كما أذكره في دمشق، وهي إنجليزية من رأسها حتى أخمص قدميها. بالرغم من كل تلك الدماء صدمت لأنني توقعت بلداً ذا طابع هليني لكن الرجل لم يهملني ريثما أوصل الفكرة إلى نهايتها. جاء وجلس جانبي على حافة حوض السباحة التفت لفتة خفيفة فأحضروا له فنجان قهوة. فوراً اتجه نحوي كأننا كنا على موعد وقال:

سائح ؟

قلت : نعم.

أحدث صوتاً لم أفهم مغزاه، كأنه يقول أن مثلي لا يستحق أن يكون سائحاً في نيقوسيا، أو أن نيقوسيا لا تستحق أن يكون مثلي سائحاً فيها.

انصرفت عنه بالتمعن في امرأة وجهها مثل ملائكة روفائيل، وجسدها مثل نساء قوقان. هل هي الزوجة أم المرأة الأخرى؟ وقررت بسرعة أن الزوجة هي المرأة الأخرى لأن الرجل منصرف بكليته إلى المرأة السماوية الوجه، الأرضية الجسد. مرة أخرى قطع على صاحبي القبرصي حبل تفكيري:

– من أين ؟

– من السودان ؟

– ماذا تعمل ؟

– فى الحكومة ؟

أيضاً ذلك الصوت الغريب، لكن مغزاه كان واضحاً لا مراء فيـه هذه المرة يعنى، أننى، والسودان، والحكومة، مـاذا أقـول؟ ابتسمت لأن الحكومـات صدرهـا واسع على أى حـال، وأنـا فى الواقـع لا أعمل فى الحكومة.

قال بلا مناسبة بإنجليزية حسنـة:

– عندى مصنع.

– صحيح ؟

– لصنع أزيـاء النساء

– شىء جميل

– كونت ثـروة كبيـرة. اشتغلت مثـل العبـد، عملت ثـروة. الآن لا أعمل. أقضى وقتى كلـه فى الفـراش.

– تنام ؟

– أنام ؟ أنت تمزح. ماذا يفعل الرجل فى الفراش؟ يلهو. طالع نازل. واحدة تلو الأخرى. طـول اليـوم.

– ألا تتعب ؟

– أنت تمزح. انظر إلىّ، كم تظن سنى ؟

أحياناً خمسون، وسبعون أحياناً، لكنى لم أشأ أن أساعده، قلت له:

– سبعون.

لم يؤلمه ذلك كما قدرت، ولكنه ضحك ضحكة مجلجلة وقال:

– خمسة وسبعون في الواقع، ولكن ما من أحد يعطينى أكثر من خمسين، قل الحق.

– خمسون إذا شئت.

– لماذا ؟

– تتريض.

– نعم، في الفراش، أطلع وأنزل. بيض وسود وحمر وصفر. كل الألوان. أوروبيات وزنجيات وهنود وعرب ويهود. مسلمون ونصارى وبوذيون. جميع الأديان.

– أنت رجل متحرر.

– نعم فى الفراش..

– وفى الخارج ؟

– أكره اليهود.

– لماذا تكره اليهود ؟

– هكذا، لوجه الله. ثم إنهم يلعبون بحذق.

– ماذا ؟

– لعبة الموت. مارسوها منذ قرون.

– لماذا يغضبك هذا ؟

– لأننى... لأننى... لا يهم.

– ألا يغلبون ؟

– كلهم يستسلمون فى نهاية الأمر، «بكت»، فى انتظار قودو.

– ونساؤهم ؟

– ليس أحسن منهن فى الفراش. كلما ازدادت كراهيتك لهم ازدادت متعتك مع نسائهم. إنهم شعبى المختار.

– وزنوج أمريكا ؟

– لم تصل علاقتى بهم إلى درجة الكراهية. يجب أن أنتبه لهم أكثر.

– والعرب ؟

– يثيرون الضحك أو الرثاء، ويستسلمون بسهولة، فى هذه الأيام على الأقل. اللعب معهم ليس ممتعاً، لأنه من طرف واحد..

فكرت، لو أنهم قبلوا بقبرص، لو أن بلفور وعدهم إياها.

ضحك الرجل القبرصى ضحكته المجلجلة وقال:

«المرأة تطيل العمر، يجب أن يبدو الرجل أصغر من سنه بعشرين سنة على الأقل، هذه هى الشطارة».

– هل تخدع الموت ؟

– ما هو الموت؟ شخص يلقاك صدفة، يجلس معك، كما نجلس الآن، ويتبسط معك فى الحديث، ربما عن الطقس أو النساء

أو أسعار الأسهم فى سوق المال، ثم يوصلك بأدب إلى الباب. يفتح الباب ويشير إليك أن تخرج. بعدذلك لا تعلم.

كأن غيمة رمادية ظللت برهة فوق المكان، لكننى فى تلك اللحظة لم أكن أعلم أن القداح تضرب وأن الرجل القبرصى يلعب معى لعبة خطرة.

اتسعت موجة الضحك فشملني. كانت عائلة عذبة أنست لها منذ جلست، الأب طيب الوجه، والأم صوتها الإنجليزى مثل لحن إليزابيثى من أوتار قيثارة عريقة. أربع بنات أكبرهن لا تزيد عن الثانية عشرة. كن يدخلن حوض السباحة ويخرجن، ويضحكن، ويعابثن أبويهن، ويضحكن. وكانوا يتسممون لى، ويوسعون دائرة سعادتهم حتى شملتنى. وجاءت لحظة رأيت على وجه الأب أنه يوشك أن يدعونى أن أنضم إلى مجلسهم، فى تلك اللحظة دهمنى الرجل القبرصى. قامت البنت الكبرى وخطت برشاقة نحو حوض السباحة. قال الرجل القبرصى، والبنت توقفت فجأة كأن قوة غامضة أوقفتها، قال :

– هذه أدفع فيها مائة جنيه إسترلينى.

قلت، له مذعوراً :

– «لماذا» ؟

أشار الرجل القبرصى بذراعه إشارة بشعة.

فى تلك اللحظة انكبت البنت على وجهها، سقطت على الحجر، سال الدم من جبهتها. هبت العائلة الطيبة مثل طيور مذعورة وأحاطوا

بالبنت. فوراً قمت من جنب الرجل، وأنا أشعر نحوه بكراهية طاغية، وجلست على مائدة بعيداً عنه. تذكرت بناتى وأمهن فى بيروت وغضبت، ورأيت أفراد العائلة الجميلة ينصرفون مبتئسين، البنات يتشبثن بالأم، والأم تتحامل على الأب، فغضبت أكثر. ثم سكت، وسكتت الأشياء حولى. انحسرت الضوضاء، وجاء صديقى الطاهر «ود الرواسى» وجلس إلى جانبى، على الكنبة، أمام متجر سعيد. كان متهلل الوجه نشطاً ممتلئاً عافية. قلت له :

«صحيح ليش ما كبرت أو عجزت مع أنك أكبر منهم كلهم؟»

قال :

«من وعيت على الدنيا وأنا متحرك. ما أذكر أنى وقفت من الحركة. أشتغل مثل الحصان وإذا كان ما فى شغل، أخلق أى حاجة أشغل نفسى بيها. أنوم وقت ما أنوم، بدرى أو وخرى، شرط أصحى على المؤذن أول ما يقول «الله أكبر الله أكبر» لصلاة الفجر».

– لكنك لا تصلى ؟

– أتشهد وأستغفر بعد ما المؤذن يخلص الأذان، وقلبى يتطمن أن الدنيا ماشية زى ما كانت. آخذ غفوة مثل نص ساعة، العجيب غفوة ما بعد الأذان تسوى عندى نوم الليل كله، بعدها أصحى كأنه صحانى منبه. أعمل الشاى وأصحى فاطمة. هى تصلى صلاة الصبح.. نشرب الشاى. أنا أنزل أقابل الشمس فوق صفحة النيل وأقول لصباح الله حبابك ومرحبا بك. أغيب زى ما أغيب أرجع

ألقى الفطور حاضر. نقعد أنا وفاطمة وأى إنسان من عباد الله تجئ به لينا القسمة، أكثر من خمسين سنة على هذه الحالة».

يوماً ما سأسأل الطاهر ود الرواسى، عن قصة زواجه بفاطمة بنت جبر الدار، إحدى أخوات محجوب الأربعة، هل أسأله الآن؟ لم يكن ولاؤه لنفسه، بل كان لمحجوب، وكان يضحك على نفسه وعلى الدنيا. هل يصبح بطلا؟ واضح أنه إذا جد الجد فسوف يفدى محجوب بنفسه. هل أسأله الآن؟ لكنه قال، وحده، جملة صغيرة مصنوعة من نسيج حياته كلها :

«فاطمة بنت جبر الدار هالله. الله».

– ومحجوب ؟

ضحك الطاهر ود الرواسى ضحكة لها طعم تلك الأيام، وذلك مدى حبه لمحجوب، حتى ذكر اسمه يملؤه سعادة، كأن وجود محجوب على وجه الأرض يجعلها أقل عدواناً، وأكثر خيراً، فى نظر الطاهر ود الرواسى، ضحك وقال، وهو يضحك :

«محجوب حاجة تانية. محجوب معمول من طينة غير»

ثم سكت وكان واضحاً لى أنه لا يريد وقتها لأن يقول أكثر فى ذلك الموضوع بالذات. بعد مدة سألته:

«عبد الحفيظ قال إنك ما دخلت الجامع فى حياتك أبداً. صحيح؟

– مرة واحدة بس دخلت الجامع.

– ليش ؟ وعلشان إيش ؟

– مرة واحدة فقط. كان شتاء من الشتوات. طوبة أو أمشير، والله أعلم.

قلت له:

– كان فى أمشير، بعد ما دفنتم مريم بالليل.

– صحيح. عرفت كيف؟

– كنت معاكم موجود.

– وين؟ ما شفتك ذاك الصباح، مع أن البلد اجتمعت كلها يومذاك فى الجامع؟

– كنت عند الشباك أظهر وأبين لحد ما قلتم ولا الضالين آمين.

– سبحان الله. الرجل الغريب. محيميد المسكين كان يصرخ ويقول «الرجل الكان هنا راح وين؟».

– وبعدين؟

فجأة طائر الأحلام طار. اختفى ود الرواسى، واختفت «ود حامد» بكل تلك الاحتمالات. وحيث كان يجلس رأيت الرجل القبرصى، سمعت صوته فانقبض قلبى. سمعت الصراخ والضوضاء وارتطام الماء بجوانب المسبح، وتشكلت الأشباح على هيئة نساء عاريات ورجال عراة وأطفال يتقافزون ويتصايحون. وكان الصوت يقول:

« أدفع فى هذه خمسين جنيهاً استرلينيًّا فقط».

ضغطت عينى لأصحو أكثر ونظرت إلى السلعة المعروضة فى السوق. كانت تلك المرأة. كانت تشرب عصير برتقال، فى اللحظة

التى قال فيها الرجل القبرصى ما قال، شرقت، واختفت، وهب إليها الرجل وهبت المرأة، وجاء الخدم والسعاة، واجتمع الناس، وحملوها مغشيًا عليها، وكأنما ساحر أشار بعصاه السحرية، فإذا بالناس، كما خيل لى، قد إختفوا فجأة، والظلام أيضاً كأنه كان على مقربة ينتظر إشارة من أحد، نزل دفعة واحدة. أنا والرجل القبرصى، وحدنا، والضوء يلعب ألاعيبه على صفحة الماء. قال لى، بين النور والظلام:

«بنتان أمريكيتان وصلتا هذا الصباح من نيويورك. جميلتان جدًّا، وثريتان جدًّا. واحدة فى الثامنة عشرة وهى لى، والثانية فى الخامسة والعشرين وهى لك. أختان، تملكان فيلا فى كابرينيا. عندى سيارة. لن تكلفك المغامرة شيئاً. اسمع كلامى. لونك سيعجبهن جدًّا».

كانت الظلمة والضوء يتصارعان حول المسبح وعلى سطح الماء، وكان صوت الرجل القبرصى كأنما يزود جيوش الظلام بالسلاح، لذلك أردت أن أقول له فليكن، ولكن صوتاً آخر يخرج من حلقى، دون إرادتى، قلت له، وأنا أتابع الحرب الدائرة على صفحة الماء:

« لا، أشكرك. لم أحضر إلى نيقوسيا بحثاً عن هذا. جئت لأتحدث إلى صديقى الطاهر ود الرواسى فى هدوء، لأنه رفض أن يزورنى فى لندن، وأعيانى لقاؤه فى بيروت».

ثم إلتفت إليه، ويا هول ما رأيت. أنا واهم أم حالم أم مجنون؟ جريت، جريت لائذاً بالجمع فى مشرب الفندق. طلبت شراباً ما، وشربته، لا أذكر مذاقه، وشربته لا أعلم ماذا كان. هدأ روعى

قليلا. ولكن الرجل القبرصى جاء وجلس معى. كان يقفز على عكازين. طلب كأساً من الوسكى، دبل. قال إنه فقد ساقه اليمنى فى الحرب. أية حرب؟ حرب من الحروب، ماذا يهم أية حرب؟ تهشمت ساقه الخشبية هذا الصباح. صعد جبلا. ينتظر ساقاً جديدة من لندن. صوته إنجليزى أحيانا، وتشوبه لكنة ألمانية أحياناً، ويبدو لى فرنسيًا أحياناً، ويستعمل كلمات أمريكية:

– هل أنت....؟

– لا لست أنا. بعض الناس يحسبوننى إيطاليًا وبعضهم يحسبوننى روسيًا، وبعضهم ألمانيًا... إسبانيًا... ومرة سألنى سائح أمريكى هل أنا من بسوتولاند. تصور. ماذا يهم من أين أنا؟ وأنت يا صاحب السعادة ؟

– لماذا تقول لى يا صاحب السعادة ؟

– لأنك أنسان مهم جدًا.

– ما هى أهميتى ؟

– إنك موجود اليوم ولن تكون موجوداً غداً... ولن تتكرر.

– هذا يحدث لكل إنسان، ما أهمية ذلك ؟

– ليس كل إنسان مدركاً. أنت صاحب السعادة تدرك موضعك فى الزمان والمكان.

– لا أعتقد ذلك.

شرب الكأس دفعة واحدة، ووقف على ساقين سليمتين، إلا إذا كنت واهماً أو حالماً أو مجنوناً، وكان كأنه الرجل القبرصى.

انحنى بأدب متصنع جدًّا، وكان وجهه كما رأيته على حافة البركة يجعلك تحس أن الحياة لا قيمة لها، وقال :

« لا أقول وداعاً، ولكن إلى اللقاء يا صاحب السعادة».

كانت الساعة العاشرة حين دخلت فراشي. تحايلت على النوم بوسائل شتى، وكنت متعباً سبحت طول اليوم. حاولت التحدث إلى الطاهر ود الرواسي.. سألته عن قصة زواجه من فاطمة بنت جبر الدار. سألته عن حضوره صلاة الفجر فى ذلك اليوم المشهود. سألته عن ذلك الغناء الذى كان يعقد ما بين الضفتين بخيوط من حرير، بينما كان محيميد المسكين يضرب في اليم ملاحقاً طيف مريم. لكنه لم يجب. لم تسعفنى الموسيقى، ولم تسعفنى القراءة. وكان يمكن أن أخرج، أذهب إلى ملهى، أو أتمشى، أو أجلس فى مشرب الفندق. لا حيلة لى. ثم بدأ الألم. خدر خفيف فى أطراف أصابع القدمين، أخذ يزحف تدريجيًّا إلى أعلى حتى كأن مخالب رهيبة تنهش البطن والصدر والظهر والرأس، وكأن نيران الجحيم اشتعلت مرة واحدة. كنت أغيب عن الوعى ثم أفيق. ثم أدخل فى دوامة رهيبة من الآلام والنيران، والوجه المرعب يتراءى لى بين الغيبوبة وشبه الوعى، ينط من مقعد إلى مقعد، يختفى ويبين فى أنحاء الغرفة. أصوات لا أفهمها تجىء من المجهول، ووجوه لا أعرفها، مكشرة، قاتمة. ولم تكن لى حيلة. كنت واعياً بطريقة ما، ولكن لم تكن لى حيلة أن أرفع سماعة التليفون أطلب طبيباً، أو أنزل إلى الاستقبال فى الفندق أو أصرخ مستغيثاً. كانت حرباً شرسة صامتة بينى وبين أقدار مجهولة. ولابد أننى إنتصرت

نوعاً من الإنتصار، لأننى صحوت على دقات الساعة الرابعة صباحاً. والفندق والمدينة صامتين. إختفت الآلام إلا من إحساس بالإعياء وإحساس بيأس شامل، كأن الدنيا بخيرها وشرها لا تساوى جناح بعوضة. بعد ذلك نمت، فى التاسعة صباحاً، حلقت الطائرة الذاهبة بى إلى بيروت فوق نيقوسيا، فبدت لى مثل مقبرة قديمة.

فى مساء اليوم التالى فى بيروت دق جرس الباب، وإذا امرأة متشحة بالسواد تحمل طفلا. كانت تبكى وأول جملة قالتها:

«أنا فلسطينية. ابنتى ماتت».

وقفت برهة أنظر إليها، لا أدرى ماذا أقول، ولكنها دخلت وجلست وقالت:

«هل تتركنى أرتاح وأرضع الطفل؟».

بينما هى تحكى لى قصتها دق جرس الباب. أخذت البرقية وفتحتها، وكانت المرأة الفلسطينية تحكى لى أنباء الفاجعة الكبرى، وأنا مشغول عنها بفجيعتى. قطعت البحار والقفار، وكنت أريد أن أعلم قبل أى شىء، متى مات وكيف مات. أخبرونى أنه عمل فى الحديقة فى حقله كعادته فى الصباح، وعمل الأشياء التى يعملها عادة فى يومه. لم يكن يشكو من شىء. دخل دور أقربائه، وجلس مع أصدقائه هنا وهنا. أحضر بعض التمر فى نصف نضجه وشرب به القهوة. ورد اسمى فى حديثه عدة مرات، وكان ينتظر قدومى بفارغ الصبر لأننى كتبت له أننى قادم. تعشى خفيفاً كعادته، وصلى صلاة العشاء، ثم جاءته نذر الموت نحو الساعة العاشرة قبيل صلاة

الفجر فاضت روحه، وحين كانت الطائرة من نيقوسيا إلى بيروت، كانوا فرغوا لتوهم من دفنه.

وقفت على قبره وقت الضحى، وكان الرجل القبرصى جالساً على طرف القبر، في زيه الرسمى، يستمع إلى وأنا أدعو وأبتهل، قال لى بصوت كأنه ينبع من الأرض والسماء، ويحيط بى من النواحى كافة:

«لن ترانى على هذه الهيئة إلا فى آخر لحظة،حين أفتح لك الباب، وأنحنى لك بأدب، وأقول لك «تفضل يا صاحب السعادة». سوف ترانى فى أزياء أخرى مختلفة. قد تلقانى على هيئة فتاة جميلة، تجيئك، وتقول لك إنها معجبة بأفكارك وآرائك، وتحب أن تعمل معك مقابلة لصحيفة أو مجلة. أو على هيئة رئيس أو حاكم يعرض عليك وظيفة يخفق لها قلبك. أو على هيئة لعبة من ألاعيب الحياة تعطيك مالاً كثيراً لم تبذل فيه جهداً. وربما على هيأة جمهور ضخم يصفق لك لسبب لا تعرفه. وربما ترانى على هيأة بنت تصغرك بعشرين عاماً، تتشهاها، تقول لك نذهب إلى كوخ منعزل فى الجبل. احترس. لن يكون أبوك موجوداً فى المرة القادمة ليفديك بروحه. احترس. الأجل مسمى، ولكننا نأخذ بعين الاعتبار المهرة فى اللعب. احترس فإنك الآن تصعد نحو قمة الجبل».

ولما تيقنت أنه كان ذلك اليوم فى نيقوسيا يفاضل بينى وبين أبى، وأنه اختار أفضلنا بكيت الدموع التى ظلت حبيسة طول ذلك العهد، بكيت حتى نسيت الموت والحياة، والرجل القبرصى.

الباب الآخر

اختارت قطار الساعةالثامنة صباحا الذى لا يقف على المحطات التى فى الطريق، ويتحرك إلى «الإسكندرية» مباشرة. كما اختارت مقعدا مفردا فى القطار، حتى لا يجلس بجانبها رجل ولا امرأة.

كانت تود أن تذهب إلى مدينة الإسكندرية وتعود فى صباح اليوم التالى، دون أن يشعر بغيابها عن القاهرة إنسان، كما اعتادت أن تفعل ذلك فى المرات السابقة..

وفى صالة المحطة الخارجية، وقفت فى زحمة الركاب، تتطلع إلى اللوحة المضيئة التى تعين رصيف القطار المسافر.

وكانت ترتدى معطفا كحليا على ثوب من الصوف الغامق محكم النسج. ومن أحدث طراز. وتدير على رأسها وعنقها وشاحا أزرق. تتقى به برد الصباح فى القاهرة، ومن احتمال سقوط المطر فى الإسكندرية.

ومن خارج الوشاح. بدت خصلات من الشعر الأسود الناعم تتدلى على الجبين المتألق.. وأخذت العينان الواسعتان تتطلعان إلى اللوحة فى بريق يتوهج لحظات ثم ينطفىء فى أسى، تبعا للجو المحيط كله.

وكانت الأنفاس رغم البرد الشديد هادئة، والوجه جميل التقاطيع، أبيض مستديرا والشفة ممتلئة وشهية.

ووضعت على العينين نظـارة شمس أنيقـة، رفعتهـا وطوتهـا وهى تفكر.. ثم عادت وردتها إلى أنفها، بعـد أن أدركت أنهـا لا مكـان لها فى حقيبة اليد الصغيرة، ولم تكن تحمل أيـة حقيبـة سواهـا.

تعمدت أن تكون خفيفة فى رحلتهـا وفى تحركهـا.

وعندما دخل القطار يتهادى إلى الرصيف.. وجلست على مقعدها المفـرد، شعـرت ببعض الإرتيـاح. كـان المقعـد فى وسط العربـة، والمسافرون من رجال الأعمال الذين فاتهم قطـار السابعـة صباحـا، وقد جلسوا فى سكون يقرأون صحف الصباح، أو يقلبون أوراقهـم الخاصة.

وأحست بدفء العربـة المكيفـة، فـأزاحت الـوشاح عـن رأسهـا وطوته.. وأخذت تنظر من النافذة عن يمينها، ثم خشيت أن يبصرها من الرصيف إنسان تعرفه وهى داخل العربة. فأسدلت ستـار النافـذة بحيث ترى هى من يتحرك بالخـارج ولا يراهـا.

ولما تحرك القطار تنفست الصعداء، فإن أحدا ممن تعرفهـم لـم يلتق بها فى الطريق، وستكون فى الإسكندريـة بعـد ساعتيـن وثلث الساعـة، وستعـود للقاهـرة فى أول قطـار يتحـرك فى الصبـاح، فى الساعة السادسة صباحا ستأخـذ أول قطـار. وستكـون فى بيتهـا فى الساعة التاسعة والنصف، تشرب الشاى على مائدتهـا كمـا اعتـادت أن تشرب.. وفى الساعة العاشرة ستفتح الباب للشغالة العائـدة بعـد إجازة يوم قضته عند أهلهـا.

وخرج القطار من مساكن «شبرا» إلى مـزارع البرسيـم والخضرة على الجانبين، وشعرت براحـة أكثر، ولاحظت أن معظـم الرجـال

الجالسين معها فى العربة فى سن مقاربة، ويرتدون البدل الصوفية، ومعهم حقائب خفيفة وضعوها على الرف، ولم يكن بالعربة على طولها أكثر من أربع سيدات غيرها هى..

وكانت غالبية الركاب تدخن، فضايقها هذا بعض الشيء، وضايقها أكثر أن الرجل الجالس إلى اليسار، فى الصف الذى أمامها، أخذ يدير رأسه إلى الخلف وينظر إليها، فتجاهلت نظراته، وأرخت رأسها على مسند المقعد، وأغمضت عينيها، كأنها تستكمل حاجتها من النوم.

وعنما مر عامل «البوفيه» طلبت فنجانا من القهوة وشربته فى تمهل، وأعطته ورقة بعشرة قروش فلم يرجع إليها الباقى وخجلت أن تطالبه.

وجاوز القطار طنطا، وكفر الزيات، ودمنهور، والمنظر على الجانبين لا يتغير، والمزارع هى هى.. العشب الأخضر، والبيوت، والمداخن، والمساكن الشعبية فى خارج المدن، وقد اسود بياضها وتشقق، وانتشر على شرفاتها الغسيل..

وبعد أن تحرك القطار من محطة «سيدى جابر» شعرت «عفاف» بالخوف.. خافت ألا تجده.. خافت أن يكون مريضا.. خافت أن يكون قد سافر إلى بلدته لسبب طارئ.. خافت من أشياء كثيرة تحدث فى الحياة، وتمنع من اللقاء.

كانت تفضل لو جاء إلى القاهرة الواسعة كالمحيط، ولكنه كان عنيداً.. ولهذا خضعت لرغباته وسافرت، وسافرت...

كانت تسافر إليه فى الشهر مرة، وأحيانا مرتين كلما واتتها الفرصة، وسنحت الأحوال فى أثناء غياب زوجها بالخارج.

وفى محطة «مصر» ارتعدت وهى تسير وحدها على الرصيف.. أحست بأن العيون كلها تلاحقها، وتحدق فيها، وتعرف وجهتها.

وركبت «تاكسى» سريعا.. وعلى باب العمارة نزلت وهى نصف شاردة.

وكانت العمارة على الكورنيش، والجو باردا، والشمس وراء السحاب، ولم تجد البواب فى المدخل، وركبت المصعد إلى الدور الثامن.

وفتحت باب الشقة بمفتاح فى حقيبتها. ودخلت الشقة الصغيرة... شقة العازب التى رتبتها له، واختارت أثاثها، وزينت جدرانها بالصور.. ولكنها كلما فارقتها وبعدت عنها، عادت الفوضى إلى الشقة.. إلا أنه فى هذا اليوم الذى يعرف فيه أنها قادمة حاول قدر المستطاع تنظيفها، وترتيب ما بها من أشياء...

وفتحت «عفاف» النافذة، ونظرت إلى البحر، وتطلعت إلى السماء.. سحب رمادية كثيفة تحجب الشمس مرة أخرى...

الجو بارد وغير مشمس، ولكنه جميل، وعندما دخلت الشقة، وأغلقت عليها الباب شعرت بالراحة... شعرت بالأمان. الخوف الذى انتابها فى الطريق ذهب عنها الآن..

وكان جو البيت كله يوحى بأن أنفاس «رأفت» حبيبها لا تزال تتردد فيه.

وأخذت فى حيوية ونشاط تنظف البيت، وترتبه على مزاجها.. إنها لم تفعل ذلك فى بيتها فى القاهرة..

هنا تحس بأن كل خلجات جسمها تتحرك وتدفعها إلى العمل فى بهجة... وهناك تشعر بالضجر والسآمة والملل والفراغ... وكل هذه الأشياء قاتلة ومخربة للنفس.

وبعد أن نظفت الشقة كلها ونسقتها، أشعلت السخان، وأخذت حماما.. وأحست بعده بالنشاط والبهجة..

واستلقت على السرير، وأحست «برأفت» وهو يفتح الباب الخارجى ويدخل.. وظلت متناومة حتى شعرت بأنفاسه على وجهها، وشفتيه على شفتيها...

كانت تشعر بالحاجة إلى هذا الحب، وكانت تسعى إليه بجسمها وروحها.. كانت تقتل السآمة التى تخرب روحها، كانت تقتل الفراغ...

كانت تسافر إليه، وهى تشعر بالفرحة، لأنها أسعدته، وهو فى حاجة إليها.

وفى الليل استيقظت، وخرجت إلى المطبخ لتعد طعام العشاء... ظلا معا ما بقى من النهار وبعد الغروب ناما. وأيقظها الجوع.

أشعلت الموقد وفتحت نافذة المطبخ الوحيدة، فرأت النافذة المقابلة مفتوحة وهناك شخص يتحرك مثلها فى المطبخ... كانت هذه النافذة مغلقة كلما جاءت إلى الإسكندرية، وكانت تجد الباب المقابل لباب «رأفت» دائما مغلقا.. وقال لها «رأفت» فى المرات

السابقة إنها شقة أسرة أجرتها لتصيف فيها ولكن منذ سنتين لا يراها تأتى فى صيف ولا شتاء.

ولكن فى هذه المرة وجدت «عفاف» النافذة المقابلة فى المطبخ مضاءة ومفتوحة... ورأت شابا يتحرك ثم يطل من النافذة ويحدق في وجهها... إنها تعرفه ويعرفها.. وظل ينظر إليها، وظلت هى واقفة فى مكانها مسمرة، تنظر إليه فى جمود، رغم هبوب الريح.

ظلت واقفة صامتة، وهى تعرف معنى نظراته الساحرة التى تعريها من قميص نومها..

كانت الريح تأتى من البحر عاصفة، وتسمع هياج البحر ودوى الريح.. وكانت تستطيع بإرادتها أن تغلق النافذة ولكنها تركتها مفتوحة.. كانت تستطيع بإرادتها أن تخرس نظراته، ولكنها وجدت إرادتها مشلولة.

لأول مرة فى حياتها تشاهد عينين تنظران إليها بوقاحة وقوة.. وهى فى بيت غير بيتها، وفى فراش غير فراش الزوجية.

نظرت إلى السماء وهى ترتد عن النافذة فوجدتها ساقطة النجوم حالكة...

وأعدت المائدة وهى أشبه بالمنومة مغناطيسيا... كانت تتحرك من غير إحساس بكل ما حولها.

ونهض «رأفت» عن المائدة. ورفعت ما عليها.

وجلسا يتحدثان، ولم يلاحظ شرودها.. وعاد إلى الفراش... وكان جسمها فى برودة الثلج وروحها ضالة...

وتناومت حتى استغرق «رأفت» في النوم.. وظلت «عفاف» وحدها ساهرة تسمع البحر والريح.

* * *

تمددت بجواره على السرير وهى تشعر بالخوف. فارقتها حرارة وجوده بجوارها، وفارقتها أنفاسه. وشعرت بالخوف والرغب.

أحست بأنها باردة جامدة متصلبة... نهضت في حذر... كانت الشقة غارقة في الظلام فأشعلت نور الحمام لكيلا توقظ «رأفت» وإذا استيقظ يتصورها في الحمام.

وتحركت بلين وخفة وهى عارية القدمين بقميص نومها. وفتحت الباب بحذر بعد أن وضعت في يدها المفتاح، وأغلقته وراءها بحذر شديد كذلك.

وقبل أن تضغط على جرس الباب الآخر كان الشاب قد فتح الباب.. وكان يعرف أنها قادمة ولابد أن تلبى النداء... كان خيالها المريض يصور لها أنها ستخرسه وتعمى عينيه.. ولكنها كانت تسقط، وتسقط...

واحتواها بذراعه في صمت. وأغلق الباب.

[من: الباب الآخر وقصص أخرى ١٩٧٧]

• **عبد الحميد بن هدوقة**

المغتربُ

– اركب !

– لكن يا سيدى هذا المطعم لى وأنا صاحبه...

–قلت لك اركب ولا تتكلم !

– لكن... لم أعمل شيئا مخالفا للقانون، لم أقترف ذنبا.

– كفى كلاما، عندما تصل الى المركز اشرح للمحافظ حقيقتك.

– أرجوك لحظة، أوصى فيها على المحل أحد مواطنى.

– إنك أكثرت الترجي... اركب وإلا اضطررت لاستعمال العنف.

ركب «مولود» سيارة الشرطة مع غيره من العمال الجزائريين وسيقوا الى مركز الشرطة دون أن يعرفوا السبب، وفى الواقع لم يكن أحد من أولئك العمال يستغرب هذه الحادثة، فهم قد تعودوا ذلك، منذ وطئت أقدامهم فرنسا.

أما «مولود» فقد كان فى أشد الحيرة والاضطراب، فهو يعتبر نفسه ليس كبقية العمال، إنه تاجر، صاحب مطعم رقم ١١٨ شارع قابريال بيرى فى سانت وان من ضواحى باريس. فلو كان عاملا كغيره من العمال لهان الأمر، ولكنه ليس كالآخرين، ثم ترى ماذا سيقع لمحله أثناء تغيّبه هذا؟ إنه لم يستطيع حتى توصيةِ من يخلفه

فى تسييره. بل لم تمنح له الفرصة حتى لغلقه! وهذا غير معقول.. غير معقول !

وخاطب رفاقه فى السيارة :

– غير معقول، أن أساق هكذا! أنا تاجر، صاحب مطعم، غير معقول أن أعامل هكذا.. غير معقول! غير معقول! لو وقع حادث فى المحل أثناء غيابى، ترى من المسئول؟ أنا المسئول طبعا، صاحب المحل هو المسئول دائما.

نظر إليه أحد العمال مليا وبسمة ساخرة تعلو شفتيه، ولكنه لم يجبه بكلمة ولا هو ولا غيره، ولم يكن «مولود» ينتظر من أحد جوابا فهو لم يكن مثلهم مجرد عامل بسيط، إنه تاجر، صاحب مطعم ١١٨ شارع قابريال بيرى. من ذا الذى – من عمال الناحية – لا يعرف «١١٨»؟ من ذا لم يأكل كسكسيه[1] اللذيذ؟ بل من ذا لم يغازل يوما، ولو فى خياله، الفتاة العاملة «كوليت» ؟

كان هذا المطعم مشهورا بثلاثة: «كوليت» العاملة الفرنسية اللطيفة، و«مولود»[2] صاحب المطعم ذو القبعة البوهيمية والمنديل الحريرى الأحمر الذى لا يفارق عنقه، والكسكسى اللذيذ، وكانت تجارته رابحة وقصاده كثيرون، ليس من العمال الجزائريين فقط بل حتى من الأجانب هواة الكسكسى.

---

(١) إحدى الأكلات الشعبية فى أقطار المغرب العربى.

(٢) اسم من الأسماء الدارجة.

واصلت السيارة السوداء طريقها الى المركز تشقه بصفارتها شقا، وواصل مولود احتجاجه وتذمره من هذه المعاملة السيئة التى سُوِّىَ فيها بين تاجر مشهور وعمال نكرات!

– «أقاد هكذا الى مركز الشرطة بدون سبب؟ غير منطقى، غير معقول! جمع الناس بهذه الصورة وحشرهم فى سيارة سوداء عرفناه أيام الثورة، أما الآن فما السبب؟ غير معقول، البارحة فقط تناول الطعام عندى المفتش «راؤول» البارحة فقط، آه لم يسمحوا لى حتى بأن أوصى على المحل، قال لى: «اركب ولا تتكلم» شرطى بسيط! قال لى! أرأيتم أيها الأخوة! شرطى بسيط يأمر صاحب محل بهذا الأسلوب! مع أنى لم أعمل شيئا، ولم يقع فى محلى ما يستحق هذه المعاملة. لم يعلم أحد بسبب لمجىء الشرطة ولا بوقت مجيئها، وقفت السيارة أمام الباب، ونزلت الشرطة شاهرة فى وجوهنا أسلحتها وقالت: «الجميع الى السيارة»!

كان من حقهم أن يسألوا عن هويات الناس، أن يطلبوا أوراق التعريف ويأخذوا المشتبه فى أمره.

أما أن يحشروا الناس هكذا، حشرا فى سيارتهم فغير معقول وغير منطقى. الثورة انتهت منذ سنوات، والجزائر مستقلة، كل الناس يعرفون هذا، فلماذا جمع الناس بهذه الطريقة المتغطرسة؟ إن لم يريدوا رؤية الجزائريين فى أرضهم كان عليهم أن يتفاهموا مع حكومتنا، لا أن يجمعونا هكذا كالأغنام، كالمجرمين، غير معقول! أن يستمر حقدهم علينا إلى هذا الحد، والثورة المسلحة قد انتهت منذ سنوات».

وصلت السيارة إلى المركز، وأنزل العمال منها بأعقاب البندقيات. وحشروا في أحد الممرات حشرا. حيث لم يكونوا فيه وحدهم. فقد كانت هناك مجموعات أخرى من العمال جيء بهم من مختلف الضواحي، وكانت ظروف إيقافهم ونقلهم الى المركز مماثلة: تقف السيارة أمام المقهى وتحاصر الشرطة من فيه، ثم تأمرهم بالركوب وتقودهم الى المركز حيث تفرغهم في ذلك الممر الطويل الذى يشبه الدهليز، وهناك ينتظرون الساعات الطويلة قبل أن يشرع في التحقيق معهم، وكانوا أحيانا يقضون الليلة والليلتين ثم يطلق سراحهم، دون أن يتعرضوا لأى تحقيق. وغاية هذه العملية هي غالبا إشعار الجزائريين بأنهم غير مرغوب فيهم، على الأقل من طرف الشرطة.

كان مولود واقفا إلى جانب شخص جيء به إلى هناك قبله، تظهر عليه علائم الترف، فخاطبه قائلا:

– أرأيت؟ إنهم لا يفرقون بين عامل وعاطل وتاجر! لم يسمحوا لى حتى بغلق المحل. حاولت عبثا أن أفهمهم أنه لا يمكننى أن أدع المحل وحده، إنهم يسلكون معنا سلوكهم إزاء المجرمين، بيد أن الجزائر مستقلة منذ سنوات، والحرب بيننا وبينهم قد انتهت، ومع ذلك فالجزائرى هو الجزائرى فى نظرهم.

ومضى يروى قصته من جديد: وصلوا عند الساعة الثامنة فى الوقت الذى كان فيه المحل مكتظا بالناس، أغلبهم لم يتناول طعام العشاء، وساقونا إلى هنا كالبقر تماما. في الواقع لو كنت عاملا كسائر العمال أو عاطلا لهان الأمر، ولكنى تاجر يا أخى، مسئول

عن محل يشتمل على مقهى ومطعم وغرف للنوم. وأنا وحدى. هل تستطيع «كوليت» أن تقوم بكل شيء في غيابي؟ كلا. ثم إنها ليست زوجتي، وهي معي، عرفتها وأنا عامل بمعامل «سيطروين»، ولكنها لا تستطيع أن تعمل شيئا في غيابي. امرأة عاملة لا تستطيع تولي مسؤولية تسيير محل، لم ينبس الرجل بكلمة فسكت مولود قليلا ثم استأنف قائلا :

– «أعرف أنهم سيطلقون سراحي بعد أن يطلعوا على هويتي. ولكن... ولكن الطريقة التي ساقوني بها منافية لكل القوانين! أنا تاجر يا أخي، ومحلي يعرفه العام والخاص، حتى الشرطة تعرفه. من بين زبائني مفتش شرطة اسمه راؤول، يأتي دائما للمطعم لتناول طعام العشاء أو الغداء هو ورفاقه، ومع ذلك ساقوني هكذا كبقية الناس، أليس هذا مثيرا؟ لم يروا أوراقي ولا أي شيء، أقضي الليل هنا أو في مكان آخر لا يهم، ولكن المحل تركته وحده. ماذا تستطيع أن تفعل«كوليت» في غيابي؟ ثم ماهو أهم: المسؤولية! لو وقع في غيابي حادث في المحل، ترى من المسؤول عن ذلك؟ هو أنا طبعا، أنا المسؤول، لأني أنا صاحب المحل. «كوليت» عاملة ليست مسؤولة.. ليست زوجتي على كل حال. كثير من الزبائن يظنونها شريكتي لأنها تتولى الصندوق المالي ولكنها في الواقع عاملة فقط. وليتها المسائل المالية لأنها تتقن الحساب، ولأنها ثقة، عرفتها منذ سنوات. مسألة هي ثقة لا شك في ذلك. صدقني يا أخي، إنني أعرف من أثق فيه ومن لا أثق».

– «سيدي المحافظ أؤكد لك...»

– أوراقك.

– «قلت لك يا سيدى تركتها فى درج المكتب بالمحل»

– ماذا تعمل ؟

– «أنا سيدى المحافظ، صاحب مقهى، مطعم، فندق «... أنا علالى مولود صاحب محل ١١٨ شارع قابرييل بيرى، سانت وان، المفتش راؤول وزملاؤه يعرفوننى جيد المعرفة، يأتون لتناول الكسكسى عندى، تستطيع أنت أيضا أن تأتى سيدى المحافظ لتناول الكسكسى، تستطيع أن تأتى متى شئت ستجد لدينا كل حفاوة، يجب أن تأتى الي ١١٨ سيدى المحافظ.

– «متى دخلت إلى فرنسا ؟»

– «متى دخلت إلى فرنسا.. منذ إحدى عشرة سنة، دخلت فى سنة ١٩٥٩».

– «أين كنت تشتغل ؟».

– «فى معامل «سيطروين» سيدى المحافظ»

– «أعندك كشوف الأجرة».

– «لست أدرى أين احتفظت بها، لاشك أن هناك كشوفا باقية فى أوراقى بالبيت».

– «منذ متى وأنت عاطل عن العمل».

– «لكن يا سيدى المجافظ، لست بطالا، أنا أعمل، أنا صاحب محل، كما قلت لك.»

– «متى توقفت عن العمل فى معامل «سيطروين؟».

– منذ سنة تقريبـا.

– «ومـن أيـن جئت بالأمـوال التى اشتـريت بهـا مقهى ومطعمـا وفندقا؟»

– «لم أشتر هذا المحل، اكتريتـه فقـط.»

– «من أين جاءتك الأموال لاكتراء محل مثل هذا ؟»

– من العمل سيدى المحافظ، من عـرق الجبيـن، اقتصدت طـوال السنوات الماضية لأستطيع اكتراء محـل.»

– أنا لى عشرون سنة فى الشرطة، ولـم أستطع توفيـر مـا أكتـرى به شقة فى فندق، فكيف استطعت أنت توفير كل هـذه الأمـوال؟»

– «لكن سيدى المحافظ، أنت لا تستطيع أكل الخبز والبطاطس سنوات».

– «لست أضحك معك. لاشك أنك سرقت هذه الأموال وإلا فأجرتك كلها لا تمكنك من اكتراء محل كالذى تتحدث عنه!».

– «كيف أسرق أنا؟ أؤكد لك سيدى المحافظ أننى عامل نظيف!»

– «هل لديك مـا يثبـت أقـوالك».

– «اسأل عنى رئيس قسم الدهن فى معامـل «سيطرويـن» سوف يجيبك بأنى كنت من العمال المتفانيـن فى عملهـم.

– «هذا كلام لا معنى له. فإن لم يكن عنـدك مـا يثبت اكتساب الأموال التى اكتريت بها المحـل فـإنك سارق».

– «أؤكد لك سيدى المحافظ، لم اسرق أحـدا فى حيـاتى. وإذا أعطيتنى فرصة فسوف آتيك بكل الحجج التى تثبت صحة كلامى.»

- «طيب، عندما تصل إلى الجزائر، هيىء حججلك للمطالبة بحقك».

- «الجزائر سيدى المحافظ؟... ولك... محلى... أوراقى، حساباتى، أموالى...»

- «هيا أغرب عن وجهى... شبرطى! الذى بعده...».

واصل المحافظ استنطاق العمال الآخرين بنفس الطريقة ونفس التهكم أما مولود فقد نزلت عليه كلمة الرجوع إلى الجزائر نزول الصاعقة. إن كل السنوات التى قضاها بفرنسا كان وراءها هذا الحلم المتمثل فى اكتراء محل وامتهان التجارة. ولما تحقق الحلم وصار تاجرا وجد نفسه أمام هاوية!

كم عد أيامه وساعات تلك الأيام. وهو مغمور بدهن السيارات وبغازاته السامة! كم بات على الطوى، وكم حمل نفسه مالا تطيق وألزمها من ظروف قاسية ليوفر من أجرة يومه ما يريحه فى غده! فرح رفاقه من العمال بعطلهم الأسبوعية ولهوا ما وجدوا إلى اللهو سبيلا، وكبح هو نفسه عن كل جنوح إلى اللهو وتبذير المال. أكل رفاقه وشربوا ما حلا لهم وألزم نفسه بأن تقنع بالضرورى من العيش، والساتر من الملبس. وكان راضيا بحياته تلك، مغتبطا بها، حتى جاء اليوم الذى تيسر له فيه اكتراء هذا المحل، وأصبح تاجرا حرا، وأصبحت حياته ذات محتوى وقد حقق ما كان يصبو إليه، ولكنه نسى شيئا واحداً، وهو أنه جزائرى يحيا فى أرض ليست أرضه، وتحت حكم سلطة لا تعرف معنى لقانون أو مبدأ إذا كان الأمر يتعلق بالجزائريين.

خاطب مولود شخصا كان إلى جانبه قائلا فى تذمر يائس:

– «أعود إلى الجزائر هكذا... بدون أن أضبط شؤونى وأبيع المحل، وبدون أن آخذ حتى ملابسى ودراهمى؟ أليس هذا هو الظلم الأحمر؟ إننى تاجر، لست لصا ولا عاطلا عن العمل ومع ذلك أطرد بهذه الصورة، أعود إلى الجزائر ولا أملك حتى ثمن خبزة؟ أصبح متسولا فى الطرقات، وأموالى أتركها للضياع! خمسة عشر عاما من الأعمال المرهقة والتقتير لأصبح متسولا! أليس هذا هو المنكر بعينه؟ يا حسرتاه لو ظننت أنى سوف أطرد بهذه الصورة لما فكرت فى عمل ولا فى تجارة، بل لكنت قمت بكل الأفعال الشنيعة، ما الفرق بينى وبين أى مجرم، ما الفرق؟ قل لى بالله! جمعت الثمن الذى اكتريت به المحل فرنكا فرنكا طوال خمسة عشر عاما، والنتيجة ماذا؟ ذهب نهر السين بما قترته على نفسى! يا إلهى! كيف أفعل بنفسى عندما أنزل بالجزائر؟ ماذا أقول للناس؟ من يصدق قصتى؟ يا إلهى!»

واستمر مولود فى أحاديثه وتحسراته المحمومة، متنقلا من شخص إلى آخر حاكيا قصته، قصة السنوات الطويلة التى أخذت منه جهده وشبابه مقابل أثمان لم يستطع فى النهاية أن ينال منها إلا الحرمان، ولم يكن يصدق أنه سيغادر فرنسا حقا، وبتلك الصورة الى أن أركب القطار المتجه الى مرسيليا من الغد، وعندئذ أدرك أن مأساته لم تكن كابوسا عابرا وإنما هى حقيقة مرة عليه أن يجابهها أحب أم كره، وفتش فى أعماق عينيه عن قطرات دموع ليسيلها حزنا على هذه النهاية، ولكن عينيه كانتا يابستين منذ زمان بعيد، منذ أن قطع كل رسائله وأخباره عن أهله بالجزائر، منذ أن راود خياله حلم التجارة والاستقرار فى باريس.

وقال لنفسه:

«حتى البكاء لا أستطيع أن أبكى، فقدت فى لحظة كل شىء فقدت السرور وفقدت الحزن. أتألم تألما يائسا لاندم ولا حزن فيه، يا إلهى! كيف أقابل معارفى وأهلى؟ أعود الى وطنى عودة المجرم المطرود، لماذا كل هذا يا الهى؟ لماذا ؟.

وتحرك القطار المتجه إلى مرسيليا يحمل عشرات الجزائريين المطرودين من فرنسا، وكل منهم كانت تتراءى له من خلال المناظر المتلاحقة التى تقدمها لهم نوافذ القطار ذكرياته وشبابه الذى تركه وراءه تحت مداخن المعامل السوداء فى مكان ما، بفرنسا!

[مجلة العربى - يونية ١٩٨٠]

رجل فى الطابور

انتهى عوض الله من أداء صلاة الجمعة مع المصلين بمسجد السيدة زينب... كان يسير فى الميدان وقت الصلاة... وجد الناس يتوافدون على المسجد بأعداد كبيرة... كل منهم يخلع حذاءه وينفضه ثم يدخل إلى صحن المسجد بعد أن ترك الحذاء لبواب المسجد حارس الأحذية... وقف لحظات يتأمل المنظر.. استهواه الموقف.. فتقدم مع الناس وخلع حذاءه وسلمه للرجل إياه ودخل إلى صحن المسجد وأخذ مكانه بين المصلين وجلس فى خشوع يستمع إلى خطيب الجمعة... تذكر أنه لم يتوضأ... هز رأسه بينه وبين نفسه واستمر فى مكانه حتى قامت الصلاة وصلى مع المصلين ثم لما انقضت الصلاة خرج مع الناس إلى الميدان بعد أن أخذ حذاءه ودفع للرجل قطعة من الفضة جعلت الرجل يلهج له بالدعاء والتحية.. فقد كان المبلغ غير معتاد بالنسبة للرجل لأن المصلين لا يدفعون له إلا قطعا من النيكل أو البرونز...

سار عوض الله فى ميدان السيدة زينب متمشيا وأخذ يتجول فى شوارعها دون هدف.. وأفاق على منظر الطابور... وجد طابورا طويلا أمام إحدى الجمعيات التعاونية.. شعر بسعادة واندفع نحو الطابور ودون ان يسأل أخذ مكانه بين الواقفين... الطابور يطول ويطول.. ومع ذلك فأبواب الجمعية كانت مغلقة... لم يحاول أن يسأل...

كان سعيدا منتشيا... رغم أن الوقفة طالت.. وحرارة الزحام بدأت تدب عندما فتحت أبواب الجمعية ووقف مديرها على الباب يدعو الواقفين أن ينظموا أنفسهم حتى يبدأ فى توزيع البونات... وحاول أحد الأشخاص أن يزاحمه ويأخذ مكانه فدفعه بشدة بعيداعنه وتشبث بمكانه وكادت تنشب بينهما معركة لولا تدخل الناس وحضور أمين الشرطة... وعندما تلاشى الطابور أمامه وجاء دوره سأله المدير:

– نعم..

– نعم الله عليك...

صرخ فيه المدير... «عاوز كام؟!».. فسأل: «مش عارف.. انتو بتبيعوا أيه؟...» صرخ فيه المدير: واقف فى الطابور من غير ما تعرف أنت عاوز ايه... فقال بهدوء: «عاوز من اللى بتبيعوه.. أى حاجة..» فكتب له المدير ورقة وأعطاها له... كانت تعليقات الجمهور قد بدأت تنهال عليه بالسخرية... لم يأبه بالتعليقات واندفع مع المندفعين نحو الخزانة... أخرج خمسة جنيهات وقدمها لعاملة الخزانة فأخذت جنيهين وأربعة قروش وردت اليه الباقى وأخذ البون وأسرع مع المسرعين إلى حيث اتجهوا وجد نفسه أمام الجزار... والخراف المجمدة معلقة.. أشبه بجثث الموتى فى أكفانها... لكنها أكفان من الشحم والدهن.. والجزار يضرب فيها بالساطور ويزن ويلف فى الورقة بسرعة ديناميكية. حتى جاء دوره.. دفع البون إلى الجزار وتناول الجزار فخذة وهوى عليها بالساطور فقطع نصفها ثم لملم له من لحم البطن والشحم باقى الكمية ولفها فى ورق الجريدة ودفعها إلى صدره ليحتضنها وينصرف...

– نظر إلى اللحم الملفوف الذى يحتضنه وابتسم لنفسه ثم عاود السير فى الطريق وهو يحتضن اللحم بعناية.. ظل يسير حتى وجد نفسه فى ساحة واسعة تحيطها المدافن.. جلس على قطعة حجر كبيرة ليستريح... كانت لفافة اللحم لاتزال فى يده... وجد كلبا يجرى وراء كلبة... أخذ يتفرج على المنظر... وضع ورقة اللحم أمامه على الأرض ثم تناول قطعة كبيرة منها ودفع بها إلى الكلب.. ترك الكلب كلبته وجرى نحو اللحم... وجاءت الكلبة مسرعة وراءه... ثم توافدت الكلاب من كل ناحية وصاحبنا سعيد بالمنظر... تأكد أن اللحم صالح للأكل لأن الكلاب أقبلت عليه بشهية.. فظل يلقى اليها بقطع اللحم قطعة قطعة حتى أفرغ الورقة وأخذ ينظر إليها وهى تنهش اللحم وتتشاجر وتتقاتل حتى انتهت المعركة بانتهاء اللحم...

– فى المساء ارتدى عوض الله أفخر ثيابه ووضع العطر والوردة الحمراء فى جيب الجاكتة وخرج بعد أن قال لوالدته: لو سأل عنى وزير المالية أخبريه أننى سأمر عليه باكر فى الثامنة صباحا... هزت أمه رأسها بهدوء وقالت: حاضر...

– فى قاعة صلاح الدين بفندق الشيراتون كان السفير اليابانى وحرمه وعدد من رجال السفارة يستقبلون المدعوين لحفل الاستقبال الكبير الذى تقيمه السفارة بمناسبة عيدها القومى... تقدم عوض الله بكل الكبرياء والهيبة والعظمة وصافح السفير وحرمه وباقى المستقبلين الذين استقبلوه بترحاب شديد ثم مالوا على بعض، كل منهم يسأل الآخر...أتعرفه..؟ من هذا؟.. لكن عوض الله لم ينتظر

حتى يسأله أحد... كان يوزع ابتسامته على الموجودين.. ويتقدم إلى البعض مصافحا بحرارة... وشرب عددا من كئوس الويسكى وتناول المزة وخاصة من الجمبرى حتى دار رأسه فترك المكان وعاد إلى بيته سيرا على الأقدام.. وجد والدته جالسة تتفرج على التليفزيون مع شقيقته الصغرى.. ألقى عليهما التحية ثم سأل والدته.. ألم يتصل به مكتب رئيس الوزراء.. قالت الأم.. لا.. قال لا يهم.. ثم دخل إلى غرفته حيث خلع ملابسه ونام...

في مقهى ريش بشارع طلعت حرب جلس عوض الله يشرب القهوة.. اضطجع على المقعد وأخذ يدخن سيجارته بتلذذ واستمتاع.. تراءت إليه أصوات مجموعة من الشبان كانوا يجلسون فى المنضدة المجاورة.. كانوا يتناقشون فى السينما... أخذ يتصنت إلى حديثهم ثم سحب كرسيه واستأذنهم فى أن ينضم إليهم.. تبادلوا نظرات الدهشة.. لكنهم رحبوا به.. ابتسم لهم وسألهم عن مشاكلهم.. قال لهم: إنه صديق شخصى لوزير الثقافة وأنه على استعداد لمساعدتهم.. التف حوله الشبان بفرح وبدأوا يتحدثون عن الفرصة التى يحلمون بها.. قدموا إليه أنفسهم.. اثنان منهم من خريجى معهد السينما قسم الاخراج.. واثنان من خريجى معهد الفنون المسرحية.. واثنان من طلبة الجامعة.. والكل يجمعهم حب المسرح والسينما وأحلام الوصول والنجومية.. أخذوا يحكون له عن أنفسهم ومواهبهم وأفكارهم الجديدة.. وعرض عليه أحدهم فكرة فيلم جديد عن أزمة الشباب المصرى من خلال أزمة الاسكان والبحث عن شقة بدون خلو.. وضحك زملاؤه وقال أحدهم.. بدون خلو إذن سيظل صاحبنا يبحث

إلى يوم القيامة.. وتحدث خريجو معهد المسرح عن أزمتهم هم وشعورهم بالاحباط بعد التخرج وكيف أن الفرص كلها متاحة للوجوه المعروفة فقط بينما الجميع يتجاهلون الشباب والمواهب الجديدة... استمر الشبان يتحدثون ويحاولون كسب صاحبنا إلى قضيتهم وكانوا يتحدثون بحرارة وأمل.. وقبل أن ينتهى الشبان من حديثهم ابتسم لهم عوض الله ثم وقف واستأذن فى الانصراف دون أن يقول شيئا.. وظلوا مشدوهين ذاهلين وهم يتابعونه وهم يبتعد عنهم بخطوات واثقة متعالية حتى اختفى.. وفى ميدان التحرير شاهد جنازة أمام مسجد عمر مكرم فاندمج وسط المشيعين ثم أخذ مكانه فى طابور المعزين وصافح أهل الميت بحرارة...

وفى أحد الأيام وجد طابورا صغيرا أمام أحد المستشفيات.. جذبه الطابور.. أخذ مكانه بين الواقفين.. كانوا خليطا من الرجال والنساء.. سأله أحدهم هل حللت فصيلة الدم.. لم يفهم.. أعاد عليه السؤال.. ابتسم له عوض الله بكبرياء وشموخ وقال نعم.. لم يفهم ماذا يريد هؤلاء الناس وماذا يشترون.. لم تكن هناك جمعية ولا بضاعة.. لاحظ أن كل من يأتى عليه الدور يفتح له باب حجرة يقف عليها تمورجى.. يدخل.. ثم ينغلق الباب وبعد لحظة يفتح الباب ليدخل شخص أخر دون أن يعرف مصير الذى دخل قبله.. وظل عوض الله واقفا فى الطابور.. حتى جاء دوره فدخل.. وجد طبيبا وممرضات وأجهزة ورجلا يمد ذراعه وحقنة طويلة تنغرس فيها لتسحب منها دمه.. شعر برجفة لكنه لم يتراجع سألته الممرضة عن فصيلة الدم فهز رأسه دون أن يجيب أحالته على

ممرضة أخرى سحبت كف يده، وغرست أبرة فى أصبعه حتى برزت نقطة دم أخذتها على لوح صغير من الزجاج وطلبت اليه أن ينتظر قليلاً. بعد لحظات اعطته ورقة بفصيلة الدم ودفعت به إلى الدكتور الذى تناول ذراعه وغرس فيها الأبرة الطويلة وبدأ فى سحب الدم من شرايينه ببطء واثناء ذلك سألته الممرضة كم لترا تريدنا نأخذ فابتسم لها ولم يرد. قال الدكتور يكفى لتر واحد يبدو أنه مضطرب سحبت الممرضة اللتر ثم اعطته ورقة ودفعت به إلى موظف يجلس قريبا منها أخذ منه الورقة ونظر فيها ثم قدم اليه خمسة جنيهات أخذها دون أن يسأل وخرج من باب خلفى، أدرك فى هذه اللحظة أنه باع دمه بخمسة جنيهات.. وأن هؤلاء الواقفين فى الطابور لم يكونوايشترون هذه المرة وانما كانوا يبيعون.. شعر ببرودة تجتاح اعصابه لم يأبه بشىء وظل يسير.. وجد نفسه أمام يافطة كبيرة مكتوب عليها وزارة التموين.. اقتحم المبنى دون أن يسأل أحداً ودون أن يسأله أحد،، وبكل الشموخ والكبرياء سأل أحد السعاة عن مكتب الوزير اشار له الساعى إلى المكتب.. اتجه مباشرة إليه.. فتح الباب.. وجد نفسه وسط حجرة كبيرة بها عدد من كبار الموظفين.. وبعض الرجال المنتظرين.. تقدم إلى أحد كبار الموظفين وسأله اذا كان الوزير موجودا.

– أيوه موجود..

– إذن – لو سمحت – أريد مقابلته..

– هل هناك موعد سابق..

– لا..

ما هو موضوع المقابلة.

– موضوع شخصى، قل له عوض الله.. نظر له الموظف متفحصا.. كانت ملامحه توحى بالثقة والكبرياء قال له الموظف انتظر سيادتك دقيقة واحدة.

– دخل الموظف إلى مكتب الوزير. كان الوزير منهمكا فى المناقشة مع وكيل الوزارة حول رسالة الخراف المجمدة الجديدة فجأة نظر الوزير لوكيل الوزارة وسأله:

– هل ذقت هذه الخراف..

– أعوذ بالله..

– إننى لم أذقها..

– إذن لماذا تقول أعوذ بالله..

– على أى حال نحن لسنا فى حاجة لتذوقها المهم أن الجمهور يقبل عليها بشراهة. هز الوزير رأسه وقال: فعلا، هذا هو المهم الجمهور هو الذى يهمنا.. وقال الموظف الكبير للوزير هناك من يريد مقابلة سيادتك دون موعد سابق..

– من..

– رجل محترم اسمه عوض الله..

– عوض الله..

حاول الوزير ان يتذكر قال الموظف يبدو أنه صديق شخصى لسيادتك لأنه يقول أنه يريدك فى موضوع شخصى.. فقال له الوزير دعه يدخل..

– ودخل عوض الله.. تقدم نحو الوزير بخطوات ثابتة وابتسامة رقيقة.. أخذ الوزير يتفحص وجهه وهو فى غاية الدهشة.. حينما وصل اليه عوض الله مد يده نحو الوزير مصافحا.. حاول الوزير أن يتذكر لكن عوض الله لم يترك له فرصة أخذ يصافحه بحرارة ويشد على يده.. ثم قال له الواقع اننى كنت أمر أمام باب الوزارة فقلت لنفسي لابد أن أقابل الوزير.

– خيرا.. ما هى مشكلتك..

– لا أبدا ليست هناك مشاكل كل ما فى الأمر أننى أردت أن أراك واصافحك..

– لكن.. من أنت..

– أنا عوض الله..

– عوض الله؟ لكننى لاأذكر أننا كنا أصدقاء..

– ومن قال إننا أصدقاء..

– طلبت مقابلتى لموضوع شخصى..

– فعلا لم يكن لى هدف آخر من المقابلة غير شخصك.. كنت أريد رؤيتك ومصافحتك.. ظل الوزير مشدوها لحظة.. وقام عوض الله.. واستأذن فى الانصراف حتى لا يعطله عن مشاغله ودون أن يرد الوزير أو يأذن له خرج عوض الله وترك المكان والوزير يشيعه بنظرات حيرة وذهول..

– أمام مكتب الوزير وقف له الساعى محييا فابتسم عوض الله واخرج الجنيهات الخمسة التى قبضها ثمنا لدمه ودسها فى يد

الساعى عندما نظر اليها الساعى كاد يسجد امامه من الامتنان والفرحة وظل يسير خلفه ويدعو له حتى خرج..

- آخر المطاف كان فى المدبح.. وجد نفسه اخيرا فى ساحة واسعة يختلط فيها الدم باللحم بالطين.. ومرة أخرى يجتذبه الزحام.. لم يكن طابورا هذه المرة.. لكنه كان تجمعا كبيرا من الناس وثمة صيحات وصرخات، بنت صغيرة ينبعث صوتها من بين الجموع متحشرجا مخنوقا واندفع كالسهم.. أخذ يشق طريقه بين الجموع بيده الحديدية حتى وجد نفسه فى قلب المشكلة.. دكان صغير للجزارة وصاحب الدكان يمسك بفتاة صغيرة يهددها بالساطور إن هى لم تعترف أين ذهبت بالفلوس والفتاة تبكى وتقسم أن الفلوس ضاعت منها ولا تدرى كيف وأين وتقدم عوض الله بهدوء وثقة نحو الجزار.. ومد يده فأخذ الفتاة من بين يديه..

واضطرب الجزار لحظة فترك الفتاة وشعرت الفتاة بالأمان فاندفعت إلى صدر عوض الله وأخذت تبكى وتستنجد به وتطلب اليه أن يخلصها منه وأن يعيدها إلى أمها فى الفيوم فهى لا تريد العمل بعد الآن في بيت المعلم وابتسم لها عوض الله وطمأنها أنه سيعيدها لأمها.. وأفاق الجزار بعد لحظة المفاجأة الأولى وتقدم من عوض الله يسأله.. ومن سيادتك.. فهز عوض الله رأسه ولم يجب.. ثم أخذ الفتاة من يدها وهم بأن يخرج بها من وسط الجموع.. لكن ألجزار أعترض طريقه وقال له لقد أضاعت عشرة جنيهات وأنه لن يتركها حتى ترد اليه المبلغ أو يشرحها بالساطور. حاول عوض الله أن يزيحه بعيدا عن الفتاة.. أقسم الجزار أن يقتلها ويقتله ويقتل

أى شخص يتعرض لحمايتها منه ما لم يسترد الجنيهات العشرة، دفعه عوض الله بشدة ثارالدم فى رأس الجزار وتناول الساطور ثم رفعه فى وجه عوض الله وقال له إن لم تتركها فسوف اشرحك به.. لكن عوض الله لم يهتز.. ظلت الفتاة متشبثة به.. مد المعلم يده ليأخذ الفتاة تحت تهديد الساطور دفعه عوض الله بشدة فهوى الجزار بالساطور على رأس عوض الله فى لحظة مفاجئة خاطفة.. لم ينطق عوض الله.. إنفجر الدم من رأسه.. صرخ الناس بجنون وصرخت الفتاة بهستيريا.. ألقى الجزار الساطور على الأرض واندفع يجرى كالمجنون.. سقط عوض الله جثة هامدة وسط بركة من الدم..

– فى نفس اللحظة من اليوم التالى كان هناك عدد كبير من علية القوم يتجمعون فى سرادق بجوار مسجد عمر مكرم.. ولم يستطع عوض الله هذه المرة ان يمشى فى الجنازة.. لأنه كان محمولا على الأعناق.

[جريدة الأهرام ١٠ ديسمبر ١٩٨٠]

• عــلاء مصطفى

الـذى انتصر فى الحرب

اللوريـات مـا زالت تتقـدم فى إصرار وتهـالك شديديـن داخـل الطابور، من داخلها وقد بدا الفجر ينبلج، بدأنا نتبين حولنا أشجارا وحشائش على الجانبين.

بغتة ارتطمت بعنف بالغ بالقابع خلفى ثم بالذى أمامى، وفى لحظة كنا «متكومين» فوق بعضنا البعض. تطلعت بصعوبة وفى ذهول.

رأيت أن سائقنا قد اندفـع بالعربـة خـارج الطريـق وأن كـل مـن حولى يقفزون مذعورين من صندوق اللوري ويجرون ثم ينبطحون.

بإحساس متبلد فعلت مثلهم فـارتطمت بـالأرض بشدة.

تناهى إلى أزيـز الطائـرة، أحسست جسدى كأنـه يضمـر، فجـأة دوى إنفجار هائل جززت على أسنـانى بشدة وانتظـرت.

كنت قد أزحت خوذتى علي قفاى لأنى توقعت أن الاصابـة فى هذا الجزء ستكون مؤلمة جـداً.

مضى وقت. لم أعد أسمع غير أصوات مكتومة لانفجارات تأتينا من بعيد بعد أن ذهبت الطائـرات.

ـ سمعت صوت «الأومباشى» يصرخ فينا غاضبا فهرولنا فى اتجـاه اللوريات.

عند مؤخرتها تزاحمنا وأخذنا ندفـع بعضنـا البعض.

كان منا من يتضاحكون فى جزل وأخرون يستميتون من أجل ارتقاء صندوق اللورى للفوز بمكان مناسب.

صرخ الأومباشى: إنه سيجعلنا نكمل الطريق إلى الميدان سيراً على الأقدام إذا لم نكف عن هذا. عاد الينا الوجوم ورحنا نصعد فى صمت.

جاء صوت الأومباشى مذعوراً من مكانه جوار السائق.

كان يأمرنا أن نفسح مكانا لرفاق دمرت عربتهم.

رأيناهم قادمين مترجلين، علا صوته فى غضب يستحثهم أن يسرعوا.

لم يستجب أحد منهم وظلوا يمشون ببطء حتى وصلوا. ومد بعضنا أيديهم يساعدونهم على الركوب حيث بدا لنا أن بينهم مصابا.

بعد أن ركبوا جميعا أصبحنا نجلس بعضنا فوق البعض.

استأنفت عربتنا طريقها تسمعنا صريرا عجيبا لاحتكاك أجزائها، صرخ أحدنا:

نظرنا كلنا بسرعة حيث يشير.. إنها جثة جندى ملقاة على الطريق. صرخنا ننبه السائق.

كانت ذراعا الجثة ممدوتين وشعرنا بعظامها تتكسر تحت العجلات، جمدنا من الرعب، أخرج السائق رأسه من الكابينة ولواها خلفه وهو يصيح فى غضب.

– إنه ميت.. لماذا صرختم؟

تنبهت أن السائق أكبر من أى منـا فى السن، وتذكـرت مـا قيـل لى من أنه متطوع وليس مجنـداً مثلنـا.

لم نعد ننظر إلى الطريق حولنا. كنا نتطلع فى بلاهة وذهـول إلى ساق أحد رفاقنا الجـدد.

أنها تبدو غير مركبة فى جسده، وكنـا نفسح لـه بصعوبـة مكانـا وسط العربة حتى يصبح جسده فى مكـان منـاسب لساقـه.

كان الدم يغمر كل سرواله وهو ينظر الينـا فى هلـع شديـد.

سألت أحد رفاقه الذين ركبوا معنـا

– هل تعرفه؟

أجابنى باضطراب شديد وبصوت خـافت.

– لا.

سمعنا صوتـه :

–ساقى تؤلمنى

نظرنا إلى بعضنـا البعض. همس أحدهـم فى أذنى :

– كيف لا يعرف أن ساقـه اليمنى مقطوعـة.

لكزته بسرعة كى يصمت أدار الجريح رأسه فى ذهول ثم سأل:

– أين مخلتى ؟

طمأناه أن أشياءه موجـودة.

تطلع إلى أحدنا وقال :

– أريدهـا إلى جنبى.

لم نعرف ماذا نقول لـه. إن شيئاً ممـا يتكلـم عنـه ليس موجـوداً بالمرة، مال أحدنا وأسر لـه:

- سنضع كـل شيء إلى جـانبك عندمـا نصل إلى أقرب مكـان لنضمد جراحك.

صمت المصاب. أغمض عينيـه، نظرنـا إلى بعضنـا البعض، فتـح عينيه وعاد يتكلم:

- أقول لكم.. إعطـوا حـاجتى إلى أمى..

وأغمض عينيه. رأينا وجهه شاحبا فى لـون الشمـع، أطـل أحدنـا وكان قريبا من كابينة السائق وصاح وهو يـدق بشدة على سقفهـا:

- معنا فتى ينزف بغزارة. لم يكد يكمل صياحه حتى شعرنا بعربتنا تزيد من سرعتها وفى لحظات كانت قد تخطت عربات القول الذى أمامنا واستمرت تنطلق بأقصى سرعتها على الطريق الوعر.

كنا نحاول أن نتماسك حتى لا يرتطـم بعضنـا ببعض ومـع ذلك كنا نتدافع فى كل اتجـاه، صرخ أحدنـا:

- هذه نقطة إسعـاف.

رأيناه يشير فى إنفعال إلى خيمة بعيدة على جانب الطريق مرسوم عليهـا صليب أبيض كبيـر كبعض خيـام مررنـا بهـا، بغتـة انحـرفت عربتنا فى اتجاهها وتوقفت أمـام النقطـة الطبيـة مبـاشرة. صاح فينـا السائق غاضباً:

- احملوه بسرعة.

كنا جميعا ننظر بلهفة من صندوق اللورى إلى زميلنا الجريح يحمله ثلاثة من الرفاق، وبينما يدلفون به إلى داخل النقطة برز يعترضهم عند بابها شخص يرتدي «أوفرول» ملطخاً كله بالدماء. سألهم:

- إلى أين؟

صحنا فيه كلنا من مكاننا:

- أفسح لهم.. إنه ينزف.

تصايح بعضنا بتوتر وفروغ صبر:

- أين الطبيب؟

رأيناه لم يتحرك من طريق زملائنا حتى كدنا نجن فرفع رأسه إلينا، كنا نقف متحفزين داخل صندوق اللورى.

قال بلا مبالاة:

- أنا الطبيب.

قبل أن ينطق أحدنا أضاف بصوت متبلد وربما بعطف :

- ألا ترون أنه فى حاجة إلى قبر أكثر من حاجته إلى..

تحركت العربة بنا بعد أن فهمنا أننا كنا نحمله إلى النقطة الطبية ميتا. ولا عجب أن العربة ما زالت ضيقة ونجلس فيها «مكومين» بالرغم من أن واحداً قد نزل.

استوت العربة فى سرعتها المعتادة داخل القول وكنا نجلس صامتين.

كان الهواء عليلا فتسلل شيء إلى نفسى مما جعلنى أفكر فى أمى. واستعيد ما رددته قبل أن نفترقا فاجتاحنى حلم يقظة رأيت فيه يديها تمتد تصافحنى ثم تضمنى فأردد على صدرها سأكون موسيقياً مشهوراً كما وعدتك فأسمع أخى الصغير يسألنى إلى أين أقول إلى هذه الحرب. قال: قبل أن تحل لى مسألة الحساب. احتضنته، قال سآتى معك، ابتسمت، تغيم ملامح أمى كلما ابتعدت، أرى شبحها يرفع يده. أحس ملمسها. يقشعر بدنى. ارتجت العربة.

تنبهت أن الجالس المتكىء على يبكى، سألته، قال إنه من أجل الذى تركناه منذ قليل، رحت أخفف عنه، تذكرت منظر الجثة مطروحة على الأرض جانب النقطة الطبية ونحن نبتعد عنها، سألت نفسى هل أيضا له من ينتظره، هيهات أن يراه بعد ذلك.

لم استمر فى التفكير فقد زادت اشجانى كان بعض الرفاق يثرثرون والآخرون واجمين وكان الشعور السائد بين هذه المجموعة هو الاطمئنان إلى حد ما غير أنى لم أكن أعرف أحدا منهم، أمس قاموا بتوزيع من بقى من أفراد فرقتنا على سائر الوحدات وكان من نصيبى أن ضممت إلى الفرقة ٢٠٢٦ اعتبرت حظى هذا عاثرا فمن زملائى من ألحقوا بأعمال إدارية خلف الصفوف بينما أنا الآن أجد نفسى فى طريقى إلى الميدان بين جنود جدد لا أعرف أحدا منهم، تذكرت رفيقا.

كنا زميلين بالمدرسة وطلبنا للجندية فى وقت واحد، تعاهدنا ألا يترك أحدنا الآخر، أجدنى من دونه الآن لا أعرف أين ذهب.

عرفت أنه من الخطأ أن تعاهد إنسانا فى الميدان. فلا يمكن لمن لا يعرف مصيره أن يفى بشيء.

انبعثت فجأة من بيننا ضحكة جزلة. قبل أن انتبه ماتت الضحكة وخيم صمت. بدأنا نسمع أصوات قنابل تنفجر.

بعيدا. انكمشت أكثر بمكانى، عاود الذى يحاورنى التصاقه الشديد بى، سمعت أسنانه تصطق.

أحسب أيضا أنه بسبب ما جنح إليه خياله ونحن فى لحظات اقترابنا من الميدان. رفعت رأسى، ظهر جليا ما توقعته، لقد كان مذعوراً.

أطرق كلانا بسرعة، نحن لا نجهر بالخوف بالرغم من أننا كلنا نحس به.

مضى وقت وكانت تعلو أصوات الانفجارات ونحن ننظر فى ذهول إلى الأشجار المحترقة والعربات المدمرة. أشار أحدنا، كانت ساقا آدمية، ازداد اقترابنا، اصبحت أميز أصوات طلقات الأسلحة الصغيرة وسط هدير القنابل.

خفضت عربتنا من سرعتها، صرخ الأومباشى، غادروا العربة.

فى ذهول بدأنا نتدافع، نهبط منها كسيل عارم لا سبيل إلى وقفه. كنا نخفى رعبنا بما نحدثه من ضوضاء.

وقفنا على الأرض نلهث شبه مخدرين تصم آذاننا أصوات الانفجارات، كنا نبدو وكأننا عبرنا لحظة للجنون تحركنا فى صف طويل بفواصل واسعة وسط دمار يطوقنا، كنت اسمع فى وضوح قلبى يدق بعنف شديد.

شعرت بشيء يدفعني في ذراعي فنظرت.

رأيت أنه جندى يسير إلى جوارى بوجه شاحب، إنه لم يجاوز السابعة عشرة من عمره ويرفل مثلى داخل ملابس ميدان فضفاضة، لم أشأ أن أخيب ظنه فابتلعت ريقي وتجرعت ابتسامة تطمئنه، وجدت نفسى أهوى إلى الأرض وكنت قد طرت فى الهواء.

رفعت رأسى ثم بدأت أنظر إلى جسدى. لم يعد غير دخان القنبلة نهضت استأنف سيرى، تعثرت نظرت رأيت أنه الفتى الذى كان يسير إلى جوارى، الآن يغوص فى دمائه وملقى على ظهره فاتحاً ذراعيه يحركهما فى بطء.

تطلعت إلى وجهه، رأيته حالما ينظر إلى فى عطف، ضممت ذراعيه ورفعت يدى أمسح بها دموعى.

دفعنى الذى خلفى، هبطت إلى الخندق اتبع الذى أمامى.

تقدمنا بداخله وكان ضيقاً متعرجاً تعثرت فيه أكثر من مرة ودخان القنابل المنهمرة يكاد يحجب الرؤية، وطأت شيئاً لينا، جمدت بمكانى، سرت فى جسدى رعشة مقيتة قطعتها صرخة.

كانت الصرخة أنينا انبعث من بين قدمى حيث أقف، تخيلت حذائى الآن مستقراً يضغط على جزء مبتور فى جسد يحتضر.

كدت أتلاشى والتوى قلبى وأنا انظر فى تردد وذهول، حمدت الله أن ما وطأته بحذائى جرذ كبير ما لبث أن فر بمجرد أن حركت قدمى. انحرفت إلى اليسار فزكمتنى رائحة نتنة للخندق الأمامى، بدأنا ونحن نتعثر داخله نتفحص وجوه جنودنا الذين جئنا

لنحل محلهم كدت أحس بما أصابهم من ويل، أخذنا نحتل أماكنهم، أرتطم أحدهم بى، عبس ثم خيل إلى أنه ابتسم، ابتسمت فى قلق سألنى ساخراً:

– هل أنتم الذين ستهجمون ؟

انفجر فى ضحكة كتمها بسرعة كأنه اختنق، لم أفهم وسار كل منا فى اتجاه.

بدأت على الفور فى تطهير موقعى ورحت أحفر لأعمقه، أرهفت السمع، إن ما اسمعه من صوت خافت يأتى من الأمام وليس أمامنا إلا العدو وأنها الحقيقة بالرغم من أنى لا أستطيع تصورها، فكرت فيما قيل لى من أن جنودهم ضخام الأجسام رفعت رأسى إلى السماء أسألها فى مرارة:

– لماذا دائما أكون مع الجانب الضعيف.

كنت مازلت أنظر إلى السماء عندما رأيت أضواء حمراء وصفراء كأننا فى ليلة عيد، كان جسدى قد عبر عن رد الفعل منذ هذه اللحظة والقنابل تنهمر كالمطر وأنا منبطح بأرض الخندق.

كانت القذائف تأتى من الأمام وتمر علينا وتسقط بعيدا خلفنا، أدركت أنهم على ما يبدو يريدون تدمير مواقع مدفعيتنا الثقيلة فى الخلف، توقعت أن الأمر سيستمر كذلك، خاب أملى بعد أن اقتربت منا أصوات الانفجارات.

وبدأت الأرض ترتج فى عنف بالغ وتتهايل الأتربة بغزارة.

إن ما أشعر به الآن ليس الخوف ولكنه الاستسلام للقضاء والانتظار المقيت لمعرفة أى جزء من جسدى ستمزقه شظية مشتعلة، غارت الأرض فقد سقطت فوقنا قنبلة مباشرة أزالت على ما يبدو كل القطاع الأيمن من خندقنا.

سمعت صوتا يصرخ :

– يا للمصيبة.. إنها قنابلنا.

أدركت على الفور أن مدفعيتنا فى الخلف بدأت في الرد وقد اخطأوا تقدير المسافة حتى صارت قنابلنا تنزل على أم رأسنا.

شهقت، كدت أبكى من العجز وقلة الحيلة. وأنا أتشبث بالأرض وأحتضنها. استجابت تغطينى بمزيد من ترابها.

مضت لحظات ثم شعرت ان القصف بدأ يبتعد فى اتجاه خطوط الأعداء، تنفست بارتياح، أدركت أنهم صححوا الخطأ.

خفت حدة القصف من الجانبين، ابتسمت وضغطت أكثر بجسدى على الأرض ألتمس مزيدا من الراحة والحنان.

ألفيت نفسى أصرخ مذعوراً ككل الذين حولى :

– إهجم للأمام.. إهجم للأمام.

وجدت نفسى أهجم للأمام، ان ما يحدث يختلف عن كل ما عرفته من قبل، لقد كنت أسرع وأبحث وأنهض وأخطو وألهث وأتقدم، كل ذلك فى آن واحد.

أصبحت وزملائي نسير متباعدين فى تشكيل مفتوح، تقاربنا فى سرعة وشكلنا قطاراً ثم عدونا خلف بعضنا نعبر ثغرة فى حقل

ألغـام، أتممنـا ذلك فى لحظـات وبنفس التشكيـل اندفعنـا واخترقنـا ممرا ضيقا بين الأسلاك الشائكـة.

نجحنا فى ذلك.

في هذا الوقت بالـذات انهـالت علينـا الطلقـات تحصدنـا، رأيت أمامى زملاء بمجموعتي يخـرون صرعى، انتـابتنى حالـة هيستيريـة، دفعتنى بكل سرعة إلى الإمام، وجدتهـم أمـامى رحـت أطلـق نيـران بندقيتى بجنون.

رأيتهم يتساقطون قتلى، فرغت الطلقات، انقضضت أغمد السونكى استقر فى رقبة، سمعت صرخة، انتزعتـه، جـريت أغمـده فى ظهـر واحد منهم يريد الفرار، انحرفت يـدى، ارتطـم السونكى بـالأرض وانكسر، عـدوت خلفـه، ألقيت بنفسى عليـه، عضضتـه فى رقبتـه أحسست بقطعة لحـم كبيـرة دافئة بيـن أسنـانى، صرخـت، شظايـا، دم، ضوء مبهر، طنيـن، إظـلام دامس.

حركت رأسى أرفعه فى بـطء شديـد، الشمس بـدأت تميـل إلى الغروب، عرفت انى هنا منذ ساعـات.

عدت أوسد خدى الأرض كما كـان، اجتـاحنى صداع شديـد، قبل أن أغمض عينى وقع بصرى على ما جعلنى أفتحها مرة أخـرى وأحدق، على بعد رأيت رفيقا يطـل مـن خنـدق صحت:

— هيه.

كانت ذراعاه ممدودتين أمـام رأسه على الأرض، وخيـل لى أني أسمعه يسألنى، صحت:

– هل قلت شيئاً ؟

لم يرد رأيته يحرك رأسه ناحيتي حتى صار ينظر إليّ، شهقت فى جزع، حاولت أن أهرب، إنه ليس من جنودنا، شعرت بألم بالغ بدأ ينقض عليّ، نظرت فى سرعة أخبره أنى جريح، إقشعر بدنى لما رأيته مازال بمكانه.

كان يحرك رأسه فى بطء جهة اليمين ثم يعاود ويحركه جهة اليسار، بدا لى كأنه يختنق، صحت رغما عنى:

– هل انت مصاب ؟

لم يرد، صرخت أردد :

– هل تفهم لغتى ؟

وخزنى ألم شديد، صمت. عدت بيأس أسأله :

– هل تفهم ما أقول؟

حرك رأسه، هتفت يا الهى، لقد سمعنى، رأيت رأسه يختلج إلى الخلف ثم إلى الأمام فتردد على وجهه آخر شعاع للشمس قبل ان تختفى، تبينت ملامحه، أخطئ إن قلت انه ليس أصغر منى فى السن، حولت رأسى إلى السماء، ثم ملت مرة أخرى أنظر إليه، كان يبدو مذعوراً يحس ألما، صحت :

– انتظر.. سآتى إليك.. سآتى إليك.

تأوهت، نظرت ناحيته، أطرقت وغمغمت، لا تخذلنى يارب، ناضلت برهة، لم أبرح مكانى، نظرت إليه، رأيت ذراعيه الممدودتين نحوى تتسعان صرخت من العجز.

بـدأت أحس مـا جـرى لى، صرخت مــن الألــم، بكيت بشدة، رفعت رأسى، الظلام زحف عليه، لم أعـد أتبيـن ملامحـه.

رأيته شبحا يعبث الهـواء بشعـرات فى رأسه، ناديتـه، قلت:

– لا أستطيــع أن آتى إليك..

حاولت أن أطمئنـه فصحت بـأعلى صوتى:

– عندما يأتى جنودنـا سيحملـونك معى إلى المستشفى.

استدركت فى ذعر، مـاذا يحـدث لـو أن جنـوده الذيـن انتصروا حضروا ليأخذوه، اجتاحتنى رهبة بالغـة، قـد يقتلـوننى، حـاولت أن أتأكد، صحت بـأعلى صوتى:

– هل يعرف أحد منكم مـن انتصر فى الحـرب؟

تردد صوتى فى جميع الأرجـاء.

لا جثثنا ولا جثثهم تـرد.

فى يوم تسطع فيه الشمس وفى داخـل ملـف متـرب على الـرف أوراق بين سطورها عبارة (وقد أبيـدت الفرقـة ٢٠٢٦).

[جريدة الأهرام، ١٧ أبريل ١٩٨١]

• سناء البيسى

امرأة لكل العصور

لم أدرك أن أيامى سرقت منى إلا فى السنة الثالثة بعد الأربعين.. أبو الأولاد كان يكبرنى بأكثر من سنوات عمرى. تزوجته فى السن التى تبهر فيها المراهقة بالرجولة الكاملة.. ذهب إلى مولاه بعد أن أنجبت له ثلاثى أصبحوا أطول منى.. كريماً فى مصروف البيت والفاكهة والدكاترة لأنه من عيلة مرتاحة.. الحق يقال، لكنه كان يرى فى أحمر الخدود بهرجة، وفى كثرة خروج الزوجة من الدار ما يقلل من قدرها، وحكمه على دردشة التليفون سخافة، وارتداء المايوه والبنطلون وسوسة أبالسة، وأعياد الميلاد بدع مستوردة، وقراءة المجلات تفاهة. والسرحان غباء، وتلبية رغبات الأولاد إفساد، والاختلاط بالجيران انتهاك لحرمة البيت، والصديقات مندوبات خراب، والسهر فيه قضاء مبرم على الصحة، وقميص النوم خارج غرفة النوم امتهان لشرعية التقاليد، والكوافير حرام، والمناقشة رعونة، والضحكة العالية قلة أدب، والنادى مرفوض مرفوض.. وعندما سقط كفه على ذهول وجهى فى أول زواجنا لعلمه أنى استقبلت ابن خالتى فى غيبته ظللت لا أفتح إلا شراعة الباب لأقول للزائر إن الأستاذ غير موجود. ولم أكن أعلم ماذا سنأكل على الغداء إلا بعد أن يصدر توجيهاته فى الصباح، وهو الذى يحاسب صبى المكوجى ويأخذ الزجاجة من بائع اللبن ويعرف مستوى تفهم الأولاد من أستاذ الدرس الخصوصى.

المفاتيح التى كانت جميعها فى قبضته تركها لى ورحل.. قمم الرهبة.. مرحلة إنعدام الوزن. مثل طائر يفتح له باب القفص فيظل منكمشاً بالداخل لا يدرى أهمية مساحة الفضاء التى أمامه بلا قضبان. بحذر تتعثر خطواته إلى الخارج يداعب النسيم أجنحته. لا حاجز يصدمه. تنتشى تجربته، يحلق إلى أقرب غصن.. ثم إلى الحرية !

لم أكن أصدق أنه لا محظورات. لى كامل إرادتى. أستطيع أن أعبر الباب بلا إذن والعودة متى أشاء. أكدس حقيبتى بالجنيهات وأنتقى اللون الصارخ والحذاء المفتوح. أرفع صوت غناء لوعة الحب ونار الفراق وحلاوة الشوق ووصل الوداد. أتابع أخبار الفنانات وتطربنى المرآة. يهزنى الغرور. أرقص لها كأمهر من تهز محيط الوسط. أأرجح حبال الضحكة وأتحيز لفريق. أدور بالعربة فى كل شارع وأضع لها كلاكس يصدر صوصوة، وتحملنى رحلة بطائرة وأصبح قيادة فى شلة.. ومائة حجة وحجة لإقامة حفل..

ما كانت الأرض العطشى قد ارتوت تماماً عندما وجدته فى طريقى. شاب جاء ميلاده بعدى. يعشق النضج وأوج الأنوثة والمرأة الأم. أتكلم فيصغى. أطلب يلبى. صوته حب. حنانه رجولة. بجانبه الحياة انطلاق.. الأولاد لم يعتادوا ممارسة الرفض. لم يقل أحدهم لا.. وافقت على الزواج.. جاء بيتنا يعيش.. الحياة حلوة..

ضغطت عمرى. جاريت سرعة حركته. نفذت حيوية برامجه. أدمنت أن أعود شابة. أن أظل امرأة لكل العصور. أردت أن أمنحه المعجزة. أحتويه بالتكامل. أعطيه الطفل. لكن الكيان الذى أعطى

ببلاهة لمن لا يعنيه فيما مضى رفض رعاية غرس الحب، والخلايا التى تشيخ أحاول تجديدها من خلف الستار.. أصبحت زبونة لوهم معاهد التجميل. أشد جلوداً تترهل. يستأصل المشرط جانباً من شحم. أذوب فى لهيب أجهزة كهربائية. تسلخ وجهى أقنعة مستحضرات. ألهث فوق عجلة تخسيس. أقطع النفس فى بخار حمام الساونا. ينهد حيلى تحت قبضات التدليك. أخرس الجوع. أبتلع الأقراص ويصبح مؤشر الميزان سيفاً مسلطاً على أعصابى.. تعبت..

البرنامج الذى وضعه لرحلة اليوم كان حافلا.. سيارات وخيام وسباحة وغطس ورقص وسهر. الأولاد كل فى طريق، وهو قلت له أذهب وحدك فأنا اليوم متعبة. أصر على البقاء بجوارى. تشبثت بإصرار وجدتنى أعجب له.. ومضى.. ياه. أحمال كجبال أزيحها عن أكتافى لساعات. استراحة. البطلة يداعبها الاعتزال. أتحرر من المشبدات. من الشباب. أرحم وجهى من الأصباغ.. أرفع سماعة التليفون. أخرس ضجيج الموسيقى. أغلق تيارات الهواء. ألقى بمضرب للتنس فوق ظهر دولاب. أفك دبابيس الشعر. أنزع كعباً يقلص أوردة الساق. أسبح فى اتساع جلباب. يشد المنديل جبهتى. أتثاءب بملء حنجرتى. أقرأ الفاتحة للمرحوم.. أروح فى نوم كالموت لا يقلقنى فيه شخير قد يطرده صدرى !

[من مجموعة «امرأة لكل العصور» ١٩٨٤]

● طـه وادى

موقف فى حياة صعلوك

انتصف ليل القاهرة أو كاد، لكن حركة الحياة لم تتوقف، رغم برودة «يناير» اللاذعة. قادته قدماه إلى ركنه المنعزل فى قهوة «الفيشاوى». لا يدرى كيف وصل.. ولا أىّ طريق سلك، غير أنه أحس راحة شديدة، حينما جلس متهالكاً على الكرسى الخشبى. لم يجد صعوبة - رغم الزحام - فى أن يصل إلى حجرة، فيها مجلسه المفضل. هنا مارس كل الأنشطة التى يبيح القانون ممارستها فى مكان عام.. .. !! يحلو له - أحياناً - أن يقضى الليل فى هذه الحجرة، ليس مهماً أن ينام، المهم هو أن يقتل إحساسه بالوحدة والوحشة، وهو يعيش فى مدينة تعدادها اثنا عشر مليونا من البشر. آه ياقاهرة..!!

أيقظه الجرسون دون أن يلتفت إليه

- شاى يا أستاذ أحمد ؟

أومأ له بإشارة بطيئة. فى اللحظة التى غاب فيها الجرسون، ظهر ماسح أحذية، أخذ يضرب بفرشاة خشبية على صندوق صغير، فتغافل عنه، موقناً أن حذاءه قد صار أرخص من القروش، التى يمكن أن يمسح بها، كما أنه - أى الحذاء - صار أجرب لا ينفع معه أى لون، وأهم من هذا وذاك هو أنه لا يحتكم على أىّ نقود.!!

جاء الجرسون، ووضع أمامه الصينية وبراد الشاى، وكوباً بها بعض السكر، وورقة نعناع أخضر، وكوباً أخرى بها ماء. احتسى الماء بسرعة أملاً فى أن يسكت معدته الخاوية. بينما كان يذيب السكر فى الشاى برتابة وهدوء، أخذ يتأمل زبائن المقهى، وهم يلعبون الدومنيو أو الطاولة، ويدخنون الشيشة أو الجوزة، ويشربون القرفة أو الزنجبيل أو الشاى – مثله – أو الحلبة المطحونة أو القهوة. ثمة عالم غريب عجيب. يحاولون قتل ليل لشتاء البارد بصبر وعناد. البرد جعل الناس يقتربون من بعضهم البعض، ويتعاملون كأنهم أصدقاء حقيقيون، مع أنهم اجتمعوا صدفة.. وسوف يفترقون صدفة. أرهف السمع – دون قصد – لأحاديثهم الساخرة حول قسوة البرد وغلاء الأسعار واختفاء الحشيش. تأمل ملابسهم المتواضعة وعيونهم المرهقة، فرأى فيهم صورة منعكسة لحياته الضائعة.. غير أن هؤلاء الضائعين – فيما بدا له – كانوا أسعد حالاً منه، لأنهم يعيشون الفقر، ولا يشعرون به مثله على الأقل، زاد من إيمانه بهذه الفكرة أن وجدهم يتحلقون حول واحد منهم، بدأ يغنى بصوت مجروح :

إنْ كان بِدّك تِريّحِ القلبْ وتهدّى
اتركْ هوَى الدنيا، لا تاخُدْ منها ولا تدّى
حِسَّكْ تقُول عمىّ ولا خالى ولا جِدّى
دا اللّى معاه مالْ مالكْ دِى ومالكْ دِى
واللّى بلا مال تارِكْ دِى وتَارِكْ دِى

صاح واحد من المستمعين منتشياً:

– شاى على حسابى يا معلم لشلة الأنس.!!

تمنى أن يكون قريباً من الشلة،حتى تشمله موجة الكرم المفاجىء، ويشرب شاياً على الحساب. لا فائدة، إنه – كما تخيل نفسه – هكذا دائماً.. لا هو مع الناس، ولا هو بعيد عنهم..!! لقد حاول.. وحاول، لكنه دائماً يفرّ ويهرب. شكّل الفقر بالنسبة له حداً مثل سور الصين العظيم، يحول بينه وبين البشر. لم يكن أمياً بحيث يتجه إلى حرفة، ويكون على الأقل مثل جاره الأسطى دسوقى الحلاق. كما أنه لم يكمل تعليمه، بحيث يستطيع أن يشغل وظيفة محترمة. إنه مجرد حاصل على الثانوية، ويعمل – منذ خمس عشرة سنة – معاوناً لمدرسة ابتدائية. لكن الذى أفسد حياته ودمّر كيانه، توهمه منذ وقت مبكر، أنه يمكن أن يكون كاتباً صحفياً، فأخذ يشترى الجرائد والمجلات، ويكتب ويرسل إلى كل الصحف والمجلات.. لكن اسمه لم يظهر حتى الآن سوى مرتين فى بريد القراء. بين الحلم والواقع ضاعت جنيهاته وقروشه، واغتربت نفسه وروحه. أمسى يؤمن أنه غريب.. مضت المسافة تتسع بينه وبين الناس فى العمل.. وفى الحارة.. وحتى فى المقهى..!!

لعن – فى النهاية – فى السر والعلن الصحف والصحافة، وقرر أن يكون ممثلاً.. فناناً، والفن – فى تقديره – موهبة لا يحتاج المرء معها إلا إلى النوايا الطيبة. بدأ يتابع مجلات السينما، ويتعاطى مشاهدة الأفلام المحلية والأجنبية.. وأخذ ينتظر الفرصة السانحة. توهّم ذات مرة أن الممثل الذى يقوم بدور الرجل الطيب على

الشاشة،هو كذلك بالفعل فى الواقع. راح ينتظر الممثل الطيب – كما تصوّر – فى أقرب مسجد إلى بيته كل يوم جمعة، غير أنه اكتشف بعد نصف سنة أن الرجل لا يزور المسجد ألبتة. بعد ذلك اتهم نفسه بقصور الرؤية وقلة الوعى، وقال: لم لا أطلب المساعدة من ممثلى أدوار الشر؟! لكنه اكتشف – بعد فوات الأوان – أن كل الطرق إلى الشاشة الكبيرة أو الصغيرة مسدودة.. مسدودة، وأن لا أمل.. لا أمـــل. رأى فى نفسه صورة مجسدة للفقر. لولا الفقر لما مات أبوه دون علاج.. ولا توقف مسار تعليمه.. ولا ما تزوج حتى الآن. الفقر لعنة.. والفقراء مبعدون.. مستبعدون..!!

ترك المقهى.. وطاف حول مسجد الحسين مثنى وثلاث ورباع. تعب من كثرة الطواف فجلس أمام المسجد. أدرك حين رأى الحركة الصاخبة فى الميدان أن الفجر مازال بعيداً.. وربما بعيداً جداً. لكن التعب والضياع كانا أكبر من أى إحساس آخر. أيقظه من غفوته شرطى فى ملابس سوداء كأنه عفريت. أبرز له بطاقة تحقيق الشخصية طالباً عفوه، ثم مضى لا يدرى إلى أين يمكن أن يذهب؟! أحس قشعريرة أشد برودة من ليالى الشتاء. حين توهم أن عينى الشرطى لاتزالان تتعقبانه، أسرع فى الحوارى والأزقة.. حتى وصل إلى شارع المعز. الشارع متعرج مثل أفعى رقطاء. الهدوء الموحش يظلل المكان. لا صوت.. لا حركة.. لا أحد يمشى فى هذا الليل البارد سواه. سوّلت له نفسه أن يعود إلى المقهى.. لكن ماذا يفعل هناك ولم يعد معه قرش

واحد. أفضل شيء هو أنِ يذهب إلى البيت لينام، حتى يذهب إلى المدرسة فى الموعد، ولو مرة واحدة. الناظر استخدم معه كل أساليب الزجر والعقاب بلا جدوى. أخيراً كتب عنه فى ملف الخدمة «لا يُنقل ولا يُرقي ولا يُفصل ولا يأخذ علاوة».. يعنى موظف مع إيقاف التنفيذ. تحسر على ما آل إليه حاله، وقرر أن يبدأ من جديد بداية صحيحة. يجب أن يرضى بالقضاء والقدر، وأن يؤدى واجبه كما ينبغى.. وأن ينسى كل الأحلام أو الأوهام التى أفسدت حياته!!

وصل أخيراً إلى البيت. تلمس طريقه بحذر على السلم المظلم والسور الحديدى المتآكل. أخذ يصعد درجة درجة، وأصداء صخب المقهى ومطاردة الشرطى وبرودة الليل تزيد من آلامه ومخاوفه. حاول أن يفتح الباب - باب غرفته - بهدوء، حتى لا يوقظ النائمين، لأنه يشغل غرفة فى شقة مشتركة، توجد بها ثلاث غرف أخرى، فيها ثلاث عائلات. شعر بقدر من الراحة، حين سمع فى الظلام حركة المفتاح تؤذن بفتح الباب المغلق. ظلام الحجرة أشد من ظلام السلم. صاحب البيت قطع عنه النور، لأنه غير مواظب على دفع الأجرة. لعن الظلام.. وصاحب البيت.. وناظر المدرسة.. وجرسون المقهى.. وشرطى البوليس، وارتمى متهالكا على الحصيرة. لدغه البرد بشدةٌ. رغم برد الحصيرة وظلام الحجرة.. استلقى على ظهره، وتطاول بملابسه وحذائه البالى الأجرب، جذب البطانية المتآكلة وغطى جسده المتعب من القدم إلى الرأس. أحس أنه لم يسترح لحظة فى حياته. حاول أن يطرد أشباح الخوف والبرد.

قليلاً قليلاً بدأ يحس بعض الدفء. أخذ النوم يداعب جفونه. فيما هو بين اليقظة والمنام رأى طيف أبيه يقول له :

«كن شجاعاً يا أحمد.. حاول أن تبدأ منذ الآن بداية جادة.. بلا خوف ولا وهم!!»

[من مجموعة «دائرة اللهب»]

مختارات من القصة العالميـة

شــقاء !

الشفق يؤذن بإقتراب الليل، وندف كبيرة من الثلج تتساقط حول مصابيح الطريـق، وقـد أضاءت لتوهـا، وتكسو السطـوح والقبعات وظهور الخيل وأكتاف الرجال بطبقة ناعمة رقيقة، والحوذى «إيونـا بوقاف»، قد لفه الثلج، فتجمد فى مكانه فى العربة، أبيض كالشبح، وانكمش كأقصى ما يستطيع الجسم الإنسانى أن ينكمش، لا يفكر فى إزاحة الثلج عن جسده، حتى لو تساقط عليـه منـه تيـار منتظـم. وحصانه كذلك: أبيض وساكن، يبدو فى سكونـه، وحـدة خطـوط جسمه، وقوائمه الرفيعة المشدودة تشبه العصا فى استقامتهـا، أشبـه بعلبة الأطفال. وأغلب الظن أنه كـان يتأمـل مـا حولـه، وقـد انتـزع من الحـرث، وألقى بـه وسط هـذا الإعصار مـن الأنـوار المخيفـة، والضجيج المتواصل، وناس يتدافعـون.

مضى وقت طويــل دون أن يتحــرك، خرجــا إلى الشارع وقت العشاء، لكنه لم يربح شيئاً، ولم يدعه أحـد من الزبائـن، لـم يجىء أحد بعد، بينما ظلام الليل يلف المدينـة، ويتوهـج ضوء المصابيـح، وتشتد حركة الشارع. وفجأة سمع إيونـا مـن يناديـه:

– حوذى... أوصلنى إلى فيبـر جسكايـا.

انتبه إيونا، ورأى من خلال عينيـن غطتهمـا نـدف الثلـج ضابطـاً يرتدى معطفاً عسكريًّا واقيا من المطـر.

– إلى فيبر جسكايا... هل أنت نائم؟... إلى فيبر جسكايا.

شد إيونا الشكيمة موافقاً، فتطاير الثلج من على ظهر الحصان وكتفه، وأخذ الضابط مكانه من العربة، بينما أخذ الحوذى يعض لسانه، ويمد عنقه، كما لو كان أوزة، وارتج قليلا فى مقعده، وراح يلوح بسوطه، عادة لا ضرورة، فاشتد الحصان، ومد عنقه، وبدأت سيقانه الخشبية تتلوى. ومن بين كتل الظلام تتراقص أمام عينيه، سمع صوتاً يصيح به:

– إلى أين تتجه... إلى أين أنت ذاهب بحق الشيطان... إلى أين تدفعك العفاريت؟.... الزم يمينك يا رجل.

وغضب الضابط:

– أنت لا تعرف القيادة... الزم يمينك !

ويلعنه سائق عربة أخرى، وينظر إليه أحد المشاة فى غضب، ويزيح الثلج عن كمه، وقد اصطدم ذراعه برأس الحصان وهو يعبر الطريق، وبدا إيونا فى مقعد السائق كما لو كان يجلس على حصيرة من الشوك، يرفع كتفيه، ويدير عينيه فى نظرات بلهاء، كما لو كان غائباً عن الوعى، لا يعرف أين هو، ولماذا وجد فى هذا المكان.

وقال الضابط متهكماً: أى ناس أشرار هم، إنهم يتعمدون ما وسعهم أن يصطدموا بعربتك، أو يقعوا تحت حوافر حصانك، يفعلون ذلك عمداً، كما لو كانوا على اتفاق.

ونظر إيونا إلى الراكب، وحرك شفتيه، كان من الواضح أنه يريد أن يقول شيئاً، ولكن همهمة غامضة هي التى كانت تخرج من فيه فحسب.

وسأله الضابط: ماذا تقول؟

والتوى فم إيونا بابتسامة كئيبة، وشد عنقه، وبجهد راح يقول في صوت خفيض:

– ابنى.... ابنى مات هذا الأسبوع يا سيدى !

– أوه... مات بماذا ؟

واستدار إيونا بكل جسمه إلى الراكب، وقال:

– لا أحد يدرى... من حمى على التأكيد، رقد ثلاثة أيام فى المستشفى وهناك مات، إنها إرادة الله.

وارتفع صوت فى الظلام: ابعد أيها الشيطان... لم جُعلت العينان أيها الكلب العجوز، إلى أين أنت متجه! وقال الضابط:

– أسرع... أسرع، لأننا على هذا النحو لن نصل هناك إلا صباح الغد.

عاد الحوذى يمد رقبته، ويرتج خفيفاً فى مقعده، ويقرقع سوطه بعنف، واستدار مرات وراءه ليرى الزبون، ولكن هذا أغمض عينيه، وبدا كأنه لا يرغب فى الاستماع إليه. وبعد أن أوصل إيونا راكبه إلى فيبر جسكايا توقف أمام حان، وانكمش فى مقعده من جديد، وتجمد ثانية، وبدأ الثلج يتساقط على كتفيه، وعلى الحصان، ومرت ساعة، وبعدها ساعة... ثم ظهر على الطوار ثلاثة شبان يتمايلون،

يرسلون ضجيجاً عاليا، بأحذيتهم الثقيلة، ونقاشهم الحاد، اثنان منهم طوال القامة، والثالث قصير أحدب، وصاح الأحدب: إلى كوبرى البوليس أيها السائق، سندفع لكِ نحن الثلاثة عشرين كوبيك.

وشد إيونا الشكيمة، وعض شفته، عشرون كوبيك ليست أجرة طيبة، ولكن سيان لديه روبيل أو خمسة كوبيك ما دام هناك زبائن، واقترب الشبان من العربة، وبين التدافع والشتائم وثبوا إليها وحاولوا أن يجلسوا جميعاً فى نفس الوقت، ولم يكن المقعد يتسع لغير اثنين، فبقى الأحدب واقفاً، وقال:

– هيًّا... ألهب الحصان. اندفع بقوة، أية عربة هذه التى لك يا صديقى، محال أن يوجد فى بطرسبرج أسوأ منها. وضحك إيونا: ها.. ها.. من ليست عنده غيرها !

– طيب.... أسرع، هل تريد أن نسير على هذا النحو كل الوقت؟... إذن تود أن أضربك على قفاك!. قال واحد من الثلاثة:

– إن الصداع يؤلمنى، شربت بالأمس أنا وفاسكا أربع زجاجات من الكونياك، فى منزل دوكما سوف.

رد الآخر بغضب:

– لا أرى ثمة ضرورة للكذب... إنك تكذب بطريقة مخجلة!

– فليعافنى الله إذا لم يكن ذلك صحيحاً.

– إذا كانت القملة تعطس فما تقوله صحيح، وفتح إيونا فمه فى شبه ابتسامة وقال:

– ها... ها... أى مزاج رائق لدى السادة! وصاح الأحدب فى غضب:

– معك إلى جهنم... ألا تريد أن تسرع أيها العجوز القذر؟ ألهب ظهر حصانك... اضربه بالسوط... اضربه بقوة..

كان أيونا يحس بهياج الأحدب خلف ظهره، ويسمع السباب الذى يوجهه إليه، ثم رأى الناس، وأحس بالوحدة تبتعد عنه شيئاً فشيئاً، على حين واصل الأحدب شتائمه، وصمت عنه ليضحك على فكاهة ألقاها أحد زملائه، واستمر يضحك حتى دهمه السعال، وأخذ زميلاه الطويلان يتحدثان عن فتاة اسمها ناديا بتروفنا، وينظر إيونا إليهم، وينتظر حتى تسود فترة صمت، ويلتفت إليهم من جديد، ويقول:

– هذا الأسبوع... فى هذا الأسبوع مات ابنى! وقال الأحدب وهو يجفف شفتيه من السعال:

– كلنا سنموت.... طيب، طيب، أسرع... لم أعد أحتمل أنا وأصدقائى هذا الزحف البطىء، متى ستصل ؟

– شجعه.. اصفعه على قفاه! أسمعت أيها العجوز القذر؟ سأصفعك، سأجعلك نشيطاً، لو احترم الإنسان مثلك فخير له أن يمشى على قدميه، أتسمعنى؟... أم لا تهتم بما يقال لك !

وسمع أيونا، أكثر مما أحس، بصفعة قوية على قفاه، ويضحك: ها. ها... أى شبان مرحون أنتم، ليمنحكم الله الصحة.

ويسأله أحد الشابين الطويلين :

- حوذى... هل أنت متزوج ؟

- من ؟.... أنا ؟.. ها.. ها.. أى مزاج رائق أنتم عليه.. الأرض الرطبة هى زوجتى الوحيدة الآن.. ها.. ها.. لقد مات ابنى، وما زلت أنا بعده حيًّا.. يا للغرابة ! لقد أخطأه الموت، أخذه وتركنى.

واستدار إيونا ليخبرهم كيف مات ابنه، ولكن الأحدب تنهد، وتنفس الصعداء، وأعلن: أخيراً وصلنا والحمد لله.

وبعد أن قبض إيونا أجرته ظل يحدّق طويلا فى الشبان الثلاثة، وهم يختفون فى ممر مظلم، وعاد من جديد لا يملك غير الصمت. داعب النوم جفونه خلال لحظات قصيرة، ثم عاد يمزق قلبه على نحو أقسى مما كان من قبل، وبعينين مقروحتين أخذ يتأمل الجماهير غادية ورائحة على جانبى الطريق، ألا يجد بين هذه الألوف من البشر من يغيره سمعاً، ولكن الناس يمرون حوله ولا يشعرون بشقائه، شقاء عميق بلا نهاية، لو انفجر قلبه لأغرق الدنيا!

ويرى إيونا بواباً يحمل لفة، ويقترب منه شيئاً، ويتهيأ للحديث معه:

- كم الساعة الآن يا صديقى ؟

- الساعة قاربت العاشرة... لماذا توقفت هنا ؟.. ابتعد عن هذا المكان.

وابتعد إيونا بضع خطوات ثم انكمش جسمه، واستسلم للشقاء، بدا له من العبث أن يتجه إلى الناس، وقبل أن تنقضى خمس دقائق اعتدل فى جلسته، وهز رقبته، كما لو كان يشعر بألم حاد، وشد الشكيمة وهمس فى نفسه: إلى الإسطبل... إلى الإسطبل.

وانطلق حصانه مسرعاً كما لو كان يعرف أفكاره، وبعد ساعة ونصف جلس إيونا إلى جانب موقد قديم قذر، وعلى الأرض، وعلى مقاعد خشبية قديمة أُناس يغطون في النوم، والهواء خانق، ومليء بالروائح العفنة، ونظر إيونا إلى النائمين، وهرش في جلده، وتحسر لأنه عاد إلى البيت مبكراً.

وقال في نفسه: لم أكسب حتى ما يكفي للقرطم، وهذا على التأكيد مصدر حزني، فعندما يؤدي المرء واجبه يأكل ما فيه الكفاية، ويأكل حصانه حاجته، ويشعر بالراحة. ونهض حوذي آخر في ركن من الأركان، يغلب عليه النوم ويتجه إلى مكان المياه، وسأله إيونا:

–أعطشان أنت؟

– نعم... أريد أن أشرب.

– بالهناء والشفاء.. ولكن ابني مات يا زميلي... كان لي ولد ومات.. أتسمعني؟ مات هذا الأسبوع... في المستشفى، إنه أمر غريب.

وأخذ إيونا يرقب الأثر الذي تركته كلماته، فلم يلحظ شيئاً، كان الشاب قد غطى رأسه واستغرق في النوم.

وتنهد الرجل العجوز، وهرش في جسمه، كان ظمئاً إلى الكلام، كعطش الشاب إلى الماء. أوشك أسبوع أن ينصرم منذ مات ابنه، وهو لم يتحدث إلى أحد بعد حديثاً حقيقيًّا، يريد أن يتحدث عنه حديثاً جديًّا وفي هدوء. أن يحكي كيف مرض ابنه وكيف تعذب، وماذا قال قبل أن يموت وكيف مات، وأن يصف جنازته، وكيف

ذهب إلى المستشفى لاستلام ملابسه. وما زالت لديه ابنته أنيسيا في الريف، وهو يريد أن يتحدث عن أنيسيا بدورها، نعم لديه الكثير مما يريد أن يقوله، وينبغي أن يتنهد، وأن يجد من يستمع إليه، وأن يعجب من الزمن وأن يأسى له، وسيكون من الخير أن يتحدث إلى النساء لأنهن ينهمرن بكاء مع الكلمة الأولى، برغم أنهن مخلوقات حمقاوات.

وقال إيونا لنفسه:

دعنا نخرج ونلقى نظرة على الحصان، وفى الوقت متسع دائماً للنوم، لا تخف ستنام بما فيه الكفاية.

ولبس إيونا معطفه وتوجه إلى الإسطبل، حيث حصانه، وبدأ يفكر في القرطم وفى الدريس، وفى الجو، وفى ابنه... عندما يكون وحده لا يستطيع أن يفكر فيه. من الممكن أن يتحدث عنه إلى شخص ما، ولكن التفكير فيه وهو وحده، وتصوره، ألم مرعب لا يمكن لإنسان أن يتحمله.

وسأل الحصان، وهو يتأمل عينيه اللامعتين: ماذا تعمل؟.. هل تأكل؟... كل، كل... إن لم تربح ما يكفى لشراء القرطم فلتقنع بالدريس، نعم لقد أصبحت عجوزاً على قيادة العربات... كان ينبغى أن يكون ابنى الوحيد هو الذى يقود لا أنا... كان قائداً بمعنى الكلمة... كان يجب أن يعيش، وسكت إيونا برهة، ثم تابع حديثه:

– هذه هى القضية يا حصانى العزيز... لقد ذهب ولدى، لم يعد هناك من يسمى «كوزما أيونتش»، قال لى وداعاً، ومات دون

سبب ما، والآن تصور أن لك مهرة صغيرة، وأنك والدها، فجأة ذهبت هذه المهرة وماتت، ألا تتأسف لموتها... أليس كذلك.

كان الحصان يعلك ويجتر وينخر فوق يدى سيده، وأخذت الحمية إيونا، فبدأ يحكى له القصة كاملة.

الحبـل

أقبل الفلاحون فى «يوم السوق» مع زوجاتهم على الطرق الكثيرة المنتشرة حول بلدة «جودرفيل» قاصدين المدينة. وقد احتشد الجميع واختلطت القبعات العالية التى يلبسها الأغنياء منهم بقرون الماشية، وبما تحمله القرويات فوق رؤوسهن. وكانت الأصوات المنبعثة من هنا وهناك تثير ضجة متواصلة، كان يعلو فوقها بين حين آخر خوار بقرة أو قهقهة مدوية من ريفى قوى الصدر.

وكان السيد «هوشكورن» - وهو من أهالى بلدة «بروتييه» - فى طريقه إلى الميدان عندما لمح على الأرض قطعة حبل صغيرة. وكان الرجل على جانب كبير من الحرص ككل نورماندى صميم، يرى أن كل ما يفيد يجب أن يلتقط فقد ينتفع به، فأحنى قامته فى جهد ظاهر، على الرغم مما كان يشكوه من آلام الروماتيزم، وأخذ يلف قطعة الحبل فى تؤدة وعناية. ثم وقعت عيناه فى تلك اللحظة على السيد «مالاندان» صانع السروج واقفاً بباب حانوته وهو يحدجه بنظراته.

كان بين «مالاندان» و «هو شكورن» خلاف قديم، إذ كان الرجلان قد تنازعا ذات مرة من أجل رسن، ولأنهما كانا حقودين فقد استحكمت العداوة بينهما منذ ذلك الحين. وأحس السيد «هو شكورن» بشيء من الخجل حين رآه عدوه يأخذ قطعة من الحبل

من الأرض الملوثة بالأقذار، فأسرع بإخفائها تحت سترته، ثم دسها في جيب «بنطلونه»، وأخذ يتظاهر بأنه لايزال يبحث في الأرض عن شيء لم يعثر عليه بعد. ومضت لحظة قصد بعدها إلى السوق، ورأسه إلى الأمام وظهره مقوس من الألم، وسرعان ما غاب في الجمع الصاخب المحتشد، وشغلته مناقشات ومساومات لا تكاد تنتهي!

وكان الفلاحون يفحصون الأبقار، وينصرفون عنها، ثم يرتدون إليها وقد استولت عليهم الحيرة، وامتلأت نفوسهم بالخوف من أن يصيبهم الغبن، فكانوا نهباً للتردد لا يجسرون على البت في الأمر، يرقبون الباعة، ويحاولون جهدهم أن يهتدوا إلى حيلهم أو إلى عيب فيما يريدون شراءه من الدواب. وكانت النساء قد وضعن ما يحملن من السلال الكبيرة عند أقدامهن، وأخرجن الدجاج وألقينه على الأرض، موثوق الأرجل، قرمزي الأعراف، يطل الفزع من عيونه.

وكان طلاب الدجاج يعرضون على الفلاحات أثماناً بخسة فيأبين إلا ما ذكرن لهم من أثمان، وقد شاعت في ملامحهن الصلابة، وبدت وجوههن خالية من كل انفعال. وقد يحدث فجأة أن تقبل إحداهن الخفض المقترح، فتصيح بطالب الشراء، الذي يكون قد هم بالانصراف على مهل: «حسنا يا سيد أنتيم».. سأعطيك إياه بما ذكرت.

ثم أخذ الميدان يخلو شيئاً فشيئاً، ودق ناقوس الظهر، فذهب الذين قدموا منهم من أماكن بعيدة إلى حانات البلدة ومطاعمها.

* * *

وكانت صالة الطعام الكبيرة فى مطعم «جوردان» غاصة بالناس، كما كان الفناء الرحب يزخر بالمركبات من كل نوع، وقد استقر لونها من تلوثها بالأقذار، وبدا بعضها و «عريشه» مرفوع إلى السماء كالذراعين، وبعضها الآخر قد استقر عريشه على الأرض. وكان بالمطعم موقد كبير، قد استعرت ناره وانبعث منها الدفء فى ظهور الجالسين حوله. وكانت هناك ثلاثة سفافيد تدور على الحاضرين مثقلة بالدجاج والحمام وأفخاذ الضأن، بينما كانت الرائحة الشهية المنبعثة من المرق والشواء فوق الموقد تداعب الأنوف، فتضاعف المرح وسال اللعاب، وقد جلس رواد المطعم ينتظرون الأطباق الشهية التى كانت لا تنفك تقبل عليهم مملوءة وترتد عنهم فارغة، وهم يتبادلون الحديث بصوت مرتفع، أو يتحدث الواحد منهم إلى رفيقه أو جاره عن شئونه وعما اشترى وباع.

وفجأة، سُمعت دقات طبل صادرة من الفناء، فأسرع من فى المطعم إلى النوافذ والأبواب، وأفواههم ممتلئة، والفوط ما زالت بأيديهم، ولم يبق فى مكانه إلا قليل منهم لم يعنوا بالأمر. وبعد أن انتهى منادى البلدة من دق طبلته، أخذ يتلو ما يلى بصوت خشن النبرات:

«على الجميع أن يعلموا أنه فقدت صباح اليوم على طريق «بوزفيل» فيما بين الساعة التاسعة والساعة العاشرة، محفظة جيب من الجلد، سوداء اللون، بها خمسمائة فرنك وبعض الأوراق. فعلى من يجدها أن يسارع إلى ردها دون إبطاء إلى مكتب العمدة، أو إلى السيد «هولبريك» من أهالى مانفيل، ولمن يفعل ذلك جائزة قدرها عشرون فرنكاً».

وما كاد المنادى يفرغ من تلاوة هذا البلاغ حتى انصرف من الفناء، ثم سمع دق الطبل مرة أخرى صادراً من بعيد، وكان صوت المنادى أقل قوة ووضوحاً فى هذه المرة.

وما إن تلاشى الصوت حتى شرع الناس يتكلمون عن الحادث، ويتساءلون هل يرجى أو لا يرجى أن يسترد السيد «هو لبريك» محفظته المفقودة، وكادوا يفرغون من تناول القهوة، عندما ظهر البوليس بباب المطعم وقال يسألهم: «هل السيد «هوشكورن» من أهالى «برتييه» هنا ؟».

وكان «هوشكورن» فى تلك اللحظة جالساً عند الطرف الآخر من المائدة، فقال ردًّا على سؤال الضابط: «نعم... أنا هنا» فعاد الضابط يقول: «هل لك أن تتفضل يا سيدى «هوشكورن» فترافقنى إلى مكتب العمدة ؟ إنه يريد أن يتحدث إليك». فاستولى على الرجل مزيج من الدهشة والقلق، وشرب ما فى كأسه الصغيرة من الخمر دفعة واحدة، ثم نهض واتجه نحو الباب، وهو أشد انحناء مما كان فى الصباح، إذ كانت الخطوات الأولى التى تعقب كل راحة شاقة بالنسبة إليه بوجه خاص، وكان يردد قائلا وهو يمشى: «هأنذا.. هأنذا !».

* * *

وكان العمدة هو مسجل العقود أيضاً فى هذه الناحية، وهو رجل ضخم الجسم يدل مظهره على الجد، وتنطق عباراته بالمهابة، وقد جلس فى مقعده الوثير فى انتظار قدوم السيد «هوشكورن»، فلما دخل عليه هذا الأخير ابتدره قائلا:

– إنك شوهدت فى هـذا الصباح يـا سيـد «هوشكـورن» وأنت تلتقـط – على طريـق «بوزفيـل» – المحفظـة التى فقدهـا السيـد «هولبريك» من أهالى بلدة مانفيـل...

فذهل الرجل، وشخص ببصره إلى العمـدة، وقـد أفزعتـه الشبهـة التى اتجهت إليه فجأة وعلى غير انتظار، دون أن يعرف سبباً لذلك. ومرت لحظة من الصمت الرهيب قبـل أن يقـول بصوت مبحـوح:

– أنا ؟!.. أنا التقطـت محفظة ؟!

– نعـم. أنت نفسك.

– أقسم لك بشرفى أنى لا أعلم شيئاً عن ذلك !

– ولكنك شوهدت !

– أنا شوهدت يا سيدى العمدة ؟ أنا ؟ من ذا الذى يقول إنه رآنى ؟

– السيد «مالاندان» صانـع السروج.

وما كاد الرجل يسمع هذا من العمدة حتى تذكر حادث الصباح، وأدرك كل شىء، فصاح قائلا وقد احمـر وجهـه مـن الغضب:

– آه !. رآنى ألتقط هذا الحبل. انظر، هذا هو يا سيدى العمدة !

ودس الرجل يده فى جيبه، وبحث فيها لحظـة، ثـم أخـرج منهـا قطعة الحبل. غير أن العمدة لم يصدق كلامه وإنما هـز رأسه وهـو يقول:

– إنك لـن تجعلنى أصدق يـا سيـد «هوشكـورن» أن السيـد «مالاندان» وهو رجل جدير بالثقة، قد حسب أن هذا الحبل محفظة!

فرفع الرجل يده وهو يكاد يتمزق من الغيظ، وقال في صوت متهدج النبرات:

– هذه هي الحقيقة، علم الله، يا سيدي العمدة. وأنا أكررها، والله على ما أقول شهيد !

فاستأنف العمدة كلامه قائلا :

– وبعد أن التقطت ما وجدت، لبثت لحظة طويلة تبحث في الوحل، لترى ما إذا كانت أية قطعة من النقود قد سقطت من المحفظة !

وما إن وصل العمدة في حديثه إلى هذا الحد، حتى كاد الرجل يختنق من الغيظ والخوف، وقال في اضطراب بالغ:

– كيف يستطيع امرؤ أن يقول... مثل هذه الأكاذيب لتسيء إلى سمعة رجل شريف ؟

كيف يستطيع امرؤ أن يقول...

غير أن احتجاجات السيد «هوشكورن» قد ذهبت كلها هباء، ولم يصدق كلامه أحد. وواجهه العمدة بالسيد «مالاندان» فأعاد ما سبق أن قاله من قبل، وتبادل الرجلان الشتائم بعض الوقت، ثم طلب السيد «هوشكورن» أن يفتشوه فلم يجدوا معه شيئاً.

واستبدت الحيرة بالعمدة أخيراً، فصرف الرجل من عنده بعد أن أنذره بأنه سوف يستشير وكيل النيابة فيما يجب إتخاذه من إجراءات.

* * *

وذاع الخبر فى أرجاء المدينة، فلم يكد الرجل يغادر مكتب العمدة حتى أقبل الناس عليه وأحاطوا به من كل جانب، ثم أخذوا يلحون عليه بسيل من أسئلتهم المستطلعة، جادين أو ساخرين، فأنشأ يقص عليهم قصة الجبل، فما صدقه أحد منهم، وإنما ضحك منه الجميع مستهزئين!

ومضى السيد «هوشكورن» فى طريقه، وجعل يستوقف كل من يصادفه من أصدقائه ومعارفه، ويقص عليهم القصة فى حديث طويل لا نهاية له، ويروى على أسماعهم ما ساقه من الاحتجاجات، وهو يقلب جيوبه أمامهم بطناً لظهر، كى يبرهن لهم على أنها خالية تماماً، فكانوا لا يصدقونه، ويقولون له: «اذهب أيها الماكر!» فأغضبه ذلك، واشتد غيظه وتضاعف حزنه. وأحس بأن قلبه يوشك أن ينفجر! ولم يدر ماذا يفعل.

وأقبل الليل، وكان على «هوشكورن» أن يعود إلى «برتيبيه»، فسار فى طريقه إليها مع ثلاثة من جيرانه، فأراهم المكان الذى كان قد التقط فيه قطعة الحبل، ولم يتحدث بغير ذلك طول الطريق. وفى اليوم التالى، قام بجولة فى أرجاء بلدة «برتيبيه» ليقص على أهلها قصته، ولكن ما من أحد صدق روايته، فما إن جن عليه الليل حتى كان المرض قد ألم به.

وفى نحو الساعة الواحدة بعد ظهر اليوم التالى، أعاد المحفظة بما فيها «ماريوس بوميل» - وهو أجير عند السيد «بريتون» المزارع ببلدة «إيموفبيل» - إلى السيد «هولبريك» زاعماً أنه وجدها فى الطريق. ولما كان أمياً لا يعرف القراءة والكتابة، فقد حملها معه إلى البيت وأعطاها لسيده.

وذاع الخبر في الناحية حتى بلغ السيد «هوشكورن»، فبدأ الطواف من فوره، وأخذ يعيد سرد قصته التي كتب له فيها النصر. وكان يقول: «إن ما ساءني وآلمني لم يكن اتهامي زوراً بالسرقة، وإنما كان الكذب، فليس ثمة ما هو أسوأ من أن يتهم المرء كذباً!».

وهكذا ظل «هوشكورن» يلهج بالحادث طول يومه، فكان يقصه على المارة في الطريق، وعلى رواد الحانة، والخارجين من الكنيسة في يوم الأحد التالي، بل لقد كان يستوقف الغرباء ليحدثهم به. وهدأت نفسه أخيراً، لكن شيئاً ما ظل مع ذلك يشغل باله ويضايقه، شيئاً غامضاً كان يحسه، ولكنه لا يدري ما هو على التحديد!

فقد كان يبدو له أن الناس كأنهم يمزحون وهم ينصتون إليه، ولم يكن في مظهرهم ما يدل على أنهم مقتنعون بما يقول، بل لقد كان يخيل إليه أنهم كانوا يتهامسون بشيء فيما بينهم إذا ما أدار لهم ظهره!

وفي يوم الثلاثاء من الأسبوع التالي، توجه «هوشكورن» إلى السوق في «جودرفيل»، يدفعه شعوره بضرورة سرد موضوعه، وكان «مالاندان» واقفاً ببابه عندما مر به «هوشكورن»، فما إن وقع بصره على هذا الأخير حتى أخذ يضحك!... واقترب من فلاح من قرية «كريكتو»، فلم يدعه هذا يتم حديثه، وإنما غمزه بإبهامه في بطنه وهو يقول له في وجهه: «اذهب، اذهب أيها الماكر الكبير!» ثم استدار على عقبيه ومضى في سبيله!

واستبدت الحيرة بالسيد «هوشكورن»، واستولى عليه مزيد من القلق وهو يفكر في الأمر. فلماذا يقولون له أنه ماكر كبير!..

* * *

ولم يكد المسكين يجلس إلى المائدة بمطعم «جوردان» حتى شرع يشرح الأمر لمن حوله، فقال له أحد تجار الخيل:

– مهلا، مهلا أيها النشال القديم! هذه حيلة عتيقة، وأنا أعرف كل شيء عن قطعة الحبل هذه !!

– ولكن المحفظة قد وجدت وأعيدت إلى صاحبها ؟!.

فعاد التاجر يقول في صوت لنبراته مغزى خاص:

– صمتاً، صمتاً يا والدى. إن هناك واحداً يجد الشيء، وهناك آخر يبلغ، فهذا شيء من السهل تدبيره. أليس كذلك ؟

فانتفض «هوشكورن» واقفاً وهو يوشك أن يختنق من الغيظ، وقد أدرك من فوره كل شيء، إذ فهم أنهم يتهمونه بأنه دفع بالمحفظة إلى شريك له ليردها إلى صاحبها! فحاول أن يتنصل من هذه التهمة الباطلة، ولكن الناس من حوله بدءوا يضحكون !

ولم يستطيع المسكين أن يتم طعامه فبادر بالانصراف من المطعم، مشيعاً بإيماءات الهزء وضحكات السخرية، وعاد إلى بيته وقد استبد به الحزن والغضب وعصفت بفؤاده الحيرة. وزاده أسفاً وكآبة علمه بأنه كان، بفضل دهائه النورماندى الأصيل، قادراً على ما اتهموه به، بل على أكثر منه!... وبدا له أنه قد أصبح من المحال الآن بالنسبة له أن يثبت براءته، نظراً لأن دهاءه معروف للجميع، فأخذته رجفة قاسية، واعتصر قلبه ما فى التهمة من ظلم غاشم !

وهكذا أخذ «هوشكورن» يروى الحادث مرة بعد مرة، ويزيد فى كل يوم إسهاباً فيه ويصطنع أسباباً جديدة يضيفها إلى حججه

السابقة، ويقسم إيماناً أخرى غليظة. واستغرقت قصة الحبل كل تفكيره واهتمامه، غير أن تكذيب الناس له يشتد كلما أفاض في الدفاع عن نفسه!

وأحس المسكين بهذا كله، واشتدت وطأته عليه، وأخذ الغيظ والغم ينهشان قلبه، ومع هذا فقد استمر فى إضناء نفسه على غير طائل، حتى هزل وذوى تحت سمع الناس وبصرهم. وأخذ العابثون والماجنون يدعونه إلي أن يقص عليهم قصة الحبل، لا لشيء إلا ليلهوا بها ويسلوا أنفسهم، حتى إذا ما فعل عادوا يطلبون إليه أن يعيد عليهم القصص، تماماً كما يطلبون إلي الجندى أن يحدثهم عن المعارك التي خاض غمارها، فضعف عقله من فرط تأثره، وما إن أشرف شهر ديسمبر على نهايته حتى اختلط عقله واشتد به المرض فلزم الفراش.

مات «هوشكورن» في أوائل شهر يناير، وسُمع، وهو فى سكرة الموت وساعة الاحتضار، يهذى ببراءته ويكرر قائلا بصوت كأنه آت من عالم آخر: «قطعة حبل!.. قطعة حبل!.. أنظر، هذه هى يا سيدى العمدة!».

ملك برجوازى

السماء مكفهرة والهواء ثائر، والنهار حزين، فتعال معى يا صاحبى نستروح طرائف هذه القصة علّها تنسينا بواعث تلك الكآبة القلقة..

* * *

كان فى مدينة عظيمة شهيرة ملك قوى قادر يملك ثياباً غالية عجيبة، وجوارى عاريات، بيضاوات وسوداوات، وأسلحة براقة، وكلاباً سلوقية سريعة العدو، وقناصين ذوى أبواق نحاسية تملأ الفضاء بدويها.

أكان هذا الملك شاعراً ؟

لا يا صديقى: كان ملكا برجوازيًّا !

* * *

كان العاهل مغرماً بالفنون، يغدق على أهل الطرب، والمداحين والرسامين والنحاتين والصيادلة، والحجامين ومعلمى السيافة.

وعندما يذهب إلى الغابة يأمر الفحول من بلغائه أن يرتجلوا القصائد فى تمجيده وهو إلى جانب ظبى دام، أو خنزير جبلى جريح، بينما يسكب السقاة فى الأقداح نبيذاً ذهبيًّا فواراً وتصفق القيان راقصات.. وإذا ضجر من المدينة الهادرة فذهب إلى الصيد، ضاقت الغابة بالعجيج

والضجيج من مواكبه، وخرجت الطيور مذعورة من أعشاشها، وتردد صدى الجلبة فى أعماق الكهوف، وحطمت الكلاب فى عدوها العوسج بأرجلها المرنة وانحنى القناصون على رقاب الخيل، وجوههم ملتهبة، وشعرهم مرسل للريح.

وكان للملك قصر فاخر، ادخر فيه أموالاً طائلة، وتحفاً عجيبة، يصل إليه خلال أحواض من الزئبق، وبرك واسعة وخدم وحاشية قد طأطأت أعناقهم تأدباً..

* * *

وكان يصعد إليه فى سلالم تحفها أعمدة رخامية ناصعة البياض، وأخرى مرصعة بالزمرد على جانبيها أسود من مرمر. وتحيط بالقصر حديقة غناء، يذهب إليها ليشرح صدره، متصفحاً قصة جميلة أو يقرأ فى كتاب عن النحو أو النقد الخفيف أو يتحدث إلى من حوله مدافعاً بكل قواه عن المجمع اللغوى وآرائه عن صحة الألفاظ وسلامة اللغة ونقاء الأسلوب فى الفن الأدبى. إن له نفساً رفيعة تحب الصفاء وإلتزام قواعد الإملاء.

* * *

وثمة تحف صينية ويابانية للزينة فحسب وحيوانات نحاسية متخيلة، فواغر الأفواه، ملتوية الأذناب، فى مجموعات هائلة عجيبة، وأشجار مبتدعة من خشب اللك، تزينها أوراق وأغصان وأزهار وحيوانات من فصائل مجهولة، وفراشات على الجدر غريبة الأجنحة، وأسماك وديوك ملونة، ومساخر جهنمية التعبير، ذات عيون حية، وسيوف نصالها عتاق، وقوائمها حيوانات خيالية تأكل نوار اللوتس

وأصونة دقيقة فيها حلل من سندس رقيق كأنها نسجت من خيوط العنكبوت، وأباريق من قيشاني شرقي عريق، عليها رسوم لجنود من تتار يرتدون جلوداً سابغة، وفي أيديهم قسي متحفزة، وعلى ظهورهم جعاب مليئة بالسهام.

وثمة قاعة إغريقية حافلة بتماثيل المرمر من الآلهة وربات الفنون وعرائس البحر والرعاة، وأخرى من العصر الرومانسي فيها لوحات لفاتو العظيم وشردين، وثانية وثالثة ورابعة، فكم من القاعات يملك!

وكان العاهل يطوف بكل ذلك، ووجهه يفيض بشراً، وكرشه يهتز في سعادة وعلى رأسه كما لو كان واحداً من ملوك «الورق» الأربعة !

وذات يوم جيء له في قاعة العرش بصنف غريب من الناس، والحاشية تحف به، وأساتذة البلاغة والسيافة والرقص من حوله. وسأل الملك:

– ترى ما هذا ؟

– إنه شاعر يا سيدي.

كان الملك يملك أسراباً من الإوز يسبح في البرك، وأخرى من الكناري والكروان تغرد في الحديقة، أما الشاعر فكان شيئاً جديداً غريباً.

– دعوه هنا..

وقال الشاعر:

– سيدي أنا لم آكل بعد.

ورد الملك:

– تكلم، وستأكل.

وابتدأ الشاعر:

– سيدى من زمن وأنا أغنى أناشيد المستقبل، ولدت فى السحر ونشرت جناحى فى العاصفة، وأبحث عن الإنسان المختار، الذى يجب أن ينتظر بزوغ الشمس العظمى، الأناشيد فى فمه والمعزف بين يديه، هجرت إلهام المدينة الوخيمة والمخدع الناضح بالعطور، وربات الشعر من البشر تملأ النفس ضآلة والوجوه غباراً، خطمت قيثارتى المنافقة ذات الأوتار الخانعة، على أكواب بوهيميا وأباريق يفيض فيها نبيذ مسكر، ورميت الحلة التى جعلتنى شبيهاً بالمهرج.. ولبست أردية وحشية خشنة، وذهبت إلى الغابة، وعشت هناك، فتقويت من الحليب المغذى، ومن نبيذ الحياة الجديدة، ورحلت إلى سواحل البحر الصخرية، وهززت رأسى فى العاصفة القوية السوداء كأننى ملاك او إله أوليمبى.

حنوت على الطبيعة العظيمة، وفتشت عن حرارة المثل العليا، وعن شعر يوجد فى كوكب فى أعماق السماء وفى لؤلؤة فى قاع المحيط، أردت أن أكون قويًا فلقد أزفت ساعة الثورات العظيمة كأنها المسيح كله نور، وكله حركة وقوة، فلنستقبل روحها بقصيدة تكون لها قوس نصر، أبياتها من فولاذ ومن ذهب ومن حب!

سيدى!. الفن لا يوجد فى تمثال بارد من مرمر ولا فى اللوحات الزاهية، كلاولا فى السيد أونيت العظيم، الفن يا سيدى لا يلبس «بنطلوناً» وليس كلامه برجوازيًا، ولا يضع النقط على كل الحروف،

إنه جليل، قد يرتدى حللا من ذهب أو لهب أو يمشى عاريا، يعجن ألوانه بالعرق، ويرسم موضوعاته بالنور، وهو عريض الشراء، يضرب بأجنحته كالنسر، أو بيراثنه كالأسد.

يالضيعة الشعر!

كيف تبتذل القوافى فتتغنى بخال امرأة، ويسف الشعر فيصبح نفاقاً أجوف، وينقد الإسكافى قصائدى، ويجرؤ أستاذ الصيدلة فيضع نقطاً وفواصل لإلهامى، وتسمح لهم أنت بكل ذلك يا سيدى!

المثل الأعلى.. المثل الأعلى!

وقاطعه الملك:

– سمعت، فما العمل ؟

أجاب وتفلسف: إذا سمحت له يا سيدى يمكن أن يربح شيئاً يسد رمقه، نعطيه صندوقاً موسيقيًّا ونضعه فى الحديقة إلى جانب الإوز، فتنعم برؤيته فى سويعات نزهتك.

والتفت الملك إلى الشاعر: نعم، ستأخذ هذا الصندوق، وتغلق فاك، وتدير يده، فيعزف أنواعاً مختلفة من الموسيقى الراقصة، هذا إن لم تفضل أن تموت جوعاً، كل فاصل موسيقى بقطعة خبز، لا شىء من الكلام الفارغ أو من المثل العليا، تعال..

ومن ذلك اليوم، كان الشاعر الجوعان يُرى على حافة بركة الإوز، يحرك يد الصندوق خجلا من التفاتات الشمس الكبيرة، وكلما مر به الملك، أو أحب أن يملأ معدته، ازداد صوت الآلة رنيناً، يصنع ذلك أمام سخرية العصافير الحرة جاءت تمتص الندى

من الزنابق المزدهرة، ومن حوله يئز النحل، فيلسع وجهه، وتمتلىء عيناه دموعاً.. دموعاً مرة.. تتدحرج على خديه، ثم تستلقى على الأرض السمراء !

* * *

وأتى الشتاء، فأحس المسكين برودة فى جسده وفى روحه، تجمد فكره، وتنوسيت أناشيده العظيمة، ولم يعد شاعر الجبل المتوج بالنسور.. لم يعد غير مسكين فقير، يحرك يد صندوق الموسيقى..

وعندما تساقط الثلج نسيه الملك ورعاياه وتركه للزمهرير يعض لحمه ويجلد وجهه بينما ألقى على العصافير أردية تقيها.

وذات ليلة، تساقط ثلج متبلور، وفى القصر وليمة، وأنوار الثريات تضحك مبتهجة فوق المرمر والذهب وحلل القادة الصينيين المرسومة على القيشانى العتيق وصفق الندامى فى طرب مجنون: «فى صحة السيد أستاذ البلاغة!..» وتعالت قهقهات ثملة هاذية بأوزان الشعربينما الشمبانيا تفور في الأقداح البلورية، وتزيد فى رغوة مضيئة عجلة. يا لها من ليلة شتاء.. ليلة أعياد.

وكان ذلك البائس المغطى بالثلج إلى جانب بركة الإوز، يرتعد متجمداً من البرد، صريع الزمهرير، يحرك يد الصندوق ليستدفىء في الليلة المظلمة، فيتردد صدى تلك الموسيقى المجنونة بين الأشجار العارية، ومات وهو يفكر: إن الشمس ستشرق غداً، ومعها المثل الأعلى، وإن الفن لا يلبس «بنطلوناً» بل حلة من لهيب مذهب!

وفى اليوم التالى جاء الملك وصحبه فوجدوا الشاعر المسكين كعصفور قتله الثلج، على شفته ابتسامة مرة، ويده لما تزل متشبثة بمحرك الصندوق..!

* * *

آه يا صديقى !

السماء مكفهرة، والهواء ثائر، والنهار حزين، وكآبة باهتة تطوف بالأفق.

ولكن، كم يدفىء أرواحنا – فى هذا الوجود الكئيب – جملة طيبة، مع مصافحة حارة من يد صديق :

إلى اللقاء !

[قصة إسبانية – من أمريكا اللاتينية]

رجل يعرف كل شيء

لست أدرى كيف حدث هذا على وجه التحديد، ولكنه كان مقدراً لى أن أمقت هذا الذى يدعى «ماكس كلادا» قبل أن أعرفه! وكانت الحرب قد وضعت أوزارها، وقد اضطربت حركة السفر بالسفن عابرات المحيط اضطراباً شديداً، حتى أنه لم يكن يسع المسافر إلا أن يقبل أى مكان يخصص له، ولو كان مكاناً ضيقاً على ظهر الباخرة !

لهذا شكرت الظروف التى مكنتنى من الوصول إلى «كايين» ذى سريرين ولما قيل لى ان اسم زميلى فى «الكابين» هو «ماكس كلادا» أخذ قلبى يدق بسرعة إذ قضيت أربعة عشر يوماً فى البحر بين «سان فرنسيسكو» و «يوكوهاما» وأنا فى صحبة زميل واحد طوال الوقت، خاصة وأنه يدعى «ماكس كلادا»؟!. لا شك أننى كنت أكون أقل امتعاضاً وتبرماً لو كان لرفيقى هذا اسم طريف «كسميث أو براين» مثلا !

* * *

وما كدت أصل إلى السفينة حتى تبين لى أن أمتعة «مستر كلادا» قد سبقتنى إلى «الكابين»، وقد كرهت لأول وهلة شكل أمتعته، وتلك الحقائب الضخمة التى كانت تعلوها بطاقات كثيرة تحمل أسماء أكبر فنادق العالم، وكان الرجل قد أخرج منها كل أدوات

الزينة، ورصها منسقة على الرف الزجاجى الذى يعلو حوض الغسيل، فتركت حقائبى بالكابين، ثم قصدت إلى غرفة التدخين بالباخرة، وطلبت إلى الغلام أن يحضر لى بعض أوراق اللعب، فلما جاءنى بها أخذت أقتل الوقت بلعبة «الصبر». ولم تكد تنقضى لحظة حتى اقترب منى رجل نادانى باسمى، ثم خاطبنى قائلا وعلى شفتيه ابتسامة لا تحمل أى معنى:

– أنا أدعى «كلادا».. «ماكس كلادا».

وقبل أن أنطق بكلمة واحدة، كان قد استقر فى المقعد المقابل! فقلت له فى غير اهتمام :

– أظن أننا شريكان فى «كابين» واحد ؟

– هو ذاك. الواقع أن المرء لا يستطيع أن يعرف فى هذه الأيام من ذا الذى سيكون رفيقه فى السفر، غير أننى سررت كثيراً عندما عرفت أنك إنجليزى، فمن الخير لنا نحن الإنجليز أن نعيش متلازمين، حينما نكون على سفر خارج بلادنا.

– وهل أنت إنجليزى ؟

– أحسب أنك تظننى أمريكيًا. أليس كذلك؟ أؤكد لك أننى إنجليزى من قمة رأسى إلى أخمص قدمى!

ولكى يثبت لى «مستر كلادا» شخصيته الإنجليزية، أخرج جواز سفره من جيبه بحركة سريعة، وقربه كثيراً من عينى حتى كاد يلامس طرف أنفى. وكان الرجل قصير القامة، أسود الشعر، تعلو وجهه سمرة خفيفة. وكان يتكلم الإنجليزية بطلاقة وبأسلوب سليم،

ولباقة جمة متكلفة.. كان كل هذا يؤكد لى أنى لو فحصت هذا الجواز الذى كان يقدمه إلى بعناية لأدركت أنه قد وُلد بأرض سماؤها صافية، تبعد كثيراً عن إنجلترا ذاتها. ومرت لحظة من الصمت بددها الرجل بقوله:

– ماذا تشرب ؟

فنظرت إليه وقد تملكتنى دهشة بالغة، فقد كانت الأوامر بمنع تقديم الخمر فى السفن الأمريكية لا تزال قائمة، وكانت كل الدلائل تدل على ان السفينة لا تحمل أى نوع من الخمور.. غير أن مستر «كلادا» لم ينتظر حتى أجيب، وإنما أضاف قائلا على الفور:

– «ويسكى» بالصودا ؟.. أم مارتينى ؟ ما عليك إلا أن تذكر الاسم فحسب.

وأخرج زجاجة صغيرة من كل جيب من جيوبه، ثم نادى الساقى، وطلب إليه أن يحضر كأسين وبعض الثلج، ثم قال لى بلهجة الواثق المطمئن:

– لا تهتم بالشراب، فلدى منه الكثير، وإن كان لك أصدقاء فى هذه السفينة فأبلغهم أن رفيقك فى السفر لديه كافة أنواع الخمور المعروفة فى العالم.

* * *

والحق أن زميلى كان ثرثاراً، فقد تحدث عن «نيويورك» و «سان فرنسيسكو»، كما تحدث عن أفلام السينما ونقد المسرحيات، ثم أفاض فى كلامه عن السياسة وعن الحرب. وكنت قد أزحت ورق اللعب جانباً عندما جلس الرجل أمامى، غير أنه لما بدا حديثه الذى

لا يكاد ينتهي، وجدت نفسي أعود بحركة آلية إلى أوراقي أنسقها من جديد. ومرت لحظات وأنا على هذه الحال، وفجأة، سمعت مستر «كلادا» يقول:

– كلا، كلا. الأفضل أن تضع الثلاثة فوق الأربعة !

والواقع أنه ليس ثمة ما هو أكثر إزعاجا للمرء من أن يحدثه إنسان بما يجب عليه أن يفعل وهو يلعب لعبة «الصبر». ولهذا، فقد نحيت أوراق اللعب مرة أخرى، وفي عزمي ألا أعود إليها إلا بعد انصراف هذا الزميل الفضولي الثرثار. ولكن، لشد ما أدهشني أنه أمسك بالورق وهو يقول:

– أتحب أن ترى بعض ألعاب الورق السحرية ؟

فأجبته قائلا وقد تملكني الغيظ:

– كلا، فأنا أكرهها !

– بل سأريك واحدة منها، ولا شك في أنها ستعجبك.

وسرعان ما قرن القول بالعمل، فأراني ثلاثاً منها في سرعة البرق! ولما قلت له إني ذاهب إلى غرفة الطعام لأنتقي مقعداً مناسباً لي، صاح قائلا في خماس ظاهر:

– لا داعي لأن تتعب نفسك فقد اخترت لك بنفسي مقعداً، وبما أننا نقيم في «كابين» واحد، فمن الطبيعي إذن أن نجلس معاً إلى مائدة واحدة.

وكرهت مستر «كلادا» أكثر من ذي قبل. ذلك أني لم أكن أشاركه «كابيناً» واحداً أو أتناول طعامي إلى جانبه ثلاث مرات

فحسب بل الواقع أني كنت لا أستطيع أن أجول على ظهر الباخرة دون أن يكون ملازماً لي، إلى حد أني اقتنعت أخيراً بأن الإفلات منه أمر محال، وكان أكثر من ذلك استحالة أن تقنعه بأنه شخص غير مرغوب فيه.. فقد كان يثق أتم الوثوق من أنك تسر لرؤيته، تماماً كما يسر هو لرؤيتك، ولو أنه زارك في بيتك فأغلقت الباب من دونه وقذفت به إلى أسفل السلم لما خطر بباله قط مع ذلك أنه زائر ثقيل غير مرغوب فيه!

وكان «ماكس كلادا» يتعرف إلى الناس في سهولة بالغة، فلم تكد تنقضي ثلاثة أيام على رحيل السفينة، حتى كان قد عرف كل من فيها، وكان يشرف على سباق الخيل الخشبية، ويسحب أوراق «اليانصيب»، ويجمع النقود للجوائز المالية، وينظم حفلات الرقص التنكرية، وينسق البرامج لفرقة موسيقا السفينة. كان في كل مكان، وكان يقوم بكل عمل، وكان إلى جانب هذا أول المكروهين في هذا العالم الصغير الذى تعتبر السفينة حدوده.

وقد أطلقنا نحن المسافرين على مستر كلادا اسم «الرجل الذى يعرف كل شيء» وصرنا نناديه بهذا الاسم، فلم يكن يغضب لذلك، بل إنه كان يجد فيه نوعاً من الإطراء لشخصه، والثناء عليه! وكان الرجل أثقل ما يكون ظلاً في أوقات تناول الطعام، إذ كنا جميعاً تحت رحمته في هذا الوقت بالذات،فهو يناقش كل إنسان، ويتحدث في كل موضوع، ويعرف ما لا يعرفه سواه، ولا يدع شيئاً مهما كان تافهاً صغيراً إلا وجادل فيه، ثم لا يكف عن الجدل بعد ذلك إلا بعد أن ترى نفسك مضطراً إلى التسليم بما يقول !

كان يجلس معنا إلى المائدة، التى كان يتصدرها طبيب السفينة بصفة دائمة، رجل شبيه بمستر «كلادا» فى كثرة الجدل اسمه «رمزاى»، وهو أمريكى ضخم الجسم، يعمل فى السلك السياسى، قنصلا لبلاده فى «كوبا». وقد عرفنا أنه كان عائداً إلى مقر عمله، بعد عطلة قصيرة قضاها فى نيويورك، ليحضر زوجته التى كانت قد قضت بها أكثر من عام فى زيارة لأسرتها.

وكانت زوجة مستر «رمزاى» سيدة جميلة صغيرة الجسم، على قدر كبير من روح المرح والدعابة، وتلبس دائماً ثيابا بسيطة، فالخدمة فى السلك القنصلى لا توفر للقائم بها عادة أجراً كبيراً، ومع ذلك فقد كانت لهذه السيدة على بساطة ملبسها صورة تستوقف النظر، لا أعرف كيف أعبر عنها بالكلمات، فهى لا تتميز عن أية امرأة أخرى متوسطة الجمال، وقد تمر بعشرات مثلها فى كل وقت فى طريقك، غير أنها كانت مع ذلك تشع بهاء وفتنة، كوردة ساحرة فى معطفها القاتم اللون.

* * *

وذات يوم، وكنا جلوساً إلى مائدة الغداء كالعادة، تطرق الحديث مصادفة إلى موضوع الحلى والجواهر وكانت الصحف قد نشرت مقالا طويلا عن صناعة الجواهر الزائفة فى اليابان وعن إتقان اليابانيين لهذه الصناعة. وقد عقب طبيب السفينة على هذا الحديث بقوله إن صناعة الجواهر الزائفة قد أصابت من النجاح ما هو خليق بأن يقلل من قيمة الجواهر الحقيقية. فاندفع مستر «كلادا» عندئذ يجادل ويناقش على عادته، وما كنت أظن

أن مستر «رمزاى» القنصل يمكن أن يكون هو الآخر خبيراً بشئون الجواهر الصحيحة والزائفة، غير أنه لم يستطع أن يقاوم عادته فتدخل بدوره فى المناقشة بحماس ظاهر. وهكذا احتدمت بين الرجلين معركة كلامية حامية الوطيس. ولعل القنصل قد قال شيئاً ضاق به صدر مستر «كلادا» لأن هذا الأخير ضرب المائدة بقبضة يده ليؤكد كلامه، وهو يقول بصوت عال :

– إنى أعرف ما أقول، وأنا فى طريقى إلى اليابان خصيصاً لبحث صناعة الجواهر الزائفة، ولا يوجد فى العالم كله من يعرف هذا الموضوع مثلى، أو يقول لكم إن «ماكس كلادا» ليس حجة فيه. إنى أعرف أيها الأصدقاء تاريخ كل جوهرة ثمينة فى العالم.

وكان هذا الحديث جديداً بالنسبى إلينا عن حقيقة عمل «الرجل الذى يعرف كل شىء»، إذ لم يسبق له أن ذكر لنا أى شىء عن عمله، وإن كنا قد عرفنا أنه ذاهب إلى اليابان فى مهمة تجارية.

ودار «كلادا» بعينيه يتفحص وجوه الحاضرين، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ظافرة، ومضت لحظة صمت ثم أضاف يقول:

– يتحدث السيد «الدكتور» عن أن صناعة الجواهر الزائفة سوف تؤثر فى قيمة الجواهر الحقيقية، ولكنى أستطيع أن أؤكد لكم العكس..

وصمت لحظة قصيرة كأنما يريد أن يتبين وقع كلامه فى نفوس الحاضرين، ثم استطرد يقول :

– وأؤكد لك يا مسز «رمزاى» أن هذه الجواهـر التى فى عنقك لن تفقد مليماً واحداً من الثمن الذى دفعتـه فيهـا.

وما إن سمعت «مسز رمـزاى» عبارتـه الأخيـرة حتى انتفضت انتفاضة مفاجئة، وسرعان مـا تمـالكت نفسهـا وأمسكت بالسلسلـة فى بساطـة ووضعتهـا فى صدرهـا تحت الثـوب فى أمـان، وكأنهـا تشعر بقلق شديد من ناحيتها !!

ومـال مستـر «رمـزاى» قليـلا إلى الأمـام بعـد أن أغمض إحـدى عينيه، وغمز لنا بطريقة ذات مغـزى خـاص:

– إن هذه السلسلة التى تلبسها زوجتى جميلة ولا شك يا مستـر «كلادا».

– نعم، وقد عرفتها من أول نظرة، فهى من أحسن أنواع الماس.

فهز مستر «رمزاى» كتفيه العريضتين وهـو يقـول:

– الواقع أنى لم أدفع فيها شيئاً ويهمنى أن أعرف ثمنها !

فظهرت إمارات الاهتمام على وجه مستر «كلادا»، وقـال بلهجـة من يدلى بنبأ بالغ الخطـر:

– أؤكد لك أن ثمنهـا لا يقـل بحـال مـن الأحـوال عـن خمسة عشرة ألف دولار، وإن كان مـن اشتراهـا قـد ابتاعهـا مـن «الشارع الخامس»، فلا يدهشنى أن يكون الثمن قد ارتفع إلى ثلاثين ألفاً !

وارتسمت على شفتى القنصل ابتسامة ساخرة وهـو يقـول:

– قد تكون مفاجأة لك يا عزيزى مستر «كلادا» أن تعلم أن زوجتى قد ابتاعت هذه الحلية من أحد المحال التجارية بثمانية عشر دولاراً فقط يوم أن غادرنا «نيويورك»!

فانتفض مستر «كلادا» فى مقعده كمن لدغه عقرب، وصرخ قائلا بصوت تفيض نبراته بالمعارضة والاحتجاج:

– كلا، أبداً. هذا غير ممكن. إنك تسخر منى يا مستر «رمزاى»!

– أتراهننى ؟ أتراهن بمائة دولار على أنها جواهر زائفة ؟

– نعم، أراهنك !

وهنا تدخلت «مسز رمزاى» فى المناقشة التى قامت بين الرجلين، فقالت تخاطب زوجها فى صوت هادىء النبرات:

– ولكنك لن تراهن يا عزيزى على شىء تعرف أنت حقيقته من قبل، وإلا... فإن مستر «كلادا» يكون مغبونا فى هذا الرهان!!

– كيف تتاح لى فرصة سانحة للحصول على مائة دولار من أسهل طريق ثم أتركها تمر دون أن أغتنمها؟ لا شك فى أننى لو فعلت ذلك لكنت غبيًّا أحمق!

– ولكن، كيف يمكنك أن تثبت ما تقول، وليس معى ما يدل على الثمن الذى دفعته؟ أن المسألة كلها لا تعدو أن تكون مسألة أقوال فحسب!

– لست أريد إثباتاً من أى نوع، وكل ما أطلبه هو أن أفحص هذه الماسات، وسوف أخبركم بسرعة عن حقيقة أمرها، حتى لو خسرت الرهان، فإنى رجل شريف.

فأسرع مستر «رمزاى» يقول لزوجته:

– انزعيها إذن من صدرك يا عزيزتى، واتركيها لمستر «كلادا» ليفحصها كما يشاء.

فترددت الزوجة لحظة قصيرة، ثم أمسكت القفل الخلفى للسلسلة بأناملها الدقيقة. ومضت لحظة قصيرة، ثم أسقطت يديها إلى جانبيها وهى تقول:

– لست مستطيعة أن أفتح هذا القفل، وآمل أن يكون مستر «كلادا» على ثقة مما أقول.

وخطر لى فى تلك اللحظة ان مأساة توشك أن تقع، وأخذت أدعو الله فى سرى أن تتوقف المناقشة عند هذا الحد، غير أن القنصل قفز من مقعده فجأة وهو يقول:

– لا بأس. أستطيع أنا أن أفتحه بنفسى.

وقرن القول بالعمل، فمد يديه إلى عنق زوجته وسرعان ما انتزع السلسلة الماسية التى تزينه، وقدمها إلى مستر «كلادا» الذى أخذ منظاراً مكبراً، وأخذ يفحص الماسات فى صمت، وفجأة، بدت على وجهه علامات الانتصار، وأعاد الحلية إلى «مسز رمزاى»، وقد بدا عليه أنه يهم بأن يقول شيئاً... ولكن نظره وقع على وجه الزوجة مصادفة فى تلك اللحظة، فلاحظ أنه قد صار أبيض كالثلج، وبدا له كأنها توشك أن تفقد الوعى!.. كانت تنظر إلى وجهه بعينين يطل منهما الفزع وتنطقان بالتوسل والرجاء، وكأنها تتوسل

إليه ألا يتكلم. والحق أني دهشت شخصيًّا لأن زوجها نفسه لم يلحظ شيئاً من هذا كله مع أنه كان ظاهراً للعيان!

وأطبق مستر «كلادا» فمه ولزم الصمت، وبدا لى لحظتها أنه يبذل جهداً كبيراً ليسيطر على أعصابه. وران الصمت على الحاضرين لحظة، وأخيراً قال مستر «كلادا»:

– إننى آسف فقد أخطأت! إذ الواقع أنها ماسات زيفت بمهارة فائقة، وأعتقد أن ثمانية عشر دولاراً تعتبر ثمناً مناسباً لا غبن فيه.

ثم أخرج مستر «كلادا» من حافظة نقوده ورقة من فئة المائة دولار، وقدمها إلى المستر «رمزاى» معتذراً عن الجدل الذى أثاره. ومضت لحظة صمت قصيرة قال بعدها القنصل وهو يدس ورقة النقد فى حافظة نقوده:

– أعتقد يا صديقى العزيز أن هذه الدرس يكفى، فلا تجادل مرة أخرى فيما ليس لك به علم.

وشعرت فى تلك اللحظة بأن مستر «كلادا» كان يعانى موقفاً لا يحسد عليه، إذ لاحظت أن يديه كانتا ترتعدان. غير أنه جاهد كى يتمالك زمام نفسه ولم يعقب بكلمة واحدة.

* * *

وانتشرت القصة بسرعة البرق فى كل أنحاء السفينة. وكانت أضحوكة طريفة حقًّا أن الرجل الذى يعرف كل شىء قد أخطأه التوفيق فى أمر يزعم أنه حجة فيه. ومن الغريب أن «مسز رمزاى» قد لزمت «كابينها» عقب هذا الحادث فلم تبرحها طوال المساء،

بل إنها لم تشاهد وقت العشاء فى غرفة الطعام ولم تحضر السهرة التى أعقبته بحجة أنها مصابة بصداع شديد !!

* * *

واستيقظت مبكراً فى صباح اليوم التالى، ووقفت أحلق لحيتى أمام المرآة، وكان مستر «كلادا» لا يزال مستلقيًّا فى فراشه يدخن سجائره، وفجأة، رأيت خطاباً صغير الحجم يدفع من تحت الباب، فقرأت على غلافه هذه الكلمات مكتوبة بأحرف كبيرة: «إلى مستر ماكس كلادا». وفتحت الباب بسرعة لأعرف من يكون مرسل الخطاب، أو حامله على الأقل، غير أنى وجدت أن الممر الضيق كان خاليًّا تماماً !

وناولت الخطاب إلى «مستر كلادا»، وكان لا يزال مستلقيا فى الفراش. ومرت لحظة قصيرة أحسست بعدها بأنه يمزق قطعة من الورق، وعندما أدرت وجهى نحوه، مد يده إلى بقطع صغيرة ممزقة من الورق وهو يقول:

– هلا قذفت بهذه القصاصات من الكوة إلى البحر الواسع؟

ولما أجبته إلى طلبه واستدرت نحوه ثانية، طالعتنى ابتسامة ساخرة كانت قد ارتسمت على شفتيه، ومرت لحظة صمت قصيرة قبل أن يقول:

-ليس من السهل على المرء أن يدعى الجهل !

فقلت له فى لهجة شاع فى نبراتها مزيد من اللهفة والفضول:

– وهل كانت الماسات حقيقية ؟

ولم يجب الرجل الذى يعرف كل شىء عن سؤالى مباشرة، وإنما نظر فى عينى طويلا ثم قال:

- لو كانت لى زوجة صغيرة جميلة لما تركتها تقضى فى «نيويورك» عاماً بأكمله بينما أكون أن فى «كوبا»! إذ لا شك فى أنها ستكون عندئذ معرضة لإغراء الهدايا الغالية الثمن!

وشعرت فى تلك اللحظة شعوراً واضحاً بأننى أصبحت لا أكره مستر «كلادا»، الذى كان مشغولا بإعادة ورقة نقد من فئة المائة دولار إلى حافظة نقوده !!

• بيو باروخا

الخـــــان

عندما تسافر فى قطار خلال مقاطعات الشمال من إسبانيا ترى بعض البيوتات المظلمة، فى مفترق طريق ضخم موحش، إلى جانب قرية معتمة.

وربما لاحظت أن أمام البيت تقف عربة ركاب تجرها خيول، وأن بابه مفتوح مضاء، وأن السقيفة عريضة، لها طابع حانوت أو خان.

وربما توهمت، على حق، أن هذا البيت هو خان القرية، فانبثق فى أعماق روحك أشفاق ما، على أولئكم الغلابا من الناس ممن يعيشون هناك فى ذلك المكان المنعزل.

ويخرج أصحاب الخان إلى الطريق يرقبون القطار، ويرونه وهم حزاني يمرق، فيلوحون له بمناديلهم.

وبين الذين ظلوا والذين رحلوا، يبدو أن الآخرين هم أكثر حظًّا، الذين مروا سراعاً، وربما كان الذين تخلوا هم الأكثر سعادة.

هؤلاء الذين يجرون هاربين ليذوبوا سريعا فى إعصار المدينة لا يعرفون خانات مقاطعات البشكنس، الخانات الأكثر قرى، الألطف معاملة فى الدنيا.

أنتم الذين طفتم العالم على أقدامكم، أنتم أيها المتسولون الباعة الجوالون، السريحة، المشعبذون أنتم أيها المطرودون، ممن لا وطن

لكم سوى ما تطئون، أنتم الأذلاء، ليس لكم من مال سوى ما تحملون فوق ظهوركم، أنتم المتشردون الرحل ليس لديكم ما تحبون إلا جمال الحقل والحرية، أجيبونى: أليس حقًّا ما أكدته؟. قولوا لى فى صراحة: أليس صدقاً أن خانات مقاطعتى هى الأكثر حلاوة، الأنقى صفاء فى هذا العالم، وأنها خير ما فى الدنيا ؟

نعم. يوجد بينها ما هو حزين كئيب، وسط حقول خربة قاحلة، ومناظر ككابوس تعس، لكن الأغلبية بهجة مبتسمة، تبدو نوافذها كما لو كانت تنظر إليكم فى حنان!!

هؤلاء التعساء الذين يعبرون مهرولين فى هذا القطار الأسود، عبر الطريق دون أن يعرفوه، الذاهبون لكى يذوبوا فى أعصار المدن الكبرى، لا يشعرون بذلك الإحساس الأكثر فتنة، الأعمق لذة فى الحياة، الوصول إلى خان، بعد رحلة طويلة، فى عربة تجرها خيول. أوه!

لذة ؟!.. إنها الكلمة الوحيدة التى تتسع لهذه اللحظة، لقد أمضيتم ساعات فى العربة، الدنيا تمطر، والجو الأشهب يلف أرض الشتاء العارية، الطريق ملىء بالبرك ذات المياه المصفرة تمتد وسط الضباب على طول تقدم العربة، خلال صفوف من الشجر عارية من الورق، وعلى ضفاف النهر المعكر من الفيضان، إلى جانب سفح الجبل المملوء بالأحراش والشوك الجاف.

ويخيم عليكم سبات عميق من البرد، ولقد فكرتم فى عدة مواقف غريبة لكى تناموا قليلا، لكنكم لم تبلغوه، بينما رنين أجراس الخيل الرتيب يرن فى آذانكم متتابعاً، وما هناك من وسيلة أبداً، لكى تغفلوا عن البرد والجوع والتبلد!

وإن المرء ليتصور أن الرحلة لن تنتهى أبداً، وأن الجبال والعزب والشلالات وبعض البيوتات المنعزلة فى مفترق الطرق، والتى ترى من خلال زجاج النوافذ المضمخ بالبخار، تبدو لنا، قد تركناها وراءنا، كأنها ترافق العربة فى سيرها.

وتصل إلى قرية، فتبدأ عجلات العربة تتنطط فى ثقل، على قارعة طريق حافل بالمطبات، ويسأل واحد مطل من النافذة: أترانا وصلنا؟.. ولكن الحوذى لا ينزل، وإنما يلقى حزمة من الرسائل لرجل، ثم يسلم سلة لامرأة ويعود سوطه يفرقع من جديد، ومرة أخرى تبدأ العجلة تتعثر فى حصى الطريق، إلى أن تصل إلى آخر غاص بالبرك فتتدحرج فى سلاسة.

وبعد كثير من الضجر، عندما يبدأ النوم يداعب أجفانكم، وتبدءون فى التفكير جديًّا: أن هذه الرحلة قد لا تنتهى أبداً، إذا بالعربة تتوقف، وإذا بالحوذى يثب من مقعده إلى قارعة الطريق.

لقد وصلنا..

وينزل المرء من العربة مطحوناً منحنياً، لا يكاد يستطيع أن يمسك بالحقيبة بين أصابعه.

ويدخل إلى الخان..

– تفضل، من هنا.. من هنا، سوف نرسل ذلك كله إلى غرفتك، يأخذون منك المعطف ويحملون لك الرحال، ويسألونك عما إذا كنت تريد ان تستدفىء فى المطبخ، وتدخل فيه فيبدأ الدخان يقرص عينيك منذ اللحظة الأولى.

ويقولون لك: إنها المدخنة، هى تالفة غير صالحة، كما أن الريح شديدة. ولكن، من يهتم بذلك !

وعندما ترى العجوز أنك تتكلم البشكنسية تفسح لك فى لطف عظيم مكاناً إلى جانب النار، وبينما يعدون لك العشاء، تشوى قدميك، وتحكى لك هذه العجوز ذات الأنف الأقنى، ومنديل يلف رأسها، قصة تافهة من أيام شبابها، عندما كنت تخدم راهب القرية، منذ أكثر من خمسين عاماً خلت وتضحك من ذكرياتها، فتبدو لثتها عارية من الأسنان، كما لو كانت لثة أطفال.

وخلال ذلك كله تنتقل سيدة البيت من مكان إلى آخر، ويلعب صاحبه عشرة ورق مع ثلاثة آخرين، وقد جلسوا إلى منضدة تعادل فى ارتفاعها نفس المقاعد التى يجلسون عليها. ويمسك الأربعة بالورق فى جد وصرامة، وقد اتسخ بعضه، وتحرتف البعض الآخر، وتتابع أصوات: «ارم...» «كمان..» فى رنين رتيب، ويزداد عدد حبات الفاصوليا البيضاء والحمراء لدى الفريقين المتنافسين.

وعند النار تجد مضحك القرية، مهنته الكسل وشاعر الكنيسة ومغنيها، يكاد يعيش على الصدقات التى يتلقاها فى الخان، يتحدث مع قناص سمك، قناص غير صياد، كما تعود هو أن يؤكد، لأنه يقتل السمك بطلقات نارية من بندقيته، ثم يخوضان معاً حديثاً طويلاً غريباً عن عادات السلمون وكلب البحر والخنزير البرى والقنفذ.

وتسأل صاحبة البيت، وقد فهمت أنك شخصية هامة، سمساراً تجاريًا على الأقل، سيدى... ستتعشى هنا أو فى صالة الطعام ؟

– هنا... هنا.

ويضعون مائدة صغيرة، ذات فراش أبيض، ويأتي العشاء، تخدمكم بنت اسمها «مارتثيلينيا» وينادونها «إيناسى»، فتاة لعوب فتية.

وتأكلون الطعام، تغمسون الخبز فى الصلصة، من غير أناقة دوق من سان جرمان على الإطلاق، وتأكلون فى نفس القدر، أمر ربما لا يجرى فى البيوت الأرستقراطية.

تأكلون كل شيء، وتشربون أكثر مما يجب قليلا، وبينما تسقيكم «مارتثيلينيا» من النبيذ الطيب تداعبونها: أنت جميلة، وأنت.. وتضحك هى فى ابتسامة بهجة بيضاء، حين ترى عيونكم الملتهبة، وأنوفكم المحمرة.

ثم تصعد بعد العشاء إلى الطابق الرئيسى، لتنام فى غرفة صغيرة، يكاد يشغلها كلها سرير هائل من الخشب، عليه أربع حشيات أو خمس، وعدد آخر من البطاطين، وعندما تتسلق هذا البرج، وتلتف داخل الملايات التى تعبق برائحة العشب، تسمع ضجيج المطر على السطح، والريح التى تصر، فيلين قلبك، وتكاد عيناك تمتلئان بالدموع، وتؤمن أكثر من أى وقت مضى بأنه يوجد هناك، فى أعلى، أب طيب، ليس له من شاغل غير أن يضع أسرة رغيدة فى خانات الطرق، وأن يقدم عشاء لذيذاً للمسافرين الغلابا.

[قصة إسبانية]

الرسالة المزيفة

(قصة بوليسية)

رفع المحامى نظارته إلى عينيه واعتدل فى جلسته وسعل سعالا خفيفاً. ثم قال فى صوت هو مزيج من الجفاء ومن العطف معاً :

– أجد لزاماً على أن أبين فى وضوح أنك فى أحرج المواقف وأدقها وأنك فى خطر يكاد يكون محققاً. لهذا فإنى أرجو منك رجاء ملحًّا أن تفضى إلى فى صراحة بقصتك مع تلك السيدة التى أنت اليوم متهم بقتلها، فقد أستطيع من خلال القصة أن أجد لك مخرجاً من هذا المأزق الحرج.

وعاد مستر ما يهيرن فسعل مرة أخرى، وهو يرشق موكله بنظرات حداد نفاذة عسى أن يستشف الحقيقة من بعض حركاته، ولم يتردد ليونارد فول فقال:

– إنى أعرف هذا فقد ظللت تردده على مسمعى، ولكنى فى الواقع لا أزال غير مصدق أننى متهم بالقتل؟ يا للسماء! إنك تحسب أننى مذنب ولكنىأقسم لك أنى لست مذنباً، وإنى لأعرف أن الظلام محيط بى، وأنى غارق فى ليل مدلهم، ليس فيه بصيص. إننى أشبه بإنسان وقع فى فخ أحكم نصبه وأطبق عليه فلا يجد لنفسه مخرجاً.. ولنبدأ فى القصة التى تريدها منى: كنت ذات يوم فى شارع أكسفورد، ووقعت أنظارى على سيدة عجوز تعبر الطريق

وهى تحمل بعض اللفائف، وسقطت منها هذه اللفائف وهى فى منتصف الشارع، وحاولت أن تستردها، ولكن سيارة أوتوبيس أقبلت فهرعت السيدة إلى الإفريز خوفاً على حياتها فبادرت أنا من مكانى إلى حيث سقطت اللفائف، وجمعتها ونظفتها مما علق بها من التراب، وسلمتها إليها، وشكرتنى على ما فعلته. وكان هذا أول لقاء، ولم أكن أتوقع أن أراها مرة أخرى، ولكنى التقيت بها فى حفلة عند أحد الأصدقاء، فعرفتنى على الفور، وطلبت من صاحب الحفلة أن يقدمنى إليها، ومكثنا فترة طويلة نتبادل الحديث، ولما همت بمغادرة المكان ألحت على أن أزورها، فوعدتها بالزيارة، ولم يكن فى نيتى أن أزورها حقًّا، ولكنها طلبت منى تحديد يوم الزيارة، فلم يسعنى إلا أن أفعل، وبعد أن خرجت علمت من بعض الحاضرين أنها سيدة غنية شاذة الطباع، وأنها تعيش وحدها فى دارها، وليس معها أحد غير خادمة.

– ولكن خبرنى. لقد استمرت الصداقة بينكما إلى يوم مماتها، وكنت تتردد عليها كثيراً، وأنت شاب فى الثالثة والثلاثين من عمرك، جميل المنظر مغرم بالرياضة، ومحبوب بين أصدقائك ومعارفك، وهى سيدة عجوز، فما الذى ربطك بها مثل هذا الرباط الوثيق ؟

– أنا مدرك ما تقول، ولكنى فى الواقع لا أدرى لذلك سبباً. لقد أظهرت لى هذه السيدة عطفها وحنانها وأنا رجل من الطراز الذى لا يستطيع أن يقول، «لا». وصدقنى أولا إذا قلت لك أنى بعد زيارتى الثالثة أو الرابعة وجدت نفسى منساقاً معها، مدفوعاً

إلى إعزازها. لقد ماتت أمى وأنا صغير وماتت عمتى التى كفلتنى وأنا فى الخامسة عشر من عمرى، ومن المحتمل أن يكون هذا الذى بدا منها هو الذى جذبنى إليها بعد أن حرمت منه فترة طويلة من الزمن.

– أنا مدرك ما تقول، ولكن متى عهدت مس فرنش إليك بتدبير أعمالها ؟

– بعد الزيارة الرابعة، فقد قالت لى إنها لا تفهم كثيراً فى المسائل المالية وتحب أن أتولاها.

– آه، لا تنس أن خادمتها جانيت ماكنزى تقول إن سيدتها كانت قديرة فى هذه الناحية، وقد أكد مدير البنك ذلك عنها.

– هذا ما قالته لى، إن صدقاً وإن كذباً، ولم يكن يسعنى إلا أن أصدقها.

ونظر إليه المحامى نظرة حادة ثم قال له بعد صمت:

– وتوليت إدارة أعمالها وأموالها، ولا تنس أنك فى موقف مالى سيء، وأن أزماتك المالية قد تضطرك إلى استغلال أموالها لفائدتك دون أن تشعر، وفى هذه الحالة قد تنتفى عنك تهمة القتل، لأنك بقتلها، تهدم موردك المالى.

– أنا لا أفهم ما يمكن أن ينفى التهمة أو يثبتها، ولكن الذى أعرفه أنى قمت بعملى فى شرف وذمة وأمانة.

– حسناً، ولكن... ألست تدرك أن مس فرنش قد أوصت بكل أموالها لك.

فهب ليونارد فول من مكانه، وقد بدا عليه الاضطراب وقال:

– يا إلهي! ما هذا الذى تقوله ؟ أتركت لى أموالها ؟

– أتدعى أنك لا تعرف أمر هذه الوصية، فى حين أن الخادمة جانيت قالت إن سيدتها أنبأتها أنها شاورتك فى هذا الموضوع، وأنها أبلغتك عزمها ؟

– إن جانيت كاذبة بلا ريب. إنها تحب سيدتها وكانت دائماً حولها كالكلب الحارس. ولا ريب أنها كانت تمقتنى لأنها كانت تغار منى. سيقولون إننى حملتها على كتابة هذه الوصية، ثم ذهبت فى تلك الليلة المشئومة فى وقت خلا المنزل من كل إنسان و ... يا إلهى! إنه أمر رهيب!

– إنك مخطئ فى ذلك فلم يكن المنزل خالياً، فقد كانت جانيت كما تذكر قد خرجت لتقضى الليلة عند بعض أقاربها، ولكنها عادت فى التاسعة والنصف لتأخذ شيئاً نسيته، فسمعت صوت سيدتها فى غرفة الاستقبال، وصوت رجل يحادثها، ولم تستطع أن تتبين صوت الرجل...

– أتقول فى التاسعة والنصف، إذن فقد نجوت! أتدرك ماذا وراء ذلك؟ فى ذلك نجاتى، فقد عدت إلى منزلى فى تلك الليلة فى التاسعة والثلث، وزوجتى تستطيع أن تشهد على صحة ذلك. لقد تركت مس فرنش بعد التاسعة بخمس دقائق، ووصلت إلى منزلى فى التاسعة والثلث، وكانت زوجتى هناك تنتظرنى. شكراً لله! وليبارك فى جانيت التى حددت هذا الوقت.

– هل رآك أحد وأنت تغادر منزل مس فرنش، أو حين وصلت إلى منزلك ؟

– أظن.. كلا، لا أتذكر أني التقيت بأحد. وأظن أنك ستسأل رومين، زوجتى ؟

– طبعاً، هل أنت تحب زوجتك وهى تحبك ؟

– إنى أهيم بحبها، وهى مخلصة إلى وتحبنى كل الحب.

– وهل كانت مس فرنش تعلم أنك متزوج ؟

– نعم.

– ومع ذلك فإنك لم تقدم زوجتك إليها ؟ أليس هذا غريباً ؟

– هذا.. صحيح. والواقع أن مس فرنش فهمت – من حيث لا أدرى – أن علاقتى مع زوجتى ليست طيبة، فتركتها على هذا الظن. لم تكن مس فرنش تفكر فى الزواج منى، فهناك أربعون عاماً بين عمرينا، ولكنها تفكر فى أن تتخذنى ولدها. وهذا هو كل شىء فى قصتى معها.

* * *

وفتح باب مسكن ليونارد فول، وأرشدته خادمة إلى غرفة الصالون، وما كاد المحامى يدير أنظاره فى أنحاء الغرفة حتى شعر بوقع أقدام وراءه، فدار على عقبيه ورأى قبالته امرأة تقول له:

– مستر ما يهيرن؟ أنت محامى زوجى؟ تفضل بالجلوس.

وأدرك من لهجتها أنها أجنبية وليست إنجليزية، فقال وهو يتوجس خيفة من هذه السيدة لسبب لا يدريه:

– والآن يا سيدتى، يجب ألا تنزعجى..

ولكنه توقف عن إتمام جملته، فقد كانت بادية الهدوء، ولا أثر هناك للانزعاج. وقالت له رومين:

– يحسن بك أولا يا سيدى أن تقص على كل شيء، إنى أريد أن أقف على كل شيء.. حتى أسوأ ما يمكن أن ينتظر. وقص عليها مستر ما يهيرن حديثه مع زوجها حتى إذا أتم الحديث قالت:

– فهمت. إنه يريد أن أقول إنه حضر إلى المنزل فى التاسعة والثلث، وهل شهادتى تلك تكون سبباً فى إطلاق سراحه؟ وهل هناك من يؤيد شهادتى؟

– ليس هناك من يؤيد شهادتك، وأحسب أن شهادتك تكفى، ومن المرجح أنهم يأخذون بها. إنى أقدر موقفك، وخاصة وأنت تحبين زوجك، وتخلصين له فى حبك..

– أقال لك إنى أحبه، وإنى مخلصة له فى حبى؟ يا لغباء الرجال! يا لسخافتهم! أحب أن تعلم يا سيدى أنى أمقته، أمقته من صميم قلبى، أتمنى أن أراه مشنوقاً. لنفرض أنى قلت لك إنه لم يحضر فى التاسعة والثلث بل حضر فى العاشرة والثلث، ولنفرض أنى قلت لك إنه كان منذ عرف أن هذه السيدة موسرة أعد العدة لقتلها، وأنه قتلها فعلا، وأنه جاء إلىَّ واعترف بجرمه، وكانت آثار الدماء على ثيابه؟ لنفرض أنى قلت هذا فماذا يكون الحال؟ إن هذا ما سأقوله فى المحكمة يا سيدى.

– لن يسمح لك بإعطاء شهادة ضد زوجك.

– إنه ليس زوجي. كنت ممثلة فى فيينا، وزوجى حى ولكنه فى مستشفى الأمراض العقلية، ولهذا لم نستطع أن نتزوج، وإنى لسعيدة بذلك، بل إنى سعيدة أن حياته أصبحت معلقة بخيط أمسك أنا به. ولا تسألنى عن سبب كراهيتى له، ومقتى إياه، فلن أخبرك بشيء ألبتة.

فوقف المحامى وقال:

– أحسب أن لا فائدة من الإطالة فى الحديث معك.

– خبرنى أولا. هل كنت عند حضورك تعتقد فى براءته؟

– ولا أزال إلى الآن أعتقد فى براءته.

* * *

وتحدد موعد محاكمة المتهم ليونارد فول، وكاد مستر ما يهيرن يجن، لأن الأدلة كلها أطبقت حول عنق موكله حتى أصبحت إدانته أمراً مؤكداً لا مفر منه. لقد كان عظيم الأمل في شهادة رومين، ولكنها لأسباب لا يعرفها وجدها تحمل للمتهم غلا كامناً رهيباً.

وفى اليوم السابق للمحاكمة وردت إليه رسالة مكتوبة بلغة ركيكة من سيدة تقول له إنها تملك الدليل على كذب تلك الأجنبية الملعونة في شهادتها التي أدلت بها إلى البوليس والتى ستكررها فى المحكمة، وأنها تستطيع أن تقدم له هذا الدليل

مقابل مائتى جنيه إذا أراد إنقاذ هذا الفتى المسكين. وذكرت له عنوانها.

ولم يتردد المحامى فى الذهاب إلى العنوان المذكور فى الرسالة، وكان مسكناً ينم عن الفاقة، ووجد فيه مقعداً جلس عليه. بينما جلست المرأة قبالته تساومه. وكان فى وجهها تشويه مخيف تخفيه بنوع من المناديل الكبيرة، وقالت له إن لديها رسالة كتبتها رومين، وهى كافية للدلالة على أن كل أقوالها أكاذيب وافتراءات. وتم الاتفاق على أن تأخذ عشرين جنيهاً فقدمت إليه الرسالة وهى مكتوبة بخط رومين، وقد ذكرت له هذه المرأة المشوهة الوجه أنها كانت على علاقة غرامية برجل، فجاءت هذه الأجنبية الملعونة واختطفته منها، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن هذا الرجل صب على وجهها ماء النار فأحدث فيه هذاالتشويه الذى يراه، وإنها منذ ذلك اليوم تتتبع أخبارها يوماً بعد يوم، إنه الرجل الذى تحبه رومين، والذى من أجله أصبحت تمقت ليونارد فول المتهم المسكين.

وعاد مستر ما يهيرن إلى داره، وهو يرى بصيصاً من الأمل وسط هذه الظلمة الحالكة.

وانعقدت المحكمة فى اليوم التالى وتقدمت رومين بشهادتها، حتى إذا أتمت حديثها، وبدا للعيان أن المتهم مقضى عليه بالموت، وقف الدفاع وقال إن هذه الشاهدة كاذبة فى أقوالها، وأنها فى العاشرة والثلث، وهو الوقت الذى ذكرت أن المتهم عاد فيه إلى المنزل، لم تكن بالمنزل بل كانت مع عشيقها فى ملهى معين

وأنها ترمى من وراء هذه الشهادة الكاذبة أن تقضى عامدة على المتهم. وهمت الشاهدة بالاعتراض على هذه الأقوال، فأخرج محامى الدفاع رسالة من جيبه وقال إنه سيقرؤها على المحكمة:

«حبيبى ماكس، لقد أسلمه القدر إلى يدى. لقد قبض عليه بتهمة القتل. نعم قتل امرأة عجوزاً. ويا للسخرية! ليونارد الذى لا يستطيع أن يقتل ذبابة!! وشاء القدر أخيراً أن أنتقم لنفسى منه. سأقول فى المحكمة إنه عاد وعلى ثيابه بقع من الدماء، وأنه اعترف لى بقتل هذه السيدة. وسأذكر كل الأكاذيب التى ستذهب به إلى المشنقة، وسيعلم أن رومين هى التى أرسلته إلى حتفه، وبعد ذلك.. السعادة أيها الحبيب.. السعادة أخيراً».

وانهارت أعصاب الشاهدة، واعترفت أن شهادتها كاذبة، وأنه فعلا عاد فى التاسعة والثلث، ومن ثم انهارت القضية كلها، وأصدر المحلفون حكمهم بعدم إدانة المتهم، وأصدر القاضى حكمه بالبراءة.

بيد أن أنظار المحامى ما يهيرن كانت قد التفتت إلى حركة يد الشاهدة رومين وهى تلقى بشهادتها وأيقن فى غموض أنه رأى هذه الحركة العجيبة من امرأة أخرى غيرها. فمن تكون تلك المرأة؟ وظل يفكر فى هذا الأمر وهو يعجب. وما كاد يحل المساء حتى أيقن أن هذه الحركة (اللازمة) قد رآها تصدر من يد المرأة المشوهة الوجه التى سلمته الرسالة.

وهرع إلى رومين، وانفرد بها، وذكر لها ما هجس فى ضميره، فابتسمت وقالت:

– إذن فقد خمنت. نعم أنا كنت تلك المرأة. أما تشويه الوجه فلا تنس أنى ممثلة أجيد التنكر، وكان الضوء فى تلك الغرفة ضعيفاً لا يمكنك من الفحص.

– ولكن لماذا فعلت كل ذلك؟ ألم تكن شهادتك تكفى منذ البداية !

– كلا يا صاحبى. كان المحلفون سيقولون إنى ألقيت شهادتى بدافع الحب، وإنى ربما أكون قد كذبت من أجل إنقاذ من أحب. إنى أعرف سيكولوجية الجمهور ولهذا أردت أن تنتزع الشهادة منى انتزاعاً، وأن أرغم إرغاماً على الأدلاء بالشهادة التى تنقذه.

– والرسالة ؟

– كان من السهل أن أكتبها وأعدها.

– وماكس ؟

– لا وجود له يا صاحبى.

– لا أزال أعتقد أنه كان فى الإمكان إنقاذه بالطريقة العادية.

– لم يكن فى استطاعتى أن أجازف هذه المجازفة. إنك كنت موقناً من براءته..

– وأنت ؟ إنك كنت مثلى مؤمنة ببراءته.

– يا عزيزى المحامى. إنك لا ترى شيئاً أبداً... إننى كنت أعرف طوال الوقت أنه القاتل !!

الغــريق

خبط وصاح، ثم تحرك وذرع بيديه، شعر بنفسه يغوص ثلاث مرات، ويطفو ثلاث مرات أخرى، وراح يضرب بساعديه فى فوضى، ثم ترك نفسه مدفوعاً حتى أمكنه أن يمسك أخيراً بلوح عائم فتشبث به، تارة يركب عليه وأخرى يضطجع، والأمواج المقتربة تهزه، ترفعه برهة، ثم تتقهقر لكى تخلى مكانها لأمواج أخرى تجىء بعدها، تدفعها أمواج تالية، وتتكرر اللعبة نفسها، وحوله بحر، بحر فحسب، وكرس الغريق كل وجوده ليمسك باللوح فى شراسة، وليبتلع جرعات من ماء مالح، وليتأمل...

كان يفكر، لا شىء مما يمكن أن يتذكره وجد فى العالم يوماً، منازل.. وخمور.. وترام.. وفتيات.. وأرض، إنما كانت كلها وليدة خياله، فليس العالم غير غمر يطفو فوقه، وليست السماء كما تبدو له غير انعكاس لمعبر أمواج تعود لتضع نفسها من حيث جاءت، كممثلى الكومبارس على المسرح، يتظاهرون فى عرض طويل خلف الكواليس، لكى يظهروا مرة، ومرة أخرى فى نفس الفصل!

كان الماء يضربه بغير انقطاع، وكان يحاول أن يحسب، كم من الزمن تتأخر كل موجة حين تبتعد وترتد بسرعة لتعود ومعها حفنة ماء، فتقذف فى معدته قليلا من الملح. لكن كان من المستحيل عليه أن يتبين الأمواج الماكرة!

واستمر على هذا المنوال يوماً، فيومين، فثلاثة، ومع الزمن أصبح أقل تفكيراً، وقد تمدد على اللوح تاركاً ساقيه وذراعيه يقعان خارجه، كأنه مصلوب على صليب يونانى الطراز، وكانت معدته تلم جوانبه، ورأسه دائخ ملفوف فى بخار الجوع، لا شيء... لا شيء كان موجوداً فى العالم غيره، وفكر فى كويرة من ورق، قذف بها ذات مرة فى بركة، فكانت تعلو وتهبط وتسير فى حركة دائمة على الأمواج الصغيرة الخضراء والزرقاء، ومع ذلك. كانت فى نفس مكانها، ألا يمكن أن عقله هو الذى يخونه؟ أحقًا رمى كويرة الورق وتأملها؟ ربما لم تكن هناك أبداً كويرة ولا برك فى أى مكان، وربما كان هو من يرى نفسه صاعداً هابطاً دون أن يتحرك من موضعه !

كان يغفو، فى البدء لثوان قصيرة، وأخيراً لساعات طويلة، وفى مرة وقع من اللوح، فكان عليه أن يستنفد قوى هائلة لا يعرف من أين انتزعها لكى يصل إليه ثانية، وقد وعى جيداً أن ذلك لو حدث مرة أخرى فسيصبح صريع الماء، دون استئناف، ودون إمكانيات التفكير فى الكويرة، ودارت تحت جمجمته دوخة زرقاء مالحة، وأخذته غفوة، ثم انتبه فبدل وضعه بكل عناية، ونظر إلى الأفق الكليل...

كيف ذلك؟ أكان ممكناً؟... نعم.. نعم!، كان فى العالم خشب وقمصان ورجال ونساء. وفجأة استرد وعيه من الكون سريعاً، وبعيداً كان يبدو له رمث صغير، ذو رقعة من قماش ترفرف على سارية، فأعطته البهجة شجاعة، وبدلت ضعفه قوة، فوجه إليه مركبه الساذج

بكلتا يديه وذراعيه. لم يكن الطريق سهلا، وأعتقد أنه إن ضعف فلن يتمكن من إدراكه، أو يصل إليه ميتاً، وكان فى الرمث من يومىء إليه مشجعاً، ويجتهد أيضاً ليختصر الشقة التى تفصل بينهما، حتى تلاقت الخشبتان فى صدمة صماء، فكلتاهما كانت رطبة !

نعم، ليس ثمة أدنى شك، كان الإنسان موجوداً، وكان هناك الحنان والأخوة، واكتشف فى كل الوجوه التى ركزت اهتمامها فيه، على الرغم من أنها عرضت له غامضة ذات ضباب، فرحة فائضة، غامرة، ساحرة، لا يمكن تفسيرها.

تركهم ينزعونه بقوة من تحت إبطيه، عن الجذع الذى كان ملتصقاً به، وتمدد على الألواح الجديدة العريضة، الأقل رطوبة، مستريحاً فى تراخ كامل، دون أن يضيق بمحاولة الحفاظ على توازنه، وألقى غير واع نظرة إلى الرجال، وتبسم فى ضعف وتغافى، ولكنه استطاع أن يسمع بين الضباب صوتاً مهتزاً مرحاً، مجللا بالتأثر، يقول:

– بعثه لنا القدر!، لم يرد أن أكون أنا الضحية، عندما خرج فى قرعتى الأقصر المشئوم، وطلبت منكم معروفاً، أن تنتظروا عشر دقائق، تذكرت أن الله بعث كبشاً إلى إبراهيم، ولم يترك أمته الخاطئة تهلك فى الصحراء، فشعرت بأنه لن يتخلى عنى فى هذه المرة ![1].

---

(١) يشير إلى تقليد كان متبعاً بين البحارة فى القديم: إذ نفد زادهم فى عرض البحر اقترعوا على من يأكلونه من بينهم.

وبعد أن بدل لهجته بأخرى أكثر حزناً أضاف «ساندرس» بائع التوراة السمين، فى نبرة آسفة:

– تباركت العناية الإلهية، وقد جاءتنا بالغريق الذى نحتاج إليه... كان سيموت على أى حال !

[قصة إسبانية]

الآلـــة Automata

فى زيه الكامل نظر «جيدو» إلى المرآة وكالعادة غمره شعور من التعاسة، كان يرتدى ملابس جديدة فحسب، ومن أحسن الأنواع، صديريًا رياضى الشكل، بنطلوناً من الصوف الأشهب، ربطة عنق ذات خطوات زاهية، جوارب من الصوف الأحمر، حذاء من الشمواه، لكنه لم يكن أنيقاً على أى حال، كان يبدو كما لو كان دمية فى عارضة متجر كبير!

ثم غادر حجرة نومه، فوضاها كانت تثيره، وذهب إلى الصالون، هنا كل شيء نظيف، منظم لامع، ومن ثم عاوده الهدوء من جديد، ولو أنه فى ذلك الصباح منذ اللحظة التى استيقظ فيها، كانت تزعجه شبهة أنه نسى شيئاً..

موعد..

مكالمة هاتفية..

سداد دين...

حفلة..؟

وهز رأسه أخيراً، ثم اقترب من الحاكى ماركة أمريكية تعمل آليًا، الضغط على زر خارجى يجعل الذراع مع الإبرة يتحرك وحده، يمتد ثم يهبط، ويستقر على حافة الأسطوانة، وأخذ «جيدو» لا أراديًا، أسطوانة موسيقى خفيفة، وضعها ثم ضغط على الزر، حينئذ

حدث شيء غير متوقع، ارتفع الذراع ثم تحرك ولكنه لم يهبط، على العكس ابتعد بحركة يمكن أن يقال إنها مقصودة، وذهب أخيراً ليستقر، لا على حافة الأسطوانة وإنما فى وسطها، وكان نشاز حاد، ارتد الذراع بعده إلى الخلف، ثم ارتفع من جديد، ومع صوت كفرقعة الأصابع عاد إلى مستقره ليستريح!

نزع «جيدو» الأسطوانة وفحصها على ضوء النافذة، كانت تلفانة، وفى مواضع محددة منها رأى خدوشا عميقة، لأول مرة تتوقف الآلية، وفى حيرة وضع أسطوانة أخرى، لكن الذراع فى هذه المرة ارتفع ثم انخفض عاديًّا، بدون أخطاء أزيد، وقد سأل «جيدو» نفسه وهو يستمع إلى الموسيقى: ماذا وراء موقف الحاكى الغريب، لكنه لحظ أن التفسير الفنى المحتمل لن يقنعه..

فى تلك اللحظة دخلت زوجه..

كانت تمسك بيديها ولديها، «بيرو» و «لوسيا»، كلاهما أصغر من خمس سنوات، ولهما وجهان ناعمان رقيقان وبخاصة «بيرو» الذى بدا كما لو كان صورة شمسية من جيدو والده، عندما كان فى نفس عمره، وقالت لهما هيا.. اذهبا فأعطيا والدكما قبلة، وبقيت فى منتصف الصالة، بينما الصغيران، مطيعين محترمين، جريا ليقفزا على ركبتى والدهما فاحتضنهما بدوره، وهما على صدره بين ذراعيه، تطلع من فوق رأسيهما المدورين إلى زوجه، ولاحظ، كما لو كان يراها لأول مرة، أنها طويلة نحيفة مسطحة جافة فارغة بفعل الولادة، فقدت كل سحرها الأنوثى، ولاحظ أيضاً أنها تضع نظارة، وأن أنفها ضارب إلى الحمرة شيئاً، وترتدى فستاناً أزرق واسعاً، وبلوزة من الصوف الأزرق

أكثر غمقاً، وبدا له فجاءة أن كل هذه التفصيلات لا بد أن يكون لها معناها الذاتى، شىء هكذا كتفصيلات الألغاز، التى تفسر عادة فى كلمة واحدة، لكن زوجه لم تمهله لكى يجدها، فنادته قائلة:

- هيا بنا.. هيا، لقد تأخرنا، وإذا انتظرنا أطول فقد نتعرض لخطر وجود الشوارع مليئة بالعربات!

ورد «جيدو»: هيا، وتابع زوجه، بينما عادت هي فأمسكت بذراعى ولديها من جديد.

كان سكنهما يقع فى الطابق الأول من عمارة جديدة فى شارع «باديولى» ويطل باب مدخله على حديقة صغيرة. ذات طريق مسفلتة، ومربعات مفروشة بالخزامى وأشجار مقصوصة، مدورة الشكل أو مثلثة، وعبرت الأسرة الحديقة، ثم خرجت إلى شارع ضيق ذى عمارات حديثة على جانبيه، غاص بالسيارات على امتداد طواريه، وسأل «جيدو» نفسه من جديد: أمن الممكن أن ينسى ما حدث هذا الصباح؟، وبينما رأسه ملىء بهذه الأفكار، أركب زوجه وطفليه السيارة، ثم أدار جهازها فتحركت، وهبطت مسرعة فى شارع «فلامينيا» عبر الجسر، وبدأ يجرى بها على امتداد نهر «التيبر» وهدف الرحلة بحيرة «ألبانو».

كان اليوم أحداً، يوم جميل كما لاحظت الزوجة، التى كانت تجلس في الخلف إلى جانب البنت، وقد أسفت.. أسفت فى عمق، لأنهما لن يستطيعا تناول غداءهما على الحشائش، فقد أمطرت السماء من قريب، ولا تزال الأرض رخوة بعد، ولم يجب «جيدو» على هذا بشىء، فاستمرت هى فى حديثها العادى، توجهه

بمهارة، مرة إلى الزوج، وأخرى إلى الأطفال بينما هو من جانبه ركز كل اهتمامه فى الشارع، الذى كان متضخماً كما هو دائماً وبأناس يتميزون اليوم بأرديتهم الأنيقة، مما يحتاج إلى تعقل أكثر فى القيادة، ومهارة فوق ما هو معتاد.

وبعد أن قطعت السيارة مسافة طويلة فى شارع «أنتجوا» تابعت سيرها فى شارع «نوفيا»، وكان «جيدو» يسير بسرعة عادية، غير عالية، حتى ولو بدا الشارع أمامه خاليا، وعيناه خلال ذلك كله، تلاحظان عديداً من الأشياء، كانت تبدو مسلية، ولكن معناها على الدوام كان يفلت منه: بريق النيكل لعربة سوداء تتبعه، البياض الجميل المتناثر من صهريج أسطوانى، نصف مختف بين أشجار ربيعية منسقة، الصفاء المنعكس من بعض البيوت، اللون الفضى لطائرة تهبط أفقيًّا عبر السماء، لكى تستقر على أرض المطار فى «شيابينو»، البريق الفجائى لنافذة كان يسقط عليها شعاع من شمس، طلاء الإشارات المرسوم فوق جذوع الأشجار على امتداد الشارع، كل هذه الأشياء البيضاء لامعة مشعة، تتناقض على نحو عنيف مع مجموعة كبرى من السحب الداكنة، تغزو السماء وتهدد بالقضاء على جمال اليوم، وتتناقض أيضاً مع الحقول الواسعة، غضة فى خضرة فاتحة أقرب إلى لون اللبن، وتكاد تصبح نشازاً فى عمق قاتم عاصف !

ومرة أخرى، سأل «جيدو» نفسه: ماذا يمكن أن يكون وراء هذه المتناقصات؟ لكنه لم يجد شيئاً، على الرغم من أنه متأكد أن ثمة شيئاً ما !

كانت الزوجة خلفه تتحدث إلى البنت، بينما جلس الابن بركبتيه على المقعد إلى جانبه، وشارك فى الحديث بين أمه وأخته، وكان صوت الطفلين طريًّا رقيقاً وهما يسألان، وصوت الأم هادئاً رزينا وهى ترد، يخفى على التأكيد أيضاً معنى ما، لكنه بالنسبة إليه، كان ككل الأشياء الأخرى، التى كان يلحظها شيئاً فشيئاً، لم يستطع أن يمسك به، على الرغم من أنه كان مقتنعاً بوجوده!

ثم سكت الطفلان، وفيما تلا ذلك من سكوت لاحظت الزوجة صمت «جيدو»، فسألته:

– ماذا حدث لك.. هل أنت قرفان ؟

– لا.. لست قرفانا.

– ولست منشرحاً على أى حال.

– متوسط.. مزاجى العادى.

– بالضبط، ذلك ما أقدره فيك أكثر، مزاجك المعتدل كما تقول، ولكنى أشعر أنك قرفان!

– ولماذا تحبين مزاجى المعتدل ؟.

– هكذا.. إنه يجعلنى أشعر بالأمن، أحس أننى فى رفقة رجل يمكن أن أضع فيه ثقتى كاملة.

– هذا الرجل.. هو أنا ؟

– نعم، أنت.

كانت تتحدث بهدوء فى موضوعية كما لو كانت شخصاً ثالثاً: أثق فيك لأنى أعلم أنك زوج طيب، وأب طيب، أعلم أننى معك

لا يمكن أن أتوقع مفاجآت ما، فأنت دائماً تعمل ما هو حق وعدل، وهذه الثقة تجعلنى سعيدة.

– هل أنت سعيدة معى ؟

– نعم..

وبدت كأنها تفكر لحظة مع تردد:

– نعم.. إننى سعيدة، يمكن أن أقولها بلا زيادة.. إننى سعيدة، لقد أعطيتنى كل ما أحب.. أسرة وأطفالا وحياة مرحة مطمئنة.. ألا يسرك أننى سعيدة معك ؟

وانحنت الزوجة، وبدأت تداعبه برفق فى حنان على مؤخر عنقه، ورد «جيدو» :

– نعم يسرنى..

فى تلك اللحظة كانت السيارة قد تركت شارع «نوفيا» إلى شارع «لوس لاجوس» مسرعة بين حقول خضراء، ترى فوقها هنا وهناك سحباً بيضاء صغيرة مرتعشة محمرة من ازدهار الأشجار المثمرة، فشجرة مصفرة إلى جانب بيت أزرق، ثم بعض أشجار بابلية، محملة الأغصان بزهور حمراء فى لون النبيذ.

وقال «جيدو»:

– لم أكن قرفانا، وإنما كنت أفكر فحسب، فى شىء حدث منذ قليل..

– أى شىء ؟

قص لها حكاية الأسطوانة، وعطل الحاكى الآلى، ثم أنهى حديثه: والآن.. فإن الأسطوانة تلفانة، لكنى لم أستطع بصفة خاصة أن أقنع نفسى، لماذا توقف الحاكى؟..

وقالت الزوجة منكتة:

بعض الآلات فيما يبدو، تتعب من كونها آلات، وتريد أن تظهر أنها ليست كذلك.

– نعم.. ربما كان الأمر من هذا القبيل!

كان الطفل ما يزال جالساً القرفصاء فى المقعد إلى جانب «جيدو» وسأل أمه فجأة عما إذا كانوا سيأكلون فراولة فى هذا اليوم، فردت عليه: لا توجد فراولة فى هذا الفصل من العام، الفراولة فاكهة والربيع على العكس من ذلك، هو فصل الزهور، أمر تستطيع أن تقتنع به إذا تطلعت إلى الحقول. استمع «جيدو» برهه لشرح زوجه، ثم قام بمحاولة أكثر ضعفاً وأخيرة، ليتذكر ما كان مقتنعا بوجوب نسيانه هذا الصباح، لكنه لم يتذكر شيئاً ربما كان موعد عمل لغد، الاثنين، يتصل بمهنته، على أى حال فى مكتبه دون كل شىء فى المفكرة، وسيكون من السهل التعرف عليه.

ثم وصل إلى الشارع الذى يمتد حول بحيرة «ألبانو»، لم يكن من الممكن رؤيتها بعد، لأنها كانت مختفية بين حدائق عزب كثيرة، وفى المنحنى بدأت تظهر قليلا قليلا ملحقاتها المبعثرة، مغطاة بسطح كثيف من الخضرة الغامقة، ثم تحت إلى أسفل، كما لو كان فى عمق قمع، كانت البحيرة ساكنة مظلمة، بينما ضفافها العالية والسماء المسحبة، تنعكسان عليها فى ظلال متباينة.

نظر إليها «جيدو» فى احتقار، ثم عاوده الشعور من جديد بأن معنى ما يختفى وراء هذه التفصيلات العديدة المتكررة، وفى نفس اللحظة كان يبدأ الطريق صاعداً، فغير السرعة من الرابعة إلى الثالثة، وفى قمة المطلع كان يرى روشنا معلقاً فى السماء، ويظن أن وراءه هوة يبلغ طولها عدة مئات من الأمتار.

ومر «جيدو» فجاءة بإحساس من يخرج من كهف إلى سطح الأرض، إحساس من يخرج من هواء ناعم ساكن إلى آخر صاف منعش، وعرض له إلى جانب ذلك تفكير دقيق، أن يدفع سيارته بكل سرعتها فى ذلك الفراغ الذى يتنهد هناك بعيداً وراء المطلع، وأن يرمى بنفسه فى البحيرة مع زوجه وابنيه، سوف تقفز السيارة مائة متر أو مائتين، وتسقط مباشرة فى الماء، ومعها سيكون الموت فوريًّا !

وتساءل «جيدو»: أبغضه لأسرته هو الذى أوحى إليه بمثل هذا التفكير؟، لكنه ما لبث أن لحظ أن الأمر ليس كذلك بل بدا له على العكس، إنه لم يحبهم فى حياته يوماً كما يحبهم الآن، فى اللحظة التى يرغب فيها أن يقضى عليهم، ولكن.. أكان ذلك تفكيراً حقًّا، أم أنها محاولة؟.. محاولة لا تكاد تقاوم كحلو مميت متشبث مفترس، يشبه ما توحى به تقوى لا تريد أن تظل عاجزة!

وانحرفت السيارة نحو الشمال حتى احتكت بحافة الطريق، صاعدة فى سرعة نحو الروشن، وما إن تجاوزت النقطة الأكثر ارتفاعا، حتى وجد «جيدو» نفسه أمام حقل صغير لم يكن يتوقعه، وأنه قد ترك الهوة وراءه وأن الفرصة قد فاتت، فالوقوع فى الفراغ

شيء طبيعي، أما الانحراف للوقوع فيه فجريمة، وتوقف «جيدو»، وضع فرامل اليد، وظل عاريًا من أى شعور محدد، كل ما هنالك كان يبدو له، أنه ترك الهواء المنعش ليواجه الهواء الناعم الساكن، وقالت الزوجة وهى تهبط من العربة، لقد صنعت طيباً عندما توقفت هنا هيا نلقى نظرة على سطح البحيرة.

عندما كان الأربعة على حافة الروشن منحنين يتأملون البحيرة، تذكر «جيدو» فجاءة كل ما كان قد نسى من قبل.. فى هذا الأحد يقع عيد زواجه، ولقد تناقش حوله مع زوجه في الليلة السابقة، بعد أن نام الطفلان، ثم تقررت هذه الرحلة خصيصاً.. احتفالا بهذا اليوم !

[قصة إيطالية]

فهـــرس

صفحة

صفحة

كتب أخرى للمؤلف

- **امرؤ القيس (حياته وشعره)**

الطبعة الخامسة دار المعارف، القاهـرة ١٩٨٥

- **دراسة فى مصادر الأدب.**

الطبعة السادسة دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥

- **ملحمة السيد: دراسة مقارنـة.**

الطبعة الثالثة دار المعارف، القاهـرة ١٩٨٣

- **مع شعراء الأنـدلس والمتنبى.**

ترجمة أمينة لكتاب المستشرق الإسبانى غرسيـة غومث الطبعـة الخـامسة دار المعارف القاهرة ١٩٩٢

- **بابلو نيرودا: شاعـر الحب والنضال.**

كتاب روز اليوسف، القاهرة، يونيـة ١٩٧٤ (نفـد).

- **دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامـة.**

الطبعة الرابعة — دار المعارف، القاهـرة ١٩٩٢

- **تحقيق طوق الحمامة لابـن حـزم.**

الطبعة الرابعة — دار المعارف، القاهـرة ١٩٨٥

- **الأدب المقارن: أصوله وتطوره ومناهجـه.**

دار المعارف، القاهرة ١٩٨٨.

- **دراسات أندلسية: فى الأدب والتاريخ والفلسفـة.**

الطبعة الثالثة دار المعارف، القاهـرة ١٩٨٧

• الشعر العربى المعاصر: روائعه ومدخل لقرائه.
الطبعة الرابعة دار المعارف، القاهرة ١٩٨٨

• الفن العربى فى إسبانيا وصقلية.
للمستشرق الألمانى فون شاك، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥

• الحضارة العربية فى إسبانيا.
للمستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥

• التربية الإسلامية فى الأندلس.
للمستشرق الإسبانى خوليان ريبيرا، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٠

• الأخلاق والسير لابن حزم.
تحقيق وتقديم وتعليق الطبعة الثانية دار المعارف، القاهرة ١٩٩٢

• الشعر الأندلسى فى عصر الطوائف.
للمستشرق الفرنسى هنرى بيريس، دار المعارف، القاهرة ١٩٩١

• الشعر العربى فى إسبانيا وصقلية، من البداية حتى النهاية
للمستشرق الألمانى فون شاك – الجزء الأول ، دار المعارف ، ١٩٩١

• مناهج النقد الأدبى، ترجمة، دار المعارف ١٩٩٢

• مقدمة في الأدب الإسلامى المقارن ١٩٩٥.
تحت الطبع :

• الحب عند دانتى وابن حزم
دراسة مقارنة مع ترجمة كتاب الحياة الجديدة لدانتى.

رقم الإيداع	١٩٩٨/١٤٨٠٨
الترقيم الدولى 977-02-5647-1	ISBN

١/٩٨/٦٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)